فى الأدب المقارن
ومقالات أخرى

تأليف
فخرى أبو السعود

إعداد
جيهان عرفة

تقديم
د. محمود على مكى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧

فى الأدب المقارن
ومقالات أخرى

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

ليتنى شتى شخوص أغتدى
سالكا فى العيش أشتات الجهات

لى هنا هم ونصبى ها هنا
غرض أسعى له فى غدواتى

اجتبى فنا وفنا ذائقا
من فنون العيش شتى المتعات

عالما طورا وطورا كاتبا
وصناع الكف موفور الأداء

عائشا فى كل قوم رائدا
كل جدب قارعا كل صفاة

نائلا من كل أمر لبه
حائزا شتى السجايا والصفات

فخرى ابو السعود

العدد (٨٣)

مجلة الثقافة ١٩٤٠

الفهــــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الرومانسية والكلاسيكية	
في الأدبين العربي والانجليزي	١٨٩
الحــرب	
في الأدبين العــربي والانجليزي	١٩٦
الطيران والحيوان	
في الأدبين العــربي والانجليزي	٢٠٤
الذاتي والموضوعي	
في الأدبين العــربي والانجليزي	٢١٢
الشعر والنثر	
في الأدبين العربي والانجليزي	٢٢٠
التطور الفني	
في الأدبين العــربي والانجليزي	٢٢٨
القصص	
في الأدبين العــربي والانجليزي	٢٣٥
أثر المجتمع	
في الأدبين العــربي والانجليزي	٢٤٢
الوصف	
في الأدبين العــربي والانجليزي	٢٥١
الخيــال	
في الأدبين العــربي والانجليزي	٢٥٩
التــاريخ	
في الأدبين العربي والانجليزي	٢٦٦
بيئات الأدباء	
في الأدبين العربي والانجليزي	٢٧٢
المعنى والأســلوب	
في الأدبين العربي والانجليزي	٢٧٩
أثر الأخلاق	
في الأدبين العربي والانجليزي	٢٨٧

الموضوع | الصفحة

مدخـــــل

هناك الكثير من الشخصيات التى أثرت الحياة الفكرية والأدبية فى النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت لها اسهامات كبيرة فى تشكيل عقل ووجدان القارىء المصرى ، ومع ذلك لم تحظ بشهرة واسعة فى حياتها ، وسرعان ما طواها النسيان بعد موتها · ومن بين هؤلاء كان الشاعر والناقد « فخرى أبو السعود » · والحق أن أول من جذب اهتمامى كان مقالا للكاتب الكبير رجاء النقاش فى أهرام ١٩٩٥/١٠/٢ بعنوان « شاعر ينتحر » ، وفيه طالب رجاء النقاش بجمع مقالات فخرى أبو السعود فى الأدب المقارن والتى نشرها فى مجلة الرسالة منذ عام ١٩٣٤ وحتى عام ١٩٣٧ · ولقد تحمست كثيرا لهذه الفكرة ولم أكتف بالبحث عن تلك المقالات بل رحت أقلب فى كثير من المجلات الثقافية التى كانت تصدر فى تلك الفترة مثل الهلال وأبوللو والثقافة والمقتطف وذلك للتعرف على صدى تلك المقالات لدى أدباء جيله ، ولكن لم أعثر على مقالة واحدة أو حتى رأى فى بريد القراء يشتبك مع مقالاته مع أن تلك الفترة كانت تموج بمعارك أدبية حقيقية حينا ومختلقة أحيانا ، ولكن الصمت التام كان نصيب تلك المقالات· وتساءلت هل يرجع ذلك لشخصية فخرى أبو السعود حيث كان حاد الطباع لا يطيق النقد كما وصفه صديقه الأستاذ أحمد فتحى مرسى فى مقالة عنوانها « فخرى أبو السعود » نشرها فى مجلة الرسالة بعد وفاته بأسابيع قليلة · أم لأنه كان يطرق مجالا جديدا فى الأدب العربى عرف بعد ذلك باسم الأدب المقارن ويرجع له اشاعة مصطلح « الأدب المقارن » فى المقارنة بين أدبين بمقالاته التى تزيد عن الأربعين مقالة والتى طرحت العديد من الاشـــكاليات فى تفسير الأدب العربى عند مقارنته بالأدب الانجليزى مما ينم عن معرفة واسعة لمبدع ومفكر كبير ، وقد ساعد على أن تمتد مساحات الصمت بعد وفاته ، أن مدرسة دار العلوم حينما قررت تدريس هذا الفرع من الأدب أرسلت البعثات الى فرنسا وبذلك طغى المنهج الفرنسى فى الأدب المقارن ، وهو منهج يقوم على مبدأ التأثير والتأثر الذى يفترض الاتصال التاريخى بين الأدبين ، وليس على مقارنة الجماليـــات ،

كما كان يقارن « فخرى أبو السعود » . وبذلك أغلق الباب تماما على مقالاته .

وقد قررت مدرسة دار العلوم تدريس مادة « الأدب المقارن » فى عام ١٩٣٨ أى بعد أن أتم فخرى أبو السعود مقالاته فى مجلة الرسالة بعام واحد وأظن أن تلك المقالات كانت الباعث والدافع لأن يصبح « الأدب المقارن » قسما ضمن أقسام مدرسة دار العلوم والذى كان يرأسه « مهدى علام » آنذاك والغريب أن فخرى أبو السعود لم ينتدب بالتدريس فى هذا القسم ودرس به أحمد خاكى الذى تبع فخرى أبو السعود فى استخدامه لمصطلح « الأدب المقارن » فى مقالات نشرها فى مجلة الثقافة فى نفس الفترة . وربما يكون فى نشر هذه المقالات اليوم مما يثير حولها المناقشات والآراء التى حرمت منها آنذاك وخاصة أن كثيرا من قضاياها لا يزال حيا وفعالا حتى يومنا هذا .

وقد رأيت أن أخصص قسما من الكتاب للمقالات التى كتبها فخرى أبو السعود فى قضايا مختلفة والتى نشرها فى مجلتى الثقافة والهلال منذ عام ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٠ بحيث يكون هذا الكتاب جامعا لكل الآثار الأدبية المتبقية من فخرى أبو السعود ، عدا أشعاره التى أشار رجاء النقاش اليها وأنها قد جمعت فى كتاب نشره د. على شلش رحمه الله . كما أضفت تلك المقالات القليلة التى كتبها أصدقاؤه بعد حادثة انتحاره ، وهى الضوء الوحيد الخافت الذى يكشف لنا جانبا من حياة هذا الأديب الكبير وشخصيته التى لا تزال جوانب كثيرة منها غامضة . وقد أضفت بيانا كاملا بكل تلك المقالات وتواريخها وأماكن نشرها فى المجلات المختلفة حتى يعود اليها القارىء المهتم .

وقد راعيت فى اعداد هذه المقالات أن أضيف فى هوامشها معانى الكلمات التى يحتاج اليها القارىء غير المتخصص وطالب الجامعة ليتواصل معها . وفى النهاية ، أشكر الأستاذ د. محمود على مكى على قبوله متحمسا تقديم هذه المقالات .

جيهان عرفة

تقـــديم

كانت حياته كالشهاب الخاطف ، لم يكد يومض حتى انطفأ ولفه الظلام ٠٠٠ ولم تكد مخايل نبوغه تلمع مبشرة بطلوع نجم فى فلك الأدب والنقد حتى اختضر الموت عوده وهو فى نضارة الشباب ٠٠٠ وكان الرزء فيه كبيرا لو أنه قضى نحبه مثل سائر البشر لأجل مكتوب لا مرد له ولا مفر منه ، ولكن الفاجعة فيه كانت أكبر وأوقع ، حينما اختار الموت بمحض ارادته ، فأنهى حياته بيده ٠

كان هذا هو المصير المأساوى الذى اختطه لنفسه فخرى أبو السعود وهو يستقبل أولى سنى العقد الرابع من عمره ٠٠٠ فاذا أردنا أن نترجم له لم نجد الا بضعة سطور لا تتسع لأكثر منها حياته التى اختصرها بنفسه فلم يجاوز بها الثلاثين من عمره الا بعام واحد ٠

كان شاعرنا الجاهلى زهير بن أبى سلمى يقول وهو يتحدث عن مللِه طول العمر :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين عاما لا أبالك يسأم

ويقال ان فخرى أبو السعود كتب وهو يستدعى ملك الموت طائعا مختـــارا :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثلاثين عاما لا أبالك يسأم

(١)

ولد فخرى أبو السعود فى بنها سنة ١٩٠٩ وتخرج فى مدرســة المعلمين بالقاهرة سنة ١٩٣١ ، وكان تفوقه فى دراسته هو الذى حمل وزارة التعليم على ايفــاده فى بعثــة الى انجلترا ، فقضى هنــاك سنتين (١٩٣٣ و ١٩٣٤) عاد بعدهما الى أرض الوطن ومعه زوجة بريطانية ،

واشتغل بالتدريس في المعاهد الثانوية ، وأنجبت له زوجته ولدا ، فعاش سعيدا في الاسكندرية مع هذه الأسرة الصغيرة التى ملأت عليه حياته • ومضت سنوات نعم فيها بهذه الحياة الهادئة المستقرة الى أن نشبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ فسافرت زوجته ومعها ولدها لزيارة أهلها • وحالت الحرب دون عودتهما ، ثم علم بوفاة ابنه غريقا ، وانقطعت عنه أخبار الزوجة ، فاذا بالحياة تظلم في عينيه ، ويستبد به اليأس ، وتضطرب أعصابه ، فيقدم على الانتحار مطلقا النار على رأسه من مسدسه في حديقة داره ••• كان ذلك في صبيحة يوم خريفى فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٤٠ •

وهكذا مضت حياة هذا الأديب فى غضاضة الشباب على حين كانت الأوساط الأدبية تتوسم فيه مستقبلا واعدا بجلائل الأعمال ، وكان خليل مطران كان يومىء اليه وهو يرثى أديبا مثله ساقه اليأس الى الانتحار :

فى ذمة الله وفى عهده	شبابه الناضر فى لحده
لهفى عليه يوم جاش الأسى	به وفاض الحزن عن حده
واكتسح الآمال منثورة	كالورق الساقط عن ورده
باغته اليأس وأى امرىء	يقدر فى حال على رده
واها لمبكى على فضله	مفتقد الآداب فى فقده
مات مرجى فى اقتبال الصبا	يا خيبة الدنيا ولم تفده

ومع قصر هذه الحياة التى عاشها فخرى أبو السعود فقد استطاع أن يقدم خلال سنواتها القليلة انتاجا فكريا وفنيا يروع بغزارته وجودته ، فقد كان شاعرا مرهف الحساسية ، غير أن الشعر لم يصرفه عن البحث العلمى الذى جمع فيه بين الاستيعاب العميق للتراث الأدبى العربى والاطلاع الواسع على الآداب الأجنبية ولا سيما الأدب الانجليزى ، وهو ما تكشف عنه سلسلة المقالات التى نقدم لها بهذه السطور ، وترجماته التى نذكر منها نقله لرواية « تس سليلة دوبرفيل ، Tess of the « D'Ubervilles وهى تعد أحسن ما كتبه الروائى الانجليزى توماس هاردى Thomas Hardy (١٨٤٠ ـ ١٩٢٨) ، وفيها يقص علينا حكاية تلك الفتاة الطيبة الشجاعة التى تنتهى بها المواضعات الاجتماعية وقواعد السلوك الصارمة بطغيانها الغاشم الى الموت • وله بجانب ذلك كتاب ألفه عن « الثورة العرابية » ونشر سنة ١٩٣٤ ، وثلاثة كتب أخرى لا تزال

مخطوطة أحدها عن الخلافة السياسية والثاني عن الشاعر محمود سامي البارودي ، والثالثة في التربية والتعليم .

- ٢ -

حينما نتأمل مسيرة ثقافتنا المصرية وعلاقتها بالثقافة الغربية خلال العصر المعروف باسم « الاحيـاء » أى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين فاننا نلاحظ أن توجه المثقفين المصريين كان فى البداية الى فرنسا. وكان ذلك أمرا طبيعيا فقد كانت فرنسا منذ القرن الثامن عشر هى مركز الاشعاع فى القارة الأوربية . وأضيف الى ذلك عامل سياسى كان له تأثيره الفعال ، فقد كان التنافس على أشده بين فرنسا وبريطانيا العظمى وهما القوتان الأوربيتان الكبريان اللتان كانتا تتنازعان السيطرة على العالم . ومنذ أن ابتليت مصر بالاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ وبدأ الشعب المصرى كفاحه فى سبيل الاستقلال — اتخذت فرنسا موقفا مؤيدا لهذا الكفاح متعاطفا مع زعمائه . ولم يكن هذا الموقف راجعا الى حرص أيديولوجى على مبادىء حقوق الشعوب فى الحرية والاستقلال ، اذ كانت أطماع فرنسـا الاستعمارية لا تقل ضراوة عن أطماع انجلترا ، وانما كان موقفا أملاه ذلك التنافس على حكم البلاد المستضعفة . ومع ذلك فلم يكن أمام زعماء الحركة الوطنية خيار ، فرأينـاهم يطمعون فى أن تعينهم فرنسا فى كفاحهم ، وهكذا ظلوا يتوافدون على فرنسا متخذين منها منطلقا لدعوتهم ومركزا لمنشوراتهم . كان هذا هو ما قام به جمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد .

ولم يختلف موقف الأدباء عن موقف زعماء السياسة ، فقد كانت فرنسا هى محط أنظـارهم يفدون عليها فيتعلمون لغتهـا ويعملون على استيعاب أدبها . فهذا هو شوقى يقضى مدة بعثته فى فرنسا باشارة من موفده الخـديو محمـد توفيـق الذى يوصيه « بأن يقتبس من الآداب الفرنساوية قبسا تستضىء به الآداب العربية » ، ويعود شوقى الى مصر فيصرح بشغفه بثلاثة من شعراء الرومانسية الفرنسية كاد « يفنى فيهم » ، وهم : ألفريد دى موسيه (ت ١٨٥٧) ولامارتين (١٨٦٩) وفيكتور هوجو (١٨٨٥) . وحافظ ابراهيم على الرغم من قلة حظه من الثقافة الفرنسية يترجم — بقدر ما وسعت له معرفته — رواية « البؤساء » لفيكتور هوجو ، وخليل مطران ثالث شعراء الاحيـاء يتقن الفرنسية فى لبنان ، ويدرس الآداب الفرنسية فى باريس قبل أن يعود الى مصر ، فيترجم عـددا من روايات شـيكسبير ، ولكن لا عن الانجليزية وانما عن ترجمـة وسيطة

فرنسية • واسماعيل صبرى يستكمل دراسته للحقوق فى فرنسا • والذى نقوله عن الشعراء ينسحب أيضا على الناثرين فمحمد المويلحى يلحق بجمال الدين الأفغانى فى باريس ، وهناك يتقن الفرنسية ويصادق بعض الأدباء الفرنسيين مثل أليكساندر ديماس (الابن) (ت ١٨٩٥) • ومصطفى لطفى المنفلوطى يعرب عن الفرنسية على الرغم من معرفته المحدودة بها روايات لبرناردان دى سان بيير (ت ١٨١٤) وأليكساندر ديماس (١٨٩٥) وادمون روستان (١٩١٨) •

على أن الأمر يختلف بعد ذلك منذ أوائل القرن العشرين ، فقد ظلت انجلترا حتى ذلك الوقت،وعلى الرغم من احتلالها لمصر على مدى السنوات العشرين الماضية ، لا تتدخل بشكل مباشر فى نظام التعليم المصرى ، على أنها بعد ذلك غيرت سياستها فشرعت فى فرض اللغة الانجليزية على المدارس المصرية وشيئا فشيئا أصبحت مواد الدراسة أو معظمها تدرس بهذه اللغة على حين تضاءل دور اللغة العربية وانكمش الى حد بعيد • وكان ساسة الاستعمار البريطانى قد فطنوا الى أن اللغة العربية هى قوام الوطنية المصرية ، فحاولوا اضعافها بشتى الوسائل : بدءوا بالدعوة الى احلال العامية المصرية محلها فى أواخر القرن الماضى • وكان المبشرون بهذه الدعوة ويلهلم سبيتا والمهندس ويلكوكس وكارل فولرز • ولم تجد الدعوة الى العامية قبولا ، فاستبدل الاستعمار بها دعوة أكثر مباشرة وأشد صرامة وعنفا ، وهى جعل الانجليزية لغة التعليم•ولعل كثيرا من المصريين الذين لا يشك فى وطنيتهم لم يروا بأسا فى ذلك ، عملا بالمقولة المأثورة : « تعلموا لغة قوم تأمنوا مكرهم » واعتقادا بأن تعلم لغة المستعمرين وتعرفا لثقافتهم وأوضاعهم يجعلهم أقدر على محاربتهم بمثل سلاحهم •

وكان للعامل السياسى أيضا دوره فى ذلك التحول الى الثقافة الانجليزية ، فقد خاب أمل الوطنيين المصريين فى فرنسا ، وفقدوا ثقتهم فيما كانوا يعلقون عليه الآمال فى تأييدهم لقضيتهم منذ أن عقدت مع بريطانيا « الاتفاق الودى » (سنة ١٩٠٤) الذى أنهى التنافس بين الدولتين بعد أن اتفقتا على تقسيم العالم العربى بينهما ، فانفردت كل منهما بمجموعة من الأقطار تصبح منطقة نفوذ لها •

وهكذا رأينا الجيل الذى تلا الرعيل الأول من رواد النهضة يقبل على الثقافة الانجليزية ، وتتحول البعثات الى انجلترا وان لم يعن ذلك انقطاعا لتأثير الثقافة الفرنسية التى ظل لها حضور ماثل فى تكوين شباب المثقفين ، الا أنه تقلص بعض الشىء بحكم مزاحمة الثقافة الانجليزية •

ولحسن الحظ لم تفلح سياسة الانجليز التعليمية فى اقصاء اللغة العربية عن وجدان المصريين ، فقد كان الربع الأول من القرن العشرين هو الذى تصاعد فيه مد الحركة الوطنية المتمسكة بلغتها وثقافتها ، كما رافق ذلك حركة واسعة لنشر التراث العربى والعناية به ٠

ومن هنا برز جيل جديد استطاع أن يحذق الانجليزية ويحسن الاطلاع على ثقافتها وأدبها ، ولكن بغير أن يدير ظهره لثقافته العربية الأصيله ، بل جمع بين الثقافتين على نحو جدير بالاعجاب ، وكان تعمق هذا الجيل لآداب الانجليز خيرا وبركة على أدبنا العربى ، اذ غذاه بروافد اثرته ووسعت من آفاقه ، وأفسحت الفرصة له لكى يستفيد مما احتوته هذه الثقافة من تجارب فكرية ونقدية ٠ وكان أبرز أعلام هذا الجيل الجديد هم : عباس العقاد وابراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى ، وهم الذين تألفت منهم الجماعة المعروفة باسم « مدرسة الديوان » ٠ أما العقاد فقد كان رجلا عصاميا استطاع أن يستوعب الثقافة الانجليزية معلما نفسه بنفسه ، وأما صاحباه فقد تخرج كلاهما من مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٠٩ ، واشتغل كلاهما بالتدريس فى المعاهد الثانوية ، وكان شكرى قد أوفد فى بعثة الى انجلترا ، فازدادت صلته بالأدب الانجليزى ، ولم يقيض ذلك للمازنى وان لم يقل عن صاحبه اطلاعا على هذا الأدب وتمكنا منه ٠ والطريف أن هؤلاء الثلاثة كانوا من أكثر أدباء عصرهم اقبالا على تراث الأدب العربى وأعمقهم دراسة له ، حتى انهم أصبحوا أول رواد لتجديد الشعر العربى بعد جيل الاحيائيين ، وكانوا يجمعون بين الابداع فى مجالى الشعر والنثر والنهوض بأقوى حركة نقدية فى مطلع هذا القرن ، ولعلهم خير نموذج يبرز فضل الجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية ، ويبين أن التعمق فى آداب الغير لا يعنى التنكر للتراث ولا القطيعة مع أدب الأسلاف ٠

وقد أشرنا الى أن اثنين من هؤلاء الرواد تخرجا فى مدرسة المعلمين العليا ، وقد كانت من المعاهد التى قصد بها المهيمنون الانجليز على سياسة التعليم المصرى أن ينسلخ المتخرجون فيها عن ثقافتهم العربية ، فقد كانت المواد فيها تدرس بالانجليزية ، وكانت تعنى عناية خاصة بتدريس الأدب الانجليزى وتقدم لطلابها خير نماذج هذا الأدب ، غير أن المفارقة الطريفة كانت فى أن كثيرا من خريجى هذا المعهد ممن قدر لهم أن يضطلعوا بالتعليم فى المدارس الثانوية ، أصبحوا من أقوم الناس على ثقافتهم العربية وأحرصهم على النهوض بها ، والعمل على تجديدها بفضل ما استفادوه من تجارب فكرية ونقدية وفنية زودهم بها اطلاعهم على الأدب الانجليزى وغيره من آداب الغرب ٠

. . . .

الى الجيل التالى من هذه المدرسة ينتمى فخرى أبو السعود ، فقد ولد كما رأينا فى ذات السنة التى تخرج فيها فى مدرسة المعلمين العليا ابراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى (١٩٠٩) ، وكان تخرجه فى هذه المدرسة فى سنة ١٩٣١ وانخرط مثلهما فى سلك التعليم بالمدارس الثانوية ، وأوفد فى بعثة الى انجلترا حيث قضى نحو ثلاث سنوات استطاع خلالها أن يستوعب تاريخ الأمة الانجليزية وتاريخ أدبها ومذاهبها الأدبية والنقدية على نحو جدير بالاعجاب ٠

وشرع فخرى أبو السعود منذ عودته الى أرض الوطن فى مباشرة نشاطه فى الكتابة ، وكان من أول ذلك مقالاته التى نشرها فى مجلة « الرسالة » منذ يناير ١٩٣٤ حتى يونية ١٩٣٧ ٠

وأول ما نلاحظه على هذه المجموعة من المقالات هو أنه يمكن تصنيفها فى قسمين رئيسيين : القسم الأول يضم المقالات الست الأولى التى نشرت خلال السنتين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ٠ وفيها يعرض فخرى أبو السعود عددا من الملاحظات العامة حول الأدب العربى تاريخه وقيمته الفنية ، وآراؤه فيها مجملة ليس فيها تفصيل المقالات التالية ، ولكننا نحس منذ المقالة الأولى وهى عن « الأدب العربى والأدب الغربى » أن الهدف من عمله هو المقارنة بين الأدبين ، مصدرا منذ البداية حكما قاسيا على الأدب العربى ، اذ يصفه بأنه مقصر دون الأدب الغربى فى كثير من النواحى ، فقد سار دائما على نمط يكاد يكون واحدا ، ثم « كبا بعد العصر العباسى كبوة لم يقل منها الى اليوم ، وكان من عهدها الى العصر الحديث فى حكم العدم اذا قيس بآداب الأمم الرفيعة » ٠

وقد كانت هذه المقالة الأولى بمناسبة رواية خسرو وشيرين التى كان قد نشرها على صفحات « الرسالة » الأديب محمد فريد أبو حديد ، وقد كان هذا العمل وما أتبعه به أبو حديد من قصص من أمثال «الملك الضليل» و « سهراب ورستم » وغيرها جديرا بأن يثير اهتمام الأدباء والنقاد ، فهو يعد من أول من استخدم فى هذه القصص شعر التفعيلة غير الملتزم بالقافية ، وهو يعد بذلك من رواد هذا الشعر الجديد الذى شاع بعد ذلك استخدامه منذ منتصف هذا القرن ، والذى يعد أكبر ثورة فى تاريخ الشعر العربى بعد ابتكار الأندلسيين للموشحة فى أواخر القرن التاسع الميلادى ٠ ومع ذلك ، فمن الغريب أن ما قام به أبو حديد (١٨٩٣ - ١٩٦٧) من النظم على هذه الطريقة الجديدة لم يفجر - كما كان يتوقع - حركة

نقدية قوية . ولعل فخرى أبو السعود كان من القليلين الذين لفت نظرهم هذا الصوت الجديد المؤذن بثورة شعرية حقيقية . فاستحقت هذه المحاولة التي أطلق عليها اسم « الشعر المرسل » ثناء عريضا ، ومما يستحق التنويه في تعليق أبو السعود على هذا الابتكار أنه تنبأ في ذلك التاريخ المبكر بشيئين : الأول ـ ما سيقدر لذلك الشعر المرسل من « مستقبل باهر في العربية اذا عالجته الأيدى القديرة » والثاني ـ ما حذر منه من أنه « يجب أن ينصدى لتجديد الشعر العربى كبار الشعراء الذين عالجوا القريض سنين طوالا ومارسوا اللغة واستوعبوا ثروتها ... أما أن يتصدى لذلك الناشئون المتحمسون للتجديد على غير بصيرة فلن يأتوا الا بكل غث لا يؤدى أغراض الشعر العربى ولا يبقى على جمال هذا الشعر » . وكأن فخرى أبو السعود كان ينظر من حجاب الغيب الى مستقبل شعر التفعيلة، فقد استطاع أن يؤتى ثمراته الطيبة على أيدى كبار الشعراء المقتدرين من أمثال صلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب ونزار قبانى وأحمد عبد المعطى حجازى وعبد الوهاب البياتى وقلة غيرهم ، ثم أتت بعد ذلك أجيال من المتسورين على الأدب أورثهم الجهل والافتقار الى الموهبة جرأة ضارية ، فولغوا فى شعر التفعيلة ، آتين فيه بكل غث من القول ليس بينه وبين الشعر أدنى سبب ، وكان هذا هو ما حذر منه أبو السعود قبل أن يحدث بسنوات طوال .

ويتناول كاتبنا فى المقالات الثلاث التالية جوانب من الأدب العربى: التصوير فى الشعر ، والأثر اليونانى فى الأدب ، والقصة. ويصدر أحكاما على الأدب العربى فيها كثير من القسوة ، فهو يتهم الشعر العربى بالتقصير فى التصوير وان كان يستثنى بعض النماذج مثل بعض أوصاف امرىء القيس والمتنبى ، وينعى على الأدب العربى قلة ما استفاده من الاحتكاك بالأدب اليونانى ، الأمر الذى جعله يخلو من الأنواع الأدبية كالملحمة والفن المسرحى والأدب القصصى. وكلامه عن السلبيات يتسم بالتعميم . فمقالاته هذه لا تبدو دراسات متعمقة ، وانما هى خواطر أرسلها ارسالا ، وكأنه كان يعد العدة فى هذه الأثناء لجمع مادة نقدية وفيرة هى التى كان يستعد لطرحها بعد ذلك فى دراسات أكثر تفصيلا .

وفى المقالتين الباقيتين من هذا القسم ، وهما كل ما نشره خلال سنة ١٩٣٥ ، يبدأ فخرى أبو السعود فى عقد مقارنة شاملة بين الأدبين العربى والانجليزى بصفة خاصة . فيخصص المقالة الأولى لعدد من الظواهر المتماثلة فى الأدبين وقد حددها فيما يلى :

— العصر الجاهلى شبيه بعصر ما قبل اليزابث (من القرن العاشر حتى السادس عشر) وفيهما كان الأدبان جافيين ساذجى المعانى بعيدين عن الصنعة الفنية ·

— نهضة العرب بظهور الاسلام تشبه نهضة انجلترا فى عصر اليزابث حينما خرج الشعبان من عزلتهما وكونا امبراطوريتين عظيمتين فارتقى أدبهما ارتقاء عظيما ·

— انتشار اللغة العربية بحكم هذا الاتساع الكبير يشبه انتشار اللغة الانجليزية حتى أصبحت كلتاهما لغة عالمية للثقافة ·

— انسلخ من كل من الأمتين شعب استقل سياسيا لا ثقافيا : الأندلس عن الخلافة العباسية والولايات المتحدة عن انجلترا ، ولكن الزعامة الأدبية بقيت للأمة الأصلية ·

— تأثر الأديان بالدين : فالقرآن الكريم أثرى اللغة العربية وأدبها ، وترجمة الأناجيل ثبتت مفردات الانجليزية وأدخلت اليها ثروة لغوية جديدة ·

على أنه يسجل بعد ذلك أن أوجه التباين بين الأدبين أكثر بكثير من وجوه التماثل ·

وفى المقالة التالية من هذا القسم يعرض المؤلف مدى وجود النزعة العملية فى الأدبين ، وهو يعنى بهذه النزعة اتصالهما بالحياة اليومية الاجتماعية والسياسية فيلاحظ أن هذا الاتصال يسود الأدب الانجليزى على حين يكاد ينعدم فى الأدب العربى الذى كان فنا يكاد يكون منقطعا عن الحياة وذلك لأن المشتغلين به كانوا خدما للأمراء وأصحاب السلطان ، الأمر الذى أدى الى غلبة المديح على الشعر فى ظل ملكيات استبدادية لا مجال فيها لحرية الأديب أو المفكر ، وعلى عكس ذلك كانت الحياة الديمقراطية فى انجلترا هى العامل الأول فى اتسام الأدب بالنزعة العملية ، وكان العامل الثانى هو الطباعة التى جعلت الأدباء دائما على اتصال قوى بالمجتمع ·

- ٤ -

والقسم الثانى هو الذى يضم مقالات فخرى أبو السعود الست والثلاثين التى نشرتها «الرسالة» فيما بين سبتمبر ١٩٣٦ ويونية ١٩٣٧ · ومن الواضح أنه استعد لكتابة هذه المجموعة خلال السنتين السابقتين بقراءات أكثر استفاضة ومحاولات للتحليل أعمق غورا ، وان كانت نظرته لا تختلف فى جوهرها عما أجمله فى المقالات السابقة ·

وفي هذه المقالات عرض المؤلف لكثير من الموضوعات أبرز فيها وجوه الاختلاف بين الأدبين. وهو في كل هذه الموازنات يلح دائما على ما في أدبنا من سلبيات ووجوه نقص ، فالأدب الانجليزى هو الذى ترجح كفته دائما على حين تشيل كفة أدبنا العربى ، حتى انه يبلغ فى ذلك مبلغا لا يصل اليه بعض غلاة المستشرقين ممن كانوا ينعون على أدبنا ما ينسبونه اليه من فقر فى الفكر وضيق فى الخيال واهتمام ببهرج الألفاظ نأت بهم عن العناية بالمعانى والأخيلة . ولسنا فى حاجة الى التمثل بشواهد على هذه الحملة التى شنها على كثير من خصائص الشعر العربى التى كان يراها دون ما احتوت عليه أشعار الغربيين سواء منهم القدماء (الاغريق والرومان) أو المحدثون والانجليز على وجه الخصوص . وهو يرد هذا القصور فى الأدب العربى الى أسباب عديدة منها اختلاف الأصول العرقية. ففى المقالة الحادية والأربعين عن التشابه والاختلاف بين الأدبين يشير الى كون العرب أمة سامية ترعرع أدبها تحت سماء الصحراء ، والانجليز أمة آرية شاركت فى تراث الاغريق والرومان . وهى مقولة طالما رددها المستشرقون الغربيون من منطلق أيديولوجية عنصرية استعمارية . وفى المقالة السابعة والثلاثين وهى حول الوراثة وأثرها فى انتاج الأديب يقول : « للوراثة أثرها الواضح فى أدب ابن الرومى الذى جاء لانتمائه الى الروم ، مخالفا أدب غيره من فحول العربية فى النظرة الى الحياة والطبيعة وفى استقصاء المعانى وتوليدها » . فهو يرد تميز ابن الرومى فى تصوير الطبيعة والتعبير عن متع الحياة الى أصله الاغريقى .

وبعد ، فهل لنا أن نتهم فخري أبو السعود صاحب هذه الأحكام القاسية على الأدب العربى وما تطرق اليه من ادانة للنظام السياسى والاجتماعى للدولة العربية بعد صدر الاسلام بالتبعية للمستشرقين فى مطاعنهم على الأدب العربى الذى كان مرآة لحياة الأمة الاجتماعية والسياسية ؟

ان الانصاف يقتضى منا ألا نتسرع بالحكم ، اذ علينا أن نقوم آراء هذا الكاتب فى سياق الظروف السياسية والفكرية التى كانت تسود المجتمع المصرى فى الوقت الذى كتب فيه أبو السعود تلك المقالات . أما من الناحية السياسية فقد كانت البلاد تمر خلال أوائل الثلاثينيات بأزمة طاحنة ، فقد أعقب الغاء دستور سنة ١٩٢٣ أن تتابعت على الحكم وزارات من أحزاب الأقلية فرضت على البلاد من القيود على الحريات ما أدى الى غليان شعبى متزايد . وكانت البداية هى وزارة اسماعيل صدقى التى دمغها القضاء ووصمها بالطغيان والارهاب . وزاد الأحوال سوءا تعثر المفاوضات مع الحكومة البريطانية بسبب مماطلتها فى تحقيق مطالب

الشعب بالاستقلال وجلاء قوات الاحتـلال البريطانية · وكانت السلطة الاستعمارية لا تكف عن التدخل فى شئون البلاد متواطئة فى ذلك مع القصر الملكى الذى كان يسعى الى فرض حكمه المطلق · وأخيرا استطاعت حكومة الوفد أن تعقد مع انجلترا معاهدة ١٩٣٦ التى كانت على الرغم من عيوبها خطوة فى طريق الاستقلال ·

ومع هذا الصراع السياسى كان هناك صراع اجتماعى وفكرى بين التيار التقدمي الذى يسعى لتحرير الفكر وبين معاقل الرجعية والتخلف· لم يكن العهد بعيدا بمعركتى الفكر التنويرى اللتين نشبتا فى أواخر العقد السابق حول كتاب « الاسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، وكتاب « الشعر الجاهلى » لطه حسين ، واستمر هـذا الصراع خلال السنوات الاولى من العقد الثالث ، وكان من مظاهر سطوة الفكر الرجعى أن وزارة التعليم التى كانت تسمى « المعـارف » قد أسندت ما بين سنتى ١٩٣٠ و١٩٣٤ الى محمد حلمى عيسى أحد عتاة التزمت ، فكان مما قام به اغلاق معهـد التمثيل ، ومعارضة تعليم المرأة وايقـاف كل نشاط فنى بحجة الحفاظ على التقاليد ·

ازاء هذه الهجمة الرجعية كان على المفكرين المتحررين أن يشحذوا أسلحتهم وينعموا النظر لا فى حاضر أمتهم فحسب ، بل فى ماضيها أيضا لتعرف جذور التخلف الذى كنا نعانى منه فى كل مجالات الحياة السياسية والاجتمـاعية والفكرية · ومن هنا ظهـرت حركة هى ضرب من « النقد الذاتى » الذى يرى أن أول خطى الاصـلاح هو تشخيص ظواهر المرض وتحليل أسباب التخلف مهما كان ذلك مؤلما وموجعا · أما الطنطنة بأمجاد الماضى ورفع شعارات قومية غوغائية فانه لا يزيدنا الا ارتكاسا فى المحنة ، واغماضا للعيون عما يجب علينا علاجه من الأدواء ·

وتجلت مظاهر هذا التيار التنويرى فى عدد من الكتب والدراسات عمل فيها رواد التجديد الفكرى على طرح مشـكلات الحاضر فى صراحة لا تعرف الهوادة ، واعادة النظـر فى ماضينا كله بروح نقدية صارمة ، وتناولت هذه المراجعات كل جوانب الحياة ، وأخذ المفكرون والأدباء فى فحص تراثنا القديم وتحليله مبينين ما يحتوى عليه من قيم ايجابية يجدر بنا أن نستبقيها ، ومن نواقص سلبية يجب أن نميط عنها اللثام اذا أردنا أن نمضى فى طريق الاصلاح · ونذكر من هذه الكتب النقدية ــ على سبيل المثال « ثورة الأدب » لمحمد حسين هيكل ، و « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى طـرح فيه طه حسين مشروعا متكاملا للنهضـة الثقافية والتعليمية والتجديد الفكر والأدب حتى يمكن أن نلحق بالدول الراقية المتقدمة · وفى

كل هذه الدراسات نجد الحاحا على ابراز ما كان مجتمعنا يعانى منه من تخلف وجمود ٠

من هنا ينبغي ألا نستغرب تلك الأحكام التى أصدرها فخرى أبو السعود على التراث الأدبى العربى والتى تبدو لقسوتها جارحة مستفزة، فهى لا تعدو أن تكون من نوع ذلك النقد الذاتى الذى جرى على أقلام شيوخه من رواد التنوير الذين كان هدفهم الاصلاح والتجديد ٠ واذا كان قد اتهم الأدب العربى بقلة نصيبه من الخيال فانه لم يكن الناقد العربى الوحيد الذى قال بذلك ، بل شارك فى هذا الحكم نقادا ومبدعين تبوءوا مكانة رفيعة فى تاريخنا الأدبى الحديث ، مثل أحمد أمين الذى تابع فى كتابه « فجر الاسلام » المستشرق الانجليزى أوليرى على رأيه فى أن نصيب العرب من الخيال ضئيل ، وان كان قد خفف من مغالاة هذا المستشرق ٠٠ ونادى بهذا الرأى أيضا توفيق الحكيم الذى عزا الى ضيق الخيال العربى خلو أدبنا من الملحمة والفن المسرحى ٠ ولم تقتصر هذه المقولات على أدباء مصر ونقادهم ، بل رأينا شاعرا عربيا مبدعا هو أبو القاسم الشابى يفرد للخيال الشعرى عند العرب كتابا كاملا كان فيه أشد نكيرا على تراثنا من أحمد أمين وتوفيق الحكيم ، اذ وصف الخيال العربى بالبساطة والسذاجة، وكان قد عقد مقارنة بين عدد من النصوص الشعرية العربية فى وصف الطبيعة ونصين من الأدب العربى : أحدهما للألمانى جوته والآخر للفرنسى لامارتين وانتهى بعد المقارنة الى نتيجة هي أن « الخيال منشؤه الاحساس الملتهب والشعور العميق ، وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق فى قلب الطبيعة ، الا احساسا بسيطا ساذجا خاليا من يقظة الحس ونشوة الخيال » ٠ وهو حكم يشبه حكم فخرى أبو السعود حينما قارن بين نصيب الخيال من شعر سبنسر وتنيسون وكولردج من ناحية وشعر أبى العلاء المعرى ونثر مقامات بديع الزمان من ناحية أخرى ــ وهما أوسع أدباء العربية خيالا فى نظره ــ ، فانتهى الى أن الخيال عند أديبينا الكبيرين محدود ، فهو « شبيه بطيران الدجاجة الخفيف مقيسا بتحليق البازى الكاسر فى الأدب الانجليزى » ٠

ويرى فخرى أبو السعود فى المقالة الحادية عشرة التى يقارن فيها بين الأدبين فى وصف الطبيعة أن الشعر الانجليزى أغنى من الشعر العربى، اذ أن هذا الوصف يأتى غالبا عرضا فى ثنايا المديح ويمتلىء بالتشبيهات المكرورة الفاترة ، غير أنه يستثنى ابن الرومى من هذا الحكم ، فقد حفل شعره بوصف الطبيعة لذاتها ، ويعلل لهذه الظاهرة فى المقالة السابعة والثلاثين وهى حول بيئات الأدباء فيقول : « للوراثة أثرها الواضح فى أدب ابن الرومى الذى جاء ، لانتمائه الى الروم ، مخالفا أدب غيره من فحول

العربية فى النظرة الى الحياة والطبيعة وفى استقصاء المعانى وتوليدها » .
وهو حكم يوافق ما قاله العقاد فى كتابه عن ابن الرومى حينما وصف عبقرية ابن الرومى بأنها « عبقرية يونانية » وجعل من قرائن ذلك أنه « كان محبا للحياة فى خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذى عهدناه فى جمهة الفنون اليونانية » . على أن العقاد يخفف الوطء فلا يقطع بأنه « كان من سلالة اليونان » فذلك قول لا نجزم به ولا نجزم بنفيه » .

وهكذا نرى أن اصدار هذه الأحكام الصريحة على أدبنا العربى وقيمه مهما كان فيها من خشونة موجعة كان من سمات النقد خلال هذه السنوات. ففخرى أبو السعود لم يكن بدعا فيما كتبه عن الأدب العربى خلال مقارنته بالأدب الانجليزى .

- ٥ -

الأمر الآخر الذى يستوقف النظر فى مقالات فخرى ابو السعود هو أنه اتخذ لها منذ المقالة السابعة عنوانا فرعيا يضم شتات كل المقالات ويكون بمثابة عنوانها العام وهو « فى الأدب المقارن » . ويثير ذلك مسألة بداية هذا الفرع من فروع الدرس الأدبى فى عالمنا العربى .

الذى يتفق عليه الدارسون على الأقل فى مصر - أن بداية البحث الأدبى المقارن على أساس علمى منهجى كانت بكتاب الدكتور محمد غنيمى هلال - رحمه الله - الصادر فى سنة ١٩٥٣ بعنوان « الأدب المقارن » . وكان هلال قد عاد فى السنة السابقة من بعثته الى باريس وتولى منذ مطلع عام ٥٣ تدريس الأدب المقارن فى كلية دار العلوم . وكانت هذه أول خطوة فى سبيل استقلال هذا الفرع من فروع الدراسات الأدبية واسناد تدريسه لمتخصص فى التعليم الجامعى بمصر ، صحيح أن بعض الأساتذة الجامعيين قد سبقوا محمد هلال غنيمى الى تاليف كتب تحمل عنوان « الأدب المقارن » وتعرضوا فى تدريسهم لبعض قضايا هذا العلم ، ومنهم عبد الرازق حميدة والدكتور ابراهيم سلامة ، غير أن تلك المحاولات كانت تقوم على اجتهادات فردية لا تستند الى أساس علمى منهجى ولا تقوم على ادراك واضح لمفهوم الأدب المقارن ومناهج دراسته . وحول ذلك يقول الدكتور على عشرى زايد فى الكتاب التذكارى الذى صدر بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاة غنيمى هلال :

« من هنا نستطيع أن ندرك خطورة الدور الذى قام به الدكتور محمد غنيمى هلال رائد الدراسات الأدبية المقارنة فى العالم العربى ، والريادة

لا تعنى ـ من وجهة نظر هذا البحث ـ مجرد السبق الزمنى الى الاهتمام بهذه القضية أو تلك من قضايا العلم ، فذلك لا يعنى في النهاية شيئا ما لم يقترن بوضع أسس علمية صارمة وبلورة مفهوم علمي محدد يلتف حوله التلاميذ والمريدون ، ووضع مناهج علمية دقيقة لمعالجة قضايا العلم وظواهره ، وهذا هو بالتحديد ما قام به الدكتور هلال سواء فى مجال تدريس الأدب المقارن في جامعات مصر ومعاهدها ، أو في مجال تأليف الكتب والأبحاث النظرية والتطبيقية التى تحدد مفهوم هذا العلم وتبلور ملامحه ومناهجه ومجالات البحث فيه على أساس علمى متين » ٠

وكان محمد غنيمي هلال خلال سنوات بعثته في باريس قد تشرب المبادىء النظرية للمدرسة الفرنسية في الأدب المقارن ، وكانت هي المهيمنة على هذا الميدان آنذاك ٠ وظل هلال وفيا لمبادىء هذه المدرسة فى كل كتاباته ، وذلك بحكم تلمذته على فان تيجم ثم على فرانسوا جويار ، وهما صاحبا كتابين رئيسيين يحملان عنوان « الأدب المقارن » صدر أولهما فى سنة ١٩٤٦ وترجمه الى العربية سامى الدروبى ، وصدر الثانى فى سنة ١٩٥١ وترجمه الى العربية محمد غلاب ٠ فالواقع أن كتاب غنيمى هلال لا يعدو أن يكون نقلا لمادة هذين الكتابين فى تنظيرهما للأدب المقارن وان كان هلال قد أثرى كتابه بكثير من الدراسات التطبيقية المقارنة بين الأدب العربى وغيره من الآداب ٠

ومن أول ما يلفت نظرنا فى تحديد مجال الدراسات الأدبية المقارنة حسب مفهوم المدرسة الفرنسية التى التزم هلال بمبادئها هو أن مصطلح « المقارن » يجب أن يؤخذ بمعناه التاريخى اللغوى ، أى تناول العلاقات التاريخية للأدب القومى بغيره من الآداب خارج نطاق اللغة القومية التى كتب بها ، وأن هذه العلاقات تقتصر على التأثير والتأثر ، ولهذا فان هلال فى شرحه لمفهوم الأدب المقارن يحكم فى صرامة قاطعة بأنه يجب أن يستبعد من مجال هذا البحث « ما يعقد من مقارنات بين آداب ليست بينها صلة تاريخية » ٠

على أن المدرسة الفرنسية لم تعد منذ الخمسينيات من هذا القرن هى الوحيدة التى تفرض مفاهيمها على الأدب المقارن ، فقد ظهرت مدارس أخرى تختلف معها فى التنظير لهذا الأدب لعل أهمها المدرسة الأمريكية التى أعلن شيخها رينيه ويلك « تمرده » على المدرسة الفرنسية ، ورفضه النظر الى العلاقات بين الآداب القومية بمنطق الحسابات التجارية المتبادلة بينها « أخذا وعطاء ، تأثرا وتأثيرا » ٠ ومن هنا وسع دائرة الأدب المقارن

بحيث يدخل فيها رصدا لأوجه التشابه بين أدبين — أو أكثر — وان لم يثبت من الناحية التاريخية تأثير أحدهما فى الآخر ٠

وأود بهذه المناسبة أن أنوه بالدراسة النقدية الجادة التى قام بها الدكتور مجدى يوسف للمبادىء النظرية التى قامت عليهما المدرستان الفرنسية والأمريكية فى كتابه « التداخل الحضارى والاستقلال الفكرى » (القاهرة ١٩٩٣) ٠ ففى بحثه « نحو مدرسة عربية أصيلة فى الأدب المقارن » أعلن اعتراضه على كلتا المدرستين ، أما الفرنسية فلما لها من نزعة قومية واضحة كانت موضع رفض من قبل رينيه ويلك الذى راى أن يستبدل بها وحدة « الانسانية » فى الأدب ٠ غير أن « انسانية » ويلك — كما أوضح مجدى يوسف — لا تتكشف الا فى الأدب الغربى الأوربى الأصل ٠ ومن هنا كانت دعوة باحثنا المصرى الى التخلص من نفوذ تلك المفاهيم الغربية سواء أكانت فرنسية أم أمريكية ، فهى على الرغم من اختلافها الظاهرى تتفق فى جوهرها ، والأخذ بها بحذافيرها لا يعنى الا استدامة لهيمنة الثقافة الغربية على ثقافتنا ٠

— ٦ —

ونعود الى مقالات فخرى أبو السعود ، فنرى أنها بمنطق المدرسة الفرنسية تخرج عن مجال الأدب المقارن ، اذ أنها ليست الا رصدا لأوجه الشبه والخلاف بين الأدبين العربى والانجليزى ٠ ولنذكر أن التشابه لا يبرز الا بمقابلته بالاختلاف ٠ وقد كان أبو السعود أكثر عناية بوجوه الاختلاف منه بوجوه التشابه ٠ وقد كان حريصا على أن يبين أنه لم تقم بين الأدبين أية علاقة تاريخية بوجه من الوجوه ٠

على أننا اذا أخذنا بمنطق المدرسة الأمريكية القائلة بانسانية الأدب وعالميته — بمفهوم انسانى حقيقى لا على النحو الذى طرحه ويلك — فان دراسة فخرى أبو السعود تكتسب مشروعية كاملة فى انتمائها الى الأدب المقارن ، والطريف فى الأمر ان كاتبنا المصرى كان على وعى كامل بهذا المفهوم قبل أن يبلغ العقد الثالث من عمره وقبل أن ينادى ويلك بنظريته بأكثر من عشرين سنة ، وذلك حينما اتخذ عنوانا شاملا لمقالاته هو « الأدب المقارن » ٠

وقد يقال حول أسبقية استخدام هذا المصطلح ان أول مستعمل له كان خليل هنداوى الذى نشر فى مجلة « الرسالة » بحثا على أربع حلقات خلال شهر يونية ١٩٣٦ (فى الأعداد ١٥٣ — ١٥٦) وكان عنوان هذا

البحث « ضوء جديد على ناحية من الأدب العربى : اشتغال العرب بالادب المقارن » ، ثم يفسر هذا المصطلح الأخير بقوله أو ما يدعوه الفرنجة Littérature Comparée • ويدور البحث حول تلخيص الفيلسوف العربى أبى الوليد ابن رشد لكتاب أرسطو فى الشعر • وبمقارنة التواريخ ترى أن خليل هنداوى قد سبق أبا السعود حقا باستخدام المصطلح ، غير أن هذا السبق كان ضئيلا للغاية ، فهو لا يتجاوز شهرين ، اذ بدأ أبو السعود فى جعله عنوانا لمقالاته منذ شهر سبتمبر من السنة ذاتها (١٩٣٦) • ثم ان مقالات هنداوى وهى تتجاوز اربعا تتناول موضوعا مطروقا معروفا هو ترجمة فيلسوف عربى لأثر من آثار الثقافة الاغريقيه ، ولا مجال للموازنة بين جهد هذا الباحث وما اضطلع به فخرى أبو السعود فى مقالاته الاثنتين والأربعين التى قدم لنا فيها مقارنات ضافية بين الأدب العربى وأدب الانجليز •

★★★

وبعد ، فاننا اذ نقدم هذه الباقة من مقالات فخرى أبى السعود مجموعة بين دفتى كتاب واحد فانما نستحيى بذلك أثرا رائعا من تراث ادبنا النقدى استطاع صاحبه أن يتبوأ منزلة الريادة فى ميدان جديد من ميادين الدرس الأدبى وهو لم يناهز بعد الثلاثين من عمره ، وكان جديرا بأن يثرى الحياة الأدبية والنقدية بمزيد من الدراسات لولا يد الموت القاسية التى قضبت شبابه وهو فى عمر الزهور •

مصر الجديدة فى ١٥ سبتمبر ١٩٩٦ ••

د• محمود على مكى

أستاذ الأدب الأندلسى والمغربى (المتفرغ)
بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة
وعضو مجمع اللغة العربية

• يتبع

أولا : في الأدب المقارن

على ذكر رواية خسرو وشيرين

لا ريب فى أن الأدب العربى مقصر دون الأدب الغربى فى كثير من النواحى • برغم ما له من الميزات الخاصة وبرغم عراقته وحداثة الأدب الغربى بالنسبة اليه • فقد سار الأدب بخطى واسعة وتطور فى عصوره • على حين سـار الأدب العربى دائما على نمط يكاد يكون واحدا • وكبا (١) بعد العصر العباسى الزاهى كبوة لم يقل منها الا اليوم • وكان من عهدها الى العصر الحديث فى حكم العدم اذا قيس بآداب الأمم الرفيعة •

ولا ريب فى أن الأدب العربى يكسب كثيرا ـ وقد كسب بالفعل كثيرا ـ بلقاحه بالأدب الغربى ، وهذا اللقاح يتأتى عن طرائق ثلاثة : الأول اطلاع أدباء العربية على الأدب الغربى • فان لذلك أكبر الأثر فى نفوسهم وفى كتاباتهم وان لم يشعروا ولم يتعمدوا ادخال ما قرءوا فيما يكتبون • والثانى ترجمة الآثار الغربية المشهورة من نثر وشعر الى لغة الضاد • فان ذلك يؤثر فى أبناء العربية الذين لم يطلعوا على آداب غيرها تأثيرا يكاد يدنيهم ممن اطلعوا عليها • والثالث ادخال الأشكال والمواضيع الشعرية الغربية فى الأدب العربى اذا كانت غير موجودة فيه • فان ذلك يزيد اللغة ثروة وقوة ، ويقدر الأدب العربى على مجاراة آداب الغرب •

والشعر العربى خاصة خلو من كثير من الأشكال والمواضيع التى يتناولها الشعر الغربى كالدراما والملحمة والشعر المرسل والقافية المنوعة والأوزان المتداخلة فى القصيدة الواحدة • فالشعر العربى فضلا عن كون مواضيعه محدودة قوامه الوحدة فى الوزن والقافية ، والاحكام فى القواعد، والصنعة والرصانة فى الأسلوب ، وعلى المعنى أن يخضع لكل هذا فلا يخرج الا مصقولا فى قالبه • بينما الشعر الغربى أكثر مرونة وأقل قواعد وأسهل فى يد الناظم وأقدر على التحول والتنوع وزنا وقافية اتباعا لمعانى القصيدة المتتابعة ، ومن ثم استطاع الشاعر الغربى أن يودع شعره من دقيق المعانى وعميق الأفكار وخاصها وجزئيها ما يشق على الشاعر العربى الذى لا طاقة

(١) كبا : انكب على وجهه (تعثر) •

له بغير ذكر العام والكلي ، فكلما جاد الشعر العربى راع أسلوبه واحكمت ديباجته وراقت موسيقاه ، وكلما جاد الشعر الأوربى دقت معانيه ولطفت أخيلته وتجسم وصفه وتصويره وعبر عن الخوالج النفسية البعيدة الغور • وبالجملة كانت نتيجة الوحدة فى العروض والقافية فى الشعر العربى أن كان شعر أسلوب ، ونتيجة التنوع والمرونة فى عروض الشعر الغربى وقافيته أن كان شعر معنى •

واذا كان شعراء العربية الأقدمون قد قنعوا بذلك الضرب المقيد الموحد من الشعر وأدوا به معانيهم وأغراضهم العامة ، فلن يقنع به عصرنا، هذا اذا كنا نريد للشعر العربى مجاراة الشعر الأوربى ، ونريد أن يؤدى من لطيف الأوصاف للمشاهد الطبيعية والحالات النفسية ما يؤديه ذلك الشعر ، ولابد لنا ــ كما اقتبسنا من الغرب القصة القصيرة والطويلة والرواية التمثيلية والمقالة فى عالم النثر ــ أن نقتبس فى عالم الشعر الأوضاع والأشكال التى توسع أفق شعرنا العربى وتزيده قوة وخصبا •

والواقع أن القافية الموحدة التى تنتظم القصيدة من أولها الى آخرها غير معروفة فى الشعر الغربى ، وقد قال ملتون فى مقدمته لملحمته المشهورة «الفردوس المفقود» انه عول (٢) على نظمها شعرا مرسلا وعلى نبذ القافية نبذا تاما لأنها أثر من آثار الهمجية ، وكثيرا ما عاقت الشعراء عن تسجيل سامى المعانى ، وبرغم مغالاة ملتون فى قوله هذا ــ اذ للقافية روعتها ولزومها فى كثير من ضروب الشعر ــ فلا شك فى أن القافية كثيرا ما تقف عقبة فى سبيل نظم دقيق المعانى وجليلها •

لابد من رياضة الوزن العربى والقافية العربية على المرونة والسهولة والتنوع فى القصيدة الواحدة تبعا للمعانى ، كى يساعدا الناظم البارع على بيان أغراضه ، فلا يعتمد الاعتماد كله على المعانى والتشبيهات ونحوها، بل يعتمد أيضا على جرس الألفاظ وموسيقى الوزن ووقع القوافى وتجاوبها واختلافها لابراز أوصافه واحياء صورته التى يريد فى خلد القارىء ، فقد برع الشعر الغربى فى هذا الضرب من الملاءمة بين المعنى واللفظ والوزن ولا سيما فى أشعار الوصف فبذ (٣) بتصويره ريشات المصورين فى كثير من الأحيان •

لابد من التخلى عن بعض القيود والقواعد وادخال بعض السهولة والحرية واقتباس ما يمكن اقتباسه من الأوضاع والأشكال الشعرية

---

(٢) عول : اعتمد •

(٣) فبذ : فاق •

الغربيـة ، على أننـا يجب أن نذكر أولا أن ما سنقتبسه لن يلغى القافية الموحدة والوزن الموحد من العربية الغاء ، بل تظل هذه الطريقة العربية الخالصة قائمة ، لها ميزاتها من الرصانة والفخامة ، ولها مناسباتها التى تستعمل فيها فتؤدى غرضها أحسن الأداء ، لن نهجر طريقتنا الى طريقة غيرنا بل نأخذ مما عند غيرنا ما يزيد لغتنا وشعرنا سعة وثروة ، ويجب أن نذكر ثانيا أن الناظم الغربى انما يستخدم تلك الحرية والمرونة فى شعره ليؤدى بها أغراضا خاصة : تجسيم وصف ، أو تمثيل حركة ، أو تقليد صوت ، أو اسلاس قصص ، فيجب ألا نهجر القافية والوزن الموحدين الا أن يؤدى تنويع الوزن والقافية مثل تلك الأغراض ، والا كان الأمر مجرد تسهيل للنظم يغض من قيمة الشعر الفنية ويورث الناظم الكسل وقلة التعب فى معالجة القصيد .

وأكبر اعتراض يقام أمام ادخال هذه الأساليب الشعرية الغربية نبوها (٤) على السمع الذى اعتاد الوحدة فى الوزن والقافية العربيين . وهو اعتراض وجيه غاية الوجاهة : فان اقتباس تلك الأساليب ان أدى الى فساد موسيقى الشعر العربى التى هى قوامه كان وبالا وكان علينا أن نقلع عنه مهما كان له من فوائد ، ولكن هـذه العقبـة يمـكن تذليلها بوسيلتين :

الأولى التدرج فى التحرر من قيود الوزن والقافية تحررا يسير بطيئا مع الزمن ولا يفاجىء الآذان كبير مفاجأة ، فان التطور دون الطفرة جدير بتعويد الأذن على اختلافات العروض والقوافى فى القصيدة الواحدة ، حتى تستطيب تلك الاختلافات وتلتذها وتصير لها فيها متعة كالمتعة التى نجدها فى النظم الموحد ، وقديما اخترعت الموشحات والأبيات المختلف شطراها طولا فكانت خرقا فى الطريقة السائدة وكانت بلا ريب نابية على الأسماع فى أول الأمر ، ولكنها بمرور الزمن صارت مألوفة ولم يعد أحد من كبار الشعراء يتحرج من اللجوء اليها فى بعض أغراضه .

والوسيلة الثانية هى أن يتصدى لادخال هذه الأساليب فى شعرنا العربى كبار الشعراء الذين عالجوا القريض سنين طوالا ، ومارسوا اللغة واستوعبوا ثروتها واستبطنوا أسرارها وحذقوا عروضها ، فهم وحدهم بخبـرتهم ودربتهم وتمكنهم قادرون على أن يدخلوا فى اللغـة ما يلائمها وينبذوا ما عداه ، ويصقلوا ما يدخلون بصقالها حتى يصير جزءا منهـا

---

(٤) نبوها : خروجها عن الحدود المعتادة ومنها (لفظة نابية) .

ويثبت فيها وينمو ويثمر ، أما أن يتصدى لذلك الناشئون المتحمسون للتجديد على غير بصيرة ، فلن يأتوا الا بكل غث لا يؤدى أغراض الشعر العربى ولا يبقى على جمال الشعر العربى ولا يكتب له بقاء .

والقافية أشد من الوزن قبولا للتلقيح بالأساليب الغربية ، والشعر المرسل خاصة يكون ذا مستقبل باهر فى العربية اذا عالجته الأيدى القديرة ، وقد مارسه الأستاذ فريد أبو حديد غير مرة ونجح فيه نجاحا غير قليل ، ونشر فى «الرسالة» ترجمة لفقرات من «عطيل» امتازت بالسلاسة ولم ينقص من قدرها فى نظرى سوى أن الأستاذ اختار لها بحر الرمل ، وليس هذا ولا الخفيف المنظومة فيه رواية خسرو وشيرين بأليق البحور لبدء معالجة الشعر المرسل . بل أكثر البحور العربية استعدادا لذلك البحر الطويل الذى هو بطوله وفخامة موسيقاه واتئادها (٥) أقدر على الاستغناء عن القافية وأحق بأن يترجم اليه الشعر المرسل الغربى المعروف « بالبلانك فيرس » وأن يحل عندنا محل ذلك الضرب الذى يختص عند الغربيين بشعر الدرامات والملاحم،ولا ريب فى أن ترجمة روايات شكسبير وأمثالها اليه أولى من ترجمتها نثرا .

ولقد كان شوقى فى أواخر أيامه أقدر الناس على ولوج هذه الأبواب لو أراد ، لولا شديد اعتداده بالوزن والقافية الموحدين ، فانه كان قد مارس قرض الشعر نحو نصف قرن حتى حذق صناعته ، وكانت له موهبة فى الأسلوب عالية ، فبلغ فى النهاية غاية الجزالة والسلاسة . وكان له من الوقت متسع للتجريب والمحاولة ، ولو عمل على اخصاب اللغة ببدء هذه الأساليب الغربية فيها لخدمها خدمة أجل كثيرا من خدمته اياها بمعالجة النظم التمثيلى فى أخريات أيامه ، ورواياته التمثيلية ذاتها شاهدة بذلك : فان ميزتها الكبرى والوحيدة براعة الديباجة ، أما اذا قيست بمقياس التأليف التمثيلى وقوبلت بالمؤلفات الغربية التى كان يقلدها ويترسمها فلن تكون شيئا مذكورا .

على أنه اذا كانت العربية قد فقدت شوقيا وحافظا اللذين عالجاها حقبة وتمكنا منها ، فما يزال لها من كبار الشعراء المجربين من هم قادرون على توسيع أفقها ومضاعفة ثروتها بطرق هذا الباب من الاقتباس والابتكار، فلعلهم يتقدمون ، ولعل مجهودات الأستاذ فريد أبى حديد تكون الخطوة الأولى فى هذا السبيل .

---

(٥) اتئادها : تمهلها .

التصوير في الشعر العربي

الوصف من أهم أغراض الشعر وأخص فنونه · وكما كثر في شعر لغة وآثار شاعر ، دل على رقيهما الفني ، اذ أن مناظر الطبيعة خاصة ، وروائع المشاهدات عامة ، من أشد العوامل تأثيرا في النفس الشاعرة وتحريكا لعاطفتها وبعثا لها الى القول · والوصف في الشعر العربي غزير يتناول شتى الموضوعات ، ويبلغ في يد كبار شعراء العربية غاية الاجادة · فكثيرا ما تخلص شعراؤنا من قيود المدح والرثاء والنسيب الاستهلالي ــ مهما كان تقيدهم بهذه الأغلال الثقيلة التي كبلت الشعر العربي ــ وعرجوا على وصف أثر من آثار الطبيعة أو المدنية ، فأبدعوا وأرضوا الفن ، أضعاف ما أرضوه بمبالغات المدح والرثاء والنسيب المدعى ·

ولكن الذي أريد الاشارة اليه في هذه الكلمة ، أن اعتماد الوصف في الشعر العربي كان دائما على المعنى دون اللفظ ، على التشبيه والاستعارة والمجاز دون جرس الألفاظ وتتابع التراكيب ووقع الأوزان والقوافي · بينما الشعر الوصفي الغربي اعتمد على هذه الأشياء الأخيرة اعتمادا كبيرا · فبلغ الغاية في المطابقة بين المعنى واللفظ مطابقة تملأ الوصف حياة وجلاء · وتوفر بعض الشعراء على هذا الضرب من التصوير، ومنهم ملتون وتنيسون ، ولا سيما الثاني الذي بلغ في القدرة على تذليل اللفظ للمعنى واستخدامه في تصوير ما يشاء حدا منقطع النظير·وأضحت آثار أولئك الشعراء مهبط وحي لكبار المصورين يستلهمونها ما حوت من روائع الأوصاف ومحكمات الصور ويسجلون ذلك على لوحاتهم ·

اذا كان في المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد استخدم الشاعر الغربي بحرا من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ويحكيها· واذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير أمواج البحر أو قصف المدافع في الحرب اختار من الألفاظ تلك التي تحتوي على حروف خشنة قوية . واذا كان يصف منظرا ساكنا وادعا لم يذكر ذلك في القصيدة ذكرا ، وانما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيهما

الشـاعر الوصاف ما شاء له اقتـداره : ككثرة العطف وتكرار الحروف والكلمات والتراكيب والأبيات الكاملة ٠

ولقد وقع شيء من ذلك في بعض أشعار الوصف العربي ، ولكنه كان الهاما محضا أو اتفاقا عارضا ساقت الشاعر اليه المصادفة السعيدة أو السليقة المجيـدة ، دون أن يتعمده أو يتكلف في صوغه عناء ، ويقرؤه القارئ العربي فيستطيبه ويعزو موقعه من نفسه الى مجرد معانيه وحسن تشبيهاته ٠ ويجمل ذكر شيء من هذا للتمثيل والبيان :

ففي معلقته يصف امرؤ القيس الليل في بيته المشهور :

فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف اعجازا وناء بكلكل

وفضلا عن جودة المعنى وحسن التشبيه في هذا البيت يزيد الوزن والتركيب الوصف المراد ظهـورا : فالبحر الطويل ذو الحركة الوئيـدة وتكرار العطف بالواو يمثلان بطء مسـير الليـل ولجاجه في الاقامة وتماديه في الطول خير تمثيل ، وفي بيته الآخر حيث يصف جواده بقوله :

مـكر مفـر مقبـل مدبر معـا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

نرى تتابع الصفات بلا فاصل في الشطر الأول ، واستعمال الألفاظ الضخمة الخشنة في الشطر الثاني يمثـلان توثب الجواد وسرعة انطلاقه وارتداده ومفاجآت حركاته تمثيلا جيدا بصرف النظر عن تشبيهه بانحطاط الصخر من شاهق ٠ وفي قول المتنبي :

أتوك يجرون الحـديد كأنمـا
سروا بجيـاد مالهـن قـوائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منـه زمام

نرى وصفا رائعا لجيش كثيف وئيد الزحف لكثافته ، وليس في البيتين معنى كبير ، وليس فيهما سوى مبالغة غير معقولة ، ولكنه البحر الطويل يمثل هـذه الحركة البطيئة أتم تمثيل ، هذا فضـلا عن فخامة الألفاظ التي تخيرها الشاعر ، ونرى البحر الطويل يؤدي مثل هذا الغرض ويرسم صورة أخرى رائعة في قول جميل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

فهنا حركة الابل البطيئة واضحة ماثلة ، وقد كان جميل ملهما حيث ذكر كلمة أعناق فى البيت الثانى فانها وحدها ترسم الصورة التى أراد : فان ذكر الجزء الأهم من الصورة ، كثيرا ما يبعث الى المخيلة باقى الأجزاء ويبرز الصورة جلية كاملة ، ويترك البحر الطويل مثل هذا الأثر أيضا فى قول البارودى الذى أشار اليه الدكتور صبرى فى كتابه عن الشاعر :

ـ ونبهنا وقع الندى فى خميلة ـ

فاذا قرىء هذا الشطر بتأن وجدنا الوزن يمثل تساقط قطرات الندى متتابعة ، أما الحركة السريعة فيمثلها البحر الكامل ، ومن ذلك قول المتنبى :

أقبلت تبسم والجياد عوابس   يخببن بالحلق المضاعف والقنا
عقدت سنابكها عليها عثيرا   لو تبتغى عنقا عليه لأمكنا

ففى البيت الثانى نرى مبالغة أخرى من مبالغات المتنبى ، وهى وحدها لا تكاد تؤدى معنى ، ولكن البحر الذى صيغت فيه القصيدة يؤدى خبب (١) الجياد خير أداء ، حتى ليكاد يريك توثب الفرسان فوق ظهورها، ولو حاول الشاعر وصف الخبب فى البحر الطويل لما استقامت صورته •

ولتكرار الألفاظ أو التعبيرات أحيانا أثر بليغ فى ابراز الصور وبعث الأخيلة • ففى قول ابن هانىء الأندلسى :

وفوارس لا الهضب يوم مغارها   هضب ولا الوعر الحزون حزون

يوحى تكرار كلمتى هضب(٢) وحزون(٣) الى المخيلة تتابع الهضاب والربى أثناء عدو الفرس ، فكأنه يعرض أمام العين شريطا سينمائيا متحركا ، أضف الى ذلك صوغ البيت فى البحر الكامل واختيار الكلمات الفخمة ، وفى قول الأستاذ المازنى :

لغط اليم اذا اليم طما   والتقت فيه هضاب بهضاب

ترى صورة رائعة لجيشان اليم ، ولا يرجع هذا الى معنى البيت

---

(١) خبب الجياد : هو عدوها السريع ، وفى المعجم الوسيط : خب الفرس أى نقل أيامنه وأياسره جميعا فى العدو •

(٢) هضب : جمع هضبة •

(٣) حزون : جمع حزن (بفتح فسكون) وهو ما غلظ من الأرض •

وحده ، ولكن الى وزنه والفاظه كذلك : فبحر الرمل يمثل الحركة المتضاربة أدق تمثيل . وتكرار كلمتى اليم وهضاب يوحى الى المخيلة تتابع اللجج، وتكرار حرف الهاء ثلاث مرات فى الشطر الثانى يزيد الحركة تصويرا وبروزا .

كان ذلك فى الغالب كما ذكرت محض اتفاق أو الهام ، ولم يقم فى العربية فرد أو مدرسة تتوفر على هذا الضرب من النظم والتصوير وانما حين اتجه نظر الشعراء الى اللفظ صادف ذلك عصر انحلال الأدب فلم يسخروا اللفظ لابراز المعنى ، بل صرفوا كل همهم الى اللفظ دون المعنى، وولعوا بالألاعيب اللفظية التى سموها محسنات ، وأوغلوا هذه الغثاثات على أجل فنون الشعر خطرا كالرثاء والنسيب فأسفت وانعدم فيها الحس والشعور ، فرأينا شاعرا ينسب فيقول :

ناظراه فيما جنى ناظراه   أو دعانى امت بما اودعانى

وآخر يتوجع فيقول :

لى مهجة فى النازعات وعبرة   فى المرسلات وفكرة فى هل أتى

وثالث يمدح فيقول :

وان أقر على رق أنامله   اقر بالرق كتاب الأنام له

وليس فى كل هذا تعبير عن شعور أو أداء غرض ، وما هو الا عبث بالألفاظ واقتناص للجناس والطباق والسجع والتورية ، وانما أكثرت من هذه الأمثلة الغثة لأوضح كم كان الشعر العربى يربح لو أن المجهودات التى صرفت فى مثل هذا التحايل العقيم وجهت الى تسخير اللفظ للمعنى والاستعانة بهما معا على ابراز الوصف المقصود كما يصنع شعراء الغرب .

وليس فى طبيعة اللغة العربية قصور يحول بينها وبين مجاراة اللغات الأخرى فى هذا الباب ، بل لها من الميزات ما يقدمها على غيرها : فهى كثيرة البحور التى يؤدى كل منها غرضا مختلفا ، غزيرة الألفاظ الوعرة الضخمة والرقيقة اللطيفة التى توحى بخشونتها أو رقتها مختلف الصفات ، غنية بالحروف السلسة اللينة والحروف الخشنة الجافية التى تطاوع الناظم القدير . ليس يعوز العربية شىء من ذلك وانما يعوزها الجرأة من الناظمين بها والعزم والجلد .

الأثر اليوناني في الأدب العربي

كانت الثقافة اليونانية خلاصة ثقافات البحر الأبيض القديمة : لأنها الى جانب ما استوعبته من الحضارات الشرقية تمثل نتاج العقل اليونانى الذى كان أخصب عقل ظهر فى العصر القديم · فلما مضى ذلك العصر ودالت دولة اليونان وكان العصر الوسيط كان العرب هم السابقين الى التعرف بالثقافة اليونانية فأخذوا من علوم اليونان وفلسفتهم ، ثم تعرف الأوربيون بعدهم بتلك الثقافة فى عهد النهضة ، وأوسعوا علوم اليونان وفنونهم دراسة ونقلا ومحاكاة · فأغنوا بذلك علومهم وفنونهم الناشئة وشادوا على ثقافة اليونان صرح حضارتهم الحديثة ·

بيد ان الذى يسترعى النظر أن العرب حين اتصلوا بثقافة اليونان اقتصروا على اقتبـاس بعض علومهم وفلسفتهم دون الآداب والفنـون ، فدرسوا أرسطو وأفلاطون ، وعرفوا أبقراط وفيثاغورس ، ولكنهم أهملوا هوميروس وسوفوكليس ويوربيدس ، على حين لم يفرق الأوربيون بين ناحية من نواحى الحضارة اليونانية وناحية أخرى ، بل أكبوا على دراسة الجميع ، وبينما تقدمت علومهم على مر العصور عن علوم اليونان أشواطا بعيدة واستغنت عن معينها ظلت الآداب والفنون اليونانية مرجعا دائما للآداب والفنون الأوربية ومهبط وحى لا يفنى ، ولم ينفك كتاب الغرب وشعراؤه الى اليوم عن تمجيد الثقافة اليونانية والحث على الرجوع اليها دائمـا ، فما السر فى اختـلاف موقف العرب عن موقف الأوربيين حيال تراث اليونان ؟

السر راجع الى سليقة العرب المطبوعة على البيان ، المفطورة على فصاحة اللسان ، فان العرب نظرا لبيئتهم البدوية وحياتهم المتنقلة لم يكن لهم سوى اللسان أداة للتعبير عن شعورهم الفياض ، فلم يكن التصوير ولا النحت ولا غيرهما من الفنون ليزكو (١) فى بيئتهم تلك ، ومن ثم تأصلت فى العرب سجية البلاغة وارتقت بينهم مرتبة البلغاء وتوطدت

---

(١) ليزكو : لينمو ·

لغتهم ونضج أدبهم وهم على بداوتهم وقلة حظهم من الحضارة ، وكان لهم بعصبيتهم ولغتهم اعتداد شديد ، فلما نهضت دولتهم بظهور الاسلام ودخلت الأمم فى طاعتهم ودينهم أفواجا ازدادوا اعتدادا بعربيتهم ولغتهم وشعرهم وقرآنهم المبين ، فلم يكن فى نفوسهم حافز على الاطلاع على آداب غيرهم ولا لديهم رغبة فى التتلمذ لسواهم ، بل كانوا يرون أنفسهم هم الأجدر أن يحتذوا ويؤخذ عنهم ، ولقد أخذ كثير من الأمم المفتوحة لغتهم واصطنعوا أدبهم بالفعل ، وأصبح الناشئون فى الأدب من أبناء الأجيال التالية لا يرون أن شيئا يوصل الى نيل الفصاحة والحكمة وحذق الأدب وراء دراسة القرآن واستيعاب شعر فحول المتقدمين ، وانما كان العرب أميل الى الاعتراف بالقصور واظهار الرغبة فى الأمور التى لم يكن لهم فيها الى ذلك الوقت باع ولا يد كالعلوم والفلسفة ، فلم يروا ضيرا فى أخذها على أساتذة اليونان ٠

ولم يقتصر أثر اعتداد العرب بأدبهم وشعرهم على ذود (٢) الأدب اليونانى عنهم ، بل ذاد عنهم غير الأدب من الفنون : فلقد اطلعوا فى أطراف دولتهم وبلاد جيرانهم على ما كان لدى اليونان والرومان والفرس والمصريين من تصوير ونحت ، فما خطر لهم أن يحاكوا شيئا من ذلك ، وكان كل ما يساور شاعرهم حين يشاهد أثرا من هاتيك الآثار أن يتمثل بطش الدهر وحلول الفناء وسقوط الجبابرة فيقول :

أين الذى الهرمان من بنيانه ؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

وما ذلك الا لانصراف كل قوى العرب الفنية الى ضرب واحد من الفنون هو الأدب واستغراقها فيه ٠ فهى لا تحاول وسيلة أخرى سواه للتعبير عن نفسها ، ومن ثم ظل العرب طوال عصورهم لا يعرفون من الفنون سوى الأدب والموسيقى المعتمدة عليه المرتبطة به ارتباطا وثيقا ، فلا تصوير ولا نحت ولا تمثيل ، اللهم الا ذلك الضرب الوحيد من الزخرفة ذات الأغراض العملية المحضة ، ومن الخطأ نسبة انعدام تلك الفنون بين العرب الى الدين : ففضلا عن أن الدين لا ينافى شيئا منها فانه لم يحل دون استمتاع العرب بالموسيقى وغيرها حين أرادوا ٠

فالعرب اذن اتصلوا بالثقافة اليونانية فى غير الوقت الملائم : فى وقت متأخر ، كان أدبهم فيه قد نضج وقوى ، وصار له من الاعتداد بنفسه

---

(٢) ذود ٠ الذود هو الدفع والطرد ٠

ما يثنيه عن التتلمذ لغيره ، أما الآداب الغربية فعرفت تلك الثقافة في عهد طفولتها ونشأتها ، وهي لما تزل عاجزة تعترف بعجزها وتتلهف الى المعرفة حيث وجدتها ، فلم تتردد في الانتفاع بتراث اليونان الى أبعد حد ، فأثرت أيما اثراء بما أخذت عن اليونان من المواضيع والأشكال الأدبية ، ومد الأدب اليوناني أمامها آفاق التفكير الواسعة وآماد المثل العليا وصور الجمال المختلفة ، ووجدت في تاريخ اليونان وأدبهم وأساطيرهم ومنتجات فنونهم من صور وتماثيل وآثار منادح (٣) للكتابة والدرس والنظم ومنـــابع للوحي لا تنضب ٠

فلا غرو أن طفرت تلك الآداب الغربية التي لم تكد في عهد النهضة تكون شيئا مذكورا ، والتي كانت لغاتها ذاتها ما تزال في طور التكوين ، فاذا هي بعد قرون ثلاثة أو أربعة تسبق الأدب العربي وهو أعرق منهـا محتدا وتفوقه اتساع آفاق وتعدد مواضيع ، لأن الأدب العربي الذي لم يكد يستفيد بأدب أمة أخرى ظل في مكانه جامدا يكرر نفسه ويعيد على نفسه الأبواب عينها التي جال فيها المتقدمون من فخر ورثاء ومدح وهجاء ، حتى اذا كان العصر الحـــديث اذا هـو يقف من الآداب الغربيـــة موقف التتلمذ والتلقن ٠

ان تمكن ملكة البيان من العرب ــ مما جعلهم لا يدينون الا لنبي يأتيهم بكتاب معجز ، وجعل خلفاءهم يتخذون وزراءهم من أئمة البيان ــ واعتدادهم بأدبهم واستغراق مجهودهم الفني فيه وحده ، هذا كله في مجموعه كان عاملا شامل الأثر بعيده في تاريخهم وأدبهم ، ولقد كان أثره فيما يتعلق بالتراث اليوناني بليغ الضرر ، فخسر العرب خسارة كبيرة باغفال الأدب اليوناني الحي على توالي العصور ، الشديد الايحاء القوي التأثير ، الذي كان بلا ريب أغنى من أدبهم ٠ ولو لقح به الأدب العربي لاتسعت جوانبه وانصرف عن تلك الأغراض العلمية التي احتبس فيها الى عوالم الفن الخالص وتغير مجرى تاريخـــه وأفاد العرب بذلك أضعاف ما أفادتهم دراسة الفلسفة اليونانية ٠

ونحن اليوم بدراسة الآداب الغربية والأخذ عنها بطريق غير مباشرة عن تلك الثقافة اليونانية ، ندخل في أدبنا ذلك العنصر اليوناني الذي لابد منه لكل أدب يريد له مكانا بين الآداب العالية ، واذا وقف شاعرنا العصري أمام الأهرام فلم ينصرف ذهنه الى بطش الدهر بالجبارين الذين

---

(٣) منادح : جمع مندوحة وهي الأرض الواسعة ٠

أعلوها ولم يتنبأ لها باللحاق بهم ، بل حيا فيها الفن وعظم قدرة الانسان، وقـال :

أهـرامهم تلك حى الفن متخـذا ... من الصـخور بروجـا فوق كيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ... ما يأخذ النمل من أركان ثهـلان

فما ذلك الا لأننا قد تأثرنا بتلك الروح اليونانية التى تعظم الفن الخالص فى مختلف صوره وتمجد قدرة الانسان فى مصارعتها للفناء ، تلك الروح التى كان أغفلها أجدادنا العرب ٠

القصة فى الأدب العربى

حب تتبع الحوادث وحكايتها مركب فى الطبع الانسانى . ولكن القصة كانت آخر صور الأدب ظهورا ، فلم تعرفها الآداب القديمة ولم تظهر في الآداب الأوربية الحديثة الا أخيرا . ولذلك أسباب منها الوهم الذى وقر فى نفوس الأدباء المتقدمين وان يكن يبدو لنا اليوم غلطه واضحا : أعنى توهم أن القصة ان هى الا أحبولة أكاذيب لا يليق بالأديب الراقى أن يلهو بحوكها ، وأن القصص مرتبة من التاليف سهلة يستطيعها كل من رامها فلا يجمل بالأديب القدير أن يتدلى اليها .

ومن ثم كان العرب يؤثرون الأخبار التاريخية والأدبية ويخصونها بالحفظ والرواية مهما خالطها التحريف ، لاعتبار أنها حقيقة لا اختلاق ، وكثرت بينهم كتب التواريخ والسير دون كتب القصص ، ومن ثم أيضا لم يسلك سبيل القصص من الأدباء المجيدين الا من كان له غرض آخر دون القصص يوهم قراءه أو يوهم نفسه أنه الغاية التى اليها يقصد : اما باعطاء القصص مغزى وعظيا كما فى كتاب كليلة ودمنة ، أو بالباسه ثوبا قشيبا من الصناعة البلاغية كما فى مقامات الهمذانى والحريرى ، بينما تركت الأقاصيص المجردة للعامة الذين يفشو بينهم القصص فى كل العصور نتيجة لذلك الميل الطبعى فى الانسان ، وتتداول (بضم التاء) بينهم أساطير المردة والسحرة ووقائع الأبطال الغازين ومخاطرات التجار والملاحين ونوادر الظرفاء والمعتوهين .

بيد أن القصة ان انعدمت من الآداب اليونانية والرومانية القديمة ومن الآداب الأوربية الحديثة الى عهد قريب ، فقد قامت مقامها عند تلك الأمم الرواية التمثيلية التى تؤثر فى النفوس لا من طريق الميل الطبعى الى القصص وحده ، بل من طريق أخرى هى الميل الى محاكاة الأشخاص وتقليد الحركات ، ومن طريق ثالثة هى الثوب الخيالى الشعرى الذى أسبغ على تلك الروايات التمثيلية ثم التفتت رويدا رويدا الى أحوال المجتمع فتناولت وصف شئونه وتصوير أخلاق أفراده ، أما العرب فلم تقم لديهم لا القصة المقروءة ولا الرواية التمثيلية ، فالام يعزى ذلك ؟

يعزى الى أمرين : أولهما ايجابي هو موقف أدباء العربية من مجتمعهم ، وثانيهما سلبي هو مكانة الشعر لدى العرب ٠

فكتاب العربية وشعراؤها عاشـــوا دائما بنجوة عن مجتمعهم لا يشتركون في تقلباته السياسية والاجتماعية ، ولا يعبرون عن شعوره وحاجاته ، ومن ثم ندر الأدب الوطني في العربية وان كثر الأدب العصبي، وندر الشعر الاجتماعي ، وكان جل شعر الشعراء فرديا يعبر عن عواطفهم وحاجاتهم الشخصية ويفيض بذم منافسيهم وأعدائهم الشخصيين ومدح أوليـــاء نعمتهم من الكبراء والأمراء الذين يعتمدون عليهـــم دون الشعب ويبتغون رضاهم قبل رضـــا الشعب ، فلم يكن هنـــاك تواصـــل وتجاوب بين الأدباء ومجتمعهم ولا رغبة لدى الأدباء في معالجة شئون المجتمع وتحليلها ومحاولة اصلاح فاسدها عن طريق أدبهم ، فلم يقم في العربية أمثال أديسون وستيل ودكنز وجالزورذى من الأدباء الانجليز الذين جعلوا اصلاح الأخلاق أو ترقية المرأة أو انهاض العامل نصب أعينهم ، ولا ريب في أن هذا التواصل والتجاوب بين الأدباء والمجتمع واعتماد الأدباء على جمهور القراء دون هبات النبلاء أساس نمو القصة التي تصف المجتمع وتحلل الأخلاق ، ولم تنشأ القصـــة الحديثة في أوربا في القرن الثامن عشر الا بقيام ذلك التواصل والتجاوب بين الأدب والمجتمع ، وكانت الطباعة التي سهلت انتشار الكتابات مساعدة لذلك ولا ريب ٠

وأما مكانة الشعر الممتازة لدى العرب ــ والتي العله لم ينلها لدى أمة أخرى ــ فانها ثبطت (١) ما عدا الشعر من صور الأدب ٠ فقد كان الشعر لدى العرب هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فصرفهم شديد اعتدادهم به وتوفرهم عليه عما عداه ، وأودعوه عواطفهم وأخبارهم وقصصهم ، فلو أن الشعر ترك مجالا لغيره لاحتمل أن يلجأ أديب كأبي نواس الى القصص يودعه أنباء لهوه ووقائع غرامه ويشرح فيه ما سبر من غور العواطف وبلا من سريرة المرأة سادلا على شخصيته ستارا رق أو كثف (٢) ، ولربما كان منه في العربية نظير لموباسان في الفرنسية، ولكن الشعر كان كما تقدم هو الوسيلة للتعبير عن العواطف قبل كل وسيلة ، فلم يتردد أبو نواس في سلوك السبيل التي سلكها ابن أبي ربيعة من قبله ، سبيل الشعر القصصي أو القصص المنظوم شعرا ٠

ان الناظر في أدب العرب وتاريخهم لا يسعه الا أن يرى هذه الحقيقة بارزة : حقيقة أن الشعر نال من المنزلة عندهم ما لم يبلغ عنـــد سواهم

(١) ثبط : ضعف ٠
(٢) كثف : غلظ ٠

حتى طغى على ما دونه من ضروب الأدب ، وأن الأدب على اطلاقه بلغ لديهم مكانة طغى بها على ما عداه من الفنون وصبغ ثقافتهم بصبغته ـ برغم بعده عن معالجة الحالة السياسية والاجتماعية فكان كاتبهم فى التاريخ وتقويم البلدان وغيرهما من العلوم يتحدث عن الأدباء ويرجع الى محفوظه من الأدب ، وكم من أعلام للشعر العربى لو كان التصوير والنحت رائجين لدى العرب رواج الأدب والشعر لانصرفوا اليهما دونه أو لمارسوهما معه ٠

ولقد كتب الأستاذ الفاضل محمود خيرت فى «الرسالة» أخيرا يثبت وجود التصوير لدى العرب فلم يعد أن أثبت أنه كان فى حالة أولية لا يفتخر بها ولا يغتبط : فان الفن الذى لا ترى له باقية ولا يمكث له أثر فى أدب اللغة وكتبها ، ولا يتوصل الى اثبات وجوده الا بشذرة شاردة فى صحيفة من كتاب ، لا يكون فنا قد نال حظا من الرقى وخالط نفوس الأمة واستدعى اهتمام مثقفيها ، والحكاية التى رواها الأستاذ عن المقريزى تشهد بذلك ، حكاية المصورين اللذين رسما صورتين احداهما كأنها داخلة فى الحائط والأخرى كأنها خارجة منه : فان تفاخر الرجلين بهذا العمل الضئيل ودهش الوزير له واسباغه عليهما المنن من أجله ووقع القصة من نفس المؤرخ حتى أثبتها فى كتابه ، كل ذلك لا يدل على ارتقاء الفن فى ذلك العصر بل يدل على كونه فى حالة بدئية ، وعلى ندرة المصورين المجيدين بل المتوسطى الحظ من الاجادة ، وكلام المؤرخ كله يدل على أن التصوير الذى عرف لذلك العهد لم يتعد الصناعة ذات الغرض العملى التى يزاولها الصناع كما يزاولون النقش والطلاء ، ولم يرق الى مرتبة الفن الخالص المنزه عن الأغراض العملية ٠

ان صور المدارس الايطالية والهولندية وغيرها منتشرة فى الأقطار تملأ المتاحف وتتحدث عن نفسها وعن رقى الفن عند أهلها قبل أن تحدثنا عن ذلك مئات الكتب التى ألفت فيها ، فأين آثار مصورى العرب التى تحدثنا عن مثل ذلك ؟ بل أين الكتب المؤلفة فيها ؟ بل أين الصور العربية التى كانت وحيا لشعراء العربية كما كانت الصور الأوربية وحيا لوردزورث وتنيسون وغيرهما ، أو كما كانت صور الأطلال الفارسية وحيا لسينية البحترى ؟

لن نظفر بشىء من ذلك اذا طلبناه ، ولن يسعنا الا الاقرار بالحقيقة التى تطالع قارىء تاريخ العرب وأدبهم : وهى أن العرب كادوا أن يكونوا أمة ذات فن واحد هو الأدب وبخاصة الشعر الذى استوعب ملكات جل نوابغهم واحتوى دراسات جل مثقفيهم ، ذلك بأن العرب كانوا منذ جاهليتهم أمة لسان وبيان ٠

ظـواهر متماثلة

في تاريخي الأدبين العربي والانجليزي

لا يكاد يكون بين الأدبين العـربي والانجليزي من وجوه التشابه الا الأمور العامة التي يتفق فيهـا كل أدبين يعبران عن نوازع النفس الانسانية ، وهما فيما عدا ذلك مختلفان جد الاختلاف ، وهذا راجع الى أمرين : أولهما اختلاف الأمتين في الجبلة (١) والبيئة : فهذه أمة شرقية سامية خرجت من جزيرة صحراوية وورثت الدول الشرقية القديمة ، وتلك أمة غربية آرية خرجت من جزيرة شمالية وشاركت في تراث الدولة الرومانية ، وثاني الأمرين اختلاف قسطي الأدبين من التأثر بالثقـافة اليونانية : فبينما كان تأثر الأدب العربي بها غير مباشر كان تأثيرها في الأدب الانجليزي شاملا غامرا للأصول والفروع ، فاكتسب ذلك الأدب صبغة اغريقية ظل الأدب العربي بعيدا عنها ٠

ولكن هناك ظواهر في تاريخ الأمتين والأدبين متماثلة أدى اليها تماثل وقتي في الظروف وأدت الى نتائج متماثلة : فعصر الجاهلية في تاريخ الأدبي العربي شبيه بعصر ما قبـل اليزابث في التاريخ والأدب الانجليزيين : ففي ذينك العصر كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته في عزلة كبيرة عن العالم على حال شبيهة بعصر الأبطال في بلاد اليونان الذي أنتج ملاحم هوميروس ، وكان الأدبان تبعا لذلك جافيين ، وعرى الأسلوب واللفظ ، ساذجي المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الذي جاء في العصر التالي ٠ والواقع أن الشبه هنا بين الجاهلية العربية وعصر الأبطال اليوناني كبير : ففي الجاهلية كان العرب منقسمين قبائل وعشائر متناحرة كما كانت البلدان والعشائر اليونانية ، وان كانت تحس بقوميتها العربية العامة متمثلة في لغتها وفي مجامعها السـنوية في الأسواق وفي الحج الى مكة ، كمـا كان اليونان يجتمعون في المواسم الأولمبية ويحجون الى دلفي ، وفي تميزها على الأمم الأخرى التي كان العرب يسمونهم عجما كما كان اليونان يعتبرون من عداهم برابرة ، وان يكن العصر الجاهلي لم ينتج ملاحم كبارا كالالياذة

(١) الجبلة : الطبيعة والخلقة ٠

والاوديسا فى اليونان أو كملحمة « بيولف » فى انجلترا ، فان قصائده على قصرها هى من هذا الضرب • ولعل العصر الجاهلى لو طال قليلا لائتلفت تلك القصائد الصغيرة التى تمجد كل منها قبيلة واحدة ، فكونت ملحمة كبرى تتغنى بفروسية الأمة العربية قاطبة •

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث بوصول النهضة الأوربية الى انجلترا واتجاه نظر الانجليز الى ما وراء البحر ، ففى كلا العصرين بدأت كل من الأمتين تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ورقت ديباجته ، وان يكن الرقى الأدبى فى صدر الاسلام قد تمثل فى النثر بينما تمثل فى العصر الاليزابثى فى الشعر ولا سيما الشعر الجاهلى •

وبانبعاث هذه النهضة وقيام هذه الدولة انتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم ، فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهلية يتكلم (بضم التاء) من حدود الصين الى المحيط الأطلسى ، وأثر فى اللغات وأزال غيرها وحل محلها ، وأصبح اليوم لسان شعوب كثيرة فى آسيا وأفريقية • واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها الا ملايين تعد على الأصابع فى عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم •

ولم تكد كل من الأمتين توطد أركان امبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، وداناها فى ازدهار الآداب والعلوم ، فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية استقلت الولايات المتحدة الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا فحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون •

وباتصال كل من الأمتين بالأمم المتحضرة سرت اليها موجة عدوى من دواعى الترف وبدا أثر ذلك فى أدبها : فاختلاط العرب بالفرس أدخل الترف والعبث فى البلاط العباسى وأثر فى جيل أبى نواس من الشعراء ،

واتصال الانجليز بفرنسا فى ظل ملكها المترف لويس الرابع عشر أفسد بلاطهم على عهد شارل الثانى وظهر أثر ذلك فى الأدب ولا سيما فى الرواية التمثيلية .

وكلا الأدبين تأثر الى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته ، فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وأصولها وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم بين الجسامة ، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم الى الانجليزية فى عهد الاصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة ، وادخال مفردات جديدة واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت الى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائما قدوة للأدباء يحتذونها فى اسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلى فى كتابين من ذخائر الأدب الانجليزى : أحدهما « رحلة الحاج » البنيان والثانى « الفردوس المفقود » لملتون : ففى كليهما كان أساس القصة ما ورد فى الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل ان دراسة الانجيل كانت هى الثقافة الوحيدة التى نالها (بنيان) الذى كان قسا ضئيل الحظ من التثقف ، ومع ذلك فأسلوبه المبنى على أسلوب الانجيل يعد فى الذروة فى أدب اللغة .

وهناك التأثر بالتراث اليونانى الذى كان حتما على كل شعب أتى بعد اليونان أن يتأثر به : فاغترف أدباء الانجليزية من مناهل الأدب اليونانى اغترافا واستوعبوه دراسة فجاء أثره شاملا عاما لا يقتصر على فرع دون فرع ولا يمتاز به جيل أو أدباء أو أديب دون أديب ، على حين كان التأثير اليونانى فى الأدب العربى كما تقدم ضئيلا غير مباشر آتيا عن طريق دراسة فلسفة اليونان لا أدبهم مما بدا أثره فى حكم المتبنى والمعرى وأضرابهما .

لم يأخذ العرب عن اليونان ولا عن غيرهم أخذا بالجملة كما صنع الانجليز ، بل ظلوا فى زمانهم شامخين بأدبهم ينظرون من عليائه الى من حولهم من أمم وما لها من آداب ، أما عهد الأخذ بالجملة فى تاريخ الأدب العربى فهو عصرنا الحاضر الذى يوسع فيه أدباؤنا اللغات الغربية دراسة ونقلا ومحاكاة ، فيغنون (يثرون) أدبنا أى اغناء ، ويخصبونه بالعنصر الأجنبى الذى كان يعوزه .

هذه ظواهر يتقارب فيها تاريخا الأدبين لتقارب فى ظروف الأمتين فى شتى العهود ، أما ظواهر التباين فلا تكاد تعد ، ويجب حين نقابل

بين التاريخين أن نذكر أن دولة العرب أقدم عهدا وأدبهم أعرق محتدا(٢)، وأن دولتهم وأدبهم قد غبر (٣) الفصل الأول من قصتهما ، وهما اليوم في طور بعث جـديد ، أما الدولة والأدب الانجليزيان فما يزالان في الفصل الأول .

(٢) محتدا . (المحيد) وهو ما نشأ من نواحى الشيء .

(٣) غبر : مضى .

النزعة العملية

فى الأدبين العربى والانجليزى

من الطريف والمفيد معا ألا نزال نوازن بين الأدب العربى والأدب الانجليزى فى شتى النواحى ، فان هذين الأدبين لاختلاف ظروفهما يختلفان كثيرا وقلما يتفقان ، والموازنة بين وجوه اختلافهما العديدة - ووجوه اتفاقهما ان كانت - تلقى ضوءا على مختلف الظواهر فى كليهما، وتبرز شتى الأسباب والمسببات فى تاريخهما ، وقد قيل : وبضدها تتميز الأشياء ·

واعنى بالنزعة العملية فى الأدبين اتصالهما بالحياة اليومية والاجتماعية والسياسية والوطنية ومساهمة أقطابهما فى تلك الشئون ، والأدبان هنا أيضا على طرفى نقيض : فالنزعة العملية تسود الأدب الانجليزى من أقدم أيامه ، وهى تزداد باطراد عصرا بعد عصر ، بينما هى تكاد تنعدم فى الأدب العربى ، وما كان منها فى صدر تاريخه قد تضاءل بكر العصور ·

فالانجليز بطبيعتهم العملية لم يترددوا فى زج الأدب فى غمار (١) الحياة العملية والاستعانة به فى شئونها ، وأدباؤهم لم يحجموا عن الأخذ بحظهم من أشغال الدنيا ومخاطراتها ، أما العرب فعلى عظيم منزلة الأدب لديهم وشدة احتفائهم به ، كان أدبهم دائما بواد والحياة العملية بواد ، وكان فنا نظريا محضا من توفر عليه انقطع عن غيره وعاش فى عالم من الحفظ والرواية والتاريخ والتصنيف ·

فكان من أدباء الانجليز من ضربوا بسهم فى الفن والعلم والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ولهم مع ذلك مؤلفاتهم الشعرية والنثرية المعبرة عن خوالجهم النفسية ونظراتهم فى شئون الحياة مستقلة تمام الاستقلال عن وظائفهم فى الحياة العملية أو متأثرة بها ، ومن أولئك سبنسر وبيكون ورالى وبنيان وسدنى سميث ودزرائيلى ·

---

(١) غمار · جمع (غمرة) وهى الشدة ·

ومنهم من شاركوا في التقلبات السياسية فكانوا دائما في صف الحرية وفي جانب الشعب ، ولم يستظل منهم الا القليل بلواء الملكية ابتغاء السلامة والغنيمة • ومن ضربوا بسهم في هذا الباب توماس مور مؤلف « اليوتوبيا » الذي قطعت اليزابث يده لدفاعه عن حرية الشعب الدينية ، ويقال انه بعد قطع يده رفعها هاتفا بحياة الملكة لأنه كان يحب ملكته الباسلة ، ولكنه كان أكثر حبا للحرية والشعب • ومنهم ملتون الذي أيد الجمهورية في ظل كرومويل وعمي بصره في الدفاع عنها أمام انصار الملكية •

ومنهم من اضطلعوا بعبء الاصلاح الاجتماعي الأخلاقي عقب الفساد الذي تركته الملكية العائدة من فرنسا بعد موت كرومويل ، واديسون ، وستيل بطلا هذا الاصلاح الناجع الفريد في بابه • ومنهم من كرس أعماله لاصلاح حال العمال عقب التطور الصناعي وزعيمهم دكنز ، او لاصلاح القانون الجنائي ومعاملة المسجونين تمشيا مع عصر النور والحرية ، ومن أولئك جالزورذي • ومن الأدباء الفكتوريين من صرف همه الى ترقية الجمهور والذوق العام بالمحاضرة عن الفن والأدب ، وكبير هؤلاء رسكن • وزادت هذه النزعة الاجتماعية الاصلاحية بتشعب نواحي الحياة حتى طمت في عصرنا الحاضر •

بل كان من أولئك الفكتوريين جماعة خاضوا ميدان الصناعة والتجارة ، فأنشأوا شركة لصنع الأثاث ، وكانوا يرسمون تطريز الأثاث بأنفسهم ، اذ ساءتهم الطرازات الشائعة في عهدهم ، وأنشأ أحدهم وهو الشاعر المصور وليم موريس مطبعة ومعملا للحبر لكي يطبع كتبه على النمط الذي يختاره وبالحبر الذي يفضله •

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانساني قاطبة ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وحاول انشاء مجمع جديد تسود فيه البساطة والمساواة والاخاء ، ومن هؤلاء شعراء عهد الثورة الفرنسية ، فالكتاب الفرنسية الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال روسو وفولتير اكتفوا بالعمل النظري وتركوا التنفيذ لغيرهم ، أما معاصروهم ومن جاء بعدهم من الأدباء الانجليز فحاول كثيرون منهم تنفيذ العمل بأنفسهم • وقد انتقل شيلي الى ايرلندة ثم الى أوربا لانشاء مدينته الفاضلة ، وان يكن قد مني بالفشل في الحالتين ، وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته اعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم في أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر •

أولئك بعض رجال العمل من اعلام الأدب الانجليزى المساهمين فى الحياة الاجتماعية بفكرهم ومجهودهم . وما نخالنا واجدين مماثليهم بين اعلام أدبنا : فقد كان من يتوفر على الأدب من أبناء العربية ينصرف كما تقدم عما عدا الأدب ، ويقصر أدبه على التعبير عن خوالجه الفردية وذكر مآربه وحبه وشرابه وغضبه ورضاه ونعيمه وشقائه . ويكاد لتوفره على الأدب لا يجد قوت يومه ان لم يكن له مورد سهل . ويضطر الى التقرب الى مولى يمتدحه ويفوز بأعطيته . وقد كان هذا من دواعى استطالة هذه الظاهرة فى الأدب العربى : ظاهرة المدح التى سرعان ما تلاشت من الأدب الانجليزى .

والقليلون من أعلام الادب العربى الذين شاركوا فى الحياة العملية انما صنعوا ذلك جريا وراء مطامعهم الشخصية لا دفاعا عن مصالح اقوامهم . ولذا كان أقصى همهم أن يستوزروا للحكام . ولم يدر بخلدهم مناقشة سياسة أولئك الحكام . وانما ظلوا أبواقا لهم وكتبة مجيدين . ومن ثم كان ما يتصل بالسياسة من ذخائر الادب العربى هو الرسائل الديوانية التى دبجها أولئك المنشئون على لسان أمرائهم .

والمجيدون من أعلام الأدب العربى الذين ساهموا فى حياة العمل بمناهضة السلطة القائمة كقطرى بن الفجاءة مثلا قلائل . وكان جلهم فى صدر الاسلام . ومن لم يفعل ذلك منهم طلبا لغاية شخصية فعله لعقيدته الدينية حين كانت العقائد الدينية مضطرمة فى الصدور .

لقد كان الشعر والخطابة فى الجاهلية أداتين من أدوات الحياة العملية والسياسية فى ذلك المجتمع البدوى . فلما جاء الاسلام كان فى أصوله شوريا يخول الرعية مشاورة راعيها . ولكن دولته قامت على بقايا الملكيات المستبدة القديمة . فقامت الخلافة العربية على غرار تلك الملكيات التى تجمع الأمر كله بيدها . ولم يعد الخليفة يشاور اذا هو شاور رعيا لحق الرعية عليه بل التماسا للرأى ان أعوزه . ولا هو كان ملزما باتباع مشورة غيره . وصار من المسلم به أن الحكم للأمير لا دخل للرعية فيه . وبدهى أن الأدب الذى ينمو فى مثل هذه الظروف يظل مكفوفا عن شئون السياسة كما كانت بقية الرعية مكفوفة . فهذا سبب انعزال الأدب العربى عن السياسة .

فالأدباء ممثلو اممهم : ففى انجلترا حيث كان الدستور والحياة النيابية هما العقيدة التى يدين بها الشعب شارك الأدباء كما شارك غيرهم من أفراد الشعب فى الحياة السياسية وتوطيد اركان الحرية . وفى الأقطار

العربية حيث كانت الملكية المطلقة هى القاعدة أحجم الأدباء عن خوض غمار السياسة كما كان بقية الشعب محجما ٠

ولقد خفف من وطأة الحكومة المطلقة على الأدب أن أكثر الخلفاء والامراء كانوا أدباء أو عشاقا للأدب ، وكانوا جميعا يقربون رجال الأدب ويغدقون عليهم ، على أن هذه الحالة كانت لها مساوئها بجانب مزاياها : اذ زخر أدبنا دون غيره من الآداب العالية بأشعار المديح والتهنئة والاستجداء ، وشتان بين أدب ينمو فى ظلال الحرية والاستقلال ، وآخر بين قيود الرعاية والحماية والمنحة ٠

كان الدستور محور السياسة فى انجلترا ، وكان الدين محورها فى الاقطار العربية ، فعليه انقسمت الأمة أحزابا فى أول الأمر ، ومنه انبعثت الفتن والثورات وقامت الأسر الحاكمة وتقسمت الامبراطورية العربية دولا ودويلات ، وبحافز منه جاهد المسلمون الروم ثم الفرنجة ٠ كان الدين فى كل هذه الأطوار مبعث النشاط السياسى وزناد الروح الوطنية والقومية ، ولا ترى الشعر العربى يحفل بالحماسة وروح القومية الا فى عصور الجهاد تلك ٠

فالحياة الديمقراطية فى انجلترا كانت العامل الأول فى اتسام الأدب الانجليزى بالنزعة العملية ومساهمته فى الحركات السياسية والاجتماعية ، واختراع الطباعة كان عاملا آخر ساعد اتصال الأدباء بالحياة الاجتماعية واعتمادهم على جمهور القراء بدل الاعتماد على منح الأمراء ، ونتج من توثق هذا الاتصال نشوء الصحف الدورية فكانت عاملا جديدا فى هذا الميدان أعقبه تعميم التعليم ٠

فعاملا امتلاء الأدب الانجليزى بالنزعة العملية هما الحياة الديمقراطية أولا وانتشار المطبوعات ثانيا ، وقد كان كلا العاملين يعوزان الأدب العربى، ومن ثم يزخر الأدب الانجليزى بالشئون الاجتماعية والسياسية والوطنية بينما يقتصر الأدب العربى على وصف المشاعر الانسانية العامة وتصوير حالات النفس وأطوار الفرد ٠

الأثـــر الأجنبى (★)

فى الأدبين العربى والانجليزى

تتفق اللغتان العربية والانجليزية فى خروجهما من جزيرة منعزلة ، وانتشارهما فى امبراطوريتين متراميتين ، وفى تأثر أدبيهما بهذا التوسع العظيم وبالاختلاط بالأمم الأخرى وآدابها ، ولكنهما يختلفان فى كيفية هذا التأثر ونواحيه ومداه ، لاختـــلاف الظروف التى اكتنفت قيـــام الامبراطوريتين .

فقد صحبت قيام الدولة الاســلامية ظروف أربعة كان لها أبعد الأثر فى تاريخها السياسى وفى تاريخ أدبها : فهى أولا قد قامت على أساس دعوة دينية تنتظم الأمم ، وتسوى بين الناس ، وتعد المؤمنين بهـا من مختلف الأجناس اخوانا . وهى ثانيا جاءت مبكرة غاية التبكير ، ولم ينقض على تاسيس الدولة العربية الأصلية فى الوطن الأصلى ــ جزيرة العرب ــ غير سنوات قلائل . وثالثا تم تأسيسها بسرعة نادرة المثال فى التاريخ نتيجة نجاح العرب الحربى الباهر ، وأخيرا انبسط سلطانها على أمم تفوق العرب الفاتحين غنى وحضارة وثقافة .

هذه العوامل الاربعة ــ بما انطوت عليه من خير وشر ــ كانت حاسمة فى مستقبل الدولة العربية . فمســاواة الاســلام بين الناس ــ مساواته بين العرب الفــاتحين وبين الأعاجم المغلوبين ــ هيأت لهؤلاء أن ينافسوا العرب فى الحكم والرياسة وكافة أسباب الحياة . وقيام الامبراطورية مبكرة قبل أن تتوطد الدولة فى وطنها الأصلى من جهة جعل قبضة الوطن الأول على ممتلكاته واهيــة سرعان ما انحلت ، وانفصلت جزيرة العرب أو كادت عن بقية الامبراطورية وعادت الى ركودها الأول ، وخرجت منها عاصمة الحكم ، ومن جهة أخرى جعل الحكم الفردى المطلق هو النظام الوحيد القادر على ادارة تلك الأصقاع المترامية ، فأهملت الشورى التى حض عليها الاسلام ، والتى كانت مرعية قبل أن تمتد اطراف الدولة وتخرج العاصمة من الجزيرة . وسرعة تأسيس الامبراطورية

(★) بدءا من هذه المقالة استخدم فخرى أبو السعود مصطلح (الادب المقارن) كعنوان لمقالاته .

عمر الفاتحين بطوفان من الثروة نشر الترف والفساد نشرا يزرى (١) بكل ما عرفته روما عقب فتوحها شرقا وغربا • وامتداد سلطان العرب على أمم تفوقهم حضارة وثقافة جعل من الحتم استعانتهم بأبناء تلك الأمم فى الادارات والصناعات التي لم يكن لهم بها عهد من قبل •

وقد استفاد العرب من سياسة المساواة والتسامح والعدل التى جروا عليها فى ادارة امبراطوريتهم أن انتشر دينهم ولغتهم فمحقا الأديان واللغات السابقة فى معظم أملاكهم وحلا محلها • ولكن دولتهم جاءت ــ من جراء أربعة العوامل آنفة الذكر ــ شعوبية لا عربية صميمة ، مستبدة الحكومة ، مترفة المجتمع ، متنافرة العناصر ، منطوية على عناصر كثيرة من عناصر الانحلال •

★★★

كانت الظروف التى لابست قيام الامبراطورية الانجليزية وانتشار اللغة والأدب الانجليزيين عكس هذه تماما : فقد توطدت الدولة الانجليزية فى وطنها الأول توطدا تاما مدى قرون قبل أن تتجه الى التوسع الخارجى، واقتبس الانجليز حضارة جيرانهم وثقافتهم حتى صاروا فى مقدمة الأمم • فلما راحوا ينشرون سلطانهم لم يخضعوا أمما تفوقهم مدنية كما كانت حالة العرب مع الفرس ، أو حالة الرومان مع الاغريق ، وتكامل بناء امبراطوريتهم تدريجيا مع سير الزمن وتطور الحوادث ، فلم يبتلوا (بضم الياء) بسيل مفاجىء من الثروة والترف يزعزع دعائم مجتمعهم ويوهن متانة أخلاقهم ، ولم يكونوا بسبيل دعوة دينية أو انسانية تسوى بين القاهرة والمقهور ، بل كانوا وما زالوا يعتبرون رسالتهم اخضاع الآخرين وحكمهم لا مساواتهم بأنفسهم ، ومن ثم ظلوا متعالين عن الأمم المغلوبة مستأثرين بالكلمة العليا دونها متحاجزين عن أفرادها فى المجتمع لا يخالطونهم ولا يزاوجونهم الا فيما ندر •

لذلك كله قامت دولتهم انجليزية صميمة . واتسق للنظام الديمقراطى أن يزداد تمكنا مع ازدياد اتساع الدولة ، بعكس ما كان فى حالتى العرب والرومان ، وظل للوطن الأول فى الامبراطورية الانجليزية المقام الأول ، وبقيت به حاضرة الحكم التى تجمع سلطتها الأطراف وتؤثر فى غيرها من أجزاء الامبراطورية أضعاف ما تتأثر بالغير •

★★★

(١) يزرى : يعيب ويعاتب عليه •

تلك الظروف التى صاحبت امتداد الامبراطوريتين واختلاط الأمتين بالعناصر الأجنبية كان لها جميعا أعظم أثر فى تاريخ أدبيهما كما كان لها أثر فى تاريخها السياسى ، وهو أثر مزدوج يشمل معالجة أبناء الأمم المفتوحة لأدب الأمة الغالبة ، كما يشمل اطلاع أبناء هذه الأخيرة على آداب الأمم المقهورة ، وهنا أيضا يتباين الأدبان العربى والانجليزى ٠

فالعرب قد سمحوا للمسلم من أية أمة أن يباريهم فى معاناة أدبهم كما باراهم فى شئون الحرب والحكم ، فما لبث الأجانب الداخلون فى العربية أن بذوا العرب فى هذا الباب بحكم قديم ثقافتهم وتليد(٢) حضارتهم كما بذوهم فى غيره ، وما لبثوا أن صار منهم أئمة الأدب العربى ، واستأثروا أو كادوا بكتابة الدواوين ووزارة الخلفاء وصلات الأمراء ٠

ولم يكن من الخير فى شىء للادب العربى أن يتسلط عليه أولئك الغرباء الواغلون ، وكانت لهم فيه آثار سيئة : فهم مهما تكن ثقافتهم ومهما بلغ انكبابهم على دراسة العربية غرباء بطبعهم عن الأدب واللغة والذوق الأدبى العربى وتقاليده ومراميه ، فلم يكتبوا أو ينظموا على السجية بل كانوا دائما مقلدين متعلمين : قلدوا متقدمى العرب تظاهرا باندماجهم فى العربية ، فكانوا عنصر تقليد ومحافظة ، لا عنصر ابتداع وتجديد فى الأدب ، وتعملوا فى اللفظ تظاهرا بتفقههم فى اللغة ، فأدخلوا الصنعة والبهرج والزيغ فى الأدب بدل أن يوسعوا أغراضه ويسموا بمعانيه ٠

فسريان العنصر الأجنبى الأعجمى فى الأدب هو مرجع تغلب الصنعة على الطبع فى كثير منه ، ومرجع تغلب نزعة التقليد على نزعة التجديد فى كل عصوره ٠ وكفى بهذين داعيا الى جمود الأدب ثم تدهوره ٠ ولا شك فى أنه لو بقى الأدب وقفا على العرب الصميمين ، وظلت الكلمة العليا للعرب فى الدولة ، وظلت هذه الدولة محدودة المساحة لا تتجاوز كثيرا حدودها الطبيعية ، لجاء الأدب أقرب الى الطبع وأحفل بمظاهر الفن وأوسع مدى وأسمى أفقا وأطول عمرا ، ولكان له تاريخ غير الذى كان ٠

أما الأدب الانجليزى — وسنن الانجليز التى جروا عليها فى توسعهم واتصالهم بالأمم الأخرى هى ما قدمنا — فكان أقطابه بعد قيام الامبراطورية — كما كانوا قبلها — انجليزا أقحاحا (٣) يعبرون عن الطبع الانجليزى

---

(٢) تليد : قديم وأصيل ٠

(٣) اقحاحا : (قح) : أى خلا من الشوائب الغريبة ٠

والبيئة الانجليزية ؟ ويفقهون روح لغتهم وتراث أدبهم ، ويصدرون عن تقاليدهم المجيدة ، فلا غرو أن جاء الأدب الانجليزى طبيعيا فنيا صادق التعبير سامى المقصد بعيدا عن التكلف ثوارا على الجمود ·

فهذا فرق ما بين الأمتين فى الاتصال بالأجانب ، وهناك فرق بينهما فى الاتصال بآداب أولئك الأجانب لا يقل خطورة عن سابقه · فالعرب الذين قبلوا الأعاجم أندادا فى دينهم ولغتهم وأدبهم ترفعوا عن آداب تلك الأمم ، ولم يروا بأنفسهم ــ وهم معادن البلاغة وفحول الخطابة ، ولغتهم لغة الدين والدولة والقرآن ــ حاجة الى الاطلاع على آداب غيرهم ، فنظروا الى الأدبين الفارسى واليونانى وغيرهما شزرا ، وخسروا بذلك كثيرا وضاق أفق أدبهم كثيرا لاعتزاله غيره ·

على حين أن الانجليز الذين ضنوا بقوميتهم وترفعوا عن سواهم من الأمم فى الحكم وفى المجتمع لم يترفعوا عن آداب تلك الأمم الجديرة بالدرس ، فانتفعوا قبل توسعهم وبعده بالآداب الايطالية والفرنسيه والألمانية ، بله (٤) آداب الأمم البائدة من اغريق ورومان ، أوسعوا ال ذلك درسا واطلاعا ونقلا ، فأخصبوا أدبهم أى اخصاب ، ووسعوا أطراف لغتهم ذاتها · وعلى هذا النحو استفاد الانجليز بخير ما فى الآداب الأجنبية دون أن يفقدوا شخصيتهم فى غمار تلك الآداب ، أو يسمحوا للأثر الأجنبى أن يفسد ملكتهم الاصيلة وطبعهم الخاص ·

فالظروف التى أحاطت باتصال العرب بغيرهم ، وتأثر أدبهم بالآداب الأجنبية ، والسنن التى استنها العرب فى معاملة الأجانب ، لم تكن خير ما يساعد الأدب العربى على النمو الصحيح والازدهار الطويل ، واللغة العربية المحكمة البناء ، البارعة التعبير ، الغنية الجوانب ، التى أينعت تحت سماء البادية لم يتح لها فى أرض الحضارة من يوجهون بليغ أساليبها أحسن التوجيه الى دراسة النفس الانسانية ووصف المجتمع البشرى ، وكان رقيها العلمى فى ظل الامبراطورية الاسلامية أعظم بكثير من رقيها الأدبى ·

---

(٤) بله : ناعم رخى ·

طور الثقافة

في الأدبين العربي والانجليزي

يمر أدب كل أمة بثلاثة أطوار كبرى تتبع في عهود رقي الجماعة : فطور الهمجية يليه طور البداوة ويلي هذا طور الحضارة ، وفي الطور الأول لا يكون للأدب وجود مستقل بنفسه ، بل يكون الشعر تعبيرا ساذجا عن بسيط العواطف ممتزجا بالغناء والرقص ، ويكون النثر شذورا من الخرافات والمعتقدات المتوارثة عن الآلهة والجان وقوى الطبيعة . ويأتي الطور الثاني بارتقاء عقلية الجماعة بممارستها أعمالا أرقى وأدق واختلاطها بالأمم الراقية ، وفي هذا الطور يتميز الشعر ويستقل عن غيره من الفنون وتتسع جوانب النثر . ولكن يظل الشعب على رغم ارتقائه العقلي فطريا متبديا ، حتى اذا عبر هذا الطور الى طور الحضارة ازداد ترفا في الحياة ومارس العلوم المنظمة وعرف الكتابة . فظهر في أدبه أثر الثقافة والفن والصناعة .

وقد مر الأدب العربي بالطور الثاني من هذه الأطوار في عهد الجاهلية وصدر من الاسلام : ففي ذلك العهد كان العرب على جانب يعتد به من الرقي العقلي لمزاولتهم التجارة ووقوفهم على حضارة الفرس والروم، وفي ذلك العهد نضجت اللغة العربية نضجا عظيما وبلغ الشعر من الرقي شأوا (١) بعيدا ، بيد أن الأدب ظل فطريا بعيدا عن أثر الثقافة والدراسة والتدوين والصنعة ، ثم نهض العرب نهضتين علميتين في مدى قرنين : أولاهما بظهور الاسلام ونزول القرآن وفتح الأقطار ، والثانية بترجمة علوم الأقدمين ، وبذلك انتقل الأدب العربي الى الطور الثالث من أطوار رقيه : طور الحضارة والثقافة .

وقد انتقل الأدب الانجليزي الى هذا الطور أيضا بنهضتين متواليتين: الاولى في القرن السادس عشر بوصول حركة احياء علوم الأقدمين ــ اليونان والرومان ــ من أوربا الى انجلترا ، والثانية في القرن التاسع عشر عقب التقدم الصناعي العلمي الذي كانت انجلترا رائدته وكان من أبنائها كثير من أئمة النهضة العلمية الحديثة في علوم الفلك والحياة والطب والنفس وغيرها .

---

(١) شأوا : (الشأو) أي الأمد والغاية .

ويلاحظ أن هناك اختلافا في توالى النهضتين في الامتين : فقد كانت نهضة العرب العلمية الأولى داخلية وليدة الدين الذى نشأ بين أظهرهم ، وكانت الثانية خارجية آتية من نقل علوم الأمم الاخرى ، بينما فى انجلترا جاء هذا النقل عن الأقدمين أولا ثم كانت النهضة التالية داخلية نتيجة لتحسين أبناء البلاد لما نقلوه من علوم غيرهم ٠

وقد أوفى العرب على الغاية فى الشغف بالعلوم والجد فى تحصيلها، وأظهر امراؤهم من التقدير للعلم وأهله والرغبة فى خدمته والبذل فى سبيله ما لم يظهره ملوك دولة في التـــاريخ ، وكانت رعايتهم للعلماء ــ بعكس ما كان تقريبهم للشعراء ــ جليل النفع بعيد الأثر ٠

وكان للعرب من اللغة العربية الرحبة الجوانب ، الطيعة الاسلوب، الغنية بطرائق الاشتقاق ، خير معوان فى جدهم فى درس العلوم ، وامتلأت جوانب اللغة بضروب الدراسات والثقافات ، وكان رقيها العلمى فى عهد الدول الاسلامية يفوق كثيرا رقيها الأدبى : فبينما ظل أدباء الجاهلية دائما أساتذة للمتأخرين يحتذونهم فى الأدب ، أمعن علماء الاســلام وفلاسفته فى مذاهب من التفكير والبحث لم يسمع بها الجاهليون ولا خطرت لهم على بال ٠

ولم يقصر أدباء العربية عن غيرهم فى تلك الحلبة العلمية المحتدمة، ولم يكونوا دون سواهم شغفا بالعلم وطلبا لشوارده ، بل كان أكثرهم مثقفين ثقافة علمية وأدبية عالية ، وقد تلقوا علومهم على طريقة عهدهم : فمن نشأ فى يسار أحضر له المؤدبون ، ومن ترعرع فى بيت علم وفضل قام أبوه بتاديبه ، ومن قصر به جده عن هــذا وذاك تنقل بين الأدباء واختلف الى العلماء حيث كانوا يجلسون للدرس ، أما المدارس والجامعات فلم تنشأ الا متأخرة ، قبيل بدء عهد الركود الفكرى ، ولم يكد يتخرج فيها علم من أعلام الأدب ٠

وكان من خصــائص الثقــافة الاسلامية ترامي أطرافها واختلاف أجناس الخائضين غمارها وشمولها شتى العلوم والمذاهب والعقائد من متفرق الأمم وامتزاج العلم بالأدب والدين بالفلسفة فيها ، وقد ظهر أثر كل هذا فى المؤمنين وفى مؤلفاتهم : كانوا طموحين فى طلبهم العلم يبغون تمثل كل ما فى عصرهم من مناحي التفكير ، وكانوا كذلك طموحين فى مؤلفاتهم يحبون أن يودعوها كل فن ٠ ولو أردنا أن نشير الى الأدباء الذين نالوا حظا عظيما من الثقافة لأحصينا أكثر أدباء العصر العباسى الزاهى بين

القرنين الثانى والخامس الهجرى . ويكفى أن نذكر من الشعراء المعرى الحكيم المعنى بشئون الكون والفلك والحياة الاجتماعية ، ومن الكتاب الجاحظ العالم الكلف (٢) بدراسة الحيوان وتذوق كل قديم وجديد وقريب وبعيد فى الحياة والكتب ، والذى كان — كما قيل — يستأجر المكتبات ليلا ليبيت فيها يستوعب محتوياتها .

تماثل الكتاب والشعراء في الأخذ من الثقافة بنصيب ، ولكن كان الكتاب على العموم أوفر حظا من الثقافة عامة ومن العلوم خاصة ، واقتصر بعض الشعراء على الدراسة الأدبية ، لأن الكتاب كانوا يترشحون للوزارة وكتابة الدواوين والولاية وتأديب أبناء الأمراء ، ولابد لتلك المناصب من دراية واسعة والمام شامل ، لأن كثيرا من الشعراء لم يكن للشعر عندهم غاية وراء استدرار الصلات والجوائز ، ولم تكن وظيفته عندهم تسجيل الآراء والخوالج النفسية ، فلم يكن بهم كبير حاجة الى دراسة العلوم التى تهذب الفكر ، بل كان حسبهم أن يقفوا على مذاهب القول التى سلكها المتقدمون من الشعراء المداحين ، والبحترى أبرز أولئك الشعراء الذين عاشوا فى صميم عهد الثقافة (٣) بنجوة عنها ، فقد كان حريصا على استبقاء السذاجة البدوية ، وجاء أكثر ديوانه الضخم مدحا لمن يرجو عندهم العطاء ، وهجوا لمن خيبوا منه ذلك الرجاء .

كان أعلام الأدب الانجليزى كذلك علىجانب عظيم من الثقافة — وقد حصلوا — عدا من قعدت بهم ظروف غير مواتية كشكسبير وجونسون — علومهم فى الجامعات التى أخذ نظامها عن العرب وأصبحت مواطن العلم والدرس ، ونبه صيت بعضهم وهم ما يزالون طلابا بها ، وتشترك ثقافتهم مع ثقافة أدباء العربية فى الاشتمال على الفلسفة اليونانية ، ولكن بينما كانت دراسة الأدب العربى القديم تتم الباقى من ثقافة الأديب العربى ، كانت دراسة الأدب اليونانى تكمل ذلك الجانب من ثقافة الأديب الانجليزى . ومن ثم كان معظم الأدباء الانجليز ملمين باللغتين اليونانية واللاتينية ، ولمعرفة اللغات أثرها العظيم فى تكوين الأديب وتوسيع أغراض القول ، ويكثر الالماع الى اليونان والرومان : تاريخهم وأساطيرهم ومشهورى رجالهم فى الأدب الانجليزى ، كما تكثر الاشارة الى الجاهلية والجاهليين فى الأدب العربى .

---

(٢) الكلف : المحب المولم .

(٣) بنجوة عنها : بعيد عنها .

ويتشابه رجال الأدبين فى الرحلة عن الوطن فى نشدان العلم : فقد كان أدباء العربية يطوفون في البلاد فى طلب أئمة العلوم يلزمونهم ، وفى طلب نوادر الكتب يستنسخونها ، وربما أضافوا الى ذلك حج البيت الحرام . وكذلك جرت سنة الأدباء والمتعلمين عامة من ذوى اليسار الانجليز على الارتحال بعد نيل درجاتهم العلمية الى أوربا وخاصة الى ايطاليا مبعث النهضة الأوربية . وربما أضافوا الى ذلك الحج الى آثار بلاد الاغريق مهد العلوم والآداب والفنون القديمة . ولهذه الرحلة عن الوطن ــ فضلا عن كسب العلم ومصاحبة العلماء ــ أعظم الأثر فى تكوين نفس الأديب وتوسيع أفق حياته .

وكان لانتشار الثقافة فى الأمتين آثاره المتشابهة فى الأدبين : فارتقيا خيالا وأسلوبا وأغراضا ومعانى ، واتسعت جوانبهما ، وظهر فيهما التفنن والصنعة المقصودة . وظهرت لغة علمية دقيقة التعبير بجانب لغة أدبية أنيقة التحبير (٤) ، وظهرت روح النقد وتجلت نزعة الشك من جراء اصطدام العلوم المستحدثة بالعقائد الموروثة ، واشتدت المنازعات الأدبية، واحتدمت المشادات بين أنصار القديم وأتباع الجديد . وظهرت آثار المذاهب الفلسفية واصطلاحات النظريات العلمية فى رسائل الكتاب وقصائد الشعراء ، ونبغ من المثقفين من يجمعون بين صناعتى العلم والأدب .

ولا ريب فى أن هذا الطور الثالث من أطوار رقى الأدب التى أشير اليها فى صدر هذه الكلمة ــ طور الحضارة والثقافة ــ هو أرقى ما يصل اليه الأدب وفيه ينال ما قدر له من أسباب الكمال . وفيه أنتج الأدب العربى خير نتاجه ، فالأدب لا يبلغ غايته الا فى حضارة تحيط به ، وثقافة تغذيه، وروح نقد تستحثه . وقد دام هذا الطور الأدبى فى العربية زهاء ثلاثة قرون حافلة ، تخلف لنا منها تراث زاخر يشهد بشغف العرب بالعلم وولوعهم بالأدب ، ثم عملت عوامل الفساد السياسية والاجتماعية عملها، فاضطرب المجتمع ، وجمدت الأفكار ، ودخل الأدب فى طور تدهوره الطويل .

(٤) التحبير : (حبر الشيء) أى زينه ونمقه .

الفـــكاهة

فى الأدبين العربى والانجليزى

اذا انطوت الفكاهة على صادق حكمة أو نافذ نظرة ، وأودعت العبارة المحكمة اللائقة بها ، كانت فى الفرد دليل صفاء الذهن ولطافة الحس ، وفى الأدب مظهـــر الرقى والحيـــوية ، وفى الأمة عنوان التحضر ورقة الطبع . والفكاهة عند ذلك لا تقل مكانة عن أرزن الجد ، بل ربما بذته وكانت مرآة لميول الفرد والمجتمع أصدق تصويرا من مرآة الجد الخالص ، والأدبان العربى والانجليزى حافلان بضروب الفكاهة وأوضاعها ، يتفقان فى بعضها ويفترقان فى بعض آخر ، تبعا للأحوال الاجتماعية .

واذ كانت الفكاهة كمـــا تقدم دليل التحضر ورقة الحاشية ، قلت آثارها فى الأدب العربى حين كان أقرب الى البداوة زمن الجاهلية ومستهل الاسلام . ففى أدب ذلك العهـــد نرى آثار اللسن (١) وحضور البديهة وقوة العارضة (٢) ، ونخطىء مظاهر الدعابة الدمثة والعبث الرقيق . وما نحسب الا أن الرسول (ﷺ) الذى كان يمزح ولا يقول الا حقا كان يمتاز من معاصريه — فى جملة ما امتاز — بلطف الروح وعذوبة الدعابة ، فقد أثرت عن صحابته المقربين وخلفائه الراشدين أخبار تنبىء عن متانة الخلق وحرارة الايمان وقوة الجلد والكفاح ، ولم يؤثر عن كثير منهم براعة الدعابة ولا الميل الى الفكاهة .

فلما استوطن العرب الأمصار ، واصطنعوا حياة الدعة والاستقرار ، وتذوقوا الحضارة والترف ، ظهرت نتائج كل ذلك فى أدبهم ، وكثرت الفكاهة فى الشعر والنثر ، بل ظهرت طوائف من المجان المتظرفين الذين يصطنعون خفة الروح ويتهكمون بالجد والجادين من رجال العلم والدين، جاعلين شعارهم قول أحدهم ابن هانىء :

دع عنك ما جدوا به وتبطل   واذا لقيت أخا الحقيقة فاهزل

---

(١) اللسن : الفصاحة والبلاغة .

(٢) العارضة : قدرة على الكلام .

ومن أظهر مواضيع الفكاهة فى العربية التبرم بالثقلاء ، والنيل من البخلاء ، ووصف الأكولين والمطفلين ، والتهكم بمدعى العربية من الموالى ، وعبث المجان بالمتخشعين المتورعين ، والسخرية بالمنهزمين من القواد والمقاتلين ، وكل هذه أبواب من القول منتزعة من حياة العرب فى ذلك العهد . وكلها صفات مضادة لما كان الرجل ذو المروءة الحريص على حسن الأحدوثة يتحلى به أو يحب أن يعرف عنه ٠

وتفنن المتهكمون بالبخلاء ، فتحدثوا عن وعودهم المطولة ، وحجابهم الغلاظ ، وهباتهم الضئيلة : كالطيالس (٣) التى تتجنى الذنوب على الرياح ، وتعرف الطريق الى الرفاء ، من كثرة ترددها عليه صباح مساء ٠

ومن بارع التهكم بأدعياء النسبة العربية قول بشار :

ارفق بعمرو اذا حركت نسبته فانه عربى من قوارير

ما زال فى كير حداد يردده حتى غدا عربيا مظلم النور

ويشترك الأدبان العربى والانجليزى فى أبواب من الفكاهة خاصة ، لعلها تستثير روح العبث فى النفس الانسانية على اختلاف الأجيال والأمم، كالمتحذلقين من أهل الفنون من شعراء وممثلين ومغنين والمدعين لتلك الفنون وأشباهها ٠ فالتحذلق والادعاء سببان خالدان من أسباب ولوع الناس بالمتصفين بهما ، وما يزال المرء بخير حتى يدعى ما ليس له ويتكلف الاغراب ، والنفس الانسانية بطيئة متثاقلة الى الاعتراف بفضل الأغيار ، دع عنك الاعتراف بالفضل لمن يدعيه وليس من ذويه ، هناك تثور النفوس وتلجأ الى أقسى أسلحتها وهو التهكم ٠

فشكسبير يسخر على لسان «هاملت» من متحذلقى الممثلين فى عصره، ويجعل الثائرين المطالبين بدم قيصر ينصرفون هنيهة عن وجهتهم الى مهاجمة شاعر لغثاثة شعره ، والجاحظ يقول فى صاحب له متحذلق متعالم : « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، وليس فى يده من جميع الآداب الا الانتحال لاسم الأدب » ، وابن الرومى أوسع من لم يحمد من المغنين والمغنيات تهكما ، وصور أحدهم أقبح صورة فى قوله :

وتحسب العين فكيه اذا اختلفا
عند التنغم فكى بغل طحان

---

(٣) كالطيالس : الطيلسان وهو ما يعرف بالشال والجمع طيالس ٠

وفى الأدب الانجليزى ضروب من الفكاهة منتزعة من مجتمعه الخاصة: كالتهكم بالمدعين النبل الاجتماعى ، والمحدثى النعمة ، والمتشدقين بضخم الكلمات لا يفقهون معانيها ، ذلك أن المجتمع الانجليزى - على كون نظامه الحكومى ديمقراطيا - هو أرستقراطى شديد التفريق بين الطبقات ، يتعالى النبلاء فيه عن الدهماء تعاليا لا يقل عن ترفعهم عن أبناء الشعوب الأخرى ، ويكاد يجعلهم أمة داخل أمة ، وبعض العصاميين الذين يؤثلون (٤) ثرواتهم فى ميادين الأعمال أو فى المستعمرات يتطلعون الى الانغمار فيهم ، ويتشبهون بهم تشبها يتعلق بالظواهر ويستثير السخرية. أما التشدق بضخم الكلمات فمرجعه الى تكون اللغة الانجليزية من أصول كثيرة أبرزها اللاتينية الوعرة الألفاظ الكبيرة المشتقات .

ففى كثير من القصص والروايات الانجليزية يظهر الأشخاص المتصنعون السمو الاجتماعى المتكلفون رقة المظهر ودماثة الحديث ، والآخرون المكاثرون باطلاعهم على اللغات الكلاسية المقحمون الجافى الألفاظ فى أحاديثهم ، خالطين صحيحها بخطئها ، حتى ليقولون عكس الذى يقصدون أحيانا .

وللفكاهة مجال رحب فى القصة ، حيث يتحرك الأشخاص ويعملون أعمالهم ويتبادلون الأحاديث ، ومن ثم تحفل القصص والروايات الانجليزية ببارع النكات ، وفكه اللفتات ، ومضحك المواقف والشخصيات، ونجد الكثير من ذلك فيما قارب القصة من أوضاع فى الأدب العربى : ففى مقامات بديع الزمان ورسالة الغفران للمعرى فكاهات وسخريات هى غاية فى الامتاع والبراعة .

والفكاهة من أمضى أسلحة الاصلاح الاجتماعى ، وقد استخدمها لهذا الغرض بعض فرسانها من الأدباء الانجليز . والمجال لها متسع فى الأدب الانجليزى ، حيث التمثيل والقصص يصوران المجتمع وينقدانه ، وفى المجتمع الانجليزى، حيث النقد النزيه مباح وحيث للرأى العام القول الفصل فى الحكم على الأنظمة والتقاليد . أما فى الأدب العربى فقلما اتجهت الفكاهة اتجاها اجتماعيا ، بل ظلت فردية كغيرها من أغراض الأدب ، اذ لم يكن الحكم المطلق الذى خضعت له الدولة العربية بمساعد على نمو النقد واشتداد ساعد الرأى العام .

---

(٤) يؤثلون : يدخرون المال ليستثمروه .

وهناك لون من الفكاهة يرمي به المتفكه الى ضد ما يقول : فيتقنع بالجد وهو يبغى الهزل ، ويبدى الوقار ويخفى العبث ، ويتظاهر بالمدح والقدح يريد ، ويغالى فى التفخيم قاصدا التهوين · ويدعى هذا الضرب من الفكاهة بالانجليزية Irony ، وربما أمكن تسميته « التندر » ، والأدب الانجليزى حافل به ، ولعله يناسب الطبع الانجليزى ، وهو شديد المضاء (٥) فى أيدى الناقدين لأحوال المجتمع · ومن فرسانه المجلين (سويفت) · أما فى العربية فهذا النوع من الفكاهة نادر ، ولعل أصلح مثال له مقطوعة المتنبى التى نظمها حين رأى أعرابيين يتفاخران بقتل جرذ ، ومنها يقول :

وأيكما كان من خلفه ؟ فان به عضة فى الذنب

وقول بشار وقد تفاخر أمامه رجل بأنه شاعر من نسل شعراء : « اذن أنت من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ·

ويشترك الأدبان فى ضرب من الفكاهة هو هجاء المرء نفسه وضحكه من عيوبه · على أنه فى كلا الأدبين غرض من القول متكلف ، يطلب به التظرف ويعوزه الصدق والعمق · فالانحاء على النفس بالتثريب (٦) ليس خلقا فى الانسان بله الأديب ، والذى يتصنع نقد نفسه لا يضع يده على مغامزه وعوراته الصحيحة ، ولا يسطر لنفسه الا مدحا بما يشبه الذم ، ولو رماه غيره بما يرمى به نفسه طلبا للظرف لثار به وأنكر مزاعمه أشد انكار ·

ولما كانت المرأة الانجليزية أكثر بروزا فى المجتمع والأدب من المرأة العربية ، فقد نالت دونها حظا عظيما من مداعبة الأدباء الذين أوسعوا غرائزها ومتناقضات أفعالها درسا وتصويرا · ومن أبرع من كتبوا فى ذلك (بوب) الذى نظم قصيدة طويلة على طراز الملاحم الكلاسية أودعها وصفا دقيقا لأحوال فتاة جعلها نموذج المرأة فى مجتمعه ، من احتفالها بالأزياء وتذبذبها بين المعجبين بها ، الى كل صغيرة وكبيرة فى حياتها المنزلية والخارجية فى أسلوب متهكم شائق ·

---

(٥) المضاء : حادا ·

(٦) بالتثريب : اللوم ·

ومن الفكاهات ما قوامه التلاعب بالألفاظ المتشابهة فى النطق أو الكتابة ، وقد كان هذا العبث اللفظى شائعا على عهد شكسبير الذى ضرب فيه بسهم ، ثم أهمل بعد ذلك في الانجليزية واستثقل ٠ أما فى العربية ــ حيث كانت للألفاظ عند الأدباء دائما مكانة عالية ــ فظل هذا الضرب من التفكه مألوفا ٠ فأبو نواس يوافق مدعيا للنسبة العربية على انتمائه الى طى ، ولكن مع اضافة نون وباء فى أول الكلمة ٠ ويقول فى بخيل :

وما خبزه الا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى فى حزون ولا سهل

وقد ازدهرت الفكاهة فى الشعر العربى فى صدر العصر العباسى ، وبرز فى مضمارها فى أجيال متتالية طبقات على رأسها بشار فأبو نواس فدعبل فابن الرومى ، وتمتاز فى شعر الأولين بالاستهتار ، وفى شعر الثانى بالصرامة ولذع السخرية ، وفى شعر الأخير ببراعة التصوير ٠ وازدهرت الفكاهة فى الشعر الانجليزى فى العهد الكلاسى أى فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ، وهو العهد الذى اشتد فيه الأثر الفرنسى فى الأدب والمجتمع الانجليزيين ، وكان من فحول الفكاهة فيه سويفت وبوب ودريدن ٠

والحق ان ذلك العهد هو أشبه عهود الأدب الانجليزى بالأدب العربى ، ففيه انضوى الأدب حينا تحت جناح الملكية وسار فى ركاب الحاكمين ، واختلط بالسياسة وخاض غمارها ، وانغمر فى جو المدنية واهمل جانب الطبيعة ، وتأنق فى اللفظ وأغرب فى المعنى ، واحتدمت الخصومات الأدبية السياسية بين رجاله مماثلة لما كان بين جرير والفرزدق ، وبشار وحماد ، والبديع والخوارزمى ، من مصاولات ومقارعات ، وولع الأدباء بالوزراء والقواد ، وفشت الفكاهة واتخذها فريق سبيلا للمجون ، وفريق ذريعة للنقد الاجتماعى والاصلاح ٠

وقد نظم دريدن أحد فحول ذلك العهد قصيدة هجاء لشاعر مزاحم له افعمها بالتهكم المكسو بثوب الجد ، وبوأ غريمه « عرش الغباوة » فى جو من الجلبة والمراسيم والمراكب والشارات مماثل لتتويج الملوك ، وجعله يلى ذلك العرش معهودا اليه من شاعر غبى من شعراء الجيل السابق ابجيليهما ٠ ولهذا القصيد الساخر مماثل فى النثر العربى شديد الشبه به ، وان يكن قد كتب قبله بنحو ثمانية قرون ، أعنى العهد الذى كتبه الصابى على غرار عهود الخلفاء والأمراء الى عمالهم ، على لسان مطفل أكول الى آخر هو المقصود بالدعابة ، وقد بدأه بقوله : « هذا ما عهد به على بن

أحمد المعروف بعليكا ، الى على بن عرس الموصلى حين استخلفه على احياء سننه ، واستنابه فى حفظ رسومه ، من التطفيل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها (٧) وأكنافها ، ويجرى معها فى سوادها (٨) وأطرافها ، لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم » ٠

وتتسم الفكاهة فى الأدب الانجليزى على العموم بالعفة التى هى سمة الأدب كله كما سبق ذكره فى كلمة سالفة ، أما فى الأدب العربى فتهوى أحيـــانا فى يد الهجائين الى حضيض السـباب ، وفى يد المجان المستهترين الى وهدة الأفحاش ٠ وتتعلق الفكاهة الانجليزية بالصفات والأخلاق والأعمال وتكشف المتناقضات من آراء الناس وأقوالهم ، وفى العربية يتناول العبث الخلق (بفتح الخاء وسكون اللام) بجانب الخلق (بضم الخاء واللام) ٠ فدعابات ابن الرومى ملأى بذكر أعضاء الجسم من أنوف وأقفية ولحى ، وعيوبه من حدب وصلع وعور ٠ ويشبه المبعوث بهم بالحيوان ، فيقول حماد وقد زعم بشار أن له جنيا يوحى اليه :

اذا خادب الجنى قردا مشنفا فقل لخنازير الجزيرة أبشرى

وفى كلا الأدبين فحول من الأدباء نأى بهم طبعهم عن الفكاهة ، وسما بهم قصدهم فى الحيـاة عن العبث ، واتسمت آثارهم وحيـاتهم بالجد والعبوس ، منهم فى الانجليزية ملتون ووردزورث ، وتنيسون ، وفى العربية المتنبى والشريف والرضى ، وأمثال أولئك عادة ذوو مطامع بعيدة يستغرق نشدانها أنفسهم ، أو رسالات لا ينفكون عن النظر اليها ، أو مثل عليا يحسون أن التفكه يهبط بهم من عنانها ٠

---

(٧) ارباضها : ما حول المدينة ٠

(٨) سوادها : قراها ٠

أسباب النباهة والخمول

فى الأدبين العربى والانجليزى

المارسون للآداب نثرا ونظما فى كل أمة وفى كل جيل أكثر من أن يعدوا ، لأن الافصاح عن خوالج النفس وتأثراتها بما تحس وما ترى طبعى فى الانسان ، وانما ينبه من أولئك الممارسين للآداب القليلون ويخلد الأقل . يميزهم من غيرهم سداد الفكر ولطف الشعور وروعة الأسلوب ، ومن أولئك يكون أعلام كل أدب ، ترفعهم عبقريتهم فوق رؤوس معاصريهم وتمشى بهم على عواتق(١) الأجيال .

غير أن للمصادفات والحظوظ والظروف دخلا كبيرا أو صغيرا فى صعود الأدباء وهبوطهم ، فتعدل أحيانا وأحيانا تجور . والأرجح أنها كانت كثيرة الجور والاجحاف فى الأدب العربى ، وكانت أشبه بالعدل والانصاف فى الأدب الانجليزى ، فقد صاحبت الأدب الانجليزى ظروف طبيعية مساعدة تسمح للعبقرية الفردية أن تسلك سبيلها غير معتاقة(٢) ، وأحاطت بالأدب العربى عوامل عارضة أدت الى رفع بعض من لا يستحقون الرفعة بجوار من يستحقونها ، والى خفض من هم أولى بالرفعة والنباهة .

فقد ترعرع الأدب العربى ونضج وقومه أميون لا يقيدون فى القرطاس آثار أدبائهم وأخبارهم ، وانما يروونها رواية ويتوارثونها تواترا جيلا بعد جيل ، والرواية أقل من الكتابة نصيبا من الدقة وحفظ الآثار والتمييز بين الغث والسمين والبصر بما يستحق البقاء ، فكان من جراء ذلك أن ضاع شعر كثير ونثر أكثر ، واندثرت أخبار أدباء لعل منهم من كان أجدر بالخلود وأجدر باعجاب الأجيال التالية ممن خلد ، ولم يصلنا من أخبار قرون طويلة قبل الاسلام وبعده الا كل مبتور غير مستوثق .

فلما صارت الرواية صناعة يطلب بها علو الذكر ودر الرزق وتقريب الأمراء ، كان ذلك ضغثا (٣) على ابالة ، اذ اشتد عبث الرواة

---

(١) عواتق : العاتق : ما بين المنكب والعنق والجمع (عواتق) ..

(٢) معتاقة : اعتاقه أى عوقه ومنعه .

(٣) ضغثا . ملتبسا ومضطربا يصعب تأويله ..

بما بين أيديهم من الأدب العربى ، وشوهوه بالبتر والوصل والاختراع والنحل ، وحملهم تنافسهم بسعة العلم على تخليد أسماء أنصاف الأدباء وأشباه الشعراء ، وخلقوا شعراء وفصحاء لم يخلقوا من قبل ، وعزوا الى غيرهم من الآثار ما هم براء منه،وهكذا خمل من رجال الأدب من عاشوا فى عالم الأحياء ، وعاش فى الأدب من لم يشهدوا نور الحياة ٠

ولما استعملت الكتابة الخطيــة وقل الاعتمــاد على الرواية ، ظلت الكتب نادرة والاستنساخ أمرا غير يسير ، ولم تكن الكتب فى شىء من الكثرة التى صارت اليها بعد انتشار الطباعة ٠ ثم تعاورت (٤) الدولة العربية الغزوات البربرية المدمرة ، فأباد الوثنيون فى الشرق ، والنصارى فى الأندلس ، كرائم المؤلفات ونفائس الكتب العربية ، فذهبت بذهاب ذلك آثار أعلام من الأدباء واندثر ذكر آخرين ٠

وكان للمشادات والمقارعات الدينية والمذهبية والعصبية والسياسية والجنسية التى صحبت قيام الدولة الاسلامية ولازمتها فى حياتها يد طولى فى العبث بالتراث الأدبى ، فأخمل ذكر أدباء انهزم حزبهم أو انخذل مبدؤهم ، ونشر عمدا ذكر من ناصروا الغالبين فى كل تلك الحلبات ، وتبارى الغالبون والمغلوبون فى العبث بتراث أســلافهم الأدبى ونســبة الروايات الملفقة اليهم ، ولهم من انتشار الرواية وندرة الكتابة خير معوان٠

ويتصل بهذا تقريب الخلفاء والأمراء لرجال الأدب ، لا برا بالأدب ولكن طلبا للأبهة وبعد الصيت ، فقد أصبح اتصال الشاعر أو الأديب بالخليفة أو الأمير ضمان النباهة وسيرورة آثاره فى البلاد ، كما كان الاخفاق فى التقرب الى أولئك الحاكمين داعيا فى كثير من الأحيان الى خمول الأديب ، فندر من أعلام العربية النابهين من لم يتصل بالخلفاء والوزراء ٠ ولا يسع المرء الا أن يتصور أن عصور أبى نواس ومسلم بن الوليد وأبى تمام والبحترى كانت حافلة بأندادهم ، وانما خلصت بهؤلاء لطافة حيلتهم الى حضرة الأمراء فاشتهروا ، وعثر بغيرهم مسعاهم فخملوا٠ ولقد خمل ذكر ابن الرومى طويلا وانه لأشعر ممن ذكروا جميعا ، ولعل من أسباب خمول ذكره فشله فى الاتصال بالخلفاء والوزراء ٠

ولما استرقت جوائز الملوك أعناق الشعراء ، وأعمل هؤلاء الحيل ، وأذالوا الشعر فى استرضاء الممدوحين واستجداء الأثرياء ، ترفع كثير من ذوى الشرف والاباء عن الهبوط الى ذلك المجال ، وأحجموا عن نظم الشعر أو التوفر عليه أو الاشتهار به ، ولسان حالهم قول الشافعى :

---

(٤) تعاورت : تداولت ٠

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

وان يكن أبو تمام يقول :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فانما كان يعنى شعر المتقدمين من جاهليين ومخضرمين ممن تغنوا فى شعرهم بالنجدة والمروءة والعزة ، وما نخاله كان يعنى الشعر الذى كان ينظمه هو وأضرابه تمليقا واستجداء للرؤساء ٠

وبذلك حرمت العربية طائفة من الشعراء لعلهم أسمى طباعا وأشرف أغراضا وأصدق شاعرية وأشد حبا للفن من مرتزقة المداحين الذين استأثروا بالجوائز ونباهة الذكر ٠

ولما فسدت الفصحى تدريجيا باختلاط العرب بالأعاجم ، اشتد الحرص على آثار المتقدمين وتعاظم الاعجاب بهم والرفع من شأنهم ، لا لشيء سوى صحة لغتهم واستقامة أساليبهم ، وان كانت أفكار كثيرين منهم على جانب من السذاجة ، وأغراض شعرهم على حظ من البساطة ، كالحطيئة وابن أبى ربيعة وكثير من الجاهليين ٠

فهذه عوامل شتى فعلت فعلها البعيد المدى فى التراث الأدبى العربى ، وساعدت على اعلاء ذكر رجال وخفض آخرين ، وهى ندرة الكتب والاعتماد على الرواية ، والأغراض المذهبية ، وتسخير الأمراء للشعر ، وتكسب الشعراء به ، وفساد لغة الكلام ، وكوارث الغارات ٠ تحكمت كل هاتيك فى أقدار الأدباء وحظوظهم من النباهة ، ولم يكن مرد أمرهم دائما الى النبوغ الشخصى والذوق الناقد ، فلا نبعد عن الصدق اذا قلنا ان الأدب العربى لم يحتو على خير عناصر المجتمع العربى أو يمثله أصح تمثيل ، وان سجل تاريخ الأدب العربى لا يحتوى على جميع أفذاذ الموهوبين من أصحاب البيان الذين أنجبهم المجتمع العربى ٠

ومن ثم احتل مكان الصدارة من تاريخ الأدب العربى بعض من لا يستحقون ذلك المكان ، ومن لا يعبرون خير تعبير عن أفكار عصورهم وشعورها ، ومنهم من نال من رفيع الذكر ما هو أهله ، ولكنه لم ينله لمزاياه الصحيحة وأسرار نبوغه الحق بل لمساعدة بعض تلك العوامل السالفة الذكر له ، فقد كان وما يزال من النقاد من يعظم المتنبى لا لأشعاره الصادقة التى أودعها عصارة روحه الكبير ، بل لاختراعاته الكاذبة فى مدح سيف الدولة وتهنئته وتعزيته ، من مثل قوله :

اذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى أغمادها تتبسم

وبجانب تلك النباهة غير المستأهلة أو المبنية على غير أساسها الصحيح ، خمول ما كان أحق أصحابه بالذكر والتمجيد ، ولقد قال البحترى :

اذا أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

ولعله هو خير من يعلم كم أخملت الدنيا بنباهته من شعراء ، حين وفقه الحظ دونهم الى الاتصال بالولاة والخلفاء .

فمن أفذاذ الخوارج أمثال قطرى بن الفجاءة وشبيب بن يزيد من كانوا أسمى غرضا وأشرف شعرا ونثرا من معاصريهم المداحين ولكنهم أخمل منهم ذكرا . ومن الأبيات السائرة المجهولة القائلين ما تشمل حكمة يقصر مداها أشباه بشار وأبى نواس ، أو تحوى نسيبا تزرى روعته بكل ما لفق فى صدور المدائح من نسيب مصطنع ، أو تعبر عن شاعرية صحيحة ما كان أحرى صاحبها أن يتوفر على اثراء اللغة بفيض قريحته ، ولكن طوفان تلك العوامل القاسية غمره ورفع غيره ، فمن تلك الآثار الشاردة قول القائل :

أهابك اجلالا وما بك قدرة على ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

وقول الآخر :

اذا زرت أرضا بعد طول اجتنابها
فقدت صديقى والبلاد كما هيا

فاكرم أخاك الدهر ما دمتما معا
كفى بالممات فرقة وتنائيا

ولم يخل الأدب الانجليزى من آثار الاجحاف وتقلب الظروف : فامام شعرائه شكسبير لم ينل فى حياته مثل ما له اليوم من مكانة ، وخمل ذكره بعد مماته أجيالا . وعلا شانه خارج انجلترا قبل أن يعلو فيها . وقريعه (مضاربه) فى سماء الشعر الانجليزى ملتون قضى أواخر حياته فى غمرة من النسيان لانخذال مذهب المطهرين الذى كان هو لسانه الناطق ، وباع ملحمته الذائعة الصيت لوراق بدراهم معدودة ، وظل حقبة

مهملا · وكبير النهضة الرومانسية وردزورث قضى زهرة عمره منبوذا معرضا عنه · · وبعكس ذلك سما تنيسون فى حياته الى أوج الشهرة والاعجاب ، ولم يكد يقضى نحبه حتى هبط ذكره وانصرف الجيل التالى عن شعره ·

على أن تلك كلها أمثلة لتقلب الأذواق بتعاقب الأجيال ، وهو أمر طبيعى لا محيد عنه · وقد خلا الأدب الانجليزى أو كاد من تلك الظروف العاتية التى لابست الأدب العربى وتحكمت فى مصائر رجاله : فقد شب الأدب الانجليزى من عهد اليزابث وقد اخترعت الطباعة ، واطرد رقى الطباعة وانتشار الكتب والصحافة والتعليم مع اطراد رقى الأدب ، ولم يخضع الأدب طويلا لسيطرة الحكام ، وظل مرد الأمر فى تقدير الأدباء الى الرأى العام المتعلم الذى يقيم (بضم الياء الأولى وتشديد مع كسر الياء الثانية) الأديب لفنه الخالص ، فان رانت على بصيرته غشاوة من تقليد موروث أو مذهب سائد أو مشادة محتدمة فى السياسة ، لم يلبث بعد أن ينجلى ذلك أن يعود الى انصاف من أجحف بهم واسقاط من لم يستحقوا سالف تقديره ·

فالى أمرين اثنين يدين أعلام الأدب الانجليزى فى مراحله المتتالية بنباهتهم وخلودهم : نبوغهم الشخصى ، والذوق العام · وليس بين أقطابه الذين يعتد بهم من لا تؤهله عبقريته لما أوليه فى تاريخ الأدب من مكانة ، أو من هو مدين بخلود ذكره الى أهواء السياسة أو أغراض الحاكمين أو دسائس الأحزاب أو تحريف الرواة أو عبث النقاد ·

فالنابهون فى الأدب الانجليزى أكثر استحقاقا لمكانتهم من النابهين فى الأدب العربى ، والخاملون المغبونون فى هذا الأخير أكثر منهم فى الأول ، والأدب الانجليزى بما أحاط به من ظروف مواتية أسهل تأريخا ودرسا من الأدب العربى · وهذا الأخير محتاج الى مراجعة ودرس طويل وتأريخ جديد غير التأريخ الذى جرى عليه العرف حتى الآن ليمنح كل أديب حقه من التقديم أو التأخير ، ويزحزح عن الصدر من لا تؤهلهم له آدابهم ونظـراتهم فى الحيـاة ، ويستنقذ من يستطاع استنقاذهم من غمرة الخمول ·

الطبيعـــة

فى الأدبين العربى والانجليزى

الطبيعة الف الشاعر الحميم ، وتوأم روحه ، ومرتع فكره ومتاع بصره ، ومهبط وحيه ، ومعاهد متعاته وذكرياته ، الى ظلالها يسكن ، وبين محاسنها يهيم ، وعندها ينفض أوشاب (١) العيش ويطرح أعباءه ، ويستريح فكره الذى أضناه التعب ، ونفسه التى أضجرتها معاشرة الناس، وتتهادى اليه عذارى الشعر طائعة ، وتسلس اليه شوارد الأفكار مقادها ، ويظل يلتفت الى ماضى أوقاته بين مباهجها بحنين عذب ، ويأمل معاودتها بقلب شيق ، فلا غرو أن يكون للطبيعة فى نفس الشاعر المطبوع مكان أثير ، وفى أدب الأمة الراقية منزلة رفيعة ٠

وقد نالت الطبيعة لدى أدباء الانجليزية فى أغلب عصورها هــذه المكانة التى هى بها جديرة : فعكفوا جيلا بعد جيل وأديبا اثر أديب على وصف مظـاهرها وعبادة مفاتنها ، وملأوا جانبـا كبيرا من نظمهم ونثرهم بأوصاف الوديان اليانعة ، والربى الحالية والأمواه الجارية ، والأطيار الصادحة والأفلاك الدائبة والغيوث (٢) الساجمة ، ووصفوا الطبيعة فى حالى رضاها وغضبها ، وابترادها ودفئها ، واكتسائها وعريها ٠

وتوســلوا للتعبير عن فــرط هيامهم بمحاسنها المتجــددة بشتى الوسائل : فبثوا أوصافها فى رواياتهم الشعرية وقصصهم النثرية ، كما فعل شكسبير وهاردى ، وطاروا على أجنحة الخيال الى الوديان السحرية ، والغابات المجهولة ، والشواطىء النائية ، يرصعون كل أولئك ببــدائع الأوصاف ونفثات العواطف ، وعبادة الجمال الطبيعى ، متخذين مسرحا لتمثيل ذلك خرافات الأقدمين كما كان يفعل سبنسر وكولردج وتنيســون وبراوننج ، أو جنات الفردوس كما فعل ملتون ٠

---

(١) أوشاب : الهموم والحزن ٠

(٢) الساجمة : الغزيرة ٠

ومن أولئك الشعراء من يدينـون بخلودهم لأوصـافهم الطبيعيـة الرائعة ، وقلما يهتم أحد اليـوم لما نظمه في النسيب أو الاجتماع أو السياسة ، مثل تنيسون ، بل منهم من لم يكد يؤثر عنه قول في غير الطبيعة ، أو تخـلو قصيدة له من أثر لها ، مثل وردزورث . ولا غرو فالطبيعة مادة الشعر وصميمه ، ولربما عرض في القصيدة قد نظمت في أي غرض كان بيت أو بيتان يحويان وصفا طبيعيا بديعا ، فاذا هما يرفعان من قدرها ويحببانها الى النفوس ويكونان سبب اشتهارها وسيرورتها .

ولا ندحة (٣) عن القول بأن الطبيعة لم تنل هذه الرعاية ولم تحتل هذه المكانة في الأدب العربي ، ففي العربية لا ريب أوصاف طبيعية بالغة غاية الجودة ، ولكنها قليلة اذا قيست بنظائرها في الانجليزية ، قليلة اذا قيست بما نظم أو نثر في العربية ذاتها في غير الطبيعة من أغراض ، فليس ما قيل في وصف جمال الطبيعة ببالغ عشر معشار ما قيل في التشبيب بالجمال الانساني ، ولم يعرف من شعراء العربية من قصر شعره على التغني بمباهج الطبيعة . وان منهم لمن قصر قوله على النسيب بهند وليلى وأترابهما .

وقلما جاءت أوصاف محاسن الطبيعة مقصودة لذاتها مستقلة بنفسها في قصيدة أو رسالة ، بل كان ذكرها غالبا يأتي عرضا كأنها غير جديرة وحدها بالتفات الشاعر وتكلفه عناء النظم ، وكانت تستعار مظاهرها وأحوالها لبيان أغراض أخرى عن طريق التشبيه ترصع القصيدة بفنونه ، وجاء أصحاب المجموعات الشعرية الذين اختاروا صفوة أشعار العرب في أقوى عصور الأدب ، كأبي تمام والمفضل الضبي ، فما أفردوا للطبيعة بابا من أبواب مختاراتهم ، وانها لأجدر بالصدر .

وكان فحول الشعراء ينصرفون عن وصف محاسن الطبيعة التي تكتنفهم ، ومفاتن الجنات الزاهية التي كانت مهاد (٤) الدولة الاسلامية ، بمروجها وأنهارها وجبالها وأجوائها ، الى وصف قصور الأمراء وحدائقها ونافوراتها وبركها الصناعية ، فالبحتري يعرض ببصره عن جبال لبنان الفاتنة متجها الى مقاصير ابن خاقان :

تلفت من عليـــا دمشق ودوننـــا ‏ للبنـــان هضب كالغمام المعلق

---

(٣) ندحة : سعة .

(٤) مهاد : الأراضي المنخفضة _ المستوية .

الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ذممت مقامى بين بصرى وجلق
رباع من الفتح بن خاقان لم تزل غنى لعديم أو فكاكا لمرهق

ولابن المعتز وابن حمديس وابن خفاجة شهرة بوصف الطبيعة ، ولكن كثيرا من أشعارهم يتسم بالفتور ويصطبغ بالصنعة وترين عليه مسحة التكلف والتظرف ، وتنقصه حرارة الهيام بالطبيعة والامتزاج بروحها والنفاذ الى خفى معانيها وأسرارها ، وتجرى فى أشعارهم تشبيهات تكررت حتى ملت : فالأصيل ذهب والحصباء در والنسيم ينسج من الماء درعا ، ويفسد الكثير من تلك الأشعار الحرص على حسن التعليل كقول ابن حمديس فى نهر :

جريح باطراف الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخريره

فشتان بين خرير النهر الحى المتدفع وبين الجراح والشكوى والأوجاع ، وأمثال هذا القول تدل على شعور زائف وملاحظة سطحية .

وبعض أولئك الشعراء اذا استهزتهم فتنة الطبيعة وصفاء الأوان ، نظموا فى ذاك أبياتا شفعوها للتو بدعوة لصديق أو عشيق أو نديم يناشدونه أن يتحفهم برفقته ويعجل لهم بالراح (٥) والأوتار (٦) ، فالبحترى بعد أن تأنق فى وصف الربيع قال :

فما يحبس الراح التى أنت خلها ؟ وما يمنع الأوتار أن تترنما ؟

وغيره يقول :

ولما حللنا منزلا طله الندى أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المقام وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانيا

ولا يدل هذا على كبير شغف بالطبيعة أو حسن فهم لجمالها ، وليس بمشغوف بالطبيعة ولا فاهم لأسرارها من لا تكفيه مفاتنها السافرة حتى يستعين لاكمال سروره بالسمر والغزل والغناء والسكر ، وان أحب ما تكون الطبيعة الى عاشقها الصادق لحين يصحبها وحيدا ، فهو يرى مفاتنها خير رفقة له وخير مؤالس لمهجته .

---

(٥) بالراح : بالخمر
(٦) بالأوتار : بالأفراد .

وقد حظى الربيع دون غيره من الفصول بالتفات شعراء العربية ، فكأن الربيـع وحـده هو فصـل الجمال والصفاء والحبور (٧) ، وبقية الفصول أوان لكسب الرزق واحتمال قبيح الحياة ، كما قال الطائى :

دنيا معاش للورى حتى اذا   جاء الربيع فانما هى منظر

ولو درى لعلم أن هذه الدنيا منظر لمن شاء أن يرى ويشعر فى كل الفصول وفى جميع حالاتها ومظاهرها ، وان للشتاء لروائعه وجاذبيته كما للربيع ، وان جميع مجالى الطبيعة وأشكالها لمسارح للب الشاعر ومجالات لفنه وتصويره ، وقد تغنى شعراء الانجليزية بفتنة الريف كما ترنموا بسحر الربيع ، واستجاشـهم غضب اليم وتجهم الأفق كمـا استهواهم صفاؤهما ووداعتهما .

ومن شعراء العربية من يضيق باعهم (٨) فى وصف الطبيعة قبل أن يقولوا فى المنظر المجلو أمامهم أبيـاتا ، ويدركهم العجـز والاحالة فيسبحون بقدرة البارىء ، ووحدانيته ، كما قال النواسى :

على قضب الزبرجد شاهدات   بأن اللـه ليس لـه شريـك

وقول ابى تمـام :

صبغ الذى لولا بدائع لطفه   ما عاد أخضر بعد اذ هو أصفر

فقدرة الخالق أمر لا شك فيه ، والاشارة اليها فى هـذه المواقف سذاجة فى القول والتواء فى استرسال الفكر ، وهرب من مواصلة التأمل والوصف ، والموقف موقف استمتاع بالجمال وتصوير له ، لا موقف وعظ وخشوع . وازن هذين البيتين بقول تنيسون فى زهرة ضئيلة : « أيتها الزهرة النامية بين شقوق الجدار ، ها قد انتزعتك أناملى ، وهأنت كلك محمولة فى كفى ، بيد أنى لو استطعت استكناه سرك لعرفت سر الله والانسان جميعا » فهذا شاعر يفكر ويتأمل ويتوق الى المعرفة ، وذانك شاعران يسلمان تسليم العجز ، فلا أجادا التصوير ولا استرسلا فى التفكير .

---

(٧) الحبور : النعمة والسرور .

(٨) باعهم : الباع هى المسافة ما بين الكفين اذا انبسطت الذراعان يمينا وشمالا .

فاغلب شعر الطبيعة في العربية ــ على قلته ــ تنقصه حرارة الشغف بها وطول مصاحبتها وممازجتها روحا بروح ، وادمان التأمل في محاسنها ومحاولة النفاذ الى معانيها ، وصدق التعبير عن وحيها ودقة الوصف لمجاليها المتعددة ، وظل الالتفات اليها دائما ثانويا ، والانتباه اليها عرضيا، والأنس بها وقتيا وشيك الزوال ٠

بل كان من فحول العربية من كان بينهم وبين الطبيعة حجابا كثيفا، فندر أن أعاروها بالا ، ولم يقع ذكرها في شعرهم ونثرهم ، الا وقوع الغلط كالمتنبي والشريف الرضى ، برغم كثرة أسفار الأول بين العواصم والفلوات ، وقد صرف الكتاب صناعتهم الى كثير من وجوه البيان ، فلم يختصوا الطبيعة بكبير عناية ، وتوخى بديع الزمان في مقاماته أن يضرب في كل ناحية من نواحي القول بسهم ، ليبدى براعته للقارئين ، الا الطبيعة فانها لم تفز منه بالتفات ٠

فالعربية تكاد تقفز من الوصف الطبيعى السامى المقصود لذاته ، لولا شاعر فرد هو ابن الرومي الذى تنطق أشعاره بحب للطبيعة عميق، وانجذاب لسحرها لا يدافع ، ونظر فى محاسنها وأغوارها نافذ ، وقد أنشأ لوصف مختلف مظاهرها قصائد كثيرة ، أودعها خير ما فى العربية من وصف الجنان والفلوات ، والأصائل والأسحار ، والغيم والمطر ، والطير والوحش ، وشعره فى كل هـذا يضـارع أسمى ما فى الشعر الانجليزى ٠

وضآلة حظ الطبيعة فى الأدب العربى راجعة الى عوامل متتابعة توالت على الأدب فى مختلف عصوره ، فحالت دون أن يكون ترجمانا صادقا مبينا لشعور أصحابه فى هذا الباب ، وهى أولا بداوة العرب فى أول تاريخهم ، وثانيا تكسب الشعراء بشعرهم فى عهد الحضارة والدولة ، وثالثا شدة محافظتهم وتقليدهم للمتقدمين وأخيرا تغلب الصنعة اللفظية فى عهد تدهور الأدب ٠

فوصف محاسن الطبيعة وآثارها في النفس وصفا مسهبا محكما مقصودا لذاته عمل فنى لا يتأتى الا باعمال الفكر ورياضة (٩) النظم ، وهو ما لا يتيسر فى عهد البداوة ، فضلا عن أن المناظر الصحراوية واحدة متكررة صارمة لا تحفز الى التصوير الشعرى المسهب كما تحفز الى التأمل

---

(٩) ورياضة : راض اى ذلل القوافى الصعبة ٠

في الخالق ورهبته وحكمة صنعه ، وقد ظلت هذه النزعة الدينية التي بثتها البادية في نفوس العرب ، وكانت التنشئة الدينية في العصور التالية تنميها فيهم منذ الصغر ، مصاحبة لهم فيما بعد ، تغلبهم على الاستمتاع بروائع الجمال الطبيعي وآيات الفن الانساني ، فنرى شاعرهم اذا وقف بمنظر فتان أو أثر خلفه القدماء فسرعان ما ينصرف عما ثمت (١٠) من معاني الجمال أو القوة الى التسليم بعظمة الخالق وضعف المخلوق وفناء الأفلاك وسقوط الجبابرة ، وقد سبق التمثيل لشيء من ذلك ، والبحتري يقول :

أناة أيها الفلك المدار أنهب ما تصرف أم جبار ؟

ستفنى مثل ما تفني وتبلى كما تبلي فيدرك منك ثار

ولما تحضر العرب وشاهدوا الأقطار الواسعة ونعموا في الجنات اليانعة ، ودخل أدبهم في طور الثقافة والصناعة الفنية ، ظهرت آثار الوصف الطبيعي في بعض أشعارهم ، ولكنها كانت قليلة كما تقدم ، وعمهت (١١) عيون أكثر الشعراء عن محاسن الطبيعة وأسرارها في غمار المدينة ، حيث تكأكأوا (١٢) متزاحمين على عطايا الأمراء ، وزهدهم في وصف المناظر الطبيعية قلة ما ورد منها في شعر المتقدمين الذين كانوا يترسمون خطاهم ، حتى اذا كان عهد الاضمحلال الأدبي غلب التظرف واصطناع الرقة والنكتة اللفظية على الشعر ففقد كل روح وحرارة .

أما الأدب الانجليزي فلم يخنقه جو المدينة أو يرهقه تقليد القدماء الا في عصر محدود ما لبث أن بددته النهضة الرومانسية التي كانت في جوهرها عودة الى الطبيعة أي الى الشعر الصحيح وبين النقاد المحدثين من يأبى قبول ما نظمه أقطاب العهد الكلاسي في عداد الشعر الصحيح ، وفيما عدا ذلك العهد كانت الطبيعة دائما قبلة الشعراء شغفهم بها حبا أسران : تعدد مجاليها (١٣) وتتابع تقلباتها واختلاف صورها في بلادهم ، ودراستهم للشعر الاغريقي الحافل بالصور الطبيعية ، ويتجلى أثر هذا العامل الأخير في المقطوعة التي نظمها كيتس معبرا عن شديد حبوره وبالغ متعته عقب قراءة ترجمة الالياذة .

---

(١٠) ثمت : الشمام هو قريب سهل التناول .

(١١) عمهت : لم يدر وجه الصواب فيه .

(١٢) تكأكأو : تجمعوا وازدحموا .

(١٣) مجاليها : أجلى أي حسن الوجه ومنها تجلى وجمعها (مجالى) .

بيد أن اللغة العربية ذاتها حافلة بالأسماء والأوصاف لشتى مظاهر الطبيعة وآثارها ، وحالاتها وأوقاتها ، غنية بكل ما يحتاج اليه الأديب القدير لينقل على القرطاس أى المناظر الطبيعية شاء ، نقل المصور الصناع، وهنا أيضا يبدو لنا التفاوت بين مقدرة اللغة واستعدادها ، وتقصير أدباء العربية فى عهد ازدهار الحضارة دون كثير من غايات الأدب ٠

أثر الدين في الأدبين

العربى والانجليزى

للدين فى أدب كل أمة أثر عميق متشعب ، بل هو أصل الآداب والفنون والعلوم ، تنشأ كلها فى الجماعات البدائية لخدمته ، ويستأثر بالتبحر فيها رجاله ، ثم تذيع عنهم فى بقية الشعب وتنفصل تدريجا عن الدين ، ويستقل كل منها بنفسه ، ويظل للدين مع ذلك أثر فيها قل أو كثر ، يؤثر فيها من جراء تأثيره فى المجتمع الذى تستقى منه العلوم والفنون ، هكذا كان الدين عند قدماء المصريين واليونان والرومان واليهود وغيرهم من الأمم .

ولا يشذ الأدبان العربى والانجليزى عن هذه القاعدة : فقد تأثر كل منهما بالوثنية أولا ثم بدين سماوى وكتاب منزل ، وشهد نهضة دينية كبرى كان لها أثر عظيم فى مجتمعه ، واختلط الدين بالسياسة فى كلتا الأمتين وتأثر الأدب بهذا الاختلاط ، وكان من رجال الدين فى الأمتين بلغاء ذوو أذواق أدبية أتحفوا أدب اللغة بآثار جليلة فى الحض على الفضيلة والكمال الروحى،وكان من أدباء كلتا الأمتين متشيعون للطوائف الدينية دافعوا عنها فى نظمهم ونثرهم .

شهد الأدب العربى أعظم النهضات الدينية طرا (١) بظهور الاسلام، الذى غير وجه المجتمع العربى وأغنى الأدب بخير ما فيه من الخطب الدينية والسياسية ، وان يكن الأدب الانجليزى لم يشهد نشأة النصرانية فلم تفته نهضة دينية عظيمة الشأن هى الاصلاح الدينى الذى شمل أوربا فى عهد الاحياء وامتد فى انجلترا الى القرن السابع عشر ، وانتهى بانتصار طائفة المطهرين ، وأنجب هذا العهد رهطا من الكتاب والشعراء المبرزين أمثال ملتون وبنيان ودن وهريك وهربرت وكراشو ، الذين خلفوا أحسن ما فى اللغة من أشعار الورع والطهر والسمو الروحى .

وحبت تلك النهضة الدينية الأدب العربى بكتاب سماوى لن يزال مثلا أعلى فى البلاغة ومعينا لا ينضب للبلغاء ، ومنذ ترجم الانجيل الى

---

(١) طرا : كان طريرا ذا رواء وجمال .

الانجليزية ترجمة بليغة ، كان له فضل عظيم على اللغة وعلى أدبها ، فقد أقام قواعدها ووضع أساليبها ، ولم يزل مثلا رائعا للسلاسة والامتاع ٠

واختلط الدين بالسياسة فى الدولة العربية ، وكان محور التقائهما مشكلة الخلاف التى اصطرعت حولها الأحزاب وقامت باسمها الدولات ، وامتزج الدين بالسياسة فى انجلترا عهدا ، وكان مدار امتزاجهما سلطة الملك وحقوق الشعب ، فالملكية تدعى الحق الالهى والسلطان المطلق فى شئون الدين والدنيا ، والشعب يريد الحرية فى كلا الأمرين ويجد سلطة الملك فى الناحيتين ، وتأثر الأدبان بهذا التداخل بين الدين والسياسة ٠

ويدين الأدب الانجليزى للديانة بثلاث أياد : الأولى وضع من أوضاع الأدب هو الروايه التمثيلية ، التى نشأت فى العصور الوسطى فى الكنيسة حيث كان يمثل عذاب المسيح وآلام الشهداء وخبائث ابليس ، وتمثل الفضائل والرذائل شخوصا متحاورة ، فمن هذا البدء الساذج نمت الرواية التمثيلية التى ازدهرت فى عهد شكسبير ، والتفتت الى دراسة الانسان والمجتمع ، واليد الثانية أثر أدبى خطير من نفائس الأدب الانجليزى ، هو ملحمة ملتون «الفردوس المفقود» ، التى أوحى اليه بها الروح الدينى الذى ساد عصره ، والعراك الدينى الذى خاض غماره (٢) ، واستعار مشاهدها ومعالمها من الانجيل الذى كان له فى عهده أسمى مكانة ، وأخيرا للكنيسة فضل على الأدب الانجليزى اذ كان من رجالها من ساعدهم الفراغ الذى ينعمون به على الانصراف الى الأدب ، بل كان منهم من ألحقوا بالكنيسة عمدا ليحظوا بذلك الفراغ وذلك الانصراف ، ومن مشهوريهم سويفت ودن وكنجزلى ٠

وليس فى الأدب العربى ما يقابل هذه الأيادى التى أسدتها الديانة والكنيسة الى الأدب الانجليزى : فقد أكبر المسلمون شخص نبيهم عن كل تمثيل وتشخيص ، وانتهت حياته بالظفر الأكبر لا بمأساة كمأساة المسيح ، وان يكن فى تاريخ الاسلام ما يشابه تلك المأساة فهو مصارع أبناء الامام على التى خلدتها الأشعار الباكية ، واذا كانت رسالة الغفران تشابه الفردوس المفقود فى امتداد مشاهدها فى العالم الآخر فهى تخالفها فى كل شيء آخر لاختلاف المؤلفين ، ثم انه لم تكن فى الاسلام هيئة دينية رسمية تكاد تقصر على أبناء العلية ومن يلوذ بهم كالكنيسة الانجليزية ٠

---

(٢) غماره : الغمرة أى الشدة والجمع غمار ٠

وفي الادبين العربي والانجليزي آثار طريفة للنزعة الصوفية ، التي هي من أسمى مظاهر الروح الديني ، وان خرجت عن مألوف المتدينين في أشياء ، وأنكر منها رجال الدين أحيانا أمورا ، واتخذت لها رموزها وطرقها الخاصة التي تستغلق على غير أربابها . وأظهر أصحاب هذه الطريقة الرمزية في الأدب الانجليزي بليك ، وأجزلهم في العربية شعرا وأسيرهم ذكرا ابن الفارض .

وجاءت النهضة العلمية والفلسفية بعد النهضة الدينية في كلتا الأمتين ، تمثل ذلك عند العرب في ذيوع الفلسفة اليونانية ، وعند الانجليز في ارتقاء العلوم المادية كعلوم الحياة وطبقات الأرض والكيمياء والطب ، وتطبيق نظرية النشوء والارتقاء عليها وعلى العلوم الاجتماعية ، فقام الصدام بين الدين والعلم والفلسفة ، وانعكس ظله في الأدب ، وأوضح مثال للشك العلمي في العربية شعر المعرى ، وفي الانجليزية شعر تنيسون وهاردى .

كان انتصار المطهرين الذين وضعوا أساس حرية الشعب الدينية والسياسية أوج احتفال الانجليز بالمسائل الدينية وظهور آثارها في أدبهم ، وبعدها هبط الى المحل الثاني من تفكيرهم ، ولم تقم له الا حركات ضئيلة الشأن في القرن الماضي ، اذ كان يحاول كل من فريقي البروتستانت والكاثوليك جمع الأنصار حوله ، وظهر في ذلك المعترك من الأدباء المتحمسين للدين جملة ، أشهرهم نيومان ثم تشسترتون المتوفى حديثا ، وكانت آراء داروين في منتصف القرن الماضي ضربة شديدة وجهت الى روايات الانجيل في شأن الخلق ، فانصرف جمهور الناس نهائيا عن التحمس للدين ورجاله ، وهكذا بعد الأدب الانجليزي عن الدين وتأثيره في العصور الحديثة بعدا كبيرا .

أما تأثر الأدب العربي بالاسلام فكان أشمل وأبعد مدى وأطول أمدا من تأثر الأدب الانجليزي بالمسيحية لأسباب عديدة : أولا أن الاسلام نشأ بين أظهر العرب فشهدوا مبعثه وجهاده وظفره على الوثنية ، وثانيا أنه كان أساس دولتهم وقطب (٣) سياستهم الداخلية ، وثالثا أنه ظل دائما مجاهدا أعداءه مغيرا تارة ومدافعا أخرى ، فكان قطب السياسة الخارجية أيضا في أحوال كثيرة ، ورابعا أنه كان بعد انتشاره محور العلوم والآداب

---

(٣) قطب : قوامه ومداره .

وكان القرآن أساس الثقافة التي يؤخذ بها الناشئون ، وخامسا أنه سوى بين الداخلين فيه فقام منهم مقام الوطنية في الأمم الأخرى ، وأخيرا انه بأحكامه يشمل أمور الدنيا شموله شئون الآخرة ، ويحيط بقواعد المجتمع الذي هو مبعث الأدب فلا غرو ان تأثر الأدب العربي في كل عصوره بالدين روحا ومظهرا وغرضا وأسلوبا ٠

فظهور الاسلام بين العرب ترك أثره في شعر الشعراء ، بين مهاجم له ومدافع عنه ومادح للرسول ﷺ ، وظلت مدحة الرسول في كل العصور غرضا من أغراض الشعر ، وجهاد الاسلام أعداءه فاتحا أو منافحا (٤) مدى القرون الطويلة ، تجلى أثره في خطب الخلفاء والقواد وأشعار المادحين للأمراء المنتصرين على الروم أو الوثنيين أو الأسبان أو الصليبيين ، لا سيما وقد كان ذلك دائما مصطبغا بصبغة القومية ، فقد كان الاسلام يجمع شعوبه في عصبية أمم واحدة ذات شعور مشترك وأعداء مشتركين ، ومن أشهر آثار ذلك كله في الأدب يائية أبي تمام في فتح عمورية ، ومدائح المتنبي لسيف الدولة ، وقصائد الأبيوردي ، والبهاء زهير ، وابن مطروح في الحروب الصليبية ، ومدائحهم للأيوبيين ، ومراثي الأندلس وصقلية ، كل هاتيك يخفق فيها الروح الديني ، ممتزجا بالوطنية والسياسة وتمجيد الدولة القائمة ٠

وفي داخل الدولة كان الدين ـ متمثلا في مسألة الخلافة ـ محور السياسة ومصطرع الفرق ومشتجر الآراء ولثام المطامع ولواء الثورات وشغل الشعوب ، فلم يكن هناك صراع بين ملكية مستبدة وشعب متشبث بحرياته ، ولم يكن هناك محافظون وأحرار ، ولا اشتراكيون ورأسماليون، ولكن كان هناك خوارج غلاة في الدين يحبذون الشورى ويقرون الخلافة في الأصلح لها ، وأمويون وعباسيون وعلويون ، كل منهم يدعي الامامة ، ومرجئة ومعتزلة يحظون حينا بتقريب البلاط ، ويستهدفون حينا لمقته ، وعامة الشعب في أغلب العصور مع شيعة علي لمكانة سلفهم العظيم من النبي وقدمه (٥) في الاسلام ، ولما حاق بالغطاريف (٦) من ذريته من تنكيل جمع بينهم وبين الشعب المقهور بعطف متبادل ٠

ومرآة كل ذلك جلية في أشعار أقطاب الخوارج ، ومتشيعي الشعراء من عهد الكميت وكثير والفرزدق ، الى زمن ابن الرومي الى عصر عمارة

(٤) منافحا : مدافعا ٠
(٥) قدمه : فسلمها عمر لها ٠
(٦) الغطاريف : الغطريف هو السيد الكريم والجمع غطاريف ٠

اليمنى الذى رثى دولة الفاطميين رثاء موجعا ، وفى أشعار طالبى الدنيا المناصرين للدولة القائمة المؤيدين لدعواها ، كمروان بن أبى حفصة ، وفى نثر زعماء المذاهب ونظمهم فى بيان آرائهم والنضح(٧) عن مبادئهم، كخطب واصل بن عطاء وشعر صاحب المرجئة الذى يقول منه :

نرجى الأمـور اذا كانت مشـابهة
ولا نحـاور فيمن جـار أو عنـدا

ولا نرى أن ذنبـا بالغ أحـدا
ما الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا

وشمول روح الدين أو مظهره لكل مرافق المجتمع وقواعده الدولة على هذا النحو ترك أثره فى الأدب عامة : اذ صبغ أكثره بصبغة الجد والرزانة والقصد فى القول واجتناب الايغال فى الخيال ، والولع بالحكم والعبر والأمثال ، ورغب الأدباء فى الأخبار الصادقة عن السلف من جاهليين واسلاميين ، وزهدهم فى الأساطير ومختلق الأحاديث ، والى رهبة الدين الذى كان عماد الدنيا والآخرة ترجع أشعار الزهد والوعظ التى يحفل بها الأدب كاشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس ، والى جلالته وجلالة الانتماء اليه ترجع مسحة التسامى والعفة التى ترين على شعر الشريف الرضى ٠

كان الدين دائما منبث (٨) الروح ، والا فمتجسم المظهر فى شئون الحياتين ، وان صدمته الأهواء السياسية كثيرا ، وغلبته الأهواء الفردية ، وتغافل عنه حماته فلم ينشطوا للذود عن حرماته الا أن يكون فى ذاك قضاء لمآربهم أو شفاء لسخائمهم ، حتى كان من المتناقضات حقـا أن الأدب العربى الذى ازدهر فى ظل دول اسلامية حوى من جرىء القول ما لم يحو غيره ٠

وخلاصة القول أن كلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر بدين قومه تأثرا بينا ، ولكن بينما كان تأثر الأخـير بالمسيحية مقصورا على عهود بذاتها وأمور بعينها ، ثم ركد أمر الدين ، وأحس الأدب أنه قد استفاد منه كل ما يمكنه أن يستفيد ، فانصرف عنه ، ظل للدين فى الأدب العربى مكانة عالية وأثر بعيد ، وسيظل له مثل هذه المكانة ومثل هذا الأثر ، فى كل أدب يدين مجتمعه بالاسلام وينطق بالضاد ٠

---

(٧) النضح : ناضح اى دافع ٠
(٨) منبث : نبث الارض : نبش ترابها وحفرها ٠

الخـــــرافة

فى الأدبين العربى والانجليزى

تفشو الخرافة — وهى الاعتقاد بالمستحيل عقلا — بين الجماعات الأولية ، حتى تشـمل ديانتهم وعلومهم وفنـونهم القليلة ، وعـرفهم وتقاليدهم ، لأن تلك الجماعات فى نشأتها كالطفل فى صغره ، قليلة الادراك للأسباب والمسببات، سريعة الانقياد للعواطف والأوهام والمخاوف. فلا تلبث أن تنمو بينها شـتى الأساطير ، تفسر بهـا قوى الطبيعـة ومظاهرها ، وتمجد بهـا أسلافها ، وتدعم كيان مجتمعها • هكذا كانت لقدماء المصريين خرافاتهم المتعلقة بواديهم ونهرهم ، وآلهتهم وفراعنتهم ، وكانت لليونان والرومان أساطيرهم التى تدور حول أعمال آلهتهم وحروبها، وحبها وغضبها •

وكانت للعـرب خرافات شتى ، انتزعت من حيـاتهم البـادية ، وما توحى الى النفس من رهبة وبأس ، بفلواتها وحزونها (سهولها) ، وسباعها وأنوائها (١) ، وحيكت حول الآلهة والجن والغيلان ، وحول أبطـالهم وملوكهم وغابر دولهم ، وتناولتها الأجيـال المتعاقبة بالزيادة والتهويل ، والتغيير والتبديل ، فى حوادثها ومشاهدها •

وكانت للانجليز فى عهود همجيتهم أساطير متشعبة ، مشتقة من حياة أهل الشمال ، المضطربة بين ظلمات الأحراج (٢) ومتون البحار ، حافلة بأخبار هجراتهم وغزواتهم ، ممتلئة بأوصاف شياطين البر والبحر، ممجدة لبلاء ملوكهم أمثال الملك أرثر ، وألفرد الأكبر ، فى دفع هجمات المغيرين الذين تعاوروا الجزيرة على كر العصور ، من رومان وسكسون ونورمانديين ، وتمازجت أساطير كل هؤلاء ، واختلط مسيحيها بوثنيها ، وجنوبيها بشماليها •

---

(١) أنوائها : النوء : النجم اذا مال للغروب والجمع أنواء •

(٢) الأحراج : الحرج : غيضة الشجر الملتفة لا يقدر أحد أن ينفـذ فيهـا والجمع أحراج •

والخرافة على ما بهـــا من مجاوزة للمنطق ونهـويل وتحـريف واستحالة ـ لا نقل عن حوادث التاريخ صدقا فى وصف احوال المجتمع الذى هى وليدته ، والبيئة التى هى نتاجها ، فالخرافة العربيه التى نمت فى الباديه ، مثلا ، ملأى بذكرى الغيـلان والسعالى والعنقاء ، وبأسماء العدائين الذين يسبقون الظبـاء ، وحديدى النظر يرون القـادم والمغير من رأس أميال ، كزرقاء اليمامة • والخرافة الانجليزية التى ترعرعت فى الغابة ودرجت على أثباج (٣) اليم حافلة بحكايات عرائس الغاب وآلهة البحار ، ومناظر الغسق والضباب •

على أن الخرافتين تلتقيان ، والمخيلتين تتقـابلان فى نواح ، حتى لتخال احـداهما صـــدى للأخرى أو محاكاة لها ، لولا بعد الأمتين فى تاريخيهما بعدا يحول دون كل محاكاة أو اقتباس ، فأخبار تأبط شرا ، وسليك بن السلكة وأشباههما من شذاذ العرب وطريدى العرف والمجتمع، مماثلة لحكايات روبن هود وأصحابه الذين كانوا يعيشون على اقتناص الظباء فى غابات ملك انجلترا ، وقصة مقتل أحد أقيال (٤) اليمن على يد أخيه الطامع فى عرشه ، التى وردت فى كتب الأدب العربى وروى فيها شعر لشاعر يدعى ذا رعين ، منه قوله :

فأما حمير غدرت وخانت   فمعذرة الاله لذى رعين

واستشارة الخائن للعرافين قبل اقتراف جريمته ، والخدعة الحربية التى لجأ اليها جيش ابن الملك القتيل من استتار كل مقاتل بشجرة اقتلعها فى طريقه وحملها أمامه ، حتى بدا الجيش كأنه غابة تسير ، كل ذلك مشابه للحوادث التى اتخذها شكسبير موضوعا لروايته ماكبث ، والتى تدور حول مصرع بعض ملوك اسـكتلندا ، وهى بلاد تشـبه بوعورتها واستقلالها وبأسها وتأثيرها فى عقول أهل انجلترا ، حالة اليمن فى جزيرة العرب ، وقد عبثت الخرافة بكلتا القصتين ونمقتهما بمظـاهر السحر والتنبؤ بالغيب •

حتى اذا ما ارتقت الجمـاعات البشرية ، وأخـذت بأسباب العلم الصحيح ، وعرفت الفلسفة المنطقيـة ، واعتنقت دينـــا راقيا ، فترت حماستها لخرافاتها القديمة ، وقل تصديقها لها ، وسخر منها العلماء

---

(٣) اثباج : الثبج هو وسط الشيء تجمع وبرز ، وجمعها اثباج •

(٤) اقيال : القيل هو حاكم من ملوك اليمن فى الجاهلية دون الملك الأعظم والجمع اقيال •

والفلاسفة والأتقياء ، وهبطت الى طبقة العامة ، فوجدت فيهم وحدهم أمناءها الأوفيـاء ، يتوارثونها كمـا توارثها آباؤهم من قبل ، وتروى من نفوسهم ما لا تروى العـلوم الجافة ، فهم يؤثرونها على تلك العـلوم ، ويمزجون رواياتها بحقائق العلم تارة ، ويخلطون عقائدها بعقائد دينهم الجديد الراقى تارة أخرى ٠

على أن أكثر الأمم ، كاليونان والرومان وأمم أوربا الحديثة ، حين بلغت طور نضجها العلمي والديني ، لم تنبذ خرافات طفولتها ظهريا ، وان بطل تصديقها برواياتها ، وذهب ايمانها بخوارقها ومعجزاتها . ولكنها اتخذتها غذاء دسما للعلم والفن ، فجعلها العلم موضع فحصه وبحثـه وتنقيبه ، وأقامها مقام الشك حتى تثبت البينة على ما فيها من بذور الصدق ، واستمد منها النحت والتصوير والشعر والنثر مادة لا تفنى للتفنن في الوصف والتأمل والتجوال في مشاهد الحياة ومرامى التاريخ ومنازع النفس الانسانية ٠

ذلك أن أكثر تلك الخرافات ــ على ما بها من وهم ومغالاة ــ تحوى ما لا يحصر من صفات الجمال ومظاهر الروعة ، ودلائل العظمة ، وأحاديث البطولة والمخاطرة التي يغرم بها الطبع الانسـاني ، وصور الفضـائل والرذائل ، التي يرتاح الانسان الى رؤيتها مصورة معروضة ، كما أن تلك الخرافات ، بما تقص من وقائع بعيدة العهد وتعرض من مشـاهد نازحة المزار ، تروى في النفس حب البعيـد والشغف بالماضي القـديم والولوع بالمثل الأعلى ، وهي النزعة التي تعرف في الانجليزية بالرومانسية، زد على ذلك أن استعارة مشاهد تلك الخرافات ووقائعها وأسمائها في الوصف ، يكسب التشبيه قوة ووضوحا ٠ فما أجود قول امرىء القيس، وليت الشعراء أكثروا الضرب على وتيرته :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

لذلك حفل الأدب الانجليزي بالخرافات الانجليزية ، وما تحوى من جسائم الأعمال وبدائع الصور ، كحروب الملك أرثر ومغامرات فرسان المائدة المستديرة ، تلك التي كانت وحيا لسبنسر وتنيسون في أجـود قصيدهما ٠ ولم يكتف الأدباء بخرافاتهم الوطنية ، فاصطنعوا خرافات اليونان والرومان ، وتحدثوا طويلا عن آلهتهم واقتبسوا كثيرا من الالياذة والأوديسة ، وزاد غيرهم فاستعاروا خرافات كل من عرفوا أو سمعوا عنهم من أمم الغرب والشرق : فاتخذ ملتون لقصيدته الكبيرة سمسون

الجبار موضوعا عبرانيا ، وتحدث تنيسون عن هارون الرشيد ، وطار كولردج على جناح الخيال الى قصر قبلاى خان عاهل الصين • أما شكسبير فاستعار مواضيع رواياته من كل ما أصاب من تراث الأمم لا فرق بين تاريخيتها وخرافيتها ، ورصعها بما كان لا يزال يساور أهل جيله من اعتقاد فى عجائب السحر والمعجزات •

ومن الأدباء من لم يكفه كل هذا المدد الزاخر من غرائب الأساطير وافانين خيال الأقدمين ، فأطلق لخياله هو نفسه العنان ، وابتكر مواضيع لقصائده من صنعة الوهم ، وحلاها بروائع الصور وممتع الخطرات ، كما فعل كولردج فى خريدته (٥) « الملاح القـديم » ، وبراوننج فى فريدته « تشايلد رولاند » ، وتوماس هود فى أنشودته « أينس الحسناء » ، وكما صنع سويفت فى كتابه العالمى الصيت « رحلات جليفر » •

ألفى أدباء الانجليزية فى أرجاء تلك الخرافات ، مجالا رحبا لفنهم وخيالا ، وتحريرا لأفكارهم من عقال الحقائق المتحجرة ، وغذاء لعقولهم الجوالة فى مظاهر الكون وشئون الخلق ، المستطلعة الى المجهول ، ووسيلة لتصوير المناظر الطبيعية ، بين جبال ووهاد ، وغياض ومياه ، ورصعوا أشعارهم فى كل ذلك وكتاباتهم بأشتات الآراء ، فى المسائل التى كانت تشغل أذهان معاصريهم ، ولونوا خرافات الأجيال المتقادمة بألوان أجيالهم ومجتمعهم الذى عاشوا فى مضطربه •

أما موقف العرب من خرافات أسلافهم – حين اعتنقوا دينهم الحنيف وتحضروا وتثقفوا – فكان غير هذا : فقد أعرضوا عنها ترفعا وازدراء ، ولم يحفظوا منها الا ما كان أشبه بالصدق ، وما دار حول يوم عظيم من أيامهم ، أو شاد بمجد بعض قبائلهم • وفى تلك الحال كانت الروايات تختلق اختلاقا ، ويبذل الجهد لوسمها بميسم (٦) الصدق • ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم الأخرى من يونان وفرس وهنـد ، لم يهتموا الا بما صدقوه من تواريخهم ، وما استملحوه من حكمهم وأمثالهم ، ولم يعن لأحد من الأدباء أن يستخدم الخرافة مادة لفنه ، أو يستعير ما فيها من جمال وروعة ليفيد بهما أدبه •

وغاية ما يذكر فى هذا الباب ، أن بعض الأدباء – كابن دريد أطلق لخياله شيئا قليلا من الحرية ، ومضى يخترع الروايات والنوادر ، يفسر

---

(٥) خريدته : الخريدة هى اللؤلؤة لم تثقب •

(٦) بميسم : اسم للآلة التى يوسم بها كالمكواة والجمع مياسم ، ووسم الشىء أى كواه فأثر فيه بعـلامة •

بها بعض الأمثال السائرة المنحدرة من عهود الجاهلية ، كقولهم « عند جهينة الخبر اليقين » ، و « الصيف ضيعت اللبن » ، و « جزاء سنمار » ، وقد أخرج من صنعوا ذلك أحاديثهم مخرج الحق ، وأسندوا بعضها ، كي يضمنوا لها الرواج بين المتأدبين ، كما أن أصحاب المقامات الذين أسلسوا لخيالهم العنان قليلا حرصوا على ألا يبعدوا كثيرا عن حيز الامكان ، لئلا يعرض عنهم أولو الألباب ·

ذلك بأن العرب كانوا شديدى الحرص على العلم الصحيح حيث ثقفوه (٧) ، موكلين بالصدق التاريخى ، زاهدين جدا فى الأساطير وجمحات الخيال ، وهو خلق أورثهم اياه دينهم منذ اعتنقوه ، فانه وان أثبت وجود الجان وائتمارهم بأمر سليمان ، واستماع نفر منهم الى القرآن ، قد أوسع أساطير الأولين سخرا واستخفافا ، وكثيرا ما جمع بينها وبين الشرك ، وهو قد جب(٨) ما قبله مما هو شبيه بالكفر والزيغ ، ودعا المؤمنين الى التفكير فى خلق السموات والأرض ، وطلب العلم الصحيح ، فلا غرو أن زهد المسلمون فى تخريف الجاهليين وأوهامهم ، وقد زادهم نفرة من الأساطير ومختلق الأقاصيص ما تنبهوا اليه من جرأة بعض الدخلاء والمغرضين على الأحاديث النبوية ، يخترعونها ويفسرونها بما تمليه أهواؤهم ·

زد على ذلك أن الاسلام قد حرم الخمر ، وهو تحريم راعته أغلبية الأمة ، وان تجاوزه بعض الشعراء ، بل الخلفاء والكبراء · وهذا الامساك عن المسكر قد أكسب الأمة عامة صفات التؤدة (٩) والصحوة والتوقر والاحجام عن مجاراة الخيال ، والتحليق فى فضاء الأوهام ، وطبيعة بلادهم ذاتها تبث هذا الصحو فى طبائعهم ، فانها فى الغالب مصحية سريعة التحول من وضح النهار الى حلك الظلام ، لا تطول بها كما تطول فى البلاد الشمالية فترات ذلك التحول ، من غلس(١٠) وغسق ، ولا يكثر بها انتشار الضباب الذى يحجب الأشياء الا أشباحها ويوقع فى النفس التوجس والوهم ، والخرافة الانجليزية حافلة بتلك المشاهد بين غلس وغسق وضباب ·

---

(٧) ثقفوه : ثقف الشيء : أقام المعوج منه وسواه ·

(٨) جب : قطع ما كان قبله من الكفر ·

(٩) التؤدة الرزانة والتأنى ·

(١٠) غلس : ظلمة آخر الليل اذا اختلطت بضوء الصباح ·

كل ذلك جعل مثقفى المسلمين سريعين الى انكار الخوارق ونبذ الاغراب والسخرية من المغربين ، فدعبل الخزاعى مثلا يهزأ مليا بنفر من قبيلته ذاتها زعموا أن أحد أجدادهم حادث ذئبا ، فهو يقول :

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم
فقد لعمرى أبوكم كلم الذيبا
فكيف لو كلم الليث الهصور ؟ اذن
أفنيتم الناس مأكولا ومشروبا

ومن جهة أخرى لم يحس أدباء العربية كبير حاجة الى ذلك الضرب من الأدب ، تحفزهم الى التأول فى الدين وتمييز ما نهى عنه مما لم ينه ، فهم لم يكونوا شديدى الولع بتقصى مناظر الطبيعة وتصويرها ، فيتوسلوا للتفنن فى ذلك بالطيران على أجنحة الخيال الى شتى المناظر والأودية والشطآن ، ولا كانوا شديدى التوفر على نقد أحوال عصورهم السياسية والاجتماعية ، فينتزعوا لذلك الصور من خرافات الأقدمين مماثلة لصور مجتمعهم ، أضف الى ذلك ما لازم الأدب العربى دائما من نزعة محافظة وولع بمحاكاة بدائع المتقدمين ، ولعا لا طموح معه الى تجديد شديد المباينة لمناهجهم فى الأدب ٠

تلك هى العوامل التى صرفت أدباء العربية عن الاحتفال بالأساطير ، وجعلتهم جميعا يسلكون الطريق « المباشر » للافصاح عن خواطرهم ، طريقة القصائد المتوسطة الطول ، والأبيات المحكمة الموجزة ، ورائدهم قول قائلهم :

وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته : صدقا

وقد روى أن سهل بن أبى غالب صنف كتابا فى سير الجن وأحوالهم ورفعه الى الرشيد ، فقال له الخليفة : ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبا ، وان كنت اخترعت ما رأيته فقد وضعت أدبا ٠ ولكن أحدا من معاصرى ذلك المؤلف أو من جاءوا بعده لم يحفل بهذا الضرب من الأدب ، وأهمل الكتاب حتى ضاع ٠

أقصيت الخرافة عن حظيرة الأدب العربى ، وتركت للعامة يخففون بالاستماع اليها أعباء عيشهم ، ويسرون بالانصات الى مغامراتها ومصاولاتها

هموم حياتهم المتشابهة الرتيبة ، ويلونها لهم القصاص بألوان الدول المتعاقبة والأحوال المتوالية ، وتنفث فيها السياسة أحيانا أغراضها . حتى أتيح لها من دونها فكان منها أقاصيص ألف ليلة وليلة ، وعنترة ومهلهل ، وسيف بن ذى يزن ، وقد اطلع عليها بعض أدباء العربية فى العصر الذى دونت فيه فاستخفوا بها ونبذوها .

بيد أن تلك الأقاصيص على عاميتها وركاكة أسلوبها . وفحش بعض مواقفها ، تحوى من روائع الوقائع ، وجميل المناظر ، وآثار الخيال ، ما يعوز الأدب العربى كله ، وبفضل ما فيها من روعة وجمال وخيال قد نالت الخلود وحظيت بالشهرة والترجمة الى شتى اللغات ، وأعجب بها من الغربيين من لم يسمعوا بحكم المتنبى ، وأمثال الطائى ، وبديع ابن المعتز .

أثـــر الفنـــون

في الأدبين العربي والانجليزي

تختلف الفنون في مجالاتها وبعض وسائلها : فللشعر من القدرة على وصف الحركة وتناول الأشياء المتباعدة في الزمان والمكان ما ليس للتصوير ، ولهذا من المقدرة على بيان دقائق الموصوف وتحديد ماهيته ما يعوز الشعر ، ولكن الفنون تتفق جميعا في غايتها التي هي التعبير عن تأثر الانسان بروائع الحياة وشغفه بجمالها ، وفي كثير من وسائلها التي تتصل بطبائع الانسان وميوله : كالتناسب والتماثل والتكرار في الشكل أو في النغمة أو في الروى ، والتقابل والتضاد في كل أولئك ٠

فالفنون على تعددها مظاهر شتى لصفة انسانية واحدة ، وهي ترهف الشعور وحب الجمال ٠ ولا يخلو المبرز (١) في أحد الفنـــون من بصر بسائرها وان قل ، وحب لها يعلو على حب الفرد العادي ٠وكثيرا ما جمع الفنان الموهوب بين فنون عديدة يبرع فيها جميعا ، وقد نبتت الموسيقى والشعر والرقص بين الجماعات الأولية من أصل واحد ونمت حتى استقل كل منها ٠ وكان الشعر في بدئه موسيقى عجماء وصيحات غنائية غير ذات معنى ، ثم داخلها المعنى تافها في أول أمره ، وما زال يتعاظم شأنه حتى احتل المكانة الأولى في الشعر ، وان لم تفقد الموسيقى أهميتها في رصانة القصيد ، فأي شعر خلا منها قصر عن أوج الكمال مهما سما معناه ٠

وقد مارس العرب والانجليز تلك الفنون الثلاثة : الموسيقى والرقص والشعر ، منذ عهودهم الأولى ، وارتقت موسيقاهم بمخالطة الأمم الأخرى : فأخذ العرب عن الفرس ، والانجليز عن الايطاليين خاصـــة والفرنسيين ما لم يكونوا يعرفون من أصوات الموسيقى وآلاتها ومصطلحاتها وظهر أثر ذلك في أدبهم ٠ وأبدع أمثلة للشعر والغنـــاء والرقص في الانجليزية قصائد ملتون التي نظمها قبل انغماره في حركة المطهرين ٠ وممن تغنى من شعراء الانجليزية بتأثير الموسيقى والغناء دريدن في قصيدته « مأدبة الاسكندر » ، وكولنز في قصيدته « العواطف » ٠

---

(١) المبرز : المتفوق على أصحابه ٠

وبذلك تغنى أيضا شعراء العربية ، بل بلغ انكبابهم على غشيان مجالس الغناء والرقص حدا بعيدا ، بعد أن انتشر الترف عقب الفتوح ، حتى كاد شعر كثير منهم ، كبشار وأبى نواس ، ينقسم الى بابين رئيسيين : المدح الذى يطلب من ورائه المال الوفير ، والتغنى بمجالس اللهو والطرب التى ينفق فيها ذلك المال · ومن جيد ما قيل فى وصف المغنيات وآلات الموسيقى قول ابن الرومى :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران

أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

ذات صوت تهزه كيف شاءت مثلما هزت الصبا غصن بان

وقوله فى راقصة :

اذا هى قامت فى الشفوف أضاءها
سناها فشفت عن سبيكة سابك

وارتقى بين الأمتين حين تحضرتا فن العمارة ، وقامت فى بلادهما بيوت الملك والعبادة ، والحصون والمعاقل ، وتأثر فن العمارة فى كلتيهما تأثرا كبيرا بالطراز القوطى ، واسترعت الأدباء تلك المبانى الضخمة والحصون المشيدة ، تروع الناظر فخامتها ، ويعجب اللب من مغالبتها كر السنين ومصاحبتها جيلا من الناس بعد جيل ، وشغل شعراء العربية خاصة بوصف قصور الملوك ، وما حوت من ضروب الزخرف · ولفتت أذهان شعراء الانجليزية وكتابها القصور والبروج المتخلفة من عصور الاقطاع تلك التى تجيش بذكريات الماضى والتى شهدت مصارعات الأمراء ومحنهم فى غياباتها (٢) · وكانت لكثير من الأدباء مواقف بالكنائس والكاتدرائيات ، ولا سيما «وستمنستر ابى» التى تعج رحابها بآثار الماضى ·

ووصلت يد كل من الأمتين الى تراث اليونان ، فاختلف موقفاهما : فأما الانجليز فلم يتركوا شاردة ولا واردة من آثار ثقافة اليونان وفنونهم الا تزودوا منها ، فأحدث اطلاعهم على روايات سوفوكليس ويوربيدس انقلابا فى « رواية المعجزات » التى ترعرعت فى الكنيسة فى العصور الوسطى ، فالتفتت الى تصوير طبائع النفس الانسانية أى صارت فنا ،

(٢) غياباتها : غيابة كل شىء : قعره ·

وأخذ الانجليز عن اليونان وتلامذتهم الطليان النحت والتصوير · وكانت بلاد اليونان وايطاليا وما تزالان محج رجال الفنون الانجليز من شعراء ومصورين ونحاتين وموسيقيين ، وكانت صورهم وتماثيلهم وما تزال وحيا ونماذج لفنانى الانجليز ، وأنجبت انجلترا عددا عديدا من نوابغ المصورين والمثالين جاروا أساتذتهم من أهل القارة فى مجالات النحت والتصوير ، كما جاروهم فى مضمار الأدب ·

وظهرت آثار تلك الفنون فى الأدب الانجليزى : فالتمثيل صار بابا من أبواب الأدب له خطره ، وتوفر عليه أكثر نوابغ العصر الاليزابيثى وكثير ممن تلاهم · والصور والتماثيل التى أبدعها رجال الفن الانجليز أمثال رينولدز وكنستبل وترنر ، والأجانب أمثال رافائيل ودورر وفان ديك ، وسير أولئك النوابغ ، صار كل ذلك مجالا لتأمل الشعراء والكتاب، ومهبطا لآثار أخرى فى عالم الأدب لا تقل مكانة عن تلك الآثار فى عالم النحت والتصوير ، وصرف بعض الأدباء هممهم الى نقد أعمال المصورين والنحاتين والممثلين ، ومن أولئك هازلت ورسكن ، والى الأخير يرجع الفضل فى اظهار المصور ترنر ·

وقد قضى كيتس وشلى وبيرون وبراوننج وهاردى ردحا طويلا أو قصيرا من أعمارهم فى ايطاليا ، حيث استطابوا مناظر الطبيعة وتفيأوا ظلال آثار الرومان واستلهموا بدائع المصورين والمثالين الطليان ، بين روما وفلورنسا والبندقية ، وقضى الشاعران الأولان نحبيهما هنـاك ، ودفنا فى أرباض (٣) تلك المعاهد التى ألفاها حيين · وبين أطلال روما نبتت فكرة عمل من أكبر أعمال النثر الفنى فى الانجليزية ، ألا وهو تاريخ جيبون عن انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها ، فهو يحدثنا فى مذكراته أن الرغبة فى وضع مؤلفه عنت له أثناء تجواله هناك بين آثار الوثنيـة ومعالم النصرانية ·

ولم تقتصر الصلة بين الأدب وغيره من الفنـون على اقتباسه منها واستلهامه اياها ، بل حدث العكس : اذ عمد أعلام تلك الفنون الى الأدب يطلبون الوحى وينشدون النماذج ، فوجدوا فى روايات شكسبير العديدة ، ومناظرها الكثيرة ، وشخصياتها الحية ، ومواقفها الحافلة بشتى العواطف، وفى خرائد ملتون المملوءة بالأوصاف والصور والحالات النفسية ، وفى روائع تنيسون وبراوننج المنسوجة من أشتات الخرافات البديعة ، نماذج

(٣) ارباض : الربض : ما حول المدينة والجمع ارباض ·

لفنهم ومسرى لخيالهم • والمتاحف الانجليزية ملأى بتلك الآثار المنتزعة من قصائد الشعراء • كصور ليدى شيلوت ، وأوفيليا ، والحسناء القاسية •

وكان من شعراء الانجليزية المعدودين من ضربوا بسهم في الفنون الأخرى ، واشتهروا بها اشتهارهم بصناعة القلم : فشكسبير كان ممثلا كما كان شاعرا ومؤلفا للمسرح ، ووليم موريس كان مصورا وشاعرا ، وروزيتى الف جماعة « ما قبل الرافائيليين » التى كانت لها مبادئها فى التصوير ، كما كان لها مذهبها فى الأدب ، وأكثر من هؤلاء من لم تدركهم الشهرة فى غير الأدب من الفنون ، وان كانوا شديدى الولع بها ، شديدى الشغف بممارستها والتثقف فيها •

وهكذا أصبح من غير النادر فى الانجليزية أن ترى الأسطورة أو القصة التاريخية ، كوقائع يوليسيز ومخاطرات فرسان المائدة المستديرة• وقد تناولها الشاعر والممثل والمصور والنحات كل من ناحيته مستقلا بنظرته ، أو معتمدا على الآخرين ، مستلهما محاسنها ومغازيها ، مبرزا من صورها وأفكارها ما يلائم فنه ويجرى فى مجال صنعته ، نافثا (٤) فيها من خلاصة تفكيره وعصارة شعوره واتجاهات عصره ما يزيدها جدة وروعة •

هذا التواصل والتجاوب والتعاون المستمر بين الفنون زاد الأدب الانجليزى خصبا على خصب أفسح أمامه أغراض القول ، وزاد رجاله بصرا بحقائق الفن وغاياته ووسائله ، واعتقادا بوحدة الفنون جميعا وتلاقيها فى الوسائل والغايات ، فحرصوا فى نثرهم ونظمهم على صدق النظرة وصحة الشعور ونشدان الجمال ، واستعاروا وسائل الموسيقار والمصور والممثل والنحات ، فاهتموا بالأوصاف الجميلة للطبيعة والانسان، واعتنوا بتوضيحها وابرازها ، متوسلين لتصوير المعنى بجرس اللفظ ومناسبة التعبير واختيار القوافى • وتصرفوا فى الوزن والروى بما يلائم الحالة الموصوفة من سكون أو حركة ، وفرح أو حزن ، وقسوة أو لطف : وتأنقوا فى صوغ الحوار بين أبطال قصائدهم ، معبرا حوارهم عن منازعهم، فاذا قرأت القصيدة القصيرة أو الطويلة لأحدهم ، لم تجدك حيال معان ذهنية متزاحمة ، بل رأيت صورا محكمة التصوير ، وموسيقى مطربة النغمات ، وأشخاصا ممتلئين حياة وقوة وألوانا وظلالا •

---

(٤) نافثا . نفث أى نفخ •

ولم يغفل الشعراء الذين مجدوا الفنون الأخرى ذلك التمجيد عن فنهم الخاص : فنظم بوب وكيتس وتنيسون وغيرهم من الأعلام قصائد غراء فى الشعر والشعراء . وللتون وماثيو أرنولد أشعار فى شكسبير تفيض اعجابا ونقديسا ، ولوردزورث وتنيسون وأبركرومبى الشاعر المعاصر فى ذكرى ملتون أشعار كهذه . وكان هاردى لا يمل ذكر شلى وتعظيمه فى قصيده ، وكانت لشعراء الأمم الأخرى لدى شعراء الانجليز منزلة كهذه ، فاشعارهم ملاى بمحاكاة الشعراء الأقدمين كهوميروس وفرجيل ودانتى والخيام ، والمحدثين كشيلر وجوته وهيجو ، وترجمتهم والتحدث عنهم ، لأن الفن يجمعهم طرا (٥) فى صعيد واحد . ويمحو بينهم فوارق الزمان والمكان .

وما أعظم الفرق بين هذا الاعجاب النبيل بمتقدمى الشعراء ، وبين ما نراه فى العربية من وثوب بعض الشعراء ببعض ، ووقوع حماد فى بشار ، وحملة ابن الرومى على البحترى ، وحقد دعبل على الطائى ، أذهلهم التناحر على متاع الدنيا عن الصلة السامية التى يصلهم بها الفن ، وقد نعلم أن البحترى كان يقدم أبا تمام ، وأن المعرى كان يعظم أبا الطيب ، ولكن ذلك التقدير لم يتخذ شكلا فنيا ، ولم يبرز فى عالم الشعر قصيدا رائعا يفيض بتقديس الفن وتبجيل رجاله . وبينما كان ذاك التحاقد ديدن (٦) شعراء العربية فيما بينهم كان جهلهم بشعراء الأمم الأخرى مطبقا .

لقد حجب العرب عن تلك العوالم الفنية اعراضهم عن تراث اليونان الفنى ، ودعاهم الى ذلك الاعراض تمكن الملكة البيانية منهم ، تمكنت من نفوسهم فى البادية ، حيث لا تتوفر أدوات فن من الفنون سوى فن البيان الذى لا يحتاج الى أدوات غير صفاء الذهن وطلاقة اللسان ، وقوى اعتداد العرب بتلك الملكة وتوفرهم عليها نزول القرآن الكريم الذى زادهم كلفا بالفصاحة ، وكان دائما أساس ثقافتهم التى يؤخذون بها من الصغر . فالانجليز اتصلوا بتراث اليونان وهم بعد مقصرون دون جميع غايات الثقافة ، فاغترفوا من جميع مناهله ، ولم يتصل العرب به وبغيره من تراث الأمم الا بعد أن توطد أدبهم وتمكن سلطانه من نفوسهم ، فشمخوا به على سائر الآداب ، واستغنوا به عن كل الفنون .

---

(٥) طرا : الطرير ذا رواء وجمال .

(٦) ديدن : العادة والدأب .

لذلك لم يحفل العرب بالتمثيل ، ولم يزدهر بينهم التصوير والنحت ، ولم يتعديا حدود الصناعة ذات الغرض المادى الى حدود الفن السامى الذى هو غاية نفسه ، واقتصروا من التصوير والزخرفة والنحت على ما كان يزين قصور كبرائهم من تهاويل ودمى قليلة الحظ من الفن ، لا تحمل وراءها من المعانى السامية ما تحمله الصور والتماثيل الفنية . واستبد الأدب بالتعبير عن أسمى مشاعر العرب وأرقى أفكارهم . واذا تذكرنا أن الفنين الآخرين سالفى الذكر ــ الموسيقى والرقص ــ لم يتخلصا من ربقة (٧) المادية وشبهة الشهوات الى عوالم الفن المتسامى بالنفوس ، وظلا دائما مقرونين بالشراب والقصف (اللهو) وخلع العذار ، تبين لنا أن الأدب كان فن العرب الفرد ، وأن الشعر ظل ديوانهم فى مختلف عصورهم ، أودعوه حوارهم فاستغنوا عن التمثيل ، وأوصافهم فاستغنوا عن التصوير ، وأمداحهم فقام مقام التماثيل .

ومن ثم نرى أثر فنون التمثيل والتصوير والنحت فى الأدب العربى ضئيلا : فلم يكن بين العرب ممارسون لتلك الفنون ينعكس ظل فنونهم فى الأدب ، ولم يكن لدى أدباء العربية كبير اهتمام بمخلفات الأمم السالفة فى مشارق دولتهم ومغاربها . ومن القليل الجيد الذى نظموه فى تلك المناحى سينية البحترى التى يصف فيها نقوش ايوان كسرى ، ورائية ابن حمديس التى يصف فيها تماثيل الأسود فى بعض القصور ، وسينية أبى نواس التى يصف عرضا فى أثنائها تصاوير كأسه فى قوله :

قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

وقول بعض شعراء الأندلس فى تمثال امرأة وولدها :

ودمية مرمر تزهو بجيد تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن تتيمنا بالحاظ مراض

ولا تخلو كل هذه الشواهد من آيات البراعة وحسن الملاحظة والوصف ، حتى ليأسى المرء على أن لم يول العرب هذه المناحى من القول اهتماما أكثر مما أولوها . وسينية البحترى مثل شرود من أمثلة الشعور

---

(٧) ربقة : أسر وعبودية .

الصادق والعاطفة الانسانية والروح الفنية فى الأدب العربى ، وأعجب من تفردها في الادب العربى صدورها عن البحترى الذى سخر بيانه للمدح والهجاء · وقد كان نقاد العرب يطربون لهذه الاشعار الفنيه الجميلة البعيدة عن اثار المدح والهجاء والنسيب المتكلف ، فقد اعجب الجاحظ وغيره بسينيتي البحترى وابى نواس سالفتى الذكر . وعدوهما من ذخائر الشعر العربي ، ولكن دواعي مثل هذا النظم كانت نادرة ، وتيار محاكاة السابقين كان يدفع الادباء فى غير هذا الاتجاه ·

فالأمتان العربية والانجليزية تتفقان فى ظهور الأدب فيهما على سائر الفنون واجتذابه أغلب نوابغهما ، واشتهارهما بالسبق فيه بين الأمم ، فان الانجليز وان جاروا الأوربيين فى مجالات النحت والتصوير لم يبلغوا شأوهم كما بلغوا الشأو والغاية فى صناعتى الشعر والنثر ، ولم ينجبوا من أعلام النحت والتصوير من توازى مكانته العالمية مكانة شكسبير وملتون وبيرون ، ولكن تفترق الأمتان فى أنه بينما مارس الانجليز الفنون الأخرى وهاموا بها ومجدوا آثار الأمم الأخرى فيها ، أهمل العرب الفنون الأخرى اهمالا يكاد يكون تاما ، فلم تجتذب اهتمام نوابغهم ومثقفيهم ، وظل ما عرفوه منها أدنى الى الصناعات منه الى الفنون ، وظل الأدب ــ ولا سيما الشعر ــ يشغل فى عالم الفن والوجدان مكانا عاليا وسلطة مطلقة فردية بين العرب ، كسلطة الخلفاء والأمراء المستبدة فى عالم السياسة ، متوحدا بالافصاح عن أفكارهم مستأثرا برعايتهم واجلالهم ·

وقد خسر الأدب العربى بتفرده هذا الشيء الكثير ، لأن الفن الواحد لا ينمو خير نموه بعزلته ، بل بمواصلته الفنون الأخرى ، خسر ما كان ينتظر أن تمده به تلك الفنون من الهامات ومنادح للقول ، وما كان ينتظر أن تبثه فى رجاله من فهم دقيق للفن وسمو غايته وتعاليه عن المادة وبعد مراميه ، وما توحيه اليهم من وسائل للتعبير والتصوير والملاءمة بين المعنى واللفظ . وجعل الأخير دائما خادما للأول · وبالجملة خسر الأدب معاونة الفنون التى استأثر بالمكانة دونها ، كما خسر مساعدة الآداب الأجنبية التى ترفع عنها ·

شـــخصيات الأدباء

فى الأدبين العربى والانجليزى

يكثر التشابه بين أفراد الجنس الواحد فى عالم الطبيعة فى الطبقات الدنيا من الأحياء ، وكلما ارتقى الجنس فى سلم الحياة ازداد الاختلاف فى المظهـر والصفات بين أفراد الجنس ، وكذلك الحال فى المجتمعات البشرية : يتشابه الناس ويتقاربون فى المشارب (١) والأغراض فى عصور الانحطاط . ويختلفون خلقا وعبقرية فى عصور النهضات ، ويتفرقون فى شعاب الحياة ودروب المطامح فلا يتفقون الا فى تدفع الحياة فى نفوسهم وعلو هممهم وولوعهم ببعيدات الأمور ، فالتشابه والاتفاق من أمارات الانحطاط . والاختلاف والتميز من دلائل الرقى .

وذلك الشأن فى آداب الأمم : فان أظهر ميزات عصور النهضات فيها اختلاف مشارب الأدباء وتباين شخصياتهم واستقلال نظراتهم الى الحياة ووجهاتهم فى الفن ، فهم وان اتفقوا على مبدأ أو مذهب فى الأدب ، لا يتشاكلون (٢) ولا يكرر بعضهم بعضا ولا يغنى أحدهم عن سائرهم ، بل ينتحى كل منهم ناحية من الحيـــاة يوكل بها ، ويرى الحيـــاة جمعاء بمنظار نفسه لا بمنظار غيره ، وينفث فى أدبه خلاصة عبقريته الفردية ، أما فى عصور ادبار الأدب فيتماثل الأدباء حذوك النعل بالنعل ، ويتهافتون جميعا على نموذج الأدب أو الانشاء الأدبى ، لا ينفكون يقلدونه ويعارضونه ويغفلون بمحاكاته عن حقائق الحياة ولباب الفن ، فيخرج أدبهم جميعا صورا مكررة من انفسهم واشكالا ممسوخة من ذلك النموذج المحتذى أو القالب المصبوب .

ويمتاز فحول الأدب الانجليزى ، ولا سيما فى عصور نهضاته ببروز شخصياتهم واستقلالها واختلاف بعضها عن بعض اختلافا تاما ، الا فى اقتباسها جميعا من نور الصدق ، واصدارها جميعا عن معدن الشعور : فالنهضة الرومانسية فى مستهل القرن التاسع عشر مثلا ، كانت ذات

---

(١) المشارب : المشرب : هو الميل والهوى والجمع مشـارب .
(٢) يتشاكلون : المشاكلة : المماثلة .

أغراض معينة مشتركة بين جميع أعلامها : كانت ثورة على قيود الفكر وصناعة اللفظ وتقاليد النظم وعودة الى الطبيعة والبساطة ، ونزوعا الى جمال الحياة ، ومع ذلك يتباين فحول شعرائها وتبدو شخصياتهم بارزة واضحة الاختلاف في الأخلاق والمشارب والأساليب :

فوردزورث كان موكلا بالطبيعة ومجاليها وأسرارها ، مؤمنا بضرورة استخدام لغة النثر السهلة في الشعر ، وشلي كان معنيا بالاصلاح الاجتماعي وعدوا لدودا للملكية والكنيسة والتقاليد الحمقاء ، وكولردج كان هائما في عوالم المجهول وأغوار الماضي السحيق ، وسكوت كان مغرما بالعصور الوسطى وتاريخها في بلاده اسكتلندا ، متغنيا بمجدها وفروسيتها ، محييا لأغانيها الشعبية ، وبيرون كان بوهيمي النزعة جريء الفكرة مشغولا بقصص الأبطال ، جزل الأسلوب رائعه دون تدبيج ولا ترو ٠

ولنضرب مثلا آخر مؤرخي الانجليزية الثلاثة ، الذين توخوا الفن والأسلوب الأدبي في تواريخهم : جيبون وماكولي وكارليل ، فأولئك شخصيات ثلاث متميزة : فالأول رصين الأسلوب واللفظ ، محكم البنيان ميال الى الموازنة في المعاني والازدواج في التراكيب ، والثاني يراوح بين طويل الجمل وقصيرها ، مولع بتصوير المناظر التي يمر بها تصويرا يقف بك أمامها وجها لوجه ، كلف بتأريخ مآثر وطنه وعظائم أبنائه ومواقف فخاره ، أشد تشبعا بالوطنية وأقل نصيبا من النظرة الانسانية الشاملة من صاحبيه ، والأخير قصير الجمل فجائي الأفكار ، معنى بعظماء الرجال أخلاقهم وسحناتهم وآثارهم في عصورهم ٠

وقل مثل ذلك في سائر مشهوري الأدباء الانجليز : كلهم مختلفو الشخصيات مستقلوها ، واضحو النفسيات ، متميزة شخصياتهم ونفسياتهم احداها عن الأخرى ، تقاربوا في العصور أو تباعدوا ، اتفقوا في المذهب الأدبي أو اختلفوا ، وذلك أول دليل على حيوية الأدب ، وأصدق شاهد باستمداده من ينابيع الحياة الجارية ، لا من بطون الكتب الجافة ، فالحياة لا تفنى صورها تعددا ، وهي تبدو لكل أديب صادق النظر والشعور في صورة جديدة ٠

وانما تشابهت شخصيات الأدباء وتماثلت آثار الشعراء في عصور تدهور الشعر في أواسط القرن الثامن عشر ، حين بعد الشعراء عن الطبيعة وانغمروا في المدينة ، وهجروا الحياة وغرقوا في صفحات

الكتب ، وأعرضوا عن وحي شعورهم وقلدوا من سبقوهم ، فعدوا بوب ودريدن المثل الأعلى الذى يحتذى ، والمطلب الأسمى الذى لا يطلب سواه ، واحتذوهما فى الغرض والأسلوب والعروض ، وتعاوروا (٣) أشعارهما معارضة واقتباسا واختلاسا ، فخرجت آثارهم جميعا متشابهة متشاكلة بعيدة عن الفن لا تصور شخصيات قائليها ، وخملوا جميعا من دون ذينك الشاعرين اللذين احتذوهما ٠ فلا يهتم بآثارهم اليوم الا مؤرخ الأدب المدقق المستقصى ٠

وفى تاريخ الأدب العربى شخصيات مستقلة واضحة متميزة ، مخالفة كل منها للأخريات قولا وخلقا وأسلوبا ، كالمعرى الحكيم المشفق على أمة الطير والحيوان ، المعنى بتنازع البقاء وبغى الأحياء ، والمتنبى الطموح « المتعاطى للكبر وعلو الهمة » كما قال بعض معاصريه ، وابن الرومى المشغوف بالجمال الطبيعي والانسانى ، المنهوم بنعيم الحياة ولذاتها ، الدقيق النظرة ، الرائع التصوير ، وأبى نواس الماجن المستهتر ، والجاحظ الموكل بفنون الثقافة ، وبديع الزمان المعتد بنفسه ، الحريص على المادة المكاثر بثروته اللغوية ومهارته الصناعية ، السهل الديباجة ، الرائق الفكاهة ٠ كل هاتيك شخصيات بارزة متميزة ٠

ولكن بجانب أمثال أولئك حفل كبير مشهورى الأدباء الذين آتتنا آثارهم وانحدرت الينا بعض أخبارهم ، ولكن شخصياتهم مبهمة مطموسة، يكتنفها الضباب ولا يستجليها الخيال ، وتتشابه كثيرا حتى لنضيف آثار بعضها الأدبية الى آثار الأخرى فلا ترى فارقا ، ولا تحس مانعا يحول دون ذلك من تباين الأساليب أو اختلاف النفسيات أو تضاد النزعات ، بل ان شخصيات بعض من تقدم ذكرهم من فحول العربية ، على كثرة ما وصل الينا من كتاباتهم وأخبارهم ، مبهمة فى كثير من نواحيها ٠

ولا ريب فى أن لطول العهد وكر الزمن أثرا كبيرا فى تبديد الآثار ، وتغيير الأفكار والمشارب والأذواق ، واحاطة شخصيات المتقدمين بغمائم من الغموض والغرابة مهما تحدث الشعراء بذكر الخلود ، ولكن هناك عدا هذا عوامل لابست الأدب العربى فأدت الى غموض كثير من شخصيات كثير من أعلامه ، وتشابهها واختلاطها ، أولها شيوع الأمية فى الجاهلية وصدر الاسلام ، مما أدى الى تبدد أخبار كثير من الشعراء وضياع

---

(٣) تعاوروا : تداولوا الشىء بينهم ٠

أشعارهم واختلاطها ، ودخول الزيف والتمويه عليها ، مع أن شعر ذينك العصرين كان أصدق حديثا وأكثر افصاحا عن شخصيات قائليه من شعر العصور التالية ، لو لم تعبث به يد الأمية والنسيان ٠

ولما انتشرت الكتابة لم تكن الطريقة التى جرى عليها المؤرخون فى ترجمة الأدباء هى المثلى : فقد اقتصروا على تواريخ ووقائع ـ كوفود الأديب على ممدوح أو اتصاله بديوان أمير ـ لا أهمية لها فى شرح نفسياتهم ، ولا غناء وراءها فى توضيح شخصياتهم ، وجاء كثير من التراجم مختزلا مجتزأ ٠ وناقض بعض الروايات بعضا ، وصعب تصديق بعضها ، فظلت جوانب من تلك الشخصيات مغلقة ، فما أقل ما يعرف عن عبد الحميد وابن المقفع والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى ، فهم لا يكادون يظهرون فى ضوء التاريخ الا فى جناح أمير أو ركاب عظيم ، أما نشأتهم فمهملة ، وهى التى لهـا أكبر الأثر فى آدابهم ، وأما حيـاتهم اليومية فمغفلة ، كأن ليس لها خطر ولا شأن !!

وما قصر فيه المؤرخون لم يعوضه الأدباء أنفسهم : فكثير منهم لم يصوروا أنفسهم فى أشعارهم ورسائلهم صورا واضحة ، ولم يودعوها خلجات أفئدتهم ونظراتهم فى الحياة ، بل ما أكثر الكتاب الذين قصروا بيانهم على انشاء رسائل الأمراء ، والشعراء الذين توفروا بأشعارهم على مديح أرباب النوال (٤) ، فامتلأت آثارهم الأدبية بذكر أناس كثيرين ووصف أحوالهم وأفكارهم، فلا غرو أن جاءت آثارهم متشابهة ، لا توضح شخصياتهم ولا تنهض ببعض ترجمتهم ، ومن العجيب أن أكثر الشعراء افصاحا عن أفكارهم الخاصـة وحاجاتهم وشعورهم ، كانوا هم المجان والخلعاء الذين لم يكن لهم شعور ولا تفكير فى سوى اللذة والعبث كبشار وحماد ٠

فالناظر فى ديوانى الطائى والبحترى ، وفى رسائل ابن العميد والصاحب ، لا يعثر الا نادرا على فقرة أو أبيات مصدرة عن شعور شخصى للأديب هو ببيانه محتفل ، أو فكر جليل هو فى اذاعته جاد ، ولا يرى فى الشعر الا مديحا وهجاء وشكوى للزمان وافتخارا بعلو الشأن ، أو ما كان يجب للشاعر من علو الشأن ، وضربا للأمثال واصطناعا للحكمة ، ولا يرى فى النثر الا تنميقا وتدبيجا واقتباسا وتكاثرا بسعة الاطلاع ، فلا غرو أن يتشابه أولئك الشعراء الا تفاوتا قليلا فى الصياغة ، وأولئك

(٤) النوال : العطاء ٠

الكتاب الا اختلافا بسيطا فى الأسلوب ، فاذا أنت نزعت جانبا كبيرا من نظم أولئك الشعراء ، أو نثر أولئك الكتاب ، لم تشوه آثارهم بانتزاع ما لا غنى عنه لبيان نفسياتهم ، واذا أضفت بعض آثارهم الى بعض لم يعقك عائق من تميز شخصية عن شخصية أو اختلاف منحى عن منحى ٠

وهناك عامل خطير لا يقل عن هذا أهميــة فى تشــابه شخصيات الأدباء وتماثل آثارهم : ألا وهو نزعة المحافظة والتقليد التى صاحبت الأدب العربى منذ قامت الدولة العربية وانتشرت اللغة فى الأقطار ، فقد اتخذ الأقدمون مثــلا عليا فى البلاغة والشاعرية ، وألح المتأخرون على آثارهم وأغراضهم فى القول ومعانيهم محاكاة وتوليدا وتخريجا ، وجالوا جولان المتقدمين فى ميادين المدح والهجاء ، والفخر ، وشكوى الدهر ، وضرب المثل واستخراج الحكمة ، واحتذوهم فى النسيب بليلى وهند والوقوف بالأطلال واستحثاث المطى وذرع الفلوات ، فكان للأدباء فى توالى العصور تراث أدبى واحــد يتكرر ولا يكاد يتغير ، ويتشكل ولا يكاد يتحول ، ويأخــذ منه كل أديب ويكاد يفنى فيــه ، وينهل منه وتكاد شخصيته تغرق فى عبابه ٠

فتقليد المتقدمين دون الطبيعة ، واتخاذهم مثلا عليا يصدر عنهــا القول ، بدل أن يصدر عن الشعور الفردى المستقل ، من أكبر أسباب ركود الأدب وتشابه الأدباء وتقارب شخصياتهم ، ومن ثم جاءت آثار كثير من الأدباء المتأخرين متشاكلة مشابهة جميعها لآثار المتقدمين ، على تباعد الزمان واختــلاف المواطن ، وظلت شخصــياتهم غامضة لأنهم لم يجلوها فى كتاباتهم جلاء صادقا ٠

ولما استفحلت الصــناعة اللفظية ، واشتد الحرص على المحسنات البديعية ، غرقت معانى الشعر وأغراضه وشخصيات الأدباء جميعا فى سيل من الألفاظ المرصوفة (٥) والعبارات المقتنصة من آثار المتقدمين ، وأصبحت دواوين الشعراء جميعا ديوانا واحدا مملوءا بالنكات اللفظية ، لا فرق بين أوله وآخره ٠ وما أشبه ما قاله البهاء زهير بما قاله ابن نباتة بما قاله صفى الدين من نسيب متناه فى ادعاء الرقة والظرف ، ووصف لمجالى الطبيعة تخلط فيه محاسن الطبيعــة وصــورها ببهارج الألفــاظ وزخارفها مزجا عجيبا ، وتتطلب البراعة باقحام مصطلحات العلوم كالنحو والمنطق والنجوم ٠

---

(٥) المرصوفة : رصف ـ رصافة : صار محكما ٠

ولا ريب في أن أمنع الأدب للنفس ، واعلقه باللب ، ما أبان عن شخصية قوية ، ونفسيه مستقلة ، ومن ثم نرى أن ذوى الشخصيات الأصيلة والنظرات الصادقة في جقائق الحياة ، كالمتنبى وأبى العلاء وابن الرومى والجاحظ ، هم الدين حظوا ، دون غيرهم من أدباء العربية الأقدمين ، بالدرس الطويل والترجمه المفصله من كتاب عصرنا الحالى ، لأن آثارهم تشوق الدارس وتحفزه الى الكتابة والتعليق والنقد ، وتحوى صورا من أنفسهم يطيب للمطلع التأمل فيها والنظر الى الحياة في ضوء أفكارها • ولو حاول ناقد أن يترجم لمروان بن أبى حفصة ، او مسلم ابن الوليد ؛ أو مهيار ، أو البحترى ، أو الصاحب ، أو الحريرى ، ترجمة مفصلة تشرح نفسية المترجم وتميط عن نزعاته وميوله وعوامل ذلك ، مستمدا شرحه وتحليله من آثار الكاتب أو الشاعر الأدبية التى اشتهر بها ، لكلف نفسه شططا •

فالناظر في الأدبين العربى والانجليزى ، لا يسعه الا أن يلاحظ أنه يجد في تاريخ الأخير شخصيات قوية مستقلة ظاهرة التباين والاختلاف ، مصورة في أعمالها الأدبية حتى لتكاد تغنى بها عن ترجمة المترجمين ، وتحوى كتاباتها صورها النفسية الداخلية فلا تكاد تترك للمؤلف أكثر من سرد التواريخ وبعض الوقائع وهى لذلك ممتعة جذابة يحس القارىء أن بينه وبينها على اختلاف اللغة والزمن والوطن تجاوبا وصلة شاملة هى صلة الانسانية ، ويطربه أن يراها تعالج نفس المشاكل وتخامرها نفس الخواطر والخوالج التى تساوره ، وأمثال تلك الشخصيات الواضحة أقل عددا في تاريخ الأدب العربى •

آثـــر البيئـــة

فى الأدبين العربى والانجليزى

طبائع الانســـان ومواهبـــه متماثلة حيثما حل من بقاع الأرض ، ومجتمعاته متشابهة الظواهر أينما قامت · تتشعب بين أفراد كل مجتمع انسانى عوامل التعاون والتنافس والتحاب والتباغض والمطامع والمخاوف، غير أن للبيئـــة أثرها فى تشكيل المجتمع الانســـانى الذى تحيط به ، بما تعرض أمام أبصاره وأذهانه من مناظر ومسائل تحجب عنه غيرها ، وما تفرض عليه من أعمال يمارسها دون سواها ، ويكون لهذا وذاك أثره البين فى لغـــة المجتمع وأدبه ، مقرونا الى أثر الطبـــائع والمواهب التى تشترك فيها الأمم جمعاء ·

فللبيئة فى أدب كل لغة ثلاثة آثار بعيدة المدى : فهى أولا تؤثر فى مبنى اللغة وأصواتها وألفاظها وتعابيرها وتشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها السائرة وحكمها المتواترة ، فكل ذلك منتزع من طبيعة اقليم ، وهى ثانيا تؤثر فى مهن المجتمع وعلومه وفنونه وعمرانه وينعكس كل ذلك فى مرآة الأدب ، وهى أخيرا تعرض دائما أبدا أمام أنظار الأدباء وحواسهم مناظر طبيعية بذاتها ، تسترعى انتباههم وتستجيش نفوسهم وتلهمهم كل ما تجود به قرائحهم (١) فى باب عظيم الخطر من أبواب الأدب هو باب الوصف الطبيعى ·

وأثر البيئة فى الأدبين العربى والانجليزى واضح وضوحا شديدا يكاد لروعته يخفى أثر الطبيعة الانسانية التى تشترك فيها الأمتان ويتفق عندهما الأديان ، فان تباين البيئتين تباينا شديدا أدى الى اختلاف اللغة والمهن والعمران والمناظر فى المجتمعين ، وأدى بالتالى الى اختلاف أشكال الأدبين وصورهما ومواضيعهما وأساليبهما ، ويمكن ايجـاز التعبير عن الفرق بين الأدبين بالقول بأن أحدهما شب فى بيئة صحراوية والآخر ترعرع فى بيئة بحرية ·

---

(١) قرائحهم : جمع قريحة وهى ملكة يستطيع بها الانسان ابتداع الكلام ·

نشأ العرب فى البادية فجاءت لغتهم مشرقة الديباجة متينة البناء قوية التعبير غنية الاشتقاق منتظمة أوزان الشعر متعددتها وحفلت بأسماء ظواهر الطبيعة البرية وحالاتها ، وأسماء حيوان البادية وأطوار حياته ، واشتقت تشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها من القمر والنجوم والكثيب والقطا (٢) ، والمنبت الذى لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، وورود الماء بماء أكيس ، والقاء الحبل على الغارب ٠ ولعدم ملاءمة البادية لغير الأدب من الفنون عظمت مكانته بينهم ٠

واشتغل العرب فى البادية بالتجارة ينقلونها بين الشرق والغرب ، فامتلأت لغتهم بمصطلحات التجارة بعضها عربى وبعضها منقول عن الأمم التى بادلوها التجارة ، وامتلأ أدبهم بالتشبيهات المنتزعة من أحوال التجارة : فالقرآن الكريم يكرر فى غير موضع تشبيه الخير والشر بالنجدين ، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وعنترة يقول :

حصانى كان دلال المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا

وبثت حياة البادية فى العرب صفات الحمية والشجاعة والحرية والانفة أن يدينوا لملك ، وظهر أثر كل ذلك جليا فى أدبهم ، وأشهر أمثلة ذلك معلقة عمرو بن كلثوم ، فهى ديوان العرب فى الحماسة ، وأدى اباؤهم ودوام انتجاعهم الكلأ الى استمرار المناوشات والوقائع بين قبائلهم، وانعكس ذلك فى مفاخراتهم ومنافراتهم نثرا وشعرا ٠

وهذه الصفات الشماء التى تلزم حياة التبدى جعلت العرب ينظرون شزرا الى الزراعة والصناعة اللتين لم يكن لهما بحال مجال فى البادية ، ويحتقرون الزراع والصناع الذين تسترقهم الأرض وتستعبدهم المادة ، ولا يرون الشرف والعزة الا فى رعى الابل والتجارة والقتال ٠ فالأخطل يعير بنى النجار بمساحيهم ، وآخر يفاخر غريمه فيقول :

لحا الله ألأمنا نسبا ــ وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله ــ يصوغ الشنوف والقروط بيثربا ٠

والحق أن الشعر الجاهلى مهما يكن قد داخله من تزييف يمثل الجانب الاجتماعى من حياة العرب فى الجاهلية تمثيلا رائعا ، ولا يمكن

---

(٢) القطا : هو نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء ٠

تصور حالة العرب في ذلك العهد الا على ما وصفت في أشعار طرفة ومهلهل وأمثالهما ·

أما مناظر البادية الطبيعية المتشابهة الشديدة الوطأة ، فيبدو أنها لم تشرب (٣) العرب من حب الطبيعة مقدار ما بثت في نفوسهم من رهبها والحرص على اتقائها ، ولم تلهمهم من أشعار في وصف محاسنها قدر ما أوحت اليهم من أشعار في التأمل في أحوالها والاستعبار والخشوع. فلا غرو أن لم تخرج الصحراء شعراء طبيعيين يصفون محاسن المناظر، كتلك التي تحفل بها الالياذة والأوديسة ، وانما أخرجت أنبياء وحكماء في شتى عصورها ·

وتحضر الشعب الانجليزى في جزيرة تحيط بها البحار ، وتجرى فيها الأنهـــار ، وتتخللها البحيرات ، وتتـوالى عليها الأمطـار والثلوج والسحاب والضباب ، ويتعاقب فيها الصحو والدجن (الظلام) ، وتنتشر في أرجائها الغابات والآجام (٤) ، وتتتابع فيها الربى والقيعان ، فامتلأت لغتهم بأوصاف البحر والغاب،وأسماء ما أسكنوهما من جان،واشتقت منهما تشبيهاتهم وأمثالهم ، فاستعير الضباب لحالة الشك والابهام ، والسحاب للحزن والقلق ، وقالوا في أمثالهم ان الوقت والمد لا ينتظرون انسانا ، وحلت السفينة من مخيلتهم ما كان للجمل لدى العرب من منزلة : فبينما ترى حسان يشبه تراقص الخمر في انائها بتهادى الناقة المسرعة فيقول :

بزجاجة رقصت بما في قعرها رقص القلوص براكب مستعجل

يشبه ملتون « دليلة » وهي شاخصة في عظم جرمها وتمام زينتها وعتـادها الى « سمســون الجبــار » لاختداعه عن سر قوته بالســفينة المنشورة الشراع ·

وامتلأت قلوب الانجليز بحب البحر ، وظهر أثر ذلك في أدبهم في كل العصور : في روايات شكسبير كالعاصفة وتاجر البندقية ، وفي تواريخ أمراء البحر الانجليز ككتاب « وستوردهو ! » الذى سماه مؤلفه كنجزلى باسم البلدة التي أنجبت معظم أولئك البحارين الذين يسمون بأفذاذ ديفون ، وككتاب سوذى عن نلسون ، والروايات الخرافية عن

(٣) تشرب : المشـارب : الميل والاهواء ·

(٤) الآجام : الأجمة : الشجر الكثير الملتف والجمع آجام ·

البحارة الذين لاقوا الأهوال وطوفوا فى مسالك البحار ، أمثال روبنسون كروزو ، واسكندر سلكرك ، وجليفر ، وأوصاف البحر وقصصه تكون جانبا كبيرا مما يعرف بأدب الأطفال .

ولم يشغف الانجليز بالبحر وحده ، بل بالماء حيث حل من البقاع، وأيا اتخذ من الأشكال ، فهاموا حبا بالأنهار والبحيرات ، ونال اقليم البحيرات فى غرب انجلترا مكانة سامية فى قلوب شعراء الانجليزية ، واتخذه شعراء النهضة الرومانسية مستزادا (٥) ومقاما ، وحفلت دواوينهم بأوصافه ومحاسنه ، فحل فى انجلترا محل جبال برناس التى كانت ترتادها آلهة الشعر فى بلاد اليونان .

وحفل الأدب الانجليزى كذلك بذكر الغاب ووصفه فى مختلف أوقات العام ، واتخذ مسرحا لروايتى « كما تشاء » ، و « حلم فى منتصف ليلة الصيف » لشكسبير ، وفى الأخيرة تمتزج الحقيقة بالخيال ، وتختلط الاناسى بعرائس الغاب وعفاريته ، وفى تلك العرائس المتخيلة نظمت أشعار كثيرة ، وفى تلك الغابات كان يعيش روبن هود وجماعته ذات الوقائع الممتعة ، وبالجملة بثت طبيعة بلاد الانجليز المتعددة المناظر والحالات ألفة الطبيعة والشغف بها فى نفوس الانجليز ، فاحتلت من أدبهم موضعا مكينا .

ولموقع الجزيرة واحاطة البحار بها اشتغل الانجليز بالتجارة ، ينقلونها بين العالمين القديم والجديد ، وقد مارسوها بحرا على حين مارسها العرب برا ، فدخلت تعبيراتها وأوصافها فى أدبهم ، واشتغلوا بالزراعة لملاءمة الاقليم وحفل جانب من أدبهم بوصف سكان القرى والبلدان الريفية ، وحياتهم ومجتمعاتهم ، وكثر ذلك خاصة فى العصور الحديثة حين تقدم فن القصص وازداد التفات الأدباء الى الحياة اليومية والطبقات الوسطى والدنيا . ومن خير أمثلة ذلك روايات جين أوستن وتوماس هاردى ، واشتغل الانجليز كذلك بالصناعة الكبيرة لوفرة المعادن فى بيئتهم ، فقام نوع من الأدب يدرس مشاكل الصناعة ويصور مجتمع الصناع ، وانصرف بعض الروائيين ، كأرنولد بنيت ، الى وصف حياة الرأسماليين ، وبعضهم ، كتشارلز دكنز ، الى درس أحوال العمال والمناداة بتحسينها .

---

(٥) مستزادا : تردد ، أى رجع اليه مرة بعد أخرى

هكذا تأثر كلا الأدبين بالبيئة التى قام فيها ، فاختلفا لذلك مناحى ومواضيع وأشكالا ، بيد أن البيئة التى تقدم ذكرها ان هى الا البيئة المحلية المحض ، وهى على عظيم تأثيرها فى المجتمع والأدب قلما تنفرد بالتأثير فيهما ، بل تشاركهما فى ذلك بيئة أوسع أطرافا هى البيئة العالمية ، أى العالم كله بما فيه من ظواهر طبيعية وما يسكنه من أقوام ، فهيهات أن يعيش مجتمع فى بيئته المحلية غير متأثر بالعالم الخارجى تأثرا قل أو كثر ، عن طريق التجارة والغارة والرحلة ، وذلك الأثر العالمى يعرض أمام أفراد المجتمع من الظواهر والمشاكل ما كانوا عنه بنجوة(٦) ، ويدخل فى لغتهم وأدبهم ما كانوا به جاهلين ٠

تأثر الشعبان العربى والانجليزى بأحوال العالم الخارجى ، أى بالبيئة الكبرى ، ولكنهما اختلفا فى هذه البيئة كما اختلفا فى البيئة المحلية ، اذ تأثر كل منهما بما يليه مباشرة من أجزاء تلك البيئة العالمية : وما يلى بلاد العرب هو الأمم الشرقية من فرس وهند وروم شرقيين ومصريين ، ذات الحضارة الشرقية العتيدة والملكيات القديمة ، وما يلى الانجليز هو الأمم الغربية الوارثة لحضارة الاغريق والرومان ذوى التاريخ الحافل بالنظم الحكومية والآراء الحرة فى السياسة والاجتماع ، وبذلك ازدادت صبغتا الأدب تباينا ٠

تأثر العرب بحضارة الأمم التى كانوا ينقلون تجارتها ٠ ولا سيما الفرس والروم ، وكانت لهم بهؤلاء علاقات سياسية ولأكابرهم الى ملوكهم سفرات ، والى اشتغال قريش بتلك التجارة ومخالطتها تلك الأمم يرجع ذلك الرقى الأدبى والمادى الذى بلغته قبيل الاسلام ، وظهورها على القبائل فى الثروة والجاه والشرف واللغة ، وانجابها عظماء الرجال الذين على أيديهم توطدت دولة الاسلام ، فكانت مكة قبيل الاسلام فى حال من التمدن وسط بين همجية البداوة ونعومة الحضارة ٠

ولو استمر تأثر العرب بالبيئة الخارجية طبيعيا محدودا هكذا لازدادوا رقيا وازدادت لغتهم بهاء وأدبهم ازدهارا ، ولكن التوسع الخارجى الذى أعقب نجاح المسلمين الحربى المفاجىء أوقف ذلك التأثر البطىء ، وأحدث انقلابا تاما فى مجرى الأمور ، فلم يعد تأثر الأدب العربى بالعالم الخارجى مقصورا على النقل التدريجى ، بل انتقل الأدب ذاته جملة من وطنه الأصلى وهجر بيئته الأولى الى بيئة أو بيئات جديدة فى الشام

---

(٦) : بنجوة : برىء سالم ٠

والعراق ومصر والأندلس وغيرها ، والأدب العربى فى انتقاله هذا ومهاجرته هذه من وطن الى وطن نسيج وحده بين آداب الامم ٠

وجد الأدب العربى نفسه فى بيئة جديدة ، فى أراض مزروعه مثمرة ، وأمم مترفة مستقرة ، وبلدان عامرة متحضرة ، ذات علوم وصناعات ، فتأثر بهذه البيئة الجديدة فى ثلاث النواحي سالفه الذكر : فى مفردات اللغة وتعبيراتها التى ازدادت بالنقل والتعريب ، وفى المهن ومظاهر العمران ، وفى وصف مناظر الطبيعة الجديدة ، فنثر فى الأدب ذكر الرياض والأزهار ٠

على أن تأثر الأدب فى الناحيتين الأولى والثالثة كان قليلا نسبيا لغنى اللغة فى الاشتقاق الذى أغناها عن الامعان فى التعريب ، ومحافظة العرب التى نفرتهم من استعمال ألفاظ اللغات الأخرى وأخيلتها الا ما جاء عفوا أو ضرورة ، وحرصهم على احتذاء أسلافهم حتى ظلوا يقلدونهم فى وصف البيد والخيام والنؤى (٧) والعيس (٨) ، وهم يعيشون بين الأرياف والعواصم ، فقامت هذه التقليدات للمتقدمين فى الأدب العربى كالمتحجرات فى عالم الجيولوجيا : قد فقدت كل حياة ولم تعد الا رموزا للماضى ٠

ولم يشغف العرب شغفا حارا بمظاهر الطبيعة التى صادفوها فى بيئتهم الجديدة ، وكأن نفرتهم القديمة من قسر الطبيعة لم تفارق نفوسهم، وكأن كل ما كانوا يطمحون اليه بعد أن طووا الأميال ضربا فى فلوات الجزيرة وهواجرها (٩) ، ظل ظليل وماء سلسبيل وهواء بليل ، تريح الجسوم وترويها وترفه عنها بعد طول الكد ، فغص أدبهم الطبيعى بذكر راحة الجسم ولذات الحواس ، دون طويل تأمل فى محاسن الطبيعة واجتلاء لأسرارها وتقص للذكريات والآمال عندها ، وأجمع الأمثلة لذلك قول الشاعرة الأندلسية :

وقانا لفحة الرمضاء واد — سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا — حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا — ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا — فيحجبها ويأذن للنسيم

---

(٧) النؤى : مجرى يحفر حول الخيمة أو الخباء يقيهما من السيل ٠
(٨) العيس : كرام الابل ٠
(٩) هواجرها : الهاجرة : نصف النهار عند اشتداد الحر والجمع (هواجر) ٠

انما كان أشد تأثر الأدب العربى فى بيئته الجديدة بالناحية الثانية، ناحية العمران ، ناحية الحياة المستقرة فى البلدان ، المعتمدة على الزراعة والصناعة ، الخاضعة للملكية ، وهى عكس حياتهم فى البادية تماما ، فانغمر الأدباء فى جو المدن ، واعتزلوا الطبيعة وتكأكأوا على بيوت الأمراء ، وتزاحموا على مجالس الطرب والشراب ، واستفرغوا جهدهم فى انتهاب فرص الحياة من جاه ومال ورفاهية ولهو ، وتأثر الأدب بذلك : فلم يعد ينغنى بالنجدة والبأس والقناعة ، بل طاب له الاستظلال بسلطان الحاكمين، يترنم بمدحهم بعد أن كان أمثال عمرو بن كلثوم يثورون على نيرهم (١٠) ، وتفنن فى وصف مظاهر التحضر وضروب الترف واللهو فى المدن ٠

أما الأدب الانجليزى ، فتـأثر بالبيئة العالمية فى النواحى الثلاث ـ نواحى مبنى اللغة ومظاهر العمران ومناظر الطبيعة ـ تأثرا كبيرا : فاللغة الانجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها ، والمجتمع الانجليزى تأثر بالمجتمع الايطالى فى عصر الاحياء ، والمجتمع الفرنسى فى عصر لويس الرابع عشر ، ولم يخل فى عصر من التأثر بحـالة العمران فى أوربا ، اذ كانت الحضارة الأوربية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم ، وباطلاع الانجليز على أوصاف الطبيعة فى الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفا بمفاتن بلادهم ، وزادوا فوصـفوا محاسن الطبيعة فى ايطـاليا وبلاد اليونان وغيرهما ٠

تأثر الأدب الانجليزى بالبيئـة العالمية فى شتى النواحى ، ولكنه لاستقراره فى وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثره بالأولى بطيئا محدودا لم يطغ على خواصه المحلية ، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة فى الأدب ، ولم يزد الأثر الخارجى على أن أضاف الى العناصر المحلية ما يناسبها من العناصر الأجنبية ، وكلما احتجن (١١) الأدب جانبا من تلك العناصر مثلها ومزجها بنفسه وصبغها بصبغته الخاصة ٠

فالأدبان العربى والانجليزى قد نشآ فى بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا فى مجتمعين متباينين ، وتأثرا بعوامل عالمية مختلفة ، وهاجر

---

(١٠) نيرهم : النير هو الخشبة المعترضة فوق عنق الثور وتستعار الكلمة للدلالة على الظلم ٠

(١١) احتجن : اختص نفسه به ٠

أحدهما من بيئته الأولى الى بيئة جديدة بينما ظل الآخر فى وطنه الأول ، فلا غرو أن يختلف الأدبان فى الصبغة والمنــاحى والأوضاع والأغراض والأخيلة ، اختلافا يروع الناظر فيهما فيخيل اليه أن ليس هناك تشابه بينهما قط ، ولا وجه للموازنة والمقابلة ، ويكاد يخفى ما فيهما من تعبير مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية ، التى تتفق فيها الطباع الانسانية ، فى شتى المجتمعات ، ومختلف البيئات ٠

النقـــــد

فى الأدبين العربى والانجليزى

ليس النقـد الا ميلا طبيعيا فى الانسان الى الحكم على ما يحس وما يرى ، واختيار الأحسن من ذلك · ونشاط النقد دليل على نشاط الفكر ، وهو مصاحب لارتقاء الأدب وانتشار الثقافة فى كل أمة ، بل هو ضرورى لتقـدم الأدب : يقفه على مواضع احســانه ويظهره على مواقع تقصــيره ، ويجــلو أمامه غاياته وطرائقه ، ويستحثه على دوام الترقى والتزيد · فالأدب صدى الحياة ، والنقد صدى لذلك الصدى ، يظهــر للأدباء والمتأدبين مدى نجاح الأدب فى تأدية رسالة الحياة وموقع أعمالهم فى النفوس ·

فالنــاقد النزيه خير صديق للأديب : يضــــع اصبعه على عيــوبه فيتلافاها ، ويستحسن اجادته فيزيده ثقة بنفسه واقبالا على ممارســة أدبه · ولعل أروع أمثلة ذلك ما كان من ملازمة كولردج لوردزورث : فقد وجد الأخير فى صاحبه ــ حين اعراض الجمهور عنه وغمط الجميع حقه ــ خير عارف بقدره معجب بأدبه ، وكان لاعجاب كولردج وتشجيعه أبعد المدى فى أدب وردزورث ، وكان الشعر الذى كتبه فى عهد صداقتهما خير ما كتبه على الاطلاق ·

بيد أن الأحقاد الشخصية سريعة الى نفوس الأدباء والنقاد ، والأهواء السياسية والمذهبية كثيرة الوغول على الأدب والنقد · وقد شهد الأدبان العربى والانجليزى ما لا يحصى من أمثلة النقد المغرض ، وقاسى الأدباء حملات الخصوم الشخصيين أو السياسيين باسم الفن والنقد · ومن أمثلة ذلك فى العربية حملة الصــــاحب على المتنبى واشلاؤه (١) عليه أذنابه (٢) · وفى الانجليزية عانى أعلام الأدب أمثال وردزورث وتنيسون وكيتس حملات الرجعيين والحاسدين ، وبلغ الكمد من الأخير حين هاجمه بعض ناقديه فاقذع أن مات محتضرا فى عنفوانه ·

---

(١) اشلاؤه : الشلو العضو والجمع اشلاء ·
(٢) الذنابه : ذنب اى تابع والجمع الذناب ·

وقد كتب الكتاب فى العربية والانجليزية وغيرهما من اللغات فى النقد كثيرا ، وحاول كل من عالجه أن يستخلص من شتى الشواهد المنتزعة من آثار فحول الأدب قواعد عامة للأدب توضح غثه من سمينه وتعين القارئ والناقد على استحسان الحسن واستهجان الهجين مما يكتب الكاتبون ، ولكن النقاد لم يتفقوا بعد جهودهم تلك على شيء ذى بال ، بل ناقض بعضهم بعضا ، واستجاد هذا ما استرذله ذاك ، وظل المرجع الأول فى نقد الأثر الأدبى الى ذوق الناقد وتكوينه الفكرى ، وظل كل أثر أدبى من شعر أو نثر يحمل فى طياته المبادئ التى يجب أن ينقد على حسبها ، بل رأى وردزورث — وأصاب — أن الناقد الذى يقبل على نقد أثر أدبى ، وقد كون لنفسه مبادئ ثابتة غير أهل للحكم على ذلك الأثر أو غيره ٠

وللنقد صور شتى : فالأديب هو أول ناقد لأدبه ، وانشاء الأثر الأدبى عملية مكونة من الخلق والنقد معا ، ومن الأدباء من يعرض ما ينشىء على رفاقه ، ويستمع الى ملاحظاتهم عليه ، وكان ذلك معروفا بين العرب قبل أن تذيع الكتابة ، كما كانوا يعرضون أشعارهم على النقاد فى الأسواق الأدبية ، ولتمكن الملكة البيانية من العرب كان كثير من أمرائهم نقادة حفصاء (جامعين) للأدب ٠ ويروى لعبد الملك والحجاج وسيف الدولة مع مداحهم : كثير وليلى الأخيلية والمتنبى نوادر فى ذلك ، فكثيرا ما كان الأمير أبصر بالأدب ونقده من مادحه ، فلما ذاعت الكتابة وانتشرت الثقافة ظهرت كتب النقد ٠

وكتب النقد أنواع : فمنها ما يدرس مبادئ الأدب وغاياته ووسائله ويدخل فى هذا الباب كتب البيان والبلاغة والعروض والقافية ، وهى كل ما يمكن أن يتفق عليه النقاد من مسائل النقد ٠ ويشترك الأدبان العربى والانجليزى فى وفرة هذا الضرب من كتب النقد الأدبى فيهما ، ومن كتب النقد ما يدرس أديبا واحدا أو جملة أدباء على منهج خاص من الدراسة ، كالكتب الكثيرة المؤلفة فى دراسة شكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون وهاردى ، ومنها ما يدرس نوعا خاصا من الأدب كالقصة أو الشعر الغنائى ، ومن ذلك كتاب أبركرومبى عن الملحمة ، ومنها ما يدرس عصرا يوضح عوامل الأدب ومظاهره فيه وآثار فحوله ، كالعصر الاليزابيثى والعصر الفيكتورى ، ومنها ما يدرس من عصور أدب اللغة جملة ، وتلك هى كتب تاريخ الأدب ، وليست فى صميمها الا نقدا ، وهى حديثة العهد٠

وكل هذه الأنواع نادرة فى الأدب العربى وبعضها لا يوجد به ، وانما الضرب السائد فيه هو ذاك الذى توخاه مؤلفو البيان والتبيين

والكامل ويتيمة الدهر : من تناول الأدباء بغير نظام وسرد بعض آثارهم والتعليق المقتضب عليها ، وتلك هي كتب الأدب التى لم يكن الغرض منها درس أولئك الأدباء والاماطة عن جوانب نفسياتهم وأسرار نبوغهم . بل كان الغرض منهـا اقتطاف أطيب آثار المتقدمين وتقديمها للمتأدبين السالكين سبيل الأدب الطالبين أسرار بلاغة العرب ، فلم تكن الغاية درس الأديب المتقدم ، بل اخراج الأديب المقبل .

وقد استفاد النقد فى الانجليزية كثيرا بتقدم العلوم الحديثة حتى فاق النقد العربى فى نواح شتى : فتقـدم علم التاريخ علم النقـاد أن يهتموا بحالة العصر الذى يدرسون من حيث السياسة والاقتصاد والمذاهب السائدة ، وتقدم علوم الاجتماع علمهم أن يهتموا بالبيئة التى نشأ فيها الأديب الذى يدرسون والصفات التى ورثها عن أسرته ، ومزاجه النفسى وتكوينه الجسمى ، وأثر كل ذلك فى أدبه ، فجاء النقد الانجليزى الحديث واضح المناهج بين الأسباب والنتائج ، وأبرز للعصور والأعلام صـورا جلية وشخصيات متميزة .

أما نقاد العرب فكانوا أكثر اهتماما بدرس فنون الأدب وأساليب الصناعة منهم بدرس الأشخاص والعصور ، وقد أسهبوا فى درس الفنون التى فشت فى أدبهم واستأثرت بمعظم نثرهم وشعرهم : كرسائل الأمراء والنسيب الاستهلالى والمدح والهجاء والرثاء ، وهى المناحى التى لم تظفر من أدباء الانجليزية ونقادها بالتفات ، فقسم قدامة بن جعفر مثلا الممدوحين الى ضروب : فملوك ووزراء وكتاب وقواد وسوقة ، وحصر صفات المدح فى أربع : الشجاعة والعدل والعقل والعفة ، يجمعها قول زهير :

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قـد يهلك المال نائله
فمن مثل حصن فى الحروب ومثله لانكار ضيم أو لخصم يجادله

والنـاظر فى كتب النقد فى الأدبين العربى والانجليزى ، يرى ـ عدا ما تقدم ـ فروقا واضحة بين نقدى الأمتين كالفروق التى يرى بين أدبيهما ، بل يرى مواضع الاختلاف واحدة فى الحالتين ، ولا غرو فالنقد كما تقدم صدى الأدب ، بل ان النقد والأدب يتجاوبان فيما بينهما مدى مستمرا طوال العصور ، والخصائص التى تغلب على أحدهما لابد أن تغلب على الآخر ، ومن ثم نجد بين النقد فى العربية والنقد فى الانجليزية ما نجد بين أدبى اللغتين من فروق فى نواحى المحافظة والتجديد ، والتأثر بالأثر الأجنبى ، والمعنى واللفظ ، والفنون وهلم جرا .

فنزعة المحافظة هى الغالبة على نقاد العربية ، وقل منهم من دعا الى تجديد صحيح ، وذلك ابن الأثير مثلا يزعم أنه مجدد فاق الأوائل ثم يأتى بأمثلة من تجديده فاذا هى محافظة مغرقة وتقليد مفرط ، وأغلب نقاد العربية يقدسون المتقدمين دون تأمل ، ولا يرون عن مناهجهم حولا ويضعونهم فوق متناول النقد . وذلك أبو على الحاتمى يحسبه أتى بجديد حين مثل القصيدة بالانسان فى تناسب خلقه ، فلا ينشب أن يقول : « وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة » ، فهو لا يتصور القصيدة الا نسيبا ومديحا كما فعل الأوائل .

وتتجلى نزعة المحافظة فى النقد العربى فى أمرين : غرضه ، وممارسيه ، وهما أمران متصلان أحدهما بالآخر ، فقد كان غرض كتب الأدب والنقد فى العربية كما تقدم وقف الناشىء المتأدب على بلاغة المتقدمين، وتفهيمه أسرار اعجاز القرآن ، لينحو منحى أولئك المتقدمين ويضرب على وتيرتهم ، فكان غرض النقد الأول تعليم المتأخرين كيف يقلدون الأولين .

ولم يمارس النقد فحول الكتاب والشعراء ، ولم يؤثر عن فحول العربية مما يدرج تحت عنوان النقد الا شذرات مقتضبة بعيدة عن التنظيم، كوصية عبد الحميد لمعشر الكتاب ونصيحة أبى تمام للبحترى ، وربما ثار بعض الشعراء بما درج عليه زملاؤهم من تقاليد ، كثورة أبى نواس بالوقوف على الديار فى مثل قوله :

لا جف دمع الذى يبكى على حجر ‌‌‌‌ ‌ ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

وتمرد المتنبى على النسيب الاستهلالى فى قوله :

اذا كان شعر فالنسيب المقدم ‌ ‌ أكل أديب قال شعرا متيم ؟

ولكنها كانت خطرات عابرة لم تكون مذهبا ولم تغير سنة ، بل لم يتبعها قائلوها أنفسهم وجاروا التقاليد الجارفة فيما نظموه ، وانما مارس النقد فى العربية المقلون فى النثر والشعر كالجرجانى وأبى هلال العسكرى ، أو من لم يؤثر عنهم شىء ، وهكذا كان الأدباء فريقا والنقاد فريقا آخر .

أما فى الانجليزية فاختلط الفريقان ، وكان أفذاذ الأدب عادة هم أفذاذ النقد أيضا ، وكان زعيم كل نهضة أدبية هو أيضا زعيم النقد فيها :

فكل من بن جونسون ودريدن وبوب وصمويل جونسون ووردزورث وكولردج وديكونسى وماكولى وماثيو أرنولد ورسكن ، كان كاتبا أو شاعرا كما كان ناقدا ، وذلك لعمر الحق دليل حيوية الأدب وروح التجديد فيه : فلن يكون الأديب أديبا حتى يكون له رأى فى الأدب والحياة ينضح عنه فى كتاباته النقدية ، كما يصدر عنه فى آثاره الأدبية ، وكل من دريدن وبوب ووردزورث قد استجد مدرسة فى الأدب لا بأشعاره فقط ، بل بنظرياته فى النقد . فبينما كان غرض النقد فى العربية المحافظة على مناهج المتقدمين ، كان فى الانجليزية ابتداء حركات جديدة .

ولا ريب فى أن الأدباء الذين يمارسون النظم والنثر هم أدرى الناس بنقدهما ، لأنه لا يعرف الشوق الا من يكابده ، والأديب الذى يعلن للناس نظرياته النقدية مشفوعة بآثاره الأدبية أمثلة مؤيدة لتلك النظريات ، كما فعل وردزورث فى أغانيه الشعبية ومقدمته النثرية لها ، أحرى أن يتبع من الناقد الذى لا يمارس الأدب ، وانما يملى على الأدباء آراءه وهو بنجوة عن محيطهم ، فمن أعجب ظواهر الأدب العربى تنحى فحوله عن مضمار النقد ، وتركهم مجاله لعباد القديم ومقدسى السلف .

ولتقديس النقاد للقديم وقفوا موقفا متناقضا : فكانوا ينكرون على الأديب أن يحيد عن مناهج القدماء ، ثم ينكرون عليه أن يتداول معانيهم التى سبقوه اليها ، وصرفوا جانبا عظيما من اهتمامهم الى تتبع سرقات الشعراء ، فكتاب «الوساطة» للجرجانى أغلبه جهد ضائع فى تقصى المعانى الى مواطنها الأولى من أشعار الأجيال السالفة ، وتمزيق القصائد بيتا بيتا ، والحكم على الشعراء بالاختلاس لأوهى الشبهات اللفظية .

وكان نقاد العربية أكثر التفاتا الى الألفاظ منهم الى المعانى ، وعد أكثرهم احكام اللفظ ميزة الأديب الفحل ، وعدوا المعانى مشاعا بين الجميع ، قال أبو هلال العسكرى : « وليس الشأن فى ايراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه » ، وقال ابن الأثير : « ولقد رأيت كثيرا من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم الا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين ، فالعبارة عن المعانى هى التى تخلب بها العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون فى استخراج المعانى » .

ولهذا صرف أكثر النقاد همهم الى خصائص الألفاظ وضروب الأساليب ، وأسهبوا القول فيما سموه علم البديع ، واستقصوا أقسام

الجناس والطباق والسجع ، وطرق تضمين الآيات وحل الأشعار ، ووجود علم البديع فى العربية دون الانجليزية برهان ناطق على شديد اهتمام نقاد العرب باللفظ ، وكان للنقاد والأدباء معا ايمان وطيد بمقدرة اللغة على أداء أى معنى ، وثقة لا تتزعزع فى تفوق اللغة العربية فى الفصاحة على غيرها من اللغات ، وكانوا يرون ذلك ميزة العرب على غيرهم من الأمم التى بذتهم فى شتى العلوم ٠

أما موقف جمهور الأدباء الانجليز من اللغة فكان غير هذا : فهم وان لم يغفلوا أهمية الصياغة اللفظية وضرورة تمكن الأديب من اللغة ووقوفه على أسرارها ، ظلوا يعدون اللغة وسيلة لا غاية ، وسيلة للتعبير عن خوالج النفس ، بل عدها كثير منهم وسيلة ناقصة عاجزة عن التأدية الى تلك الغاية ، يجب على الأديب أن يستفرغ جهده ليجعلها تؤدى غرضه ، فلم يهتم أدباء الانجليزية ونقادها برنين الألفاظ الأجوف وزخرفها المموه ، بل استعانوا بمعانيها المصطلح عليها ، وجرس حروفها ودقة اختيارها والملاءمة بينها ، واشتقاقها وخلقها حيث لا توجد لتأدية الحالة النفسية المتخيلة على ما يجب ، وتصوير الجو العاطفى أو المنظر المرئى : من رهبة أو جذل أو سكون أو سرعة ، ويفاضل النقاد الانجليز بين الأدباء حسب مقدرتهم على استخدام اللغة هذا الاستخدام وتطويعها لأغراضهم على هذا النحو ، لا حسب حظوظهم من المحسنات البديعة ، ويقولون ان الفرق بين لغة العلم ولغة الأدب أن الأولى تعتمد على المعنى المجرد للفظ ، والثانية على ما توحيه الألفاظ من أجواء معنوية ٠

ولما كان ايمان العرب بتفوقهم البيانى كما تقدم ، لم يهتموا بالآداب الأجنبية أو النقد الأجنبى كثيرا ، فهم واضعو علوم البلاغة فى لغتهم ، وهم نهجوا بكتب الأدب والنقد نهجهم الخاص بهم ، وجدهم فى هذا السبيل جسيم جليل ، أما الانجليز فجعلوا النقد الأدبى الأجنبى دائما نصب أعينهم ، قديما كان أو حديثا ، فمما كتبه أرسطو ومما نظمه هوراس فى النقد نشأ النقد الأدبى فى الانجليزية ، وغذى بعد ذلك بكتابات دانتى وبوالو ولسنج وجيته وسنت بيف وتين ، فالناقد الانجليزى يستعرض آراء هؤلاء أثناء استعراض آراء مواطنيه بلا تفريق ٠

ولا ريب فى أن اشتمال النقد الانجليزى على آراء أمثال أولئك ربح للأدب لا يقدر : فاطلاع الأدباء والنقاد على خير ما تنتجه القرائح فى العالم أجمع يوسع آفاق تفكيرهم ويفسح حدود أدبهم ، ويربأ بالأدب أن تثقله القيود وتفسده التقاليد ، ومن ثم قال ماثيو أرنولد بضرورة اتقان الناقد

فى أدب ما أدبا أجنبيا واحدا على الأقل ، تزداد فائدته له كلما ازداد التباين بينه وبين أدب الناقد الأصلى ٠

فأكثر النقاد الانجليز كانوا كما تقدم من أعلام النظم والنثر ، وكانوا مطلعين على الآداب الأجنبيـة ، وما كتب فيهـا فى النقـد ثم هم كانوا ـ ولا سيما متأخروهم ـ مهتمين بالفنون الأخرى بجانب الأدب ، واقفين على ما كتب فى نقدها ، بل كان منهم من جمع بين نقدها والنقد الأدبى : فدريدن واضع أساس النثر الانجليزى الحديث كتب رسالته فى « الموازنة بين الشعر والتصوير » وكذلك جمع لام وثكرى ورسكن بين نقد الأدب ونقد التصوير أو النحت،ولا ريب فى أن تفقه الناقد فى تلك الفنون أكبر معوان له على حسن النظر فى الأدب وصدق النقد له ، لتشابه الفنون فى وسائلها وغاياتها ٠

فالناقد الانجليزى كان أكثر أهلية للنقد وقدرة على النجاح فيه : لأنه كان يمارس الأدب بنفسه نظما ونثرا فهو أدرى بدخائله ولأنه مطلع على الأدب الأجنبى والنقد الأجنبى ، ، فهو أدرى بمحاسن أدبه ومثالبه(١)، ولأنه متبصر فى الفنون فهو أعلم بمناحى فنه الخاص ـ الأدب ـ ومن ثم حفل الأدب الانجليزى بالدراسات القوية لعصور الأدب وفحوله وفنونه ، وجاء تاريخه أوضح منهاجا وأبين معالم من تاريخ الأدب العربى ٠

---

(١) مثالبه : المثلبة أى العيب ، والجمع مثالب ٠

أثر نظام الحكم

فى الأدبين العربى والانجليزى

تمر الامم فى استقرارها وتحضرها بثلاثة أطوار عامة من أنظمة الحكم : ففى الطور الأول تكون أزمة الأمور بأيدى رؤساء القبائل الرحالة أو القريبة العهد بالاستقرار ، وهو ضرب من الحكم أرستقراطى ، وفى الطور الثانى تتجمع مقاليد الحكم فى يد حاكم فرد يوحد أجزاء مملكة ذات مساحة يعتد بها وتخوم طبيعية ، وهو نظام الملكية ، وفى الطور الثالث يعود تصريف شئون الدولة فى أيدى جميع أبنائها القادرين ، وهو النظام الديمقراطى الذى هو أصلح الأنظمة جميعا ، اذ هو أدناها الى العدل والمساواة وأجدرها أن يفسح المجال للمواهب الفردية ويمهد الطريق لرقى الأمة ٠

ومن الشعوب البدائية ما لا تتجاوز الطور الأول ، ومن الأمم ما تقف عند الثانى كجميع دول الشرق القديم ، ومنها ما تصل الى الثالث كبعض مدن اليونان وروما ، وقد تعود دولة بعد بلوغ الطور الثالث فترتد الى الثانى ، لنكسة فى أحوالها تحرمها التمتع بمزايا الحكم الديمقراطى وتجعل الحكم الفردى ضربة لازب (أمرا واقعا) ، ومثال ذلك روما حين اتسع سلطانها وأفسد الترف أخلاق أبنائها ، فعجز السناتو عن تصريف شئونها ووقع حكمها فى قبضة الدكتاتوريين والأباطرة ٠

وقد عرف العرب الطور الثانى من أطوار الحكومة فى جاهليتهم فى أطراف الجزيرة ، حيث ساعد خصب الأرض واستواؤها على توحد دولة متسعة وتوطد ملكية قوية ، أما فى سائر الجزيرة فظل الطور الأول ، طور الحكم الأرستقراطى ، سائدا ، وبلغ بين بعض قبائلها ولا سيما فى الحجاز مستوى عاليا من الاحكام ، وكانت لأشراف العرب دراية عملية فائقه بقواعد الحكم والاجتماع ٠ تتمثل فى قول الأفوه الأودى :

لا يصلح النـاس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة اذا جهـالهم سـادوا

تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت
فان تولت فبالأشرار تنقـاد

وهو تلخيص شعرى رائع لنظريات أرسطو فى السياسة • وقد نمى هذا النظام فى نفوس العرب نزعات الحرية والحمية والشجاعة التى أدت الى دوام الخصام بينهم ، وأورثتهم الفخر بالعصبية والتمدح بالنسب ، وأثر كل ذلك بين فى أشعار ذلك العهد التى أغلبها تكرار مستمر للمفاخر والمآثر القبلية ، وتمدح بالعز والمنعة ، فالى ذلك صرف شعراؤهم قولهم ، ولم ينصرف الشعراء الى مدح الملوك وتعداد مآثرهم دون مآثر القبيلة أو الأمة الا حيث قامت ممالك الغساسنة والمناذرة والتبابعة ، فكانت من ذلك مدائح حسان والنابغة والأعشى •

فلما جاء الاسلام خرج العرب دفعة واحدة من الطور الأول من أطوار أنظمة الحكم طور الأرستقراطية ، الى طور الملكية الذى توطدت بينهم قواعده وظلوا فى حدوده لا يتعدونه الى الطور الثالث طور الديمقراطية ، ويرجع تمكن الملكية بين العرب بعد تعودهم التشاور فى الأمور ورغم حض الاسلام على ذلك التشاور ، الى عوامل خطيرة أولها مكانة النبى عليه السلام: اذ كان أول حاكم فرد للجزيرة ، وكان له من جلال النبوة وعظمة الشخصية والقدرة الخارقة ما عود العرب الامتثال لأمير مطاع ، وزادهم انقيادا لهذا الضرب من الحكومة اقتفاء العمرين أثره فى عدل الحكم ونجاحهما فى الخارج والداخل ، وحرص المسلمين على وحدة الكلمة والدين ما يزال يجاهد أعداءه ، ومن تلك العوامل أيضا اتساع أطراف الدولة العربية السريع ، حتى عادت ادارتها متعذرة الا بيد حاكم فرد مطاع ، ومنها قيام الدولة على أنقاض ملكيات عتيدة ما لبثت تقاليدها أن سرت فى كيان الدولة الجديدة ، ومنها الصفة الدينية التى ظل يتخذها الحاكمون •

لذلك هجر العرب تدريجيا تقاليد التشاور وتوطد لديهم نظام الملكية المطلقة ، فكان منذ قيام دولتهم النظام الوحيد الذى عرفوه ، أو فكروا فيه ، فلم يقم من مفكريهم من نادى بنظام مخالف له ، أو دعا الى ضرب من الديمقراطية ، بل كانت الملكية لديهم هى النظام الطبيعى الذى لا نظام غيره ، وظل لسان حالهم قول المتنبى : « وانما الناس بالملوك » ، وانما كان أحرارهم يفرضون فى الملك العدل والاصلاح واتباع أحكام الدين والا وجب خلعه • وعلى هذا الأساس كان خلع عثمان والوليد بن يزيد ، وامتلأ تاريخ العرب بالثورات ، ولكنها لم تكن — فيما عدا ثورة الخوارج

الذين تمسكوا وحدهم بتقاليد الجاهلية وديمقراطية الاسلام ـ تمردا على نظام الملكية المطلقة ، بل كانت ثورة مظلوم على ظالم ، أو وثبة فرد بفرد ، أو فتكة أسرة بأسرة ، وفي ظل هـذا النظام الملكي المطلق بلغ الأدب العربي غاية رقيه ٠

أما في انجلترا ، فساعدت الظروف المحلية الجغرافية والتاريخية على خروج الشعب من الطور الثاني الى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، فان عزلة الجزيرة أبعدتها عن غمار الحروب التي تتخذها الملكية ذريعة لتقوية سلطانها ، وفرض الضرائب ، وجمع جيش قائم يخمد كل تمرد على مظالمها في الداخل ويشيد في الخارج امبراطورية لا يتسق حكمها لغير الملكية ، فلم يتجه الشعب الانجليزي الى التوسع الخارجي ، ولم يبن امبراطورية الا بعد أن وطد أساس حقوقه وحرياته ، وبنى تلك الامبراطورية تدريجا ، فلم يستهدف لتضخم فجائي يوقع حكومته في يد دكتاتور ، وبذلك ظل الشعب غنيا عن خدمات الملكية في الخارج قادرا على كبح جماحها في الداخل لقوته وضعفها ، فأحرز عليها النصر الحربي في كل ثورة ثارها في وجهها ، بينما كان نصيب الثورات الشعبية في الدولة العربية السحق العاجل ٠

ترعرع الأدب الانجليزي وقد ثبت النظام الدستوري في انجلترا بجانب نظام الملكية ، وشهد الأدب تضامنهما أحيانا كما في عصر شكسبير، وصراعهما أحيانا كما في عصر ملتون ، وكان رجال الأدب عادة في جانب الحرية والديمقراطية يجاهرون المستبدين العداء ، وقد عميت عينا ملتون في دفاعه بقلمه عن الجمهورية في ظل كرومويل ، ولم يصلح ما بين الملوك والأدباء الا بعد انتصار الديمقراطية على الملكية ، وصيرورة الملكية جزءا من النظام الدستوري ، وشارة من شاراته ، وفي ظلال هذه الديمقراطية بلغ الأدب الانجليزي مبالغ عظمته ٠

فهذا فرق ما بين الأدبين في هذا الصدد : أن أحدهما بلغ أوجه في ظل النظام الملكي ، والثاني جرى الى مداه في حمى النظام الدستوري ، ومن ثم نجد الأدب الانجليزي أعظم حرية في النزعة وأصدق في التعبير ، وأغنى بالمواضيع ، وأكثر تنوعا في الأشكال ، لأن الملكية ليست بخير النظم التي يترعرع في ظلها الفن الصحيح ، لأنها شديدة الأثرة والغيرة ، لا ترضى من ضروب النشاط الا بما يتوفر على خدمتها ، ولا تسمح للحق والفن بالذيوع اذا كان في ذيوعهما تحد لسلطتها ٠ أما النظام الدستوري فيفسح المجال للمواهب بلا عائق ، ويطلق العنان للحقيقة بلا كابح ٠

فمن شأن الملكية المطلقة أن تخمد الرأى العام فى بلادها ، لأنها « هى الدولة » والرأى لها ، لا يكاد ينطق ناطق أو يعمل عامل الا بما ترضاه ، ومن ثم كفت الشعب عن ممارسة شئون الحكم ، وكفت الأدباء عن نقد أحوال المجتمع ، فعاش أدباء العربية بنجوة عن ذلك المجتمع لا يكادون يشعرون بشعوره أو يعبرون عن خوالجه أو يصفون أحواله ، ومن ثم لم تظهر فى الأدب العربى القصة التى تدرس المجتمع وتحلل دخائل النفس ، وجاء شعر الشعراء ونثر الكتاب أكثره نظريا لا اتصال بينه وبين حقائق المجتمع والحياة اليومية • أما فى انجلترا فان توطد أركان الديمقراطية صاحبه ظهور القصة الاجتماعية وتعاظم مكانتها حتى طغت على أشكال الأدب الأخرى •

وفى ظل الملكيات المطلقة ذوى ضرب آخر من ضروب الأدب ، هو الخطابة التى لا تزدهر الا حيث الديمقراطية والمشاورة وحرية الرأى ، فنراها بعد أن بلغت أوجها قبيل الاسلام وفى صدره تخمل تدريجا تحت الملكية التى تستأثر بالرأى والفعل ، وتبطل كل رأى آخر وكل فعل ، على حين ظلت للخطابة فى الانجليزية منزلتها ، وأنجب البرلمان الانجليزى فى عهوده القريبة خطباء مصاقع ، أمثال والبول وفوكس وبت وبرايت وجلادستون •

وفى نظير ابتعاد الأدباء عن نقد المجتمع والخوض فى شئون الحكم ، ترك لهم الملوك عنان العبث مرسلا ، يقارفون ضروب المجون فى منتدياتهم، ويدونون صنوف الهجر فى آثارهم ، ويتبادلون فاحش القول فى أشعارهم، فامتلأ الأدب بذلك السقاط حتى ظن المتأخرون الذين شبوا على دراسته أن الرقاعة والخلاعة من صفات الأديب ، وحتى ترفع ذوو الحسب عن معاطاة الأدب •

ولم يكتف الملوك بكف الأدب عن نقد أعمالهم بل اتخذوا رجاله أبواقا للتمدح بآثارهم ما صح منها وما بطل ، فكما اتخذوا من مرتزقة الجند أنصارا لهم على اخضاع الرعية ، اتخذوا من مرتزقة الشعراء أعوانا على تضليلها ، وقد هبط هذا الارتزاق بالأدب عن مكانته السامية درجات، وحسبك أن يهبط الشاعر من قمة الفن والشعور والصدق الى وهدة الشحاذة والتمليق والكذب ، وهذه خلال تنزه عنها الأدب الانجليزى فى أغلب عهوده ، لأن الشعب لم يمكن الملكية من ابتزاز ثمار اجتهاده وكده لتبعثرها فى مظاهر الأبهة الجوفاء ، وتنثرها على المرتزقة من الجند والشعراء •

وفى سبيل استرضاء الحكام واستدرار صلاتهم لم يحجم كثير من الشعراء عن امتهان الفن من جهة ، فأذالوا الشعر وملأوه بالأكاذيب ، وعن امتهان الخلق الكريم من جهة ، فمدحوا الظالم والقاتل ما دام فى دست الحكم ، وتقربوا اليه بذم أحفاد الرسول ، وتملقوه بهجاء من فتك بهم من قواد ووزراء ، وهجا البحترى الخلفاء المخلوعين ومدح من استعادوا العرش على التوالى ، ومدح بشار العلوى الخارج على المنصور ، فلما علم بانحداره حول القصيدة ومدح بها المنصور • وتحاسد الشعراء وتهاجوا لتنافسهم على جوائز الأمراء ، على حين نرى فى الانجليزية أن شلى لما بلغه امتداح سوذى لملك انجلترا فى ذلك العهد امتداحا متملقا ، كتب اليه يوسعه توبيخا ويجاهره بالقطيعة •

واذا ندرت فى الأدب العربى آثار انتصار الأدباء للشعب ومناصبتهم لنملوك دفاعا عنه ، فلم تندر فيه أخبار الخارجين على الحكام طلبا للملك والمجد الشخصى كحكاية تميم بن جميل الذى أنشد بين يدى المعتصم تائيته البديعة التى مطلعها :

يعز على الأوس بن تغلب موقف يسل على السيف فيه وأسكت

ولم تندر أخبار الأدباء الطامحين الى الملك كالمتنبى الذى خرج فى صباه وظل يتوق الى الخروج طول حياته ، والشريف الرضى الذى باح بدخيلة نفسه فأسقط عليه الخليفة ، بقصيدته التى أولها :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صـــارم وأنف حمى

وما كان مثل ذلك ليكون فى الأدب الانجليزى : فالأدباء الانجليز كانوا أشد حبا للأدب واعتدادا بمكانة الفن من أن يهجروهما الى شىء آخر ولو كان هو الملك ، كما كانوا من جهة أخرى أشد اخلاصا لوطنيتهم ووفاء لسعادة بلادهم من أن يفكروا فى اعتراض سبيل الحياة الدستورية التى رضيتها لنفسها ، وما كانت الظروف لتعينهم لو حاولوا بأكثر مما أعانت أدباء العربية سالفى الذكر •

ولتزاحم شعراء العربية على صلات الملوك ومن تشبه بهم من الأمراء تجمعوا فى المدينة وانصرفوا عن محاسن الطبيعة ، فلم تفز من أغلبهم بكبير التفات • وقل مثل ذلك فى شتى أبواب الشعر : فما يكاد يكون فى أشعار الفحول وصف لجيش أو أسطول أو بحر أو بلد أو قصر أو

منظر ، أو رثاء أو حكمة او تفكير فى الحياة والموت ، الا مرئيا كل ذلك من وجهة نظر الممدوحين وجاريا فى ثنايا مدحهم والترنم بما حازوا من رفيع الشأن ، فكانت مدحة صاحب النوال هى الوحى الأول الذى يدفع الشاعر الى ملاحظة تلك المشاهد وتدبر تلك الحقائق ٠

ولاعتماد الأدباء فى معاشهم على صلات الأمراء ، وتوقف سعودهم ونحسهم على رضى الأمراء وغضبهم ، كثرت الشكوى فى الأدب العربى ، وأنحى الأدباء على ما أسموه الدهر ذما وتقريعا وتفنيدا ، وعزوا أنفسهم بالتفاخر الأجوف ، وطال ذمهم لحرفة الأدب ، وما يزاملها من شقاء وحرمان، ولا ذنب للأدب ، وانما هم صيروه حرفة وما هو الا فن ، بل هبطوا به الى ما دون الحرفة فصيروه تسولا ٠ أما فى الانجليزية فنرى جيبون مثلا يسخر مر السخرية ممن يزعمون أن الأدب أشقاهم ، ويعلن فى صراحة واغتباط أن كتابه عن تاريخ الرومان كان خير رفيق له وسمير لروحه أعوام تصنيفه ، ثم أناله من بعد ذلك صيتا وضمن له بعد مماته ذكرا ما كان يستحقه بدونه ٠

أما من قنطوا من صلات الأمراء من بين شعراء العربية ، وقعد بهم عجز حيلتهم عن الوصول الى ساحات الملوك ، فاما هجروا الشعر جملة واما عكفوا على نظم أشعار الزهد ، فغزر ذلك الضرب من النظم فى العربية٠ وليس التزهيد فى الحياة بأسمى رسالات الآداب ، بل رسالتها الصحيحة الترغيب فى الحياة والتعبير عن جمالها والدعوة الى الاستمتاع بها ٠

ولطمع الأدباء فى جوائز الأمراء نزحوا من أطراف البلاد الى العاصمة ، فصارت دون سواها من المدن مجال الشعر وسوق الأدب ، وخمد فى غيرها نور الفنون ، أما فى انجلترا فقلما هجر أديب بلده الى لندن طلبا للحظوة والمال ، بل هجر بعضهم مقامه بالعاصمة الى منطقة البحيرات ، فاستقر حيث الجمال الطبيعى والحياة الشعرية والوحى الصادق ، وحيث عرش الطبيعة لا عروش المالكين ٠

ومن خلال المدح كان يتحدث شعراء العربية عن انتصارات الدولة فى الحروب ، فكل من أبى تمام والمتنبى وابن هانىء الأندلسى يشيد بانتصار ممدوحه ، وينسب اليه كل الفضل فى تدبير الرأى والاقدام وهزيمة العدو ونصر الدين ، أما فى الانجليزية فكان شعراء الوطنية أمثال كامبل وتنيسون وكبلنج يرون فى انتصارات الدولة ظفرا للقومية الانجليزية ، لا فخرا شخصيا للملك ، فتغنى الشعراء بتلك الانتصارات،

وشادوا ببسالة القواد وأمراء البحر الذين أكسبوا أمتهم مواقف الفخار ، وقلما التفتوا الى الملك أو خصوه بذكر ٠

وكما طلب شعراء العربية الرزق بمدح الملوك ، طلبه الكتاب بالاستيزار والانشاء فى دواوينهم ، فجاءت آثارهم الأدبية كآثار الشعراء ، كثيرة المبالغة والاغراق ، قليلة النصيب من صدق الشعور وصحة النظر ، كثيرة التلاعب بالألفاظ ، وكان لأولئك الوزراء شأن أعجب من شأن الشعراء : اذ اتخذهم الخلفاء وسيلة لابتزاز أموال الرعية ، حتى اذا ما حان الحين فتكوا بهم واستصفوا أموالهم ، وكتب الأدب حافلة بأنباء نكباتهم ٠

ولا ريب فى أن غيرة الملوك على سلطانهم المطلق كانت من أسباب الانصراف عن ترجمة تراث اليونان الأدبى والتاريخى ، كما ترجم تراثهم الفلسفى الى العربية ، لأن هذا الأخير مشحون بالنظريات والقضايا الخيالية التى لا تتعرض لسلطانهم بسوء ، على حين أن تراث اليونان الأدبى حافل بمظاهر الديمقراطية ، وآثار اشتراك الشعب فى حكم نفسه (١) ، فالملكية أكثر تسامحا مع العلماء وتشجيعا للعلوم التى تدرس ظواهر الكون العامة ، منها للآداب التى تترجم عن مشاعر النفوس ، ولا شك فى أن اطلاع الانجليز على آداب الاغريق وتاريخهم كان من عوامل تمكين نفوسهم وتشبثهم بحقوقهم ٠ وهكذا كانت الملكية المتسيدة من أسباب حرمان الأدب العربى من الأثر اليونانى الذى استفاد منه الأدب الانجليزى فوائد جزيلة ٠

فالملكية فى ابان صولتها ليست بخير أنظمة الحكم التى تزدهر فى ظلها الآداب الرفيعة ، أما فى عهود عجزها فهى شر مستطير على الفكر والحضارة عامة : فحين ضعفت قبضتها على الدولة العربية تقطعت أوصال المملكة ، وتكاثر الملوك والأمراء وتنازعوا وتحاربوا ، فكل بلدة « فيها أمير المؤمنين ومنبر » ، وظهروا فى جلود الأسود منتفخين ، وأفقروا البلاد بحروبهم ومغارمهم ، وكان منهم الأعاجم الذين لا يقدرون الأدب ، فخيب لديهم رجاء الشعراء فركد حتى ذلك الضرب من الشعر المملوء بالأماديح والمبالغات ، ودخلت الحضارة عامة والآداب خاصة فى دور ذلك التدهور الطويل الذى دام قرونا ٠

(١) ذلك رأى وجيه اذ ثبت ان هؤلاء الملوك قد اطلعوا على مضامين الاسفار الادبية الاغريقية فى أصولها (الرسالة) ٠

فالأدب العربى قد شهد الطورين الأول والثانى من أطوار النظـام الحكومى التى تقدم ذكرها فى صدر هذه الكلمة : طور الأرستقراطية فى الجاهلية ، وطور الملكية فى الاسلام ، فجاء فى الطور الأول أكثره حماسى عصبى ممجد للقبائل وأبطالها ، وكان قائلوه عادة من الأشراف ذوى المكانة، وظل فى الطور الثانى مكفوفا فى حيز الحدود التى رضـيتها له الملكية منصرفا عن أغراض كثـيرة من أغراض الفن السليم ، وترعرع الأدب الانجليزى فى الطور الثالث من أنظمة الحكم ، طور الديمقراطية . فجاء حر النزعة ، متعدد النواحى ، واسع الأفق ، محتفظا بسمو الفن وتجرده عن المادة ، وكان الفرق بينه وبين الأدب العربى ، أن الأخير بلغ أشده فى ظل الحماية والمنحة ، والأول جرى الى غايته فى ظل الحرية والاستقلال .

غرض الأدب

فى الأدبين العربى والانجليزى

التعبير عن خوالج النفس الانسانية وتأثراتها بمظاهر الكون المحيطة بها هو غرض الفنون جميعا ومن بينها الأدب . ولا يرقى الأدب الى مرتبة الفن السامى حتى يكون ذلك التعبير عن المشاعر النفسية غرضه الوحيد، منزها عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، فاذا خالطه شىء من ذلك هبط الى مرتبة الصناعة ، ولم يعد له فى النفوس ذلك الوقع المطرب الذى تتركه فيها الفنون الجميلة .

وقد ظل التعبير الحر الصادق عن نوازع النفس غرض الأدب الانجليزى الوحيد فى أغلب عصوره ، فلم يكن غرض الكاتب أو الشاعر مما ينشىء الا الافصاح عما يشعر به أو يفكر فيه ، فزخر الأدب فى عصوره المتوالية بألوان الشعور وأشتات الأفكار فى مختلف مشاعب الحياة ومتباين حالات النفوس ، وتناول بالتصوير والتحليل دخائل النفوس وأغوار الطباع وأطوار الأفراد والمجتمعات ، ولم يدع فحوله شاردة ولا واردة من نوازعهم وبوادرهم ومشاهداتهم وتأملاتهم الا أثبتوها فى منشآتهم وأبرزوها فى روائع الصور .

وكذلك كان التعبير الصادق المنزه عن الغرض الخارجى غاية الكثير مما نظمه الشعراء وسطره الكتاب فى العربية ، وحفل الأدب العربى بالرائع من الحكم والأمثال والدقيق من أوصاف النفس وغرائزها وميولها ، وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى أو يشار اليها ، وانما نذكر منها الوصايا المنسوبة الى بعض فحول العربية ، كذى الاصبع العدوانى وعلى بن أبى طالب ، ومنها وصية ابن هراسة لابنه حيث يقول : « ان من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتهم . ليس لرضاهم موضع فتقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحذره . فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبدلهم وجه المودة ، وامنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم ، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم » .

غير أن فى الأدب العربى بجانب ذلك آثارا كثيرة لم يكن التعبير عن خوالج النفس غرضها ، ولا الصدق شعارها ، فهى لذلك لا ترقى الى مرتبة الفن الجميل ، ولا تؤثر فى النفس تاثيره ، وانما هى أدنى الى الصناعة ، لها كالصناعة غرض مادى تؤديه وغاية خارجية تخدمها · ولا غرو أن كان العرب يسمون النظم والنثر بالصناعتين ، ويعدون الأدب « صناعة » أو «آلة» «يتعاطاها» صاحبها ، ولم يكن لكلمة « الفن » لديهم ما لها اليوم من المعنى السامى ·

بلغ الأدب العربى مرتبة الفن السامى فى عصر الجاهلية ، حين كان أشراف القبائل وحكماؤها يودعون الشعر حكمتهم وأطرابهم وأحزانهم ، فلما قامت الدولة العربية صحبتها عوامل لم تكن لتساعد على اطراد رقى الأدب فى وجهته الصحيحة ، بل عملت فى غير ناحية على تقهقره وفقدانه ما كان له فى الجاهلية من قوة وصدق وسمو ، وهى سمات الفن الصحيح، حتى أصبح من السهل تقسيم الآثار الأدبية ، بل تقسيم آثار كل أديب منفرد ، الى قسمين : قسم صادق يصدر عن شعور صحيح ويدخل فى دائرة الفن السليم ، وقسم كاذب مملوء بالمفارقات والمبالغات يمت الى الصناعة ولا يمت الى الفن ·

وأول تلك العوامل ذيوع التكسب بالشعر ، فانه جعل للشعر غرضا سوى التعبير عن خوالج النفس الذى هو غرض الفنون جميعا ، وصير له غاية مادية هى صلة الممدوح التى قامت مقام الحافز النفسى والشعور الصادق ، فسارع الى الشعر الكذب والمبالغة ، وهبط عن مرتبة الفن السامى وصار صناعة تمارس ويبرز فيها ذوو اللباقة والمهارة ، لا أصحاب العبقرية والنفوس الكبيرة ، وداخل النثر من هذه السمات ما داخل الشعر، لأنه مثله سخر نفسه لخدمة الحاكمين ·

وثانى العوامل هو نزعة المحافظة والتقليد ، التى سرعان ما تمكنت من الأدب العربى ، حين أشفق العرب على أدبهم ولغتهم ودمائهم مما اجتاحها من هجنة الأعاجم الداخلين فى دينهم ولسانهم ومجتمعهم ، أدى ذلك الى الضن الشديد بآثار المتقدمين والتبجيل العظيم لأشكال الأدب وصوره فى عهدهم ، والاعجاب المطلق باشعارهم وخطبهم ذات اللغة الفصيحة السليمة ، وتمادى الشعراء فقلدوهم فى وعورة الألفاظ أحيانا ، وفى المعانى وضرب الأمثال والاستهلال بالنسيب ، وتمادى الكتاب فانحوا على آثار المتقدمين محاكاة واقتباسا وتضمينا ، وفى مثل هذا الجو

من المحافظة والتقليد يخمد الفن الصحيح الذى يصدر عن صادق الشعور، ولا يسود الا الصناعة التى تتكلف الألفاظ وتتعمل المعانى ٠

وثالث تلك العوامل اعتزال الأدب العربى غيره من الآداب ، فهو قد أهمل الأدب اليونانى ولم يتأثر بالأدب الفارسى ، الا قليلا عن غير قصد ، واتصال الأدب بغيره من آداب الأمم شرط أساسى لدوام رقيه فى معارج الفن السليم ، لأن ذلك الاتصـــال يدخل فى الأدب صادق النظـرات والأفكار ، التى تشـترك فيهـــا الانسانية جمعاء على اختلاف المشارب واللغات ، دون التفات الى زخارف الألفاظ وتلفيقات المعانى ، التى لا تمت الى الطبع السليم بصلة ، ولا تتعلق من الفن الصحيح بسبب ٠ واعتزال الأدب وغيره ينحرف به شيئا فشيئا عن وجهة الفن القويمة ، ويميل به الى ناحية التكلف والتعمل والتقليد والجمود والصناعة ٠

ولما كان الكاتب يكتب والشاعر ينظم ونصب أعينهما غايتان : ارضاء صاحب السلطان الذى تسخر له الأقلام ، وارضاء النقاد الذين لا يريدون عن مناهج الأولين حولا ، لم يسعهما الا الاقلاع عن محـاولة التعبير عن شعورهما الصادق ، واللجوء الى محاولة اظهار البراعة ليرضيا الفريقين فصارت البراعة ــ لا صدق التعبير عن الشعور ــ هى غاية الأديب ٠ فالبحترى وابن المعتز والبديع وابن العميد والحريرى وأضرابهم ، قلما نظموا أو نثروا بغية التعبير الصادق البسيط عن مشاعر حارة تعتلج فى نفوســهم ولا يستطيعون لها حبسـا ، وانما كان ابداء البراعة وطلب الاعجاب وتحرى الاغراب ديدنهم فى معظم ما أنشأوا ، وكتاباتهم لذلك ــ حتى حين يجيدون ــ فاترة الشعور باردة الوقع لا تنفذ الى القلب ولا تهز النفس ، ربما أوحت الى المطالع أن أصحابها بارعون ، ولكن قلما توحى اليه أنهم نوابغ عظماء ذوو نفوس كبيرة ونظرات بعيدة ٠

ولما جهد الأدباء فى تقليد معانى الأقدمين ومناحيهم ، واختراع أوصــاف الممدوحين ومحامدهم ، حتى لم يعد فى مجال المعـــانى متسع لتكلف ، التفتوا الى الألفاظ يطلبون فى مجالها السبق والبراعة ، ففشت المحسنات اللفظية ، فكانت انحرافا جديدا للأدب عن جادة الفن القويم ، وشـغل الأدباء بالسجع والجناس والمقابلة وحسن التعليل عن صـــدق الشعور وصـــدق التعبير ، وركبت الصناعة الأدب من ناحيتيه : ناحيتى المعنى واللفظ ٠

وطلب الأدباء البراعة من طريق آخر : فأقحموا فى الأدب ما ثقفوه من مصطلحات العلوم ومسائلها ، كعلوم النجوم والكلام والنحو والمنطق،

فتجلت البراعة فيما أنشأوه من ذلك ولكنه فقد دبيب الحياة ، فمن تقليد قضايا المنطق قول المتنبى :

تقولين ما فى النفس مثلك عاشق جدى مثل من أحببته تجدى مثلى

وقول الشاب الظريف :

رمى فأصاب قلبى باجتهاد صدقتم : كل مجتهد مصيب

ومن استخدام مصطلحات النحو قوله :

لأى شىء كسرت قلبى وما التقى فيه ساكنان ؟

ووقر فى نفوس كثير من الأدباء أن الأدب مجال للصناعة والبراعة ، وليس مظهرا لأحاسيس النفس ولا مستودعا لخوالجها · فاذا أعوزهم ممدوح يثنون عليه بما هو ليس أهله من المبالغـات ، طلبـوا البراعة واصطنعوا التظرف بوصف أمر تافه ، كحمل هزيل أو قدح خمر أو محبرة أو يراع ، الى غير ذلك مما لا خطر له فى ذاته ، ولكنه يمنح الفرصة لطلاب البراعة ليظهروا لطافة بديهتهم وحسن محاضرتهم ووفرة محصولهم اللغوى· وكثـيرا ما كانوا يتبادلون ذلك فى الرسـائل الاخوانية ، والكتب التى يستهدون فيها الخمور والأقداح والمزاهر والقيان ·

ولاصدار الأدباء فى كتاباتهم عن أغراض مصطنعة بعيدة عن غرض الفن الصحيح نجد الكثيرين منهم يقفون مواقف متناقضة : فيمدح أحدهم الرجل أرفع المدح ثم يذمه أقبح الذم ، فان خاف بطشه عاد مستغفرا يقول كما قال الأعشى :

سأمحو بمدح فيك اذ أنا صادق كتاب هجاء سار اذ أنا كاذب

ويطلب أحدهم البراعة بتحسين القبيح وتقبيح الحسن ، أو بمدح الشىء الواحد وتحسينه ثم ذمه وتقبيحه ، كما فعل الحريرى حيث جعل أبا زيد يمدح الدينار بمقطوعة من الشعر ، ثم يذمه بأخرى حين اقترح عليه بعض الحضور أن « يذمه ثم يضمه » ، ويدعى المتنبى الغرام والصبابة والنحول فى مطالع أماديحه ، فاذا أفصح عن صادق شعوره وميوله قال ان المجد ليس زقا وقينة ، وان للخود منه ساعة ثم بينهما فلاة ، وأنه يرى جسمه يكسى شفوفا تربه ، وقال :

ومن خبر الغوانى فالغوانى ضياء فى بواطنه ظلام

وجاء النقاد فاقروا الشعراء على هذا التناقض ، وأباحوهم ضروب اللغو والهذر ، وأخذوا تلفيقاتهم فى قصائد المديح مأخذ الجد ، وأضاعوا وقتهم ومنطقهم وحججهم فى الموازنة والمفاضلة بينها ، وفضلوا شاعرا على شاعر ، لا لصدق شاعريته وصدق فهمه للحياة ، ولكن لبراعته فى احتيال الحيل اللفظية والمعنوية لتفخيم شأن ممدوحه . فقدامة بن جعفر مثلا يقدم الأعشى فى قوله فى ممدوحه :

واذا تجيء كتيبـــة ملمومة   شهباء يخشى الراهدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنـــة   بالسيف تضرب معلما أبطالها

على كثير لقوله فى ممدوحه :

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة   أجاد المرىء نسجها وأذالهـــا
يود ضعيف القوم حمل قتيرها   ويستظلع القرم الأشم احتمالها

لأن الأول جعل صاحبه يغشى الوغى فى غـير مدرع ، والثـانى وصف صاحبه بالتحصن وراء الدروع الثقيلة . يفاضل قدامة بينهما بصرف النظر صرفا تاما عما اذا كان المعنى المذكور فى كل حالة صحيحا ، فالمسألة تتعلق لديه بالتزام الصدق ، بل البراعة فى الاختراع والمبالغة وتهويل أمـــر الممدوح ووصفه بكل عظيمة صحيحة مزعومة ، ممكنة أو مستحيلة .

وبهذا المقياس المجحف الذى لا يقيم اعتبارا لصدق الشعور والتعبير، بل يجعل الاعتبار كل الاعتبار للبراعة واللباقة والخفة والاحتيال ، قاس كثير من النقاد آثار الأدباء وفاضلوا بينهم . بل ان النقاد صرفوا جل اهتمامهم الى ذلك الضرب الصناعى من الأدب الذى قوامه التعمل والاختراع، وعماده الأقيســة المنطقية ، بل المغالطات المنطقية ، وأهملوا الضرب الصادق الذى يترجم عن شعور الأدب الصحيح . فاذا رأوا أثرا من هذا القبيل مروا به كراما ولم يروه أهلا للنقد والتحليل ، لأنهم يرونه بسيطا عاديا غير محتو على براعة لفظية أو معنوية . والأدب كان فى نظر كثير منهم صناعة لا فنا . وقد سمى أحدهم وهو أبو هلال العسكرى كتابه في أصول الشعر والنثر : « كتاب الصناعتين » .

والحق أن أكثر ما يعرف اليوم بالفنون الجميلة كان لدى العرب صناعات ، فالأدب والموسيقى والعمارة والنحت والتصوير كل هذه كانت أشبه بالصناعات ، لأنها كانت فى أكثر الأحيان تخدم أغراضا مادية خارج ذاتها ، وكانت تنتج نتاجها فى ظلال الملوك والكبراء الذين يسخرونها لأبهتهم ومتعتهم ، ولم تنل من الاستقلال الفنى والغرض الذاتى ما لها اليوم • ومن ثم ظل الفنان الأخيران دائما فى حالة بدائية لم يتعدياها الى أطوار الفن السامية •

ولقد تترعرع الفنون الأخرى كالعمارة والنحت والتصوير فى ظلال الرعاية والمنحة من جانب الأمراء ، كما حدث فى عهد النهضـــة الايطالية التى أنجبت رافائيل وميكلانجو ودافنشى وعشرات من أمثالهم ، أما الأدب فهو أشد احتياجا الى الحرية وأسرع انحطاطا وركودا فى ظلال الاستبداد ، فان الملكية المستبدة اذا سخرته لأغراضها وسيرته فى ركابها حملته على اخفات الحق واغفال الصدق ونسيان رسالته ، ولهذا ازدهر الأدب فى انجلترا أكثر من ازدهار غيره من الفنون التى اقتبسها الانجليز عن أهل القارة ، حتى بارى الانجليز غيرهم فى الآداب وبذوهم ، فقد ألفى الأدب فى انجلترا من حرية الفكر والتعبير أكثر مما ألفى فى غيرها • ولنفس السبب ازدهر الأدب فى المدن الاغريقية ، على حين كان رقيه فى روما الملكية قصير العمر •

لم يسخر الأدب الانجليزى نفسه لتمليق الأمراء والكبراء ، كمـــا سخر الأدب العربى نفسه ، ولم يصرفه طلب رضاهم عن طلب رضى الفن الصحيح ، وان كان بعض رجاله ــ منذ عهد شكسبير ــ قد تزلفوا الى سلطان آخر غير سلطان الحاكمين ، فطلبوا رضى الجمهور من رادة المسارح وقراء الكتب ، ولو بتضحية رضى الفن أحيانا • على أن ذلك قلما كان ، وأكثر الأدباء احتفظوا بسمو الأدب وأرستقراطيته ، ولم يلبث انتشار التعليم أن وسع دائرة القراء الذين يقدرون الفن الصحيح ويتساموون عن الفضول ، وانقسم الكتاب الى فريق محافظ على سمو الأدب ، فهم عماد الأدب السامى ، وفريق ينشد اقبال العامة باللغو والهراء • ولم يحدث أن هبط الأدب جملة عن مرتبة الفن الصحيح المنزه الغرض •

كذلك ربأ بالأدب الانجليزى أن تركبه الصناعة وتغلبه على غرضه الصحيح ، دوام تبصر رجاله فى الآداب الكلاسية والأوربية المعاصرة ، فكان معين تلك الآداب يجـــرى فى شرايينه من آن آخر ، فيجرد ما فتر فيها من دفعة الحيـــاة ، فكلما مر الأدب بطور ركود تغلب فيه الصناعة

الفن الصحيح ـ كذلك الذى مر به فى بعض القرن الثامن عشر ـ شعر الأدباء بعظيم الفرق بينه وبين الآداب الأخرى ، فانتشلوه من وهدته .

ومما ساعد على احتفاظ الأدب الانجليزى بصبغته الفنية ، وحماه الهبوط الى درك الصناعة الرخيصة ، اطلاع فحوله على آثار الفنون الأخرى الراقية ، من تصوير ونحت ، تلك التى تشترك جميعا فى غرضها الذى ذكر فى أول هذه الكلمة ، وهو التعبير الصادق عن الشعور الصحيح ، فكانت للأدب دائما من تلك الفنون أسوة ، تهيب به أن يحيد عن جادته أو ينحرف عن غايته ، أو يضل فى تيه التلفيقات المعنوية والزخارف اللفظية .

وقد راجت فى الأدب الانجليزى ضروب من القول قد يتبادر الى الظن لأول وهلة أن الأدب يتجرد عندها من نوازعه الشخصية وشعوره الصحيح ويطلق العنان للخيال والصناعة ، كالرواية التمثيلية والقصة والملحمة التى يتحدث مؤلفها عن أشخاص بعيدين عنه ، ويصف عواطف غيره وتصرفاتهم ، ولكن الواقع أن المؤلف فيها لا يقل صدقا ووفاء للحياة وحقائقها عن المؤلف فى غيرها ، ولا هو يتجرد من ميوله ، بل يخلع تلك الميول على أبطاله ، وينطق أفكاره ومشاهداته على ألسنتهم ، فكل بطل من أبطال شكسبير ، كهاملت وعطيل ولير ، يمثل حالة من حالات نفسه وفكرة أو فكرات من أفكاره ، والقصصى الانجليزى الذى يتحدث عن الآخرين فى كتاباته أصدق وأكثر افصاحا عن ذات نفسه من الشاعر العربى الذى يشبب بليلى ودعد ويصف ممدوحه بغير ما يعلم فيه .

ففى كلا الأدبين العربى والانجليزى ترى فى آثار الفحول دلائل الطبع الجزل والشعور الصادق والفن الصحيح ، ولكن نظرا لتلك العوامل التى صاحبت الأدب العربى فأفشت الصناعة فى كثير منه ، وهذه العوامل التى لازمت الأدب الانجليزى فساعدته على الاحتفاظ بسمات الفن ، جاء الأدب الانجليزى أحفل بصادق الشعور وجاد الأفكار من الأدب العربى ، وكان التعبير الصادق عن النفس الانسانية غرضه دائما ، على حين زاحمت هذا الغرض فى الأدب العربى أغراض أخرى : كالصناعة وطلب البراعة والاغراب والتظرف ومحاكاة الأقدمين .

أثـــر الــترف

فى الأدبين العربى والانجليزى

الترف من مستتبعات الحضـارة ، تتجـه اليه الأمم عقب عصـور النهضات ، اذ يلذ لها الركون الى الراحة واجتناء ثمرات مجهوداتها التى بذلتها في عهود النهوض والكفاح والتمهيد ، وتميل الى الاستمتاع بخيرات الحياة من دعة ولذة وسرور فى ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد أن توطدت أركانها ، وفى بحبـوحة الثروة والنعمة اللتين أثلهما (أصلهما) جهاد السنين والأجيال ، فيهجر الشعب رويدا رويدا حياة الخشونة والقناعة والجد ويستكثر من أسباب الراحة والبهجة ، واشباع مطالب الجسم والنفس ، وبدوات الخيال والشهورة ٠

ويكون أشد الأمم اقبالا على وسائل الترف ومضيا الى غاياته ، أشدها من قبل تخشنا فى العيش ، وأعظمها جلادا فى ميدان تنازع البقاء ، وأتمها ظفرا وغلبة على البلدان ، لما تجنح اليه من الراحة بعد الجهد ، والاستمتاع بعد الحرمان ، ولما تغدقه عليها انتصاراتها من أسلاب أعدائها وأرزاقهم ، وما تطلع عليه من وسائل لهوهم وترفهم ، ومن ثم انتشرت موجات هائلة من الترف فى مصر الفرعونية عقب فتوحها الكبيرة فى آسيا ، وفى أثينا عقب امتداد سيادتها على سواحل بحر الأرخبيل وجزره ، وفى روما بعد اتساع سلطانها شرقا وغربا ٠

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية خرجتا من بداوة وخشونة عيش الى حضارة وحياة دعة ، وكلتاهما أقامتا امبراطورية مترامية التخوم تعج نواحيها بالخيرات والكنوز ، وسرت اليهما من جراء ذلك عدوى الترف وبدا أثرها فى أدبيهما ٠ بيد أنهما تفاوتتا تفاوتا كبيرا فى مدى تأثرهما بذلك الترف ، فكانت الأولى على الأرجح أعظم الأمم أخذا بوسائله وتفننا فى ضروبه ، وكانت الأخيرة أقلها انقيادا لتياره وأشدها تشبثا بأهداب الاعتـــدال ٠

فالأمة العربية ينقسم تاريخها الاقتصادى الى ثلاثة أطوار كبيرة : فالطور الأول وهو عهد الجاهلية أقرب الى الفقر والخشونة التى فرضتها

على العرب طبيعة بلادهم الضنينة ، الأمر الذى أورثهم صفات القناعة والصبر والجلد واحتمال المشقات،كما أورثهم الجود وقرى الأضياف،فتمدحوا بكل هاتيك الصفات وامتلأ بها شعرهم ، وجاء ذلك الشعر فى جملته قويا متسما بالرجولة مثيرا للاعجاب ، وندر فى ذلك العهد شعر المجون والخلاعة ووصف دواعى الرفاهية ومظاهر الحياة الناعمة ، بل كان السادة يتبرءون من الانقياد لشهوات الجسم والنفس • ومن روائع آثار ذلك فى الأدب قول حاتم الطائى :

وانى لأستحيى صديقى أن يرى مكان يدى من جانب الزاد أقرعا

وانك مهما تعط بطنك حقه وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول عنترة :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وأرى مغانم لو أشاء حويتها فيصدنى عنها الحيا وتكرمى

وبقيام الدولة العربية دخل العرب فى الطور الثانى : طور الحضارة والرفاهية والترف ، وتدرجوا فى الأخذ بأسباب ذلك مع مرور الزمن حتى أوفوا على الغاية•ولا غرو ، فقد اجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكد يجتمع لغيرهم ، فان نجاحهم الحربى الفجائى أوقع فى أيديهم أغنى بقاع الأرض وأخصبها وأعظمها حضارة وترفا لعهدهم ، وأغدق على كبرائهم ومقاتلتهم فيضا متلاحقا من الأموال ، وأدخل فى حوزتهم شاسع الأملاك ، وأقام فى خدمتهم الحجم الغفير من الموالى ، وسمحوا هم لشتى الأجناس بمخالطتهم والاقامة بين ظهرانيهم ، فجاءت الأمم المقهورة فى ميدان الحروب تسلط على الأمة الغالبة ما بذتها فيه من أسباب الرفاهية واللذاذة ، وهى التى كانت من قبل سبب سقوط عزيمتها وادبار دولتها •

وكان كل ذلك جديدا على أعين العرب الذين قضوا الأجيال فى شظف البادية وتقتيرها ، فاندفعوا يصيبون من تلك اللبانات (الرغبات) ما حرموه طويلا ، وأغرقوا فى استمراء تراث الأمم المغلوبة كما يغرق الوارث الذى طال حرمانه فى تبذير ثروة الغنى الراحل•وكانما تعجل العرب فى تراث كسرى وقيصر ما وعدوه فى الدار الآخرة من طيبات ، ومن ثم ابتنى الخلفاء القصور وحشدوا لتشييدها الصناع من شتى الأجناس ، ووفروا بها آنق أسباب الدعة والمتعة ، وحشروا فيها الغلمان والقيان ، وبالغوا فى

اعـداد الموائد والأسمطة ، وأكثروا من الألوان والصحاف ، واستمتعوا بالغناء والشراب ، ورفلوا فى فاخر الثياب ، واحتفوا بالمواسم والأعياد والمهرجانات ، وأسرفوا فى أعراسهم حتى ضربت ببعضها الامثال ، ولم يدعوا متعة من متعات النفس أو لذة من لذات الجسم الا استاموها .

واحتذاهم فى ذلك الأمراء والكبراء وكل من أطاقه من عامة الشعب، فانتشرت مجالس الشراب والغناء ، وأحكمت أوضاعها وارتقت آدابها ، وراجت صناعة المغنين وحذقوا فنهم وجودوه ، وراجت تجارة الرقيق ونفقت سوق الجوارى ، وأخذن بالتثقيف والتهذيب ليجمعن فتنة اللب الى فتنة النظر ، وأولع الناس بالرقة والظرف والكياسة ، ونفروا من الخشونة وتندروا بالجلافة والغفلة ، واحتفوا بالمواسم يشخصون فيهـا الى الرياض أو الأديرة فى أرباض المدن ، يتنادمون ويتغزلون .

وأثر تلك الحياة المترفة جلى فى الأدب العربى ، بل لعله أكبر فارق يفرق أدب ما بعد الاسلام والحضـارة عن أدب الجاهلية ، اذ أن الأدباء اهتموا بتصوير مظاهر ذلك الترف كلها ، بل كانوا من أشـد الناس حرصا على الانغماس فيه ، بل تجمعوا فى العواصم طلبا لأسبابه ، وكان منهم من صاحبوا الخلفاء والأمراء فى مجالس شرابهم وسماعهم وساعات تبـذلهم واستمتاعهم ، وجلسـوا الى موائدهم وشـاركوا فى محـافلهم ومهرجاناتهم ، وكل ذلك ضمنوه مدائحهم لأولئك الحكام ، وكان شهودهم تلك المشاهد وما يحوكونه فيها من القصائد ، من متممات السرور والأنس، ومستلزمات الأبهة والعظمة .

ومن ثم يحفل شـعر بشـار وأبى نواس وأبى تمـام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى وابن حمديس وكثيرين غيرهم بأوصاف القصور والحدائق والنافورات ، وسفائن النزهة وكلاب الصيد ، وألوان الطعام والفاكهة والأسمطة ، ومجالس الشراب وحذاق المغنين وحسان المغنيات ، والمحافل والمواكب ، كما امتلأ بالنسيب الذى كان أغلبه نسيبا بالجوارى دون الحرائر ، والذى امتزج بكثير من الخلاعة والفجور ، وروى الشعراء فى كل ذلك عن ممدوحيهم من الأمراء تارة ، وعن أنفسهم تارة أخرى ، وصوروا فى الحالتين حياة الترف المغرق التى طغى سـيلها فى عهود العباسيين والفاطميين وخلفاء الأندلس وغيرهم .

وقد ظفرت الخمر من بين أسباب الترف هاتيك بالمكانة الأولى فى النفوس ، وفازت بالحظ الأوفر من حفاوة الشعراء ، فكانت معقد السرور

ومناط الأنس ورمز الصفاء ، وتفنن الشعراء فى تمجيدها ووصف تأثيرها ووصف مجلسها وساقيها وكأسها ، وطلبوا البراعة بالابتكار فى تلك الوجوه ، وخلعوا العذار واطرحوا التدين فى التوفر عليها والتغنى بها ، وهزئوا باختلاف الفقهاء فى تحليل بعض أنواعها وتحريم بعض ، وظفرت الخمر فى الأدب العربى بمنزلة لا تبارى فى أدب آخر ، وسما شأنها حتى زاحمت النسيب على مكانته الموروثة من عهد الجاهلية ، فاصبح الخمر كالتشبيب والوقوف بالدمن وسيلة تقليدية من وسائل استهلال القصيد.

ومن أجمل الشعر فى وصف أسباب الرفاهية تلك ، قول ابن الرومى الذى يختمه بتحسره على حرمانه مما يصف ، اذ أصبح التلهف على أسباب النعيم ديدن الشعراء ، وكانوا من قبل فى الطور السابق كما تقدم يتبرءون من الاستسلام للترفه والشهوات :

فى أمـــور وفى خمـــور وسمـــو ... ر فى قاقـــم وفى سنجاب
فى حبـــير منمنـــم وعبـــير ... وصـــحان فســـيحة ورحاب
فى ميـــادين يخترقن بســـاتيـ ... ـــن تمس الرؤوس بالأهـــداب
عنـــدهم كل ما اشتهوه من الآ ... لات والأشربات والأثـــواب
والطروقات والمـــواكب والولـ ... ـدان مثـــل الشوادن الأسراب
والغوالى وعنبر الهنـــد والمســ ... ـك على الهام واللحى كالخضاب
لم أكن دون مالكى هذه الأشـ ... ـيـــاء لـــو أنصف الزمان المحابى

وقد بلغ من ولع كثير من الشعراء باجتناء ثمار تلك الحياة المترفة الغارقة فى اللذات ، أن خصصوا أشعارهم لمدح الأمراء بغية أن يقربوا ويمنحوا طرفا من ظل تلك النعمة السابغة ، ويشاركوا ممدوحيهم فى أبهتهم ولذاتهم ، وبغية النوال ينفقونه فى ارتياد مواطن اللهو التى حفلت بها العواصم ، ويبذرونه فى مجالس الشراب والغزل يعقدونها فى دورهم أو فى دور المغنين والنخاسين أو فى الحانات والأديرة ، ومن ثم امتلأ شعرهم بالمدح من جهة ، وبوصف الملاهى من جهة أخرى ، وراح بشار مثلا يفخر بكلا الأمرين : باقتناص أموال الملوك ، وانتهاب سوانح اللذات ، قـــال :

وانى لنهاض اليدين الى العلا ... قروع لأبواب الهمام المتوج

وقـــال :

قد عشت بين الريحان والراح والـ مزهر فى ظل مجلس حسن

وبعد طور الثروة والترف هـذا جاء الطور الثالث ، طور الفقر والانحلال ، حين استنزفت موارد البلاد ، وعظمت مفاسد الحكام ، وخمدت العزائم من جراء الانهماك فى ذلك الترف ، وفدحت الضرائب الأهلين ، وتنازع الأمراء والولاة · وقد كان جانب كبير من الشعب يشقى ويألم فى عهد الرخاء والترف السالف ، أما فى هذا العهد فعم الشقاء ، وانتشر الخراب ، وكسدت الصناعات ، وظهر القحط وتتابعت المجاعات ·

ولم يبق معتصما بربوة الترف فوق سيل هذا البؤس الا القليلون ومنهم الأمراء الذين يتنازعون الحكم ويرهقون الأهالى بالمغارم ليتشبثوا بمظاهر الملك والفخفخة ويتشبهوا بالسابقين في الجاه والأبهة ، يسلبون الناس أرزاقهم باليمين ليمنوا عليهم باليسار بالأثواب والأطعمة فى المواسم والأعياد كأنما يأبون أن يطلبوا الرزق من وجوهه الشريفة ، ولا يريدونهم الا عجزة مستجدين يفزعون الى بر الأمير ويتمدحون بجوده · تلك كانت حال مصر مثلا فى فترات طويلة من حكم الفاطميين والمماليك ، وتلك كانت حال الأندلس على عهد بعض ملوك الطوائف الذين لم تكن الحرب بينهم تهدأ ، حتى لقد تشابه ثمة الأمراء ذوو الجيوش وقطاع الطرق أصحاب العصابات والمناسر · وقد أوجز بعض شعرائها وصف عبث الأمراء برفاهية البلاد فى قوله المفعم بالحسرة :

أطاعت أمير المؤمنين كتائب تصرف فى الأموال كيف يريد

فثالث الأطوار المشار أليها فى بدء هذه الكلمة هو طور العوز والبؤس الذى جاء رد فعل لطور الاسراف فى الترف ، كمـا يجىء الخمار عقب الاسراف فى الشراب · وفرق ما بينه وبين فقر الطور الأول أن الأول كان فقرا طبيعيا معتدلا قضت به البادية على أبنائها وحصنتهم منه بالخلق المتين ، والأخير فقر منشؤه الافراط والتفريط ، وحليفه الذلة والمسكنة واللئيم من الطباع ، وفى طيه الشره والشهوة المكبوتة والتلذذ والحرمان · وقد انعكس كل ذلك فى أدب هـذا الطور اذ جاء ضاويا سقيما مملوءا بالشكوى والتوجع ، منطويا على تمويهات المعانى ومخادعات الألفاظ التى تحكى ما كان يجيش به المجتمع من تمويه ·

هكذا جرى العرب من الترف الى أبعد غاياته ، ثم كانت سقطتهم من بعد ذلك بعيدة المهوى • أما الانجليز فانهم وان شابهوا العرب ومن قبلهم الرومان فى تأسيس امبراطورية ضخمة ، كانوا نسيج وحدهم فى توقى أعراض الترف وتحاشى عقابيله التى يجرها على المجتمع ، والتى تحدث ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع بهدمها لصروح الدول ، لما تسامب أبناءها من صفات النخوة والجهاد والغلبة ، فلم يمس الترف المجتمع الانجليزى والأدب الانجليزى الا مسا خفيفا ، وفى عهود قصيرة ، وذلك للظروف التى أحاطت ببناء الامبراطورية •

فقد شيدت الامبراطورية الانجليزية ببطء وتدرج ، لا بسرعة كما شيدت الامبراطورية الرومانية ، ولا فجأة كما بنيت الامبراطورية العربية، فلم يغمر المجتمع الانجليزى سيل مفاجىء من الثروة ، وبنيت الامبراطورية فى العصور الحديثة فلم يتبع الانجليز الطريقة القديمة من انتهاب أموال العدو المهزوم وأسر المقاتلين أو المسالمين واسترقاقهم ، ولم يستأثر الملوك والقواد بغنائم الحرب وثمرات الفتح ، فتنحصر الثروة فى طبقة محدودة تسرف فى اللذات بينما بقية الشعب محروم ، بل كان الاقليم المفتوح حربا يفتح للتجارة الانجليزية ورجال الأعمال الانجليز صغارهم وكبارهم ، فجاء توزيع الثروة بين طبقات الشعب أكثر تعادلا مما كان فى المجتمع العربى •

أضف الى ذلك أن الانجليز لم يخالطوا الشعوب المفتتحة ولم يسمحوا لأبنائها أن يملأوا عليهم وطنهم الأول ولم ينقلوا هم اليهم بحواضرهم كما فعل العرب،ولم يأخذوا عنهم ضروب لهوهم وترفهم ولا غير ذلك من ظواهر الحياة ، لأنهم كانوا عادة يفتتحون أقاليم أقل منهم حضارة ، لا يستسيغون ما عندها من ضروب المتع ، وظل الانجليز فى بلادهم بعيدين عن تأثيرات أملاكهم ، متمسكين بتقاليدهم القومية وعوائدهم وأنظمتهم التى نمت وتوطدت قبل الالتفات الى ما وراء البحار •

هذا الى أن الامبراطورية لم تشيد الا وقد كسرت شوكة الملكية فى انجلترا واستتب النظام الدستورى ، والملوك المستبدون هم عادة رادة الترف فى ممالكهم والموحون الى رعاياهم باغتنام اللذات والملاهى ، يتوفر أوائلهم على تأسيس الدولة وتأثيل السلطان ، ثم يعكف أخلافهم على الترف والأبهة واتباع الشهوات ، ويقتدى بهم من هم دونهم • كذلك كانت الحال فى الدولة العربية حيث توطد سلطان الملك بامتداد أطراف الامبراطورية،

أما فى انجلترا حيث كف الملك عن أموال الدولة أن يبذرها ، فقل ظل الملوك متبعين سياسة الاعتدال، فلم يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من الطبقات.

انما فشـا الترف والفساد فى المجتمع الانجليزى فى أواخر القرن السابع عشر حين عادت الملكية منتصرة من فرنسا مستعيدة بعض ما ضاع من نفوذها ، مصحوبة بالفرسان الانجليز الذين عاشوا زمنا فى المجتمع الفرنسى ، والفرسان الفرنسيين الذين شبوا فى بلاط لويس الرابع عشر، فعج البلاط الانجليزى بمظاهر الترف وأسباب الغواية ، وفشا ذلك منه فى طبقات الشعب ، وساعد على ذلك تبرم الناس بما كان حكم المطهرين الغلاة قد فرضه عليهم قبل ذلك من كبح وتزمت ، وبدا أثر ذلك الترف والفساد الخلقى فى درامة ذلك العهد .

وانتشر الترف كرة أخرى فى بعض القرن الثامن عشر بين طائفة أرباب الأعمال الذين أثلوا لأنفسهم ثروات ضخمة بشريف الوسائل وخسيسها فى الولايات الهندية قبل أن تشرف الحكومة الانجليزية على ادارتها ، وعادوا الى أوطانهم مكاثرين بطارف أموالهم مستكثرين من مظاهر الأبهة والفخفخة ، وعرفوا بالنواب تشبيها لهم بأمراء الهند ، ورأى فيهم أدباء العصر مواضيع شائقة لكتاباتهم الساخرة ، وأولع بهم ماكنزى وكوبر وغيرهما طويلا ، على أنه فى كلتا هاتين الحالتين كانت النوبة عارضـة قصيرة الأمد ضيقة الحيز ، صمد لها الخلق القومى ، والطبع الانجليزى الهادىء ، وتغلبت عليها تقاليد الأيام المتعاقبة وعاد الاعتدال شعار البلاط والمجتمع والأدب .

فالأدب العربى قد حوى من آثار الترف الشىء الكثير ، بل حوى من ذلك ما لعل أدبا آخر لم يحوه ، وحفل بالرائع من الأوصاف لتلك الآثار ، وان نبا بعضها أحيـانا عن الذوق السليم والخلق الكريم . ولا ريب فى أن ميله هذا الى زخارف العيش وولعه بتصويرها كان مما جنح به أخيرا الى زخرف الألفاظ وأنيق المعانى . أما الأدب الانجليزى فظل رجاله غالبا بعيدين عن موائد الأمراء ، وظل الاعتدال فى أغلب العصور رائده ، بعيدا عن زخارف الحياة المترفة وزخارف الألفاظ المنمقة معا ، وكان رجاله أشد شغفا بتصوير دخائل النفس الانسانية ووصف محاسن المناظر الطبيعية منهم بوصف قصور الأمراء ومحافلهم ومواكبهم .

أشـــكال الأدب

فى الأدبين العربى والانجليزى

تبدأ العلوم والفنون الانسانية كلا مختلطا كالسديم فاذا ما ارتفعت وتطورت تبينت أجزاؤها وانفصلت ووضحت أشكالها وتميزت ، وتعددت مناحى كل علم وفن وتوفر بعض ممارسى العلوم أو الفنون على ناحية من نواحى العلم أو فرع من فروع الفن وتوفر غيرهم على غيرها ، كل يتبع ما هو أقرب الى طبعه وأوفق لعبقريته وأتم تعبيرا عن منازعه وكلما ارتقى العلم أو الفن ، جدت فيه ضروب وأشكال لم تكن من قبل وتولدت من الأشكال القديمة أخرى غيرها ٠

وذلك شأن الأدب : يبدأ بانفصال الشعر عن الموسيقى فاذا هو ألحان وأهازيج ساذجة المعانى ، ثم ما يزال جانب المعنى منه يقوى حتى يطغى على جانب النغم ، حتى يبلغ الشعر أشده ٠ وما تزال الأمة متبدية ، فاذا ما نالت حظا من الحضارة والثقافة ظهر النثر بجانب النظم ، حاويا لكثير من مميزات الشعر الفنية : كالتعبير عن الوجدان وحسن اختيـار الألفـاظ المعبرة ، فاذا ما استمر الأدب فى رقيه تعددت أشكال النظم والنثر واختلفت صورهما ، واجتذب كل شكل فريقا من الأدباء يصطفونه دون غيره أو بجانب غيره ، لاخراج أفكارهم وأحاسيسهم فى قالبه ، وابراز نظرتهم الى الحياة فى أوضاعه وحدوده ٠ فتعدد أشكال الأدب من دلائل رقيه وابتعاده عن عهود الابتداء وعصور الابهام والعموم ، وهو أيضا من دلائل سريان روح التجديد فيه : فمن طبيعة النفس الانسانية أن تسأم النغمة الواحـــدة اذا كررت ، مهما كانت عذوبتها أو براعة صاحبها ، وتستوى فى ذلك الموسيقى وغيرها من الفنون ، فاذا ما سئم جيل شكلا من أشكال الأدب ، أو أصبح ذلك الشكل الأدبى غير ملائم لعصره ، فان روح التجديد اذا كانت هناك تدفعه الى ابتكار شكل طريف ملائم ، وهجر الأشكال القديمة مهما كانت منزلة الأدباء المتقدمين الذين مارسوا تلك الأشكال ، ومهما يكونوا قد أودعوها من صادق الأفكار والشعور ، ومحكم الصور لعصورهم ٠

وقد شهد الأدب الانجليزى عصر اليزابث ، وهو ما يزال مختلط الأجزاء ، مضطرب الصور ، لم تتميز أشكال منظومه ومنثوره ، بل لم تستقم بعد أساليبه الشعرية ولا لغته الكتابية . فما لبث الشعر على أيدى شكسبير ومعاصريه من مؤلفى المسرح ، وسبنسر وملتون ثم دريدن ، أن كسب لغة نقية مختارة ، وأشكالا واضحة بينة ، صالحة للتعبير عن شتى الأفكار وتصوير مختلف الحالات النفسية • وضع شكسبير أساس الشعر المرسل ، ورفع بعبقريته مكانة ذلك الضرب من الموشحات المعروف بالسونيت ، وهو موشح من أربعة عشر بيتا متداخلة القوافى على هيئة تبرز الفكرة الوحيدة التى تتضمنها السونيت ابرازا رائعا ، ووضع سبنسر موشحه المنسوب اليه والمكون من أبيات تسعة متداخلة القوافى آخرها أطول عروضا من سائرها ، الأمر الذى يجعل الموشح أداة صالحة للقصص الشعرى الرصين •

وجاء ملتون فأدخل الملحمة فى الشعر الانجليزى الحديث : والملحمة أعظم ضروب الشعر شأنا ، وأكثرها كلفة ، وأبعدها منالا لما تحتاج اليه من طول التوفر ، وعمق البصر من الأساليب الشعرية ، وامتداد الخيال ، وقد قدر كولردج الزمن اللازم لانشاء ملحمة بعشرين عاما : ينصرف الشاعر فى عشرة منها الى الاستعداد والتحضير ، ويتوفر فى عشرة على الانشاء والتجويد ، وجاء دور دريدن عقب ملتون فوطد أساس ضرب آخر من النظم يدعى الأود Oad أو القصيد الخطابى ، يمتاز بوعورة عروضه وقوافيه ، ويوجه الخطاب فيه عادة الى شيء مخصوص أو فرد معروف أو ذكراه ، ورفع دريدن كذلك مكانة «الدوبيت» فى الشعر الانجليزى ، أعنى القصيد المؤلف من أبيات ثنائية القوافى ، محكمة الوزن ، مصقولة اللفظ ، وهو الضرب الذى تلقفه عنه بوب فزاده صقلا واحكاما ، وساد من بعدهما القرن الثامن عشر •

توطدت دعائم الشعر وتميزت أشكاله فجاء دور النثر ، وهو دائما متأخر عن الشعر فى الظهور ، ودعت الأحوال السياسية والاجتماعية التى سادت القرن الثامن عشر الى احتفاء الأدباء والمثقفين بالنثر : فقد كانت النظم الدستورية قد استتبت ، والرأى العام قد تكون ، والطبقة الوسطى قد تعاظم شأنها ، والحركة العلمية قد نشطت بعد ما اقتبسته انجلترا من علوم أهل القارة ، والصحف قد انتشرت معتمدة على الرأى العام والطبقة الوسطى ، وقد غبر عهد المخاطر والجهاد الذى تجلى فى حكم اليزابث وثورة المطهرين ، وألهب خيال الشعراء ، وجاء عهد الاصلاح والعمل الرزين في الداخل والخارج •

وفى أول ذلك القرن كان النثر الانجليزى حطاما مبعثرا من الألفاظ المتنافرة والتعابير المبعثرة ، والأساليب العامية ، وزخارف اللفظ ، وبهارج المعنى ، والتقليدات الفاشلة للأسلوب اللاتينى المتطاول الجمل ، فما لبث دريدن وكاولى أن هذبا من حواشيه وقوما من معوجه ، ونقياه من الغريب والسوقى ، فظهر النثر الانجليزى الحديث المعروف ببساطة ألفاظه ، ولطافة مأخذه ، وسلاسة تعابيره ، ثم تلاهما أديسون وسنيل فوطدا دعائم « المقالة » فى الصحف التى تعاونا فى اصدارها ، فاذا المقالة شكل من أشكال الأدب جم المزايا ٠ فهى تدور حول فكرة مفردة تكون وحدتها وتجمع حولها شتى الأفكار الثانوية ، وتتناول ما شاء الكاتب أن يدرسه من مسألة اجتماعية أو نقد أدبى أو حالة نفسية ، أو نظرة فى الفنون ٠

ومن المقالة نمت بذور شكل آخر من أشكال النثر دعت اليه طبيعة ذلك العصر : هو القصة التى تكونت من اجتماع عدد من المقالات تدور حول شخصيات معينة ، فما لبث الذوق العام أن استطرفها ودرس الأخلاق واستكناه دخائل النفس الانسانية ، وتوفر عليها من كبار الكتاب أمثال ريتشاردسن وجولدسميث ، وجين أوستن ، فأحكموا أوضاعها ، وهذبوا حوارها ووضحوا شخصياتها ، وأسلموها الى القرن التالى شكلا من أشكال الأدب جم المزايا مبشرا بمستقبل حافل ٠

وكأن النثر لم يقنع بهذا الضرب الخيالى من التأليف وآثر أن يجعل من الحقيقة الواقعة مادة للفن كما جعل من القصص الخيالى ، ويتخذ من الماضى مرادا له كما اتخذ من الحاضر فالتفت الى التاريخ ، وكان من قبل يدون باللاتينية أو بانجليزية ملتوية التراكيب مختلطة الحقائق بالأوهام والأكاذيب ، فبعث فيه الروح الفنية التى شملت نواحى الأدب ونفخ فيه النزعة العلمية التى تمشت فى سائر العلوم ، ولم ينصرم القرن الا وقد ظهر أكبر أثر تاريخى فى اللغة ، وهو كتاب جيبون عن الدولة الرومانية ، واذا النثر الفنى قد كسب شكلا جديدا هو التاريخ الفنى للعصور أو الوقائع أو الأبطال ٠

وهكذا صار الأدب الانجليزى أدبا رفيعا متسع الجوانب متميز الأشكال ، مشتملا على أرقى ما لدى الأمم الأخرى من الصور الأدبية ، يقدم لممارسيه ما يختارونه من أشكال الأدب ملائما لطبائعهم ، ولقرائه ما يؤثرونه موافقا لأذواقهم ، وورث القرن التاسع عشر عن القرنين السابقين له تراثا ضخما من أشكال المنظور والمنثور وآثار الفحول فيهما ، فلم يكد يحس حاجة الي استحداث أشكال أخرى ، بل انصرف الى استغلال ما بين يديه

منها ، ولاءم بين بعضها وبين حاجاته ، وآثر بعضا منها على بعض : فعالج وردزورث وتنينسون الشعر المرسل ، وعالج سوذى وموريس وهاردى الملحمة واختلفت حظوظهم من النجاح ، واستغل هازلت وثكرى وهاردى المقالة فى النقد الأدبى ، وعالج ماكولى وكارليل التاريخ • وهجرت الرواية التمثيلية الشعرية وحلت محلها أخرى نثرية أكثر التزاما للواقع وملاءمة لحاجة العصر ، وتعاظمت مكانة القصة الطويلة والصغيرة حتى فاقت ما عداها ، والتفتت الى تصوير المجتمع الجديد القائم على الصناعة والمخترعات •

أما تاريخ الأدب العربى منذ نهضته بقيام الاسلام وتوطد دولته ، ودخوله فى طور الحضارة والثقافة ، فمغاير لهذا : فقد ورث عن الجاهلية لغة قوية غنية تبشر بمستقبل عظيم ، وشعرا رصينا محكم الأوزان متعددها موطد الأركان ممهد الأساليب مؤذنا برقى الى أبعد الغايات ، فاذا الأدب يجمد فى أول الطريق ، ويجتزىء بماضيه عن مستقبله ، ويطوى زهاء خمسة قرون من عهود الحضارة والثقافة ، فلا يتفرع كما تفرع الأدب الانجليزى الى أشكال متميزة ذات خصائص واضحة ، بل يظل كل من الشعر والنثر سديما مشوشا كما كان فى أول بدئه ، وينبغ من فحول العربية أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن الرومى والمتنبى والمعرى ، فلا يعنيهم غير تقيل السلف فيما درجوا عليه من مناهج القول ، ولا تتوطد على أيديهم أشكال جديدة للنظم والنثر ، ولا يؤدون للعربية الخدمات الجلى التى أداها للانجليزية أبناؤها •

طوى الأدب العربى عصور ازدهاره وهو يضرب على نغمة واحدة فى النظم وأخرى فى النثر ، ففى النظم ظلت القصيدة المفردة القافية ، غير المحدودة الطول ، غير الموحدة الفكرة ، غير المعروفة العنوان ، هى الشكل الشعرى الوحيد ، يصوغ فيه ابن القرن الخامس أفكاره كما صاغ الجاهلى أفكاره من قبل ، وفى النثر ظلت كتب الأدب المبهمة العناوين المشتجرة الفصول والفقرات المتباعدة المواضيع ، المختلطة النظم بالنثر ، والأدب بالدين ، والقصص بالنقد ، هى الضرب السائد منذ انتشرت الكتابة الى أن خمد الأدب •

وفى الشعر ابتكرت الموشحات ، فلم تكن غير زخارف من القوافى ينمقها الناظم كما شاء دون أن تكون أوضاع قوافيها معينة على ابراز المعانى ، ولم ينتشر استعمال تلك الموشحات واقتصرت على ضروب من الشعر الوجدانى الضئيل الحظ من المعنى • قال ابن رشيق : « وقد رأيت

جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ،ويكثرون منها ، ولم أر تقدما حاذقا صنع شيئا منها لأنها دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه وضيق عطنه... وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم ومن ناسب طبعهـا من أهل الفراغ والرخص » ، وفي النثر ابتكرت المقامة فاذا هي أشـد من الموشح احتفاء باللفظ ، واذا هي لا تفوقه ذيوعا ونجاحا ، وحاكته عقما فلم ينتج عنها ابتكار جديد ، كما مهدت المقالة فى الانجليزية السبل مثلا للقصـــة .

فاذا بحثت فى الأدب العربى عن أشـكال أدبية متميزة متعددة لم تجدها ، وانما ظل الأدب كما بدأ سديما مختلطا متشابها : ارتقت معانيه وتعددت أغراضه ورقت ديباجته ، ولكن جمد شكله فلم يتحول الى أشكال جديدة ، وظل النقاد لا يقسمون الأدب الى أكثر من نظم ونثر ثم يقفون ، ويفاضلون بين النظم والنثر مفاضلة ليس لها موضع ولا هناك ما يسوغها، فان أرادوا التوسع فاضلوا بين الرجز والقصيد ، وقدموا شاعرا على شاعر لبراعته فى الطول أو فى القطع ، وهى مفاضلات كذلك لا موضع لها ولا مبرر ، لأن هذه الأشياء متقدمة الذكر ليست بأشكال للشعر متميز كل منها بخصائص فى الأسلوب أو فى الموضوع ، تجعل شكلا منها أصعب على الشاعر المعالج من شكل آخر أو أبعد متناولا .

وانما جنح بالأدب العربى الى هذه الحال من الجمود الشكلى التى لا يجد معها جديد ، ولا يحل طريف محل عتيق ، ولا يتسع أفق الأدب ولا تتشعب مناحيه ، عوامل تقدمت الاشارة اليها مرارا وكان لها أبعد الأثر فى تاريخ الأدب العربى ، بل كان لها فيه ضرر بليغ ، اذ باعدت بينه وبين أن يكون دائما تعبيرا حرا صحيحا عن شعور الفرد والمجتمع ، متطورا مع حاجات الأجيال وتجدد شئون الحياة ، وتلك هى تغلب روح المحافظة على روح التجـديد فيه ، واعتماده على تشـجيع الملوك واعتزاله الآداب الأخرى ، واحتفاله باللفظ قبل المعنى .

فلو عنى أدباء العربية بدراسة الآداب الأخرى حق العناية لاطلعوا على أشـكال للأدب تستحق أن تنقل الى العربية فتكون باعثا على ابتكار غيرها . ولقد اهتدى الأدباء الانجليز فى كل ابتكاراتهم سالفة الذكر بهدى الأمم الأخرى : فالسونيت اقتبسوها عن بترارك ، والشعر المرسل أخذوه عن الدراما الاغريقية ، والأود نقلت عن بندار ، والملحمة تأثر فيها ملتون أثر هوميروس وفرجيل ، والمقالة أوحت بها كتابات مونتين ، وليس يدين

الأدب العربى بشىء من هذا الغيره من الآداب ، ولو فعل لجاء أرحب آفاقا وأوضح مناهج وأبرز أشكالا ٠

استقل الأدب العربى بنفسه واعتزل غيره ، ولم يكن له من داخله حافز الى التجديد والابتكار : فان نفس السبب الذى صده عن آداب الأمم الأخرى صدف (١) به عن تجديد نفسه ، ذلك السبب هو اكبار المتقدمين واجلال آثارهم اجلالا لا مطمع معه الى تنكب طرائقهم أو الحيدة عن أساليبهم ، وغير هذه النزعة المحافظة التى كانت تسود الأدب الانجليزى: كانت روح التجديد متمكنة من سائر فحوله ، لا يمنعهم اعجابهم بمتقدميهم من الأعلام عن اختطاط غير طرقهم ، وبفضل هذه الروح المجددة كان الأثر المنقول عن الآداب الأجنبية لا ينشب أن تتمثله الانجليزية ويونع فيها ، ويؤتى ثمرا جديدا لم تحظ به الآداب المنقول عنها ، فالسونيت أصبحت فى الانجليزية ضربين : الشكسبيرى والملتونى ، والمقالة هذبت واستخدمت فى مقاصد لم تخطر لمونتين على بال ، وكانت أداة اصلاح اجتماعى نادر المثال ، وخرجت من غضونها القصة الاجتماعية ٠

وولوع أدباء العربية بالألفاظ استغرق كل تفكيرهم واجتهادهم : ألهاهم احتيال الحيل فى تنسيق الألفاظ واظهار البراعة فى استخدامها عن التفكير فى المعنى أو الشكل الأدبى الذى يصاغ فيه ، فابتكروا كثيرا فى البديع الذى يتعلق باللفظ ولم يبتكروا فيما يتعلق بالشكل الأدبى ٠ ولما أراد شاعر مجيد كالمعرى أن يأتى بجديد فى القوافى لم يتجه الى تحرير الشعر من بعض قيودها أو تذليلها لابراز المعنى على أحسن صورة ، بل زادها قيودا فضاعف حروف الروى فى لزومياته ، لأنه كان يحس أنه يفعل ذلك دون أن يخرم التقاليد الأدبية المتخلفة عن الأقدمين ، ودون أن يتهمه متهم من النقاد كابن رشيق « بعجزه وقلة قوافيه وضيق عطنه » ٠

واعتماد أدباء العربيــة على نوال الأدباء ، وترددهم على أبوابهم ، ومشاركتهم اياهم فى لذاتهم وترفهم أحيانا ، أو دوام طموحهم الى تلك اللذات والمتعات ، وذهاب أيامهم بين مرارة الحرمان ونشوة اللذاذة ووخامة البشم والخمار ، كل ذلك لم يدع لهم وقتا للتوفر على الأدب الصحيح والانصراف الى الفن الرفيع ، ولم تقم أمامهم حاجة الى الابتكار والتجديد ، اذ كان الأمراء قانعين أن يقال فيهم مثل ما قيل فيمن قبلهم من الملوك

(١) صدف : أعرض ومال ٠

الفخام وكما قيل فى أولئك الملوك ، فكان حسب الشاعر أن يقتفى أثر من قبله ويحذق وسائله فى اقتناص معانى المديح ٠

أما فحول الانجليزية فكان معظمهم بمنجى من هذه الحاجة الملحة ، ومعتصم من حياة الفلاكة والللذاذة التى كان يحياها كثير من أدباء العربية، وكان لهم بفضل كدهم فى سبل الحياة أو بفضل ما ورثوه من ثروة غنى عن سؤال الأمراء ، ومتسع من الوقت للاعتزال فى صومعة الفن الخالص من شوائب المادة ، بل كان منهم أفراد كوردزورث وشلى وتنيسون عاشوا فى رغد دون أن يعملوا فى حياتهم عملا سوى أن يقرءوا ويكتبوا ما يسر نفوسهم ويرضى الفن وحده ٠ ولا ريب فى أن أمثال هؤلاء أشد رغبة فى التجديد والاختراع ، وأقدر على القيام بالتجاريب الأدبية فى الأشكال والصيغ والمواضيع ، ممن يقضون العمر نظما للمدح والسؤال وترقبا للرضى والانعــام ٠ وقد فطن ابن رشيق فى عبارته السالفة الى ضرورة اتساع الفراغ للتفنن فى ضروب القول وان يكن قد قرن ذلك بذكر الرخص وأضافه الى البطالة والعبث ٠

فالأدب الانجليزى ظل دائما على صلة بالحياة وحقائقها ، يعينه على ذلك ما به من روح التجديد ، وما أخذ نفسه به من التزود من الآداب الأخــرى ، وما تمتع به أقطابه من وقت قصروه على فنهم والحياة دائبة التحول والتجدد ، فلا ندحة للأدب اذا توثقت صلته بها عن تحول أشكاله وتجدد صوره وأزيائه ٠ أما الأدب العربى فباعد بينه وبينها تلك العوامل السالفة الذكر ، فلا غرو أن جمد فلم تتجدد أشكاله مع مرور الزمن ، وتحول الأدب الانجليزى فى قرنين من أدب ناشىء مختلط الأوضاع الى أدب راق متجدد الصور متعدد الأشكال ٠

الأدب العــامى

فى الأدبين العربى والانجليزى

بداوة الأمة هي عهد طفولتها : فيها يكون أدبها ساذجا على صدق عاطفته ، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره ، ويشبه دخول الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغ الناشيء الحلم : اذ تنضج أفكارها وينتبه وعيها بما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها ، ومن ثم يزداد أثر الفكر السليم والنظر الثاقب فى آدابها بجانب الشعور الحار والعاطفة المتدفقة ، على أنه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق ، فانه يصير للأمة المتحضرة أدبان : أدب راق للخاصة وأدب عامى للدهماء ، ولا ريب فى أنه كلما ازداد انتشار التعليم فى الأمة كان ذلك كسبا للأدب الراقى ، ولم توجد بعد الأمة التى يتوحد فيها الأدبان ٠

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجا بارتقاء الحضارة وازدهار الثقافة وترفه المجتمع : فتدخل الأدب الراقى النزعة العلمية،وترتقى لغته وتتسع جوانبها ، وتتهذب لهجته وترق حاشيته ، ويزداد تراثه من جيل الى جيل لاستعانته بالكتابة ، أما الأدب العامى فيتداول بالرواية ، ولذا يظل فى تجدد وتحول وزيادة ونقص ، تلونه المجتمعات المتعاقبة بالوانها ، وتترك فيه العصور المتوالية مياسمها ، ويظل ساذجا كأدب البداوة الأولى : يهتف بالغرائز والعواطف البسيطة ، ويتحدث بأحلام النفس الانســانية فى السعادة المطلقة وميلها الدائب الى الجمــال والقوة والحق والفضيلة ، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التى تتمتع بها الطبقة العاملة ٠

وقد كان للعرب على عهد حضارتهم أدبان كذلك : ساعد على قيام الأدب الراقى اعتداد أشراف العرب بأدبهم القديم ، وتمسكهم بلغتهم ، وانتشار الثقافة والعلم التى ورد مناهلها فريق من الأمة دون فريق ، وساعد على ظهور الأدب العامى اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام ٠ وصــــار للانجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وتثقفوا وامتزجت اللغــة الانجلوسكسونية باللاتينية ، واستخدمت في العلوم والآداب ، وتوطدت

قواعدها واتسعت جوانبها وأصبحت لغة مجتمع راق • فانفصال الأدبين الخاص والعامى أحدهما عن الآخر جاء مختلف الكيفية فى الأمتين : ظهر الأدب العامى فى العربية بفساد اللغة الفصحى وانحطاطها ، وظهر الأدب الفصيح فى الانجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها •

تختلف الأمتان فى هذا ، وتختلفان ايضا فى علاقة الأدبين الفصيح والعامى فى الأزمنة التالية لانفصالهما : ففى العربية كانت الهوة بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوما ، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه ، بل تجاهله لوجوده ، أما فى الانجليزية فكانت المسافة بينهما أقرب ، والاتصال أوثق ، وظل للأدب العامى دائما للمثقفين اعتبار ، ورحب به الأدب الفصيح مرارا وخلطه بنفسه ، واقتبس أساليبه وصوره ، واصطنع مواضيعه ونغماته . فأفاد بذلك فائدة كبرى •

فالأدبان الفصيح والعامى وان اختلفا تهذب لغة واستقامة تفكير وعمق نظرة وتنوع أشكال ، يستقيان من معين واحد ، هو النفس الانسانية ، بميولها وأحلامها وآمالها • واذا امتاز أولهما بصفات هى وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراقى والعلم المنظم ، فان الثانى يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التى هى مرجع كل فن ، والأدب الفصيح عرضة من أن الى آن لغلبة اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر ، وظهور التأنق والتحذلق على الشعور الصحيح والطبع المرسل ، فهو بحاجة دائما الى العودة الى الطبيعة ، وخير سبيل له اليها الأدب العامى ، اذا نقاه من أوشابه واستخلص أجود عناصره •

ظل للأدب العامى فى انجلترا دائما اعتبار ، وظل كبار الأدباء مهما سمت ثقافتهم واتسعت نظرتهم الى الحياة على علم به : فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوا من معينه قصصا سائغا ضمنوه آثارهم ، والتقطوا من كنوزه ألفاظا معبرة ألحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنيتها ، وأتيح للأغانى الشعبية من حين الى حين أفراد من خاصة المثقفين عنوا بجمع ما وصل الى عهودهم منها ، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء ، يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أو يحاكونها فى الأسلوب والنظم •

وكان لتلك الأغانى فضل عظيم فى بعث النهضة الرومانسية فى أوائل القرن التاسع عشر ، بعد أن اختنق الشعر فى جو المدينة وأثقلته قيود الألفاظ والتقاليد ، فقد انصرف جمهور المتأدبين عن ذلك الضرب

المتكلف من النظم الى مجموعات الأشعار الشعبية التى توفر على جمعها ونشرها اذ ذاك نفر من الأدباء ، وضمنوها ما وصل اليهم من مقطوعات منذ عهد القرون الوسطى تنازلا ، بعضها يدور حول السحر والطلاسم ، وبعضها من نسج الخرافة ، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ ، وكلها مملوءة بحب الطبيعة ووصف مناظرها ، وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير فى تلك الحركة ، فقد أخذ الكثير من الأغانى من أدبها العامى ، وقام أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر ، وقاموا بالرحلات بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأسمارهم •

ومن الاسكتلنديين أيضا كان الرعيل الأول من الشعراء الذين نظموا أشعارهم فى التغنى بالطبيعة وحياة البسطاء من الفلاحين والرعاة وحياة الفروسية الغابرة ، ومن أولئك ألان رمزى وروبرت برنز ووالتر سكوت • وقد كان ثانى هؤلاء فلاحا قحا ، فعبر فى شعره عن حياة فلاحى اسكتلندا وتقاليدهم وأفراحهم وأتراحهم ، أما الثالث فقد كان على نقيض ذلك أرستقراطيا سليل أسرة تمت الى فرسان العصور الوسطى ، فاحتفى شديد الاحتفاء بالأغانى الراجعة الى تلك العصور ، وازداد شغفا بالأغانى الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الالمانية ، فطاف فى اسكتلندا طلبا للاستزادة ، وجعل محصوله من كل ذلك مادة لاشعاره وقصصه التى رفعته فى زمنه وبعده الى مصاف كبار الأدباء ، وأكسبته شهرة عظيمة فى القارة الأوربية •

وفى هذا الجو المملوء بحب الطبيعة والبساطة والشعور الصادق ، نشأ وردزورث وكولردج ثم شلى وكيتس ، وهذه الروح الخافقة المأخوذة عن الأغانى الشعبية هى التى اوحت اليهم أشعارهم البديعة وجعلتهم ينهجون بالشعر نهجهم الطريف • وكان وردزورث أحرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة لقصيده ، واختيار أشخاصه من بين الريفيين والدهماء ، واستعمال ألفاظهم بذاتها فى شعره ، وقد جمع باكورة ما نظمه على ذلك النمط فى كتابه « الأغانى الشعرية » الذى أخرجه بالاشتراك مع كولردج ، وصدراه بمقدمة شرحا فيها المذهب الجديد المستمدة روحه من روح الأغانى والأقاصيص العامية •

ووجد الأدب العامى لنفسه مسلكا جديدا الى الأدب الفصيح ، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف الدقيق ، وأولعت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة والأوساط الريفية ، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط ومحاوراتها وعقلياتها بالعرض

والتحليل ، وتوخت الأمانة للواقع بنقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم في الخطاب ، وفي روايات هاردي تصوير لكل ذلك دقيق لا يبارى دقة ونفاذ بصيرة ، وهكذا كسب الأدب الفصيح كسبا جديدا من الأدب العامي .

أما في العربية فكان نصيب الأدب العامي دائما الزراية والتجاهل ، وكان أول ما يأخذ به المتأدب نفسه التخلص من شوائب العامية لفظا ومعنى وأسلوبا ، وشر ما يوصم به اللفظ أنه عامي ، أو معنى أنه سوقي ، وأبعد ما يفكر فيه الأديب أن يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم ما يتحدثون فيه وما يتأدبون به ، من قصص ممزوج بالخرافة ، وغناء متسم بالسذاجة ، أو يطوف في الأرض طلبا لذلك كما طاف سكوت وأمثاله في شعاب اسكتلندا ، انما كان أدباء العربية يشدون الرحال الى البادية طلبا للفصيح من الكلام والأصيل من الأساليب ، والمأثور من أقوال العرب يتخذ حجة في المناظرة ، وأنموذجا في الانشاء وقد عيب على بشار قوله في جارية :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

لأنه تناول موضوعا بسيطا عاميا ، وتحدث في سذاجة لا تليق بالشعر الفصيح . وانما كان الأدب العربي فيما ارتضى له أصحابه ، واستن له نقاده ، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوقة ، ونديم أرستقراط يشارك في حياة العلية ويشمخ عمن دونهم ، ولا يرى في حياة الدهماء وحيا لقول ، ولا موضوعا لتفكير ، فلم يكن من شعراء العربية من يحتفي بوصف أشخاص قريته كما فعل جولد سميث في « القرية المهجورة » وصفا كله حب وحرارة ، ولا من يرثي أبناء القرية في مراقدهم الأخيرة ، وهم الذين أفنوا العمر كدا دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو يصعدوا الى المجد على أكتاف غيرهم أو دمائهم ، كما فعل جراي في مرثيته .

وقد أثر عن بعض شعراء العربية كأبي نواس وأبي تمام ، أنهم كانوا يتلقفون أحيانا أقوال العامة فيصوغونها شعرا ، كالذي رواه ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده الى قوله : « وأحسن من نور يفتقه الصبا » وأرتج عليه ، حتى مر بالباب سائل يقول : « من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا » ، فأكمل أبو تمام البيت : « بياض العطايا في سواد المطالب » ، على أن ذلك كان نادرا ضئيل

الأثر . أما الاحتفال للأدب العامى ، ومحاولة الانتفاع به ، والرغبة فى جمعه ، والعمل على تلقيح الأدب الفصيح بعناصر الحياة فيه ، فذلك كان بعيدا جدا عن أذهان أدباء العربية .

لم يستفد الأدب العربى الفصيح من شقيقه العامى شيئا ، مع أنه كان أحوج كثيرا من الأدب الانجليزى الى تلك الاستفادة ، بل لعل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه : فقد أبى الأدب العربى الا اعتزال أدب العامة بنفس الاصرار والشموخ اللذين اعتزل بهما آداب الأمم الأخرى ، وتعالى عليه تعاليه عليها ، ورأى المسعودى وابن النديم نسخا من قصص الف ليلة وليلة ، التى بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقراها ، ولم يخطر لهما أن بها مادة لعبقرية الأديب أو لقاحا للأدب ، سخرا من الأقاصيص الشعبية فى القرن الرابع الذى كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب ، والتقاليد قد كبلت المنظوم والمنثور ، ولو التفت الأدباء الى ذلك الأدب الشعبى الناشىء واستوحوه جديدا من القول ، لربما شهد الأدب العربى نهضة جديدة واحياء كالذى شهده الأدب الانجليزى فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذى يليه .

والحق أن الأدب العربى العامى قد احتوى من المواضيع الأدبية والأشكال الفنية ما أعوز الأدب الفصيح ، بل انه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وأنهض بوظيفته واقرب الى التعبير عن الشعور . والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المستقل للمجتمع العربى ، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج الذهن العربى وخلاصة النفس العربية فى تعاقب العصور ، والأدب العامى أصدق وأوفى منه فى كل ذلك .

فالأدب العامى حافل بآثار الخيال ، مملوء برائع القصص ، وهو ما يعوز الأدب العربى الفصيح منثوره ومنظومه ، فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يألفه أدباء العربية ، والخيال الذى أولع به الشعراء واشتهر به البحترى خيال كاذب ، انما هو وهم ومغالطات صبيانية : من توهم أطياف أحبة لا وجود لهم ، واختراع مواقف للوداع لا طائل تحتها ، ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها الى لغة الفكر المثقف والوضع المهذب ، فأضافوا بذلك الى الأدب فنا يجد فيه متحولا عن فنونه العتيقة .

والأدب العامى حافل بضروب الأوزان والقوافى الشعرية المتداخلة ، وهى الأشكال التى رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكا دونها بالقصيدة

الموحدة القافية ، وأبعدها عن حظيرته فلجأت الى حظيرة الأدب العامى ، على أن تلك الموشحات التى راجت فى الزجل دون الشعر ، أدل على الرقى الأدبى وأقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة ، فتلك فائدة أخرى ما كان أحرى الأدب الفصيح أن يستفيدها من الأدب العامى ، ولكن الارجح أن ذيوع تلك التوشيحات فى أدب العـــامة زاد الادباء صدودا عنها فيما يحتفون به من أغراض القول ٠

وأسباب هذا الجفاء الذى استحكم بين الأدبين الفصيح والعامى فى العربية هى : روح المحافظة التى سادت الفصيح ، والتبجيل العظيم لآثار الأقدمين ، والاعتداد الشديد بلغـــة الضاد التى هى لغـــة الكتاب المنزل والدولة ، وهى عوامل نماها وقواها اعتزاز العرب فى صدر الاسلام بقوميتهم وتعاليهم عمن عداهم من الشعوب ، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لغتهم وتقليد أســـاليبهم ، كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقديم على المعنى ، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو عامى سوقى حقير لا قيمة له ، وجعل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة ، فكل قول شذ عنها ناب مستهجن ، وكل احتذاء لهـــا مهما أرهقه التكلف وخرج به التقليد عن طور المعقول والمحسوس ، فهو مقبول معدود فى الأدب ، هذا الى ما تقدمت الاشارة اليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والعلية ابتغاء النوال ، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة ٠

فالأدب الفصيح استحال فى حيز تلك التقاليد والمراسيم الى قوالب متحجرة ، وأوضاع متصلبة ، غير حر الحركة ولا سهل التجديد ولا قابل لتأثير من الخارج ، لا يتأثر الا بماضيه ، بتراث العرب الأقحاح الذين قصدوا (بتشديد مع فتح الصاد) القصائد ونسبوا (بتشديد مع فتح السين) وفخروا وهجوا وارتجلوا الخطب ، وتلك حال اذا صار اليها الفن جمد وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها ٠ وشبيه بذلك ما صار اليه فن النحت وفن التصـــوير عند قدماء المصريين من جمود وزيغ عن الحقيقة ، حين كبلتهما الأوضاع والرموز الدينية ٠

وقد أصبح لزاما على الأدب الفصيح وقد كبلته التقاليد بالقيود ، وأحاطته الصناعة بالسدود ، أن يترك التعبير الصحيح عن شعور المجتمع للادب العامى ، وذلك هو الذى تم دون أن يشعر رجاله ، ودون أن يقلعوا عن كبريائهم وترفعهم عن الشعب ٠ فظلوا فى تقاليدهم الجامدة وبراعاتهم اللفظية سادرين ، وقد نما الأدب الشعبى واتســـع ، وحوى من صادق المشاعر والعواطف ، وجميل المحاورات والمناظر ، ما أعوز الأدب الفصيح، وما قربه الى نفوس الشعب والى نفوس الأمم الأخرى معا :

فقد فطن الأوربيون من عهد الحروب الصليبية الى ما فى الأدب العربى من جمال وعبقرية ومتعة ، فتداولوا أقاصيصه وأغانيه وحاكوها فى آدابهم الشعبية وخلطوها بها ، وترجموا مجموعات منها الى لغاتهم فى شتى الأزمنة ، ولم يألوها حفاوة وامتداحا ، وعرفوا فضلها فى ادخال العنصر الرومانسى فى آدابهم العالية ، وهى نفس الوظيفة التى أداها أدبهم الشعبى ، أما موقفهم من الأدب العربى الفصيح فكان خلاف ذلك : فانهم كلما حاولوا دراسته والانتفاع به فى آدابهم صدهم عنه ما فيه من غرابة معان متكلفة لا تمت الى الحياة الصحيحة ، ومن زخارف ألفاظ يحتفى بها أدباء العربية كأنها حقائق مجسمة ، فاذا ترجمت لم تعد شيئا مذكورا ، فرجعوا خائبين وعزوا تلك الغرابة الى اختلاف عقليتى الشرق والغرب ، وما هو كذلك وانما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية ، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الانسانية، شرقية كانت أو غربية ٠

فالأدب العربى العامى قد احتوى من عناصر الصدق فى الشعور ، وتصوير المجتمع ، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا ، وهو مع ذلك قد لقى الاهمال والازدراء من المتقفين وخسر الأدب الفصيح معونته فى العصور الماضية ، وهو ان لم يكن أحرى من الأدب الفصيح بالدرس ، وأكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع ، فليس دونه فى تلك الوجوه ، وهو خليق أن يدرس معه جنبا الى جنب ، وتجمع آثاره المتخلفة من شتى العصور ، ففيها هى ذاتها متعة جليلة ، وفيها بجانب ذلك للشاعر والقصصى ما يبعث الالهام ، ويبسط منادح التفكير والقول ، ويدنى من الطبيعة والصدق ٠

الانســـــان

فى الأدبين العربى والانجليزى

اذا ما استقر الانسان فى موطن آمن ، وارتقت عقليته ، لم يعد يكتفى بتوفير حاجاته الجسدية واتقاء قوارع الطبيعة ، بل بدأ يفكر فى نفسه ومنشئه وغايته ، لم يعد يكتفى بقبول الحياة على علاتها ومداراة غوائلها ، بل راح يتساءل عن ماهيتها وغايتها وما بعدها ، وأجاب على تساؤله ذاك بما تتيح له عقليته البدائية من تفسيرات فطرية ، بعضها صادق وأكثرها وهمى ، ثم ما يزال كلما ترقى فى مدارج الفكر يعاوده الشك من حين الى حين فى تلك التفسيرات ، ويثور على عقائده المتوارثة ، ويتناولها بالتعديل والتهذيب ، فيكون من ذلك الدين والفلسفة ٠

ويشارك الأدب الدين والفلسفة فى التعبير عن تأمل الانسان فى نفسه ، وتساؤله عن نشأته ومصيره ، فيحفل الأدب شيئا فشيئا بآثار تفكير الانسان فى الحياة والموت ، وافتخاره بقوته وسيادته ، وجزعه من ضعفه وقصور حياته،واعتداده بمتعاته فى مجال العلم والفن والصناعة، وارتياعه من تضاؤل آثاره تلك جميعا ازاء قوى الطبيعة وأبعاد الكون ، وتصطبغ تأملاته تلك فى عالم الأدب بصبغة البشر والتفاؤل حينا ، وبصبغة التشــاؤم والقنوط حينا ، حسب ما يسود المجتمع من عوامل الحيوية والثقة بالنفس والاقبال على أسباب المتعة والحبور ، أو دواعى الانخذال وسقوط الهمة وفتور العزيمة ، وحسب ما يخالج الأديب الفرد من بشر ملازم أو طارىء ، وتشاؤم مصاحب أو عارض ٠

فتأمل الانسان فى نفسه ، وتساؤله عن مكانه فى الكون ، واهتمامه الدائب بسبر قواه وامتحان قدرته واستكناه غاياته ومراميه ، كل هاتيك من أظهر ميزات المجتمع المتحضر والأدب الحى ، وقد كان ذلك الاهتمـــام الملح بالانسان : قواه وطباعه وموطن ضعفه ، ومفاخره ومعايبه ومصائره ومطامحه ، من أبرز ظواهر الحضارة الاغريقية وخصائص الأدب الاغريقى والفنـــون الاغريقية ، ففيها تنـويه بالجمال الانســـانى وترنم بالبطولة الانسانية ، وفيها بجانب ذلك عرض لنقائص الانسان ومغامزه ، وفيها اشادة بما تمهد له الحياة من أسباب المجد والابتداع والتمتع والسرور ،

وتصوير لما تفرضه عليه من هوان وصغر وقهر وآلام · وما تبسط له من فجاج الحرية وما تكبله به من متشعبات القيود ، وليست مواضيع الدراما اليونانية المتعددة فى صميمها الا موضوعا واحدا : هو اصطدام مطامع الانسان بصرامة الأقدار ·

ولحفول الأدب الاغريقى على ذلك النحو بدراسة الانسان ، سميت الآداب الاغريقية أو الكلاسية عامة منذ عهد النهضة الأوربية ، « بالانسانيات » ، فان الاطلاع عليها لم يكن كشفا للعالم القديم فقط ، بل كان كشفا للنفس الانسانية ذاتها · تلك النفس التى كانت قد أهملت فى العصور الوسطى أشد الاهمال · وازدريت شر الازدراء ، بتأثير الكنيسة التى ذهبت فى تضليل العقول مذهبا بعيدا ، فزعمت الانسان خاطئا بالطبع ، وعلمت الانسان أن فيه نزعة من الشيطان ، لا يذهب مسها عنهم الا العصا فى الصغر ، ودوام التندم والاستغفار فى الكبر · وهكذا عكست الكنيسة بجهالتها غاية الدين الذى لم يأت الا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله · فلا غرو أن خمد الأدب فى تلك العصور · اذ لا أدب ولا حياة الا حيث للانسان ثقة بالانسان ·

وقد ورث الأدب الانجليزى فيما ورث عن الأدب الاغريقى تلك النزعة الانسانية ، وحفل كما حفل أدب اليونان بتمجيد الانسان من جهة ، والأسى لتلاعب الأقدار به من جهة أخرى : فمواضيع روايات شكسبير الكبرى كهاملت وعطيل وماكبث هى مواضيع الدراما اليونانية : فهى تدور حول أبطال أو عظماء نالوا من المجد شرف المحتد وفضائل الشجاعة والقوة والعقل شأوا عظيما ، ولكن كل مزاياهم تلك تذهب هدرا من جراء مغامز فى شخصياتهم تتسلل منها أصابع القدر الى سعادتهم فتنغصها ، والى مجدهم فتثله ، ورواياته بجانب ذلك تعج بشتى الدراسات للطبائع الانسانية ، التى تثير الروعة والاكبار تارة ، والشفقة والأسى مرة ، والاحتقار والاشمئزاز حينا ، والسخر والضحك طورا ·

واذا انتقلنا الى العصر الحديث فى الأدب الانجليزى ألفينا نفس ذاك العراك المستمر بين النفس الانسانية الجادة فى تحقيق مطالبها ومطامحها ، واثبات شأنها وخطرها ، وبين القدر الصارم القوانين السادر فى جبروته · لم يزد بعد تقدم العلم وتذليل قوى الطبيعة الا تجسما واستفحالا · وقد نقله هاردى من عالم الرواية التمثيلية التى تدور حول الأبطال والملوك ، الى القصة المقروءة التى تدرس المجتمع العادى ، وتتناول

أوساط الناس ودهماءهم ، وليست « تس » الفقيرة الا نظيرة » أوفيليا » المنعمة ، ولا « يهود المغمور » فى طموحه الى القوة الا قريع « ماكبث » المشهور فى تطاوله الى العرش : مطامح انسانية ، وآمال فى المنعة والسعادة ، وأقدار ماضية تعترضها وتبطش وهى عمياء بطش جبارين ٠

وقد كان الموت ولن يزال عدو الانسان اللدود ، وبلاءه الأكبر ، واللغز الأعظم الذى استغلق على فهمه ، ووقف له بالمرصاد كأنما يسخر من كل ما يبنى وما يجمع ، ويتهكم بكل ما يأتى وما يدع ، ويقنعه فى ذروة نجاحه ومجده وسعادته بعبث سعيه وادراكه ، ومن ثم امتلأت الآداب بذكر الموت وصولته وازرائه بالحياة والاحياء ٠ واتيانه على الجبابرة ، وتسويته بين العلية والسوقة ، وبين العالم والجاهل ، وتمزيقه شمل الآلاف ، وتعفيته لآثار السرور والفوز بوصل الأحبة ، وعبثه بحور العيون وبياض الأجياد والنحور ٠ وقد تفنن الخيام فى رباعياته فى صوغ هذه المعانى وتحليتها بالصور الفاتنة المنتزعة من الطبيعة ومن الجمال الانسانى، ومجالس الصفو والشراب ٠

وبجانب الموت تمثلت الرهبة لعينى الانسان فى مظاهر الطبيعة الرائعة ، وقواها المصطرعة ، وفجاجها المترامية ، ومخلوقاتها المقتتلة فى سبيل الغلب والبقاء ، وصممها عن آلامه وأشجانه ، وغفلتها عن أفراحه وأتراحه ٠ ومضيها على عاداتها حسنت به الحال أو ساءت ، وخلودها على رغم فنائه ، وطيها جيلا من الناس بعد جيل ، فامتلأ الأدب بذكر ذلك كله ٠ ومن جميل أمثلته مقطوعة هوجو « الطبيعة والانسان » التى يقابل فيها بين شباب الطبيعة وشيخوخته ، ونضارتها وجفاف عوده ، وبقائها ووشك ذهابه ، ويتنبأ بقيام جنازته بين معالم أعيادها ، وبمضيه غير مأسوف عليه منها ، ولا محسوس فقدانه ٠

وقد كان شكسبير معنيا بالموت موكلا بالتفكير فيما بعده ، ينطق بذلك أبطاله كهاملت ، الذى يتأمل فى الموت فى خلوته ، ويؤم المقابر حيث يرى الحفارين يعبثون بالجماجم ٠ ولا يمل شكسبير ذكر الموت والبلى ، حتى فى شعره النسيبى ، الذى يتسم لذلك بمسحة الحزن والكآبة ٠ ولشيرلى مقطوعة رائعة فى الموت سارت بعض أبياتها مسير الأمثال ، وهى تطابق فى شتى المواضع معانى رباعيات الخيام ٠ ومن أحسن أشعار التأمل فى الموت فى الانجليزية قول كيتس ، وقد كان لضعف بنيته ما يزال متمثلا شبح الموت : « حينما يخامرنى الخوف من أن أقضى قبل أن أجنى ثمار عقلى الوافرة ، وقبل أن تحويها الكتب المكدسة كما تحوى

البيادر المحصول الناضج ، وحينما أشاهد على وجه الليل المرصع بالنجوم رموزا من الغمائم لرواية تجرى فى علو ، وأذكر أنى ربما لا أعيش حتى أرسم ظلا لها بيد الالهام السحرية ، وحينما أشعر يا جميلتى الوشيكة المضى أنى لن أراك بعد ، ولن أنعم بتلك القوة الساحرة : قوة الحب الأعمى• عند ذلك أقف وحيدا على شاطىء الدنيا الرحيبة ، وأفكر حتى يصير الحب والمجد هباء » •

وتمثلت رهبة الطبيعة لأدباء الانجليزية فى البحر وهياج أواذيه واصطخاب عواصفه ، واطراد ثورته وبعد غوره • ومن روائع آثار الشعراء في هذا الصدد أبيات تنيسون التى نظمها وقد قصد البحر مفكرا مهموما ، يبغى العزاء عن فقد صديق له حميم ، ومنها قوله : « تكسر أيها البحر على صخورك الباردة الكالحة ، وطوبى لابن الصائد اذ يتصايح هو وأخته لاعبين ، وتمضى الجوارى المنشآت الى مرافئها بسفح التل • ولكن من لى أنا بمصافحة تلك اليـــد التى غابت ، وذلك الصوت الذى سكت » • واستعار شلى رحب البحر وشدة أسره وصرامة صروفه ، للتعبير عن صرامة الزمان وبطشــه بالانسان • قال يخاطب الزمان : « أيهـا البحر الذى لا يسبر غوره ، والذى أمواجه السنون ، والذى غدت أواذيه أجاجا من ملح دموع الانسان ، والذى يطوى فى مده وجزره أطراف الانسانية ، ويبشم من فرائسه وان يكن ما يزال يعوى طلبا لسواها فيلفظ بقاياها على شطوطه غير الكريمة ولا الوثيرة » •

واسترعت تفكير الأدباء أحوال المجتمعات التى رضيها الانسان لنفسه مقاما وما يداخلها من نقائص لا يخلو من بعضها مجتمع أو جيل ، وما فى بعض أنظمتها من تقييد للحريات وهضم لحقوق بعض الأفراد أو الطبقات، فنددوا بتلك المساوىء ونادى بعضهم باصلاح تلك المفاسد التى تهبط بالانســان عن رتبته التى هو جدير بها فى الكون ، وتعترض سيره الى ما ينشده من كمال ، فكان منهم رادة حركات النهوض والاصلاح ، بل نادى بعضهم بفض المجتمع والعودة الى الطبيعة • وبمثل تلك الكتابات الاجتماعية تحفل كتابات فولتير وروسو • وقد كانت هذه النزعة ضئيلة المظهر فى الآداب القديمة ، أما فى الآداب الحديثة فهى تتعاظم وتشتد جيلا فجيلا • فالنقد الاجتماعى والحض على الاصلاح غرض حـديث من أغراض الأدب يضارع غرضه القديم من التعبير عن الجمال والافصاح عن الشعور الفردى •

فالتفكير في شأن الانسان ماضيه وحاضره ومستقبله من مميزات الانســان المتحضر المثقف ، وهو لا يكف عن هذا التفكير طوال حياته ، ولا تزال أشباح الماضى والمستقبل والحياة والموت ماثلة أمامه ، يكون لنفسه فى شأنها فلسفة تختلف عمقا واتساعا واقناعا وتختلف فى مدى قربها من اليقين والجزم ، أو قيامها على الشك والرفض • على أن هذا التفكير الانسانى يفرض نفسه فرضا شديدا على كل أديب أو كل مثقف او كل انسان ، فى فترة خاصة من فترات حياته ، بل أزمة من أزمات وجدانه ، يشتد فيها تفكيره فى نفسه وبنى جنسه ، ويحفزه الى التساؤل والثورة على الحياة الانسانية حادث نفسانى يؤثر فيه أثرا عميقا : من خيبة أمل واخفاق حب أو موت عزيز ، فتتسم آثار الأديب فى تلك الفترة بالتمرد والتشاؤم والكآبة ، وقد يحاول اصلاح العالم دفعة واحدة ويدعو الناس الى حياة جديدة تصورها له أحلامه ثم ما يلبث أن تخلف الحقائق المتحجرة ظنونه وتثبط هياجه وتروض جماحه ، فيعدل حياته بما يلائم ظروف الحيــاة الانسانية البطيئة التغير الوئيدة الخطى ، فتعود آثاره الأدبية مشرقة بالبشر متغنية بمباهج الحياة بدل الامعان فى التفتيش عن معايبها ولسريان الحيوية فى دماء الشعب الانجليزى وغلبة التفاؤل على أمزجة أبنــــائه ، كان أدباؤه اذا راعتهم نقائص الحيــاة الانســانية وشرورها • وأحزنهم ضعف الانسان وشقاؤه ، لم يلبثوا أن يتحولوا عن ذلك الجانب الأسود من الصورة الى جانبها الأبيض ، ويطلبوا العزاء بما فى الحياة من جمال عما فيها من قبح ، فيشيدون بمقدرة الانسان على الجلاد وبراعته فى الابتكار ، وبطولته وماضيه الحافل بالعظـــائم ، ويترنمون بمفاتن الطبيعة وما يصيب الانسان عندها من رخاء وراحة بال ونفس ، ويطلبون السلوى قبل كل شيء بممارسة فنهم الذى صور تلك الحياة ويحكيها حكاية تروى من نفوسهم ما لا ترويه الحقيقة الواقعة ، يصور آلامها تصويرا يخفف وقع تلك الآلام عن نفوسهم ، ويحكى مفاتنها ونعمها التى فاتتهم حكاية تشفى صدورهم • فتمثيل الأديب للحياة فى فنه يشعره كأنما قد أحاط بتلك الحيــاة وتمكن من أعنتها ، ويكسبه ثقة بنفسه وايمانا بقدرته على الابتداع والاتيان بجديد من عنده •

فتنيسون حين فقد صديقه الحميم سالف الذكر توفر على انشاء قصيدة طويلة فى ذكراه ، ولكنها لم تقتصر على ذكراه بل امتدت الى شتى نواحى الحياة وشملت نظرته العامة اليهــا ، وشكسبير حين مرت به أزمته النفسية الكبرى باخفاق آماله فى الحب والصداقة ، نفس عن صدره بمآسيه الكبرى ، وفيها لا نرى الانسان ألعوبة عاجزة فى يد الأقدار ، بل نرى من آثار بطولته مايملؤنا روعة ويبقى أمامنا نور الأمل ، ووردزورث

حين تبددت أحلامه فى المجتمع الانسانى الفاضل الذى خال الثورة الفرنسية منجلية عنه ، مرت به غيمة قنوط عابسة لم يقشعها عنه الا تعزيه بمحاسن الطبيعه وقضاؤه الوقت متفيئا ظلالها مصورا آثارها فى شعره • وفى عبادة الجمال الطبيعى والانسان كان كيتس يجد مفزع روحه مما يتكنفه من بأساء الحياة وما يمض عيشه من فتكات الداء •

ومن أبدع الأشعار التى تعرض جانبى الصورة ناصعهما وحالكهما ، وتجسم ضعف الانسان وفناءه ، وتمجد قوته وعبقريته ، مقطوعة شلى المسماة « أوزيمانديا س المصرى » وفيها يقول : « قابلت مسافرا من أرض قديمة قال : تقوم فى الصحراء ساقان من الحجر ضخمتان عديمتا الجذع، وقد ارتمى بجانبهما وجه مهشم يكاد يغور فى الرمال ، تنطق تقطيبته وشفته المعوجة كبرياء وعظمة هادئة ، بأن المثـال قد أجاد قراءة تلك الصفات التى ما تزال حية مطبوعة على ذلك الحطام الجامد ، وقد فنيت اليد التى صورتها والقلب الذى غذاها ، وقد لاحت على القاعدة هذه الكلمات : اسمى أوزيمانديا س ، ملك الملوك • انظروا الى آثارى أيها الجبابرة وأقروا يائسين ، وليس بجانب ذلك شىء باق ، قد أحاطت بذلك الحطام الهائل المهدم رمال موحشة منبسطة جرداء تمتد الى ما لا نهاية » ، فهنا وصف شائق أخاذ لعظمة الملك وبراعة الفنان ، وتصوير رائع لسطوة الموت وبطشة الفناء •

وفى الأدب العربى نرى تزايد هذا الاهتمام بالانسان نشأته وأحواله ومصيره ، بتزايد حظ العرب من الحضارة والثقافة : ففى الأدب الجاهلى وفى صدر الاسلام لا نعثر الا بالأبيات المتفرقة يتأمل فيها الشاعر فى ضعف الانسان وقصر حياته ، وتلاحق همومه ، واتصال آماله برغم ذلك ، وشدة اقباله على الحياة وتغاضيه عما وراءها • وفيما عدا تلك النظرات الخاطفة والمواعظ العارضة ، لا يكرث الشعراء أنفسهم كثيرا بالتساؤل فيما كان وما سوف يكون ، بل لكل منهم شأن يعنيه من حاضره ، فمتغزل عاكف على هواه مترنم بليلاه ، ومفتخر يشيد بمجد نفسه ومكان قبيلته ، ومداح مجتهد فى استدرار صلات الأمراء ، وهجاء ممعن فى اثخان غريمه • ومما أثر عن متقدمى الشعراء فى التأمل فى حال الانسان قول القائل :

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى

وقـــول الآخـــــر :

ألا تســـألان المــرء ماذا يحاول ؟ أنحب فيقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟

ويتزايد التفــكير فى خلق الانســـان وغايته كلمـــا انتشر العـــلم والفلسفة : فنرى فى شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام من آثار ذلك فوق ما نجد فى شعر الأخطل والشماخ وجميل ، حتى يبلغ ذلك التفكير مداه بنضج العلوم والفلسفة فى القرنين الثالث والرابع ، ويبدو ذلك واضحا فى آثار شعراء العربية الكبار : ابن الرومى والمتنبى والشريف والمعرى : لكل من هؤلاء فلسفة انسانية منثورة فى أنحاء شعره ، ونظرة الى الحياة تلائم طبعه ومذهبه : فابن الرومى يرى الحياة فرصة من الجمال الطبيعى والانســـانى يجب أن تغتنم ، ومتعـــة للحس والروح يجب أن تباكر • والمعرى يرى حيـــاة الناس شقاء وشرا متصلا • والشريف يرى مثله الأعلى فى الفضيلة والمعالى • والمتنبى يرى الناس سواما يحر فيهم القتل ويحق لمثله أن يسود فيهم ويعتلى ، فلسان حاله قوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

كما أن جماع فلسفة المعرى قوله :

فاف لعصريهم : نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء

والحق أن المعرى كان أشمل هؤلاء جميعا نظرة ، وأنفذ شعراء العربية جميعا فكرة ، وأشدهم شغلا بالحياة ، وعناء بأمر الانسان والأحياء عامة ، وتفكيرا فى ماضى الانســـان ومستقبله ، وتبصرا فى أحـــوال مجتمعـــاته ودياناته ، وله فى كل ذلك من مستنير الأفكار المصبوبة فى جزل الألفاظ والأساليب ما ينزله أرفع مكانة بين الشعراء المفكرين ، على ما يشوب تفكيره فى أكثر مواضعه من مسحة التشاؤم القاتم المغرق الذى هو وليد عصره المضطرب ، وحياته الكئيبة ، وبنيته السقيمة ، وأعصابه المرهقة • وفيما عدا المعرى نرى أدباء العربية عامة أقل عناء بشئون الانسان وشغلا بالحياة وغايتها من أدباء الانجليزية ، وهم أكثر منهم قبولا للحياة على علاتها • ورغبة فى اغتنام متعاتها والتغاضى عن سوآتها ، وأقل تمردا ولجاجا فى الأزمات النفسية • والأديب العربى أكثر تحدثا عن نفسه وعاداته وآدابه ولباناته منه عن الانسان عامة ، وهذه النزعة السمحة الراضية ترجع الى عوامل أهمها طيب المناخ الذى يبعث البشر والثقة ،

والايمان الدينى الذى بعثه الاسلام فى نفوس أبنائه وبثه فى مجتمعهم . والاسلام أكثر تغلغلا فى حياة معتنقيه وتسربا فى أرواحهم وتجسما فى مظاهر مجتمعهم من غيره من الأديان · هذا الى أن الحكم المطلق لم يكن يسمح للأدباء بنقد المجتمع والنظم نقدا جريئا ، وانما كان يروضهم على الاندماج فى ظروف الحياة المحيطة بهم ، والتعود على اجتناء خيرها واتقاء شرها ، كما قال الشاعر :

وان امرأ أمسى وأصبح سالما   من الناس الا ما جنى لسعيد

فلم يكن أدباء العربية يطيلون الوقوف بمهامه الشكوك ومضايق الأزمات النفسية ، بل سرعان ما كانوا يشيحون عما يطوف بهم من خيالاتها علما بأن من أطال الفكر فى الحياة وغايتها ، والانسان ومصيره ، أقامه الفكر بين العجز والنصب ، كما قال المتنبى ، وحين كانت تطيف بهم تلك الحالات النفسية العابسة ، ويثير شجنهم وجزعهم ما يلاحظون فى حياة الانسان ومجتمعه من نقص وشر ، لم يكونوا يتأسون كما يتأسى شعراء الانجليزية بمحاسن الطبيعة ، فقلما أعاروا محاسنها التفاتا ، كما أنهم قلما اكترثوا لفجائعها وأهوالها ، ولو كانوا يتعزون بذكر البطولة الانسانية ، فما يكاد يكون لها فى آدابهم أثر ، أو بتاريخ الأمم العظيمة ، فما كانوا يذكرون من أمرها الا غرور مشيديها وتقويض الزمان لأركانها ، ولا بالتأمل فى مخلفات فنون تلك الأمم ، فما كانت توحى اليهم الا بضعف الانسان وبطلان مساعيه · وقد التفت المتنبى الى شرقى الامبراطورية الاسلامية المترامية فقال :

أين الأكاسرة الجبابرة الألى   كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا ؟
من كل من ضاق الفضاء بجيشه   حتى ثوى فحواه لحد ضيق

والتفت الى غربيها فقال :

أين الذى الهرمان من بنيانه ؟   ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
تتخلف الآثار عن أصحابها   حينا ويدركها الفناء فتتبع

انما كان أدباء العربية اذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشرور مجتمعه ، يجدون مفزعهم من الحزن والقنوط فى « الفضيلة الاجتماعية » : فى الأخلاق القويمة التى تكسب الانسان حسن الأحدوثة الموروث حبها عن

العرب الأقدمين ، وتنجيه من شرور المجتمع الذى لا يد له باصلاحه ، والذى لا تنال شروره عادة الا من يستهدف لها بسوء فعله ، وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار • ومن ثم زخر الأدب العربى بروائع الحكم ونبيل التمدح بمكارم الأخلاق ، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربى وبه يمتاز على غيره ، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول اياس بن القائف :

اذا زرت أرضا بعد طول اجتنابها فقدت صديقى والبلاد كما هيا
فاكرم أخاك الدهر ما دمتما معا كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقول الشريف :

لغير العلا منى القلى والتجنب
ولولا العلا ما كنت فى العيش أرغب
غرائب آداب حبانى بحفظها
زمانى ، وصرف الدهر نعم المؤدب

فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب الى الاجتماع ، وفضيلة اجتماعية أصيلة ، واستعداد متمكن للتحضر والتعاون ، وأن يكونوا أمة مصلحة ، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معا ، ويشتغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها ، وطول التشكك والتحير فى منشأ الكون ومنتهاه ، وميلهم الطبيعى ذاك واضح الأثر فى شعر شعرائهم • وفضيلتهم الاجتماعية تلك هى مرجع ازدهار العمران فى كل بلد وطئوه ، حالما وطئوه ، على حين نشر الاغريق الخراب فى شرق البحر الأبيض حين هبطوه ، واستغرقوا قرونا طويلة فى الاستقرار وتشرب الحضارة •

التفــاؤل والتشـــاؤم

فى الأدبين العربى والانجليزى

حب الحياة كائن فى طبيعة كل حى ، والرضى بها والاطمئنان اليها والاقبال عليها شيمة جميع الأحياء ما دامت بنياتهم صحيحة وحاجاتهم حاضرة ، والمرح واللعب غايتهم الأخيرة ما دامت غرائزهم مقضية اللبانات مشبعة المطالب • ولما كان الانسان يمتاز بالخيال والفكر فان له مطالب نفسية غير مطالب جسده الغريزية ، يرضى ويرتاح اذا قضاها ، ويقنط ويكتئب اذا أخطأها ، وليس يشكو الحى أو يألم ، وليس يسخط الانسان أو ينقم ، الا أن يغـدو وهو سقيم الجسم أو محروم الغريزة أو ممنوع المطالب • فحب الحياة والاقبال عليها والرضى عنها هى الحال الطبيعية العادية ، وذم الحياة والعزوف عنها والسخط عليها حال طارئة استثنائية ، نتيجة لامتناع وسائلها وعدم مواتاة أسبابها •

فالمتشائمون قوم قست الحياة عليهم فحرمتهم قليلا أو كثيرا مما حبت به سواهم ، فثاروا عليها وكالوا لها قسوة بقسوة ، وجزوها على حيفها بمرير الذم والتفنيد ، فلسنا نرى بين المتشائمين الزارين على الحيـاة والأحياء رجلا صحيح البدن معتدل المزاج مجدودا واثقا بنفسه ، بل كلهم ممن أكسبتهم الوراثة والنشأة والبيئة أجساما معتدلة أو أعصابا مختلة ، أو ألحت عليهم الخطوب فحطمت مساعيهم • أو اقتنعوا بعجزهم عن مصاولة الأحياء فى ميدان الحياة ، فأورثهم ذلك حسا مرهفا متيقظا الى مواطن الشر والقسوة والنقص فى الحياة ، فقعدوا يبرون لها وللمقبلين عليها السهام •

وفى الحياة مواطن للنقص لا تحصى ، يهتدى اليها الناقمون عليها بلا عناء ، وهى تعرض مثالبها عليهم وتضع أصابعهم على نقائصها ، بيد أن المتفائل المعافى الجسم الناجع المسعى قلما يلتفت الى تلك المساوىء ، واذا التفت اليها فبرهة قصيرة يأسى فيها ويعتبر ، ثم يعود الى ما كان فيه من استمراء لمتعات الحيـاة واجتلاء لمفاتنها ، متعزيا بهذه المفـاتن والمتعات عن تلك النقائص والمقابح ، باذلا جهده لتوفير السعادة لنفسه ولمن حوله ، ومحو ما يستطيع من أسباب الشقاء ، على حين يظل المتشائم

امام ما يروعه من مساوىء الحيـاة قائما ، لا يريد أن يحول بصره الى سواها ، بل يهول تلك المساوىء كما يسول له حسه المرهف وخياله المغرق .

والأدباء وغيرهم من رجال الفنون عادة أرهف حسا وأبعد خيالا ممن عداهم ، وما من أديب الا تتجسم له مقابح الحياة جهمة مقززة فى فترة من فترات حياته ، فتعافها نفسه ، وينقم عليها وعلى نفسه وعلى الأحيـاء جميعا ، فأما من كان متفائلا بطبعه معتزا بنفسه واثقا من قدرته على خوض وغى الحياة ، فسرعان ما يخرج من تلك الغمة وتنتصر فيه دفعة الحياة القـاهرة . فيلتفت الى ما بالحيـاة من مباهج بجانب ما بها من مآس ، ويطلب العزاء ببعض تلك عن بعض هـذه ، ويستن لنفسه مثـلا أعلى جديدا فى الحياة ، وأما المتشائم المحس بوطأة الحياة الثقيلة على جسمه المتعب وأعصابه المنهوكة ونفسه الخائرة ، فيرفض كل عزاء ويأبى كل ايمان ويسخر من كل مثل أعلى .

فالفرق الرئيسى بين المتفائل والمتشائم هو أن الأول يرضى العزاء والثانى يرفضه ، والأول يؤمن بمثل أعلى والثانى يأبى الايمان بشىء ، فالمتشائم يرفض الدين فيما يرفض ، فالتشاؤم والدين ضدان لا يلتقيان : التشاؤم ازراء بالحياة وانكار لجدواها وتحقير لأبنائها ، والدين يبشر بجدوى الحياة الصـالحة ويبث العزاء فى النفوس عن آلام الحيـاة . وما كانت الديانات الأولى كديانات المصريين والفرس الا محاولة حاول بها الانسان أن يفسر ما راعه من تجاور قوى الخير والشر فى الحياة ، وأن يتعزى بجانب الخير عن جانب الشر منها ، أما والتشاؤم هو فقد الايمان بالحياة ورفض العزاء عن شرورها ، فالتشاؤم والدين نقيضان ، ولا ترى متشائما الا يسر الانكار للدين أو يعلنه ، ولا مؤمنا معتصما بدينه قد هوى فى لهوات التشاؤم .

وليس فقد الايمان بالحياة ومثلها العليا — أو التشاؤم — ينتهى بصاحبه فى كل حالة الى الاسراف فى رفضها واعتزالها ، بل هو ربما أدى الى اسراف مناقض لهذا : اسراف فى انتهاب لذاتها القريبة واشباع الغرائز النهمة منها ، تناسيا لمنغصاتها وتخلصا من لذعات التفكير فى نقائصها ، فالمتشائمون المعتزلون للحياة الناقمون على الأحياء الساخرون من المجتمع ، والمتشائمون المستهترون باللذات المتهكمون بتقاليد المجتمع وأخلاقه ، الخارجون على عرفه المصادمون له فى عقائده ، أولئك وهؤلاء سيان فى التشاؤم ورفض الايمان والعزاء النفسى ، أو قل هما طرفان

متباعدان بينهما الوسط الذى يحتله المتفائلون الراضون بالحياة على علاتها ، المتسلون بنعمائها عن بأسائها فى قصد واعتدال ، المتشبثون ببعض مثلها العليا ٠

على أن المتشائمين أنفسهم لا يخلون من عزاء وان توهموا سوى ذلك ، وأشدهم امعانا فى التشاؤم لا ينضب من نفسه حب الحياة ، وعزاء أكثرهم هو ذلك الفن الذى يزاولونه ، هو أدبهم الذى يودعونه فلسفتهم المتشائمة وخطراتهم القائمة ، ففى كتابة أفكارهم تلك راحة لنفوسهم المعذبة وشقاء لغرائزهم الظامئة ، ولولا أنهم ما يزالون يحبون الحياة فى صميم أفئدتهم ، على رغم اعلانهم الحرب عليها ، لما لبثوا بساحتها ، ولو أنهم يزدرونها ويزدرون أبناءها بقدر ما يزعمون ، لما حفلوا بتدوين آرائهم فيها وعرض تلك الآراء على أبنائها ، ففلسفتهم المتشائمة تناقض نفسها بنفسها ٠

فاذا كانت فلسفة تصدق أو تفسير للحياة يقبل ، فليست فلسفة المتشائمين بالتى ترجح وتفسر الحياة ، وليست رسالتهم التى يؤدونها الى الانسانية بالتى تقبل ، لأن فلسفتهم كما تقدم تناقض نفسها ، وتناقض طبيعة الحياة التى بثت حبها فى جبلات أبنائها ، ومهدت من متعاتها ما يرجح شوائبها ، وزودت بنيها بالسلاح اللازم لهيجائها ٠ ليست فلسفة المتشائمين بالمقبولة فى جملتها ، وان احتوت فى أطوائها من صائب النظرات وبديع اللفتات وآثار الفكاهة والسخر والوصف والتحليل ما يمتاز به أصحاب ذلك المزاج ، وما يهديهم اليه حسهم المرهف المستوفز وخيالهم المتيقظ المسترسل ٠

وفلسفات المتشائمين فى مختلف الأمم والأجيال متماثلة ، ومواضيعهم متقاربة : اسهاب فى شرح مظاهر تنازع البقاء ، واطناب فى ذكر لئيم الطباع فى الأحياء وفى الانسان خاصة ، واصرار على تذكر الموت وكرور الزمن وحلول البلى ، وتهويل لضعف الانسان ازاء جبروت القدر ، وتصوير لنفاق المجتمع وجور أنظمته ، وتحقير للمرأة وموازنة بينها وبين الحياة ، وآراؤهم فى كل ذلك مردها الى اضطراب تكوينهم وتزعزع ثقتهم بأنفسهم وحرمانهم من شتى مطالب الحياة ، ففلسفة المتشائمين لا تدلنا على حقائق الحياة والكون ، بمقدار ما تدلنا على نفوس أصحابها وأمزجتهم وعوامل تكوين أذهانهم ٠

فهم يجزعون لمرأى تنازع البقاء لاحساسهم بأنهم عزل ضعفاء ، وينحون على المجتمع بقوارع الكلم لأنهم عاجزون عن الانغمار فيه ونيل الحظوة والصدارة به ، ويذكرون الناس بالموت والدثور لأن الناس يتمتعون دونهم بالطيبات ، فهم يسلون أنفسهم بتكرار القول بأن تلك الطيبات عما قليل ذاهبة ، ويخوفون الناس بجبروت القدر لأن غيرهم يتمتعون بالقوة والاقتدار ، فهم يلوحون أمام أعينهم بالقدر الذى يتلاعب بهم ويضحك من تدبيرهم ، ويرمون المرأة بالغدر والتقلب لأنها تفى لغيرهم ، ويجاهرونها بازدرائهم اياها ، لأنهم يسرون الاحساس بازدرائها اياهم واعراضها عنهم .

ولما كان مرد المزاج السوداوى المتشائم الى عوامل فردية محض ، من وراثة أو بيئة ، يظهر المتشائمون فى شتى الأمم والأجيال متفرقين لا اتصال بينهم من مدرسة أو مذهب ، على أن مسحة التشاؤم تطغى عادة فى آداب عصور الادبار السياسى والضيق الاقتصادى والفوضى الخلقية ، فيسود الشك والرفض والتهكم المرير ، كما كان الشأن فى الأدب الروسى تحت الحكم القيصرى ، كما أن صبغة الايمان والبشر والتفاؤل تغلب فى عصور الرخاء والنجاح والمغامرة ، وهى الصبغة التى سادت الأدب الاغريقى فى عصره الذهبى عقب الانتصار على الفرس . فلما تلا ذلك عهد الادبار ظهر السخر والشك ومذاهب الرفض والاعتزال من جهة ، ومذاهب الاستهتار والاباحية من جهة أخرى .

ولعل أشد أدباء الانجليزية نكيرا على الانسان وتهكما بمساعيه وتهوينا لشأنه هو جوناثان سويفت ، وهو أديب نشأ نشأة ضنكة مقلقلة ، ولازمه داء فى أذنه جشمه آلاما مبرحة ، وما زال حتى طغى على عقله فى أواخر حياته ، وحالف الاخفاق مطامحه السياسية وصاحب النحس غرامه ، فلم يبق له الا الانزواء فى عزلته ببعض بلدان ايرلندة ، والا أن يقول لبعض أصحابه انه يمقت ذلك الحيوان المسمى الانسان من أعماق قلبه ، وما ذاك الا لما كابد من عنت الظروف والأمراض ولدد الخصومات وغصص الاخفاق، وهو الذى كان فيما عدا ذلك من أوفى الناس عهدا وأصفاهم ودا ، وهو الذى عطف على الايرلنديين ودافع عنهم ، على حين ناصبهم من قبل ذلك مواطنه وزميله فى حرفة الأدب ادموند سبنسر . وكتاب سويفت « رحلات جليفر » على ما به من سلاسة وفكاهة وبراعة تصوير ، مملوء بالسخر المرير من الانسانية .

وزعيم التشاؤم فى العصر الحديث توماس هاردى ، الذى كانت أشباح الموت والبلى والقدر لا تبرح ناظريه ، وكان لا يمل تكرار موضوعه

التوحيد في شتى قصائده وقصصه : موضوع ضعف الانسان وقلة حيلته وعبث مسعاه ، حيال ضربات القدر الأعمى ، ودوران رحى الزمن المطحون، فكان دائما يتفنن فى اختراع المواقف المفجعة والظروف المنحوسه ، ينخذ مشاهدها في المقابر والبرارى وفي الأيام الداجنة الكالحة ، ويطيف أشخاص روايته بين الموتى ، وينطق الموتى في اشعاره ، ويغالى فى تصوير فجائع الحب : بين الغدر والسلو والنسيان والغيرة وجفاف الجمال : فأشعاره لا تكاد تنتقل بك من غمة الا الى غمة ، ولا من محنة للانسان الا الى انتصار وخشي للأقدار عليه ٠

ومعاصره أو خليفته في هذه النظرة المتشائمة الى نصيب الانسانية فى الحياة هو هاوسمان ، الذى كان يحاكيه كثيرا فى اختيار مواضيعه وطريقة معالجتها واجرائه الحديث فيها بين الأحياء والأموات ٠ ومن نماذج ذلك الضرب من شعر التشاؤم قوله : « ــ أما برحت خيلى تحرث الأرض كعهدى بها ، اذ أنا حى أسوقها وأسمع صليل شكائمها ــ ؟ بلى ما تزال تنقل خطاها وشكائمها تصل ، ولم يتغير شىء برغم أنك قد رقدت تحت الأرض التى كنت من قبل تحرثها ــ أو ما تزال الكرة تترامى ويتسابق خلفها الرفاق على شاطىء النهر ، وان أك لا أستطيع اليوم نهوضا ؟ ــ نعم تترامى الكرة بينهم وكلهم باذل فى اللعب جهده ، وذلك مرماهم قائما وحارسه لا ينى ــ وفتاتى التى شق على فراقها ، أسئمت البكاء واستطابت طعم الغمض ؟ ــ نعم هى ناعمة فى خدرها ، فنم أنت وقر ــ وهل صديقى صحيح معافى وقد نحلت أنا وبليت ؟ وهل وجد بعد فراشى فراشا وثيرا ؟ ــ أجل أنا يا صاح لى ضجعة كأروح ما يشتهيه الفتى : أسلى حبيبة رجل قضى ، ولا تسألنى حبيبة من » ٠

ومن أمثلة الوراثة المختلة والمــزاج السـوداوى فى تاريخ الأدب الانجليزى كوبر وبيرون : كلاهما كان مضطرب التكوين اضطرابا أدى الى ظهور الغرابة في مسلكيهما وأدبيهما ٠ على أنها رغم اتفاقهما فى ذلك كانا يختلفان ثقة بالنفس : كان أولهما ضعيفا متناهيا فى الخجل ، وكان الثانى مفرطا فى الزهو والاعتداد بمواهبه ونسبه ، فقنع كوبر بحياة العزلة ولم يعلن على الناس حربا ، وان ظهرت أعراض التشاؤم فى كثير من شعره ، أما بيرون فصـادم المجتمع بمسلكه الخلقى كمـا هاجمه فى شعره ، ولما لفظه المجتمع الانجليزى زاد عتوا وجرأة ، وتحديا لخصومه وتشفيا من مؤيدى النظم الاجتماعية التى كان يمقتها ٠ هذا فضلا عما حفلت به آثاره عامة من تصوير لضعف الانسان وقصر مدته وعبث جهوده ٠

ورمز التشاؤم فى العربية هو ولا شك المعرى ، الذى اجتمع عليه من أسباب التشاؤم ما لم يجتمع على غيره : من اعتلال التكوين الجسمى ، واختلال الصحة ، والحرمان من شتى اللذات ، واضطراب العصر الذى عاش فيه ، فجاءت فلسفته مثالا نادرا لفلسفات المفكرين المتشائمين : حقر الانسان ، وأنذر ببطش الأقدار ، وذكر بالموت ، وشك فى الدين ، وأزرى بالمرأة ، وندد بالمجتمع ، وفند الحكام ، وأطنب فى تنازع البقاء ، ورثى مع ذلك للانسان ورأف بالحيوان ، وضاق بنفسه كما ضاق بغيره وحرم على نفسه الملذات وعاش نباتيا ومات عزبا لم يحن على أحد ، وعبر عن نظراته النافذة الحكيمة التى سبق بها عصره ، تعبيرا شعريا عربيا جزلا ممتعا ، وكان صادقا صريحا : اعترف بأنه لم يختر تلك الحياة الضنكة الا لأن سواها قد شآه ، فهو القائل :

ولم أرغب عن اللذات الا لأن خيارها عنى خنسنه

فقد كان لدقة حسه شديد الحرص على كرامته ، شديد التوقى لمواطن السخر والزراية ، فكان ذلك حائلا بينه وبين ما تصبو اليه غرائزه من متعات ، وكانت حياته معركة طويلة قائمة داخل نفسه ، بين الرغبة فى الاستمتاع بطيبات الحياة والاصرار على رفضها ، لاستعصاء سبلها على الكفيف المجدور ، الا أن يبيح كرامته ويهدر حياءه • وما أطار خياله الى طيبات الفردوس الا حرمانه من طيبات الحياة وطول نزوع نفسه اليها • وما كان وصفه لمتعات الخلد الا ارضاء لشهواته المخمدة تحت رماد التوقر والتقشف • وما كان تاليفه رسالة الغفران أو اتخاذه الخلد مسرحا لها الا تنفيسا عن مكتوم نوازعه ، وبفضل هذه النوازع المكبوتة خلف المعرى الكفيف أثرا من آثار الخيال فريدا فى اللغة ، كان المبصرون من أدباء العربية منصرفين عن مثله •

والمعرى نسيج وحده فى التشاؤم فى العربية ، يرفع راية الرفض للحياة والاعتزال لها والازراء عليها ، ويمارس فى حياته ما ينادى به فى أشعاره ، ولا ينضوى تحت تلك الراية سواه : انما كانت غالبية المتشائمين فى العربية الذين نبذوا الايمان ورفضوا العزاء وهانت عليهم الحياة فلم يجدوها أهلا لسعى ولا لحفاوة ، هم طائفة المتشائمين المستهترين ، الذين ظهروا حين طغت تيارات الترف المادية والشكوك ، على المجتمع والعقائد فى العهد العباسى كبشار وأصحابه ، وأبى نواس وأضرابه ، أولئك ساقهم تفكيرهم الى تصغير الحياة وما يقدس الناس من مثلها العليا ، فلم ينبذوا الحياة جملة بل راحوا يطفئون غليل نفوسهم المتحرقة فى لذات الحياة

الدنيا ، ويشبعون غرائزهم الحيوانية متهكمين بما عدا ذلك مما يسميه المجتمع فضائل وعظائم وعقائد · وأبو نواس هو القائل :

وما هنـأتك المـلاهى بمثـل اماتة مجـد واحياء عار

والقـائل :

قلـت والـكأس على كفى تهـوى لالتثـامى :

أنـا لا أعـرف ذاك اليـوم فى ذاك الزحـام

وانما حرضهم على سلوك تلك السبيل ما كان يسود عصرهم من حرية تقرب من الاباحية ، وما كان يسود المجتمع العربى دائما من صراحة لا نظـير لها في المجتمع الانجليزى ، حيث التقاليد الاجتماعية شديدة الصرامة ، فعلى حين كان يتأتى لبشار وأبى نواس وأضرابهما أن يباشروا وهم معافون حيـاة الاستهتار التى باشروها ، ويتهكموا بعقـائد غيرهم ما شاءوا ، ويترنموا بمخازيهم شعرا ، نرى بيرون الذى لم يجر الى مداهم يلفظ من المجتمع الانجليزى الذى بجله من قبل لشعره وحسبه ·

وحياة المعرى وبشار موضع لموازنة ممتعة : كلاهما عاش كفيفا ، أى مكفوفا الى مدى بعيد عن كثير من مسرات الحياة ومتعات المبصرين ، فخلقت فيهما تلك الحال وحشة وشذوذا وزراية على الحياة والأحياء ، ولكن المعرى كان دقيق الحس مرهف الأعصاب ضعيف البنية ، فنفض يده من الحياة ونجا بالسلامة والكرامة ، وبشار كان مفرط الجسم متنزى الحيوانية مضطرم الشهوة ، فأكب على اشباع شهواته مستهدفا لزراية الآخرين وتهكمهم ، وشهر عليهم سوط لسانه المقذع ، كما يشرع السبع المنهمك فى تمزيق فريسته مخلبه لذب غيره من السباع عنها ·

تلك مظاهر التشاؤم ، أو فقه الايمان بسمو الحياة والعزاء النفسى عن شوائبها ، فى الأدبين العربى والانجليزى ، وفيما عدا ذلك كان أقطاب الأدبين ــ لما يتدفق فى شرايينهم وشرايين أمتيهم من دفقة الحياة ــ متفائلين متشبثين بأهداب المثل العليا التى ترضاها لهم طبائعهم وبيئاتهم ، يغبر لهم وجه الحياة حينا فيبدو أثر ذلك عابسا فى آثارهم ، ثم يجنحون الى التعزى والايمان : فملتون فى الانجليزية مثلا على فرط ما لاقى من خذلان فى حياتيه الفردية والعامة وما حل به من فقدان البصر ، ظل وطيد الايمان متطلبا للعزاء الى منتهى حياته ، وكتب ملاحمه فى أواخر أيامه طلبا للترفيه

عن نفسه ولكى « يبرر للناس أعمال الله » ، والمتنبى فى العربية رغم ما أصاب من اخفاق متوال فى مطلب حيـاته الأسمى ، الذى « جل أن يسمى » ، ورغم ما كابد من حسد وكيد وعداوة ، وما صب على الناس من قوارص كلمه ، ظل أبدا « من نفسه الكبيرة فى جيش وفى كبرياء ذى سلطان » ، متدرعا متأهبا للجلاد ٠

وان يكن هنـاك مجال للمقابلة ، فالأدب العـربى لا شـك أكثر اصطباغا بالتفـاؤل والايمـان ، على كثرة ما به من الشـكوى ، والأدب الانجليزى أحفل منه بآثار التشاؤم ، ولا سيما فى العصور الحديثة التى زادت الحياة فيها تعقدا ووطأة ، وانما يبث ذلك التفاؤل فى المجتمع والأدب العربيين أمران : صحو الجو الذى يعدل المزاج ويبعث البشر والطلاقة ، والدين الاسلامى الذى يبث الايمان فى النفوس ويحض على اجتلاء متع الحياة التى أحل الله ، والذى هو كما تقدم القول أكثر تغلغلا فى سرائر معتنقيه ، وشمولا لجوانب حياتهم من غيره من الأديان ٠

البطـــولة

فى الأدبين العربى والانجليزى

البطل فرد يمتـاز عن غيره من أفراد مجتمعه بمواهب عقلية أو خلقية أو جسدية ، يظهر بها بينهم وينال من أجلها اجلالهم ويبذلها فى خدمتهم ويتولى قيادتهم فى معترك الحياة ردحا من الزمن ، ويترك فى تاريخهم أثرا يطول فى عهده أو يقصر ، فالبطل لا يكون الا فى مجتمع ، وهو عادة نموذج لصفات أبنـاء ذلك المجتمع ومثل أعلى لنوع حياتهم ، ومواهبه اجابة لمطالب ذلك المجتمع وحاجاته فى فترة من الزمن ، فالأمة المحاربة اذا كانت الحياة تجرى فى عروقها قوية وتتمتع بالصفات اللازمة للبقاء ينبغ فيها القائد ، والأمة الشاكة الحيرى يظهر فيها النبى ، والشعب الذى يشكو فساد أنظمته الاجتماعية يقوم فيه المصلح ٠

والأمة المتبدية السـاذجة التى لم تستقر بعـد ولم تبرح حياتها سلسلة متواصلة من الحروب ، لا يكاد يظهـر فيها من أنـواع البطولة الا القواد البسلاء ، الذين يقودونها فى مهاجراتها ومحارباتها لجيرانها ، ويبدون من ضروب الشجاعة ويفتقون من أفانين الحيلة والرأى والمكيدة ما يبلغون به الفرصة فى أعدائها ، ولأولئك الأبطال فى تلك الجماعات مكانة لا تطاول وأثر لا يبارى وكلمـة لا ترد ، وان أحدهم ليغنى غنـاء الجحافل ، ويعدل بين قوله ما لا تعدل الآلاف ، ولا غرو : فالحروب فى أمثال تلك العهود أكثرها مصاولات فردية ، وتسمى تلك العهود لذلك عصور الأبطال ٠

وفضلا عما يناله البطل فى عصره من تبجيل وتقديم ، فانه اذا ما مات وخلا مكانه وافتقد مثاله ، زاد ذكره ارتفاعا وزاد ذاكروه مبالغة فى تعظيم آثاره وتصوير وقائعه وتخيل صفاته ومواهبه ، وما يزال جيل يزيد على جيل حتى تقوم حول بعض الأبطال اقاصيص طويلة السرد ، تنطوى على شىء من الحقيقة الأولى ويتكون أغلبها من صنعة الخيال ومما تصبو اليه النفس الانسانية دائما ، من أمثلة القوة والشهامة والنجدة والغلب وحماية الذمار ، وما تتوق دائما الى تصـوره من روائع المشـاهدات ، وجسام الوقائع ، بل كانت بعض المجتمعات البدائية تغالى فترتفع بأبطالها الى

مصاف الآلهة . كما فعل أوائل قدماء المصريين بأوزيريس وأخته وابنه ، وكما فعل أوائل الاسكندناويين ببطلهم أودين ، أو الى مراتب أنصاف الآلهة كما فعل الاغريق القدماء بأبطالهم .

واذا ما استقرت الأمة وتحضرت ، وجنحت الى السلم ولم تعد الحرب هي الحالة الطبيعية العادية التي تعيش في ظلها ، تغيرت حالها الاجتماعية وضؤلت مكانة أبطال الحرب وحكام وأرباب علم وفن ، وهبطت قيمة القائد في الجيش قليلا فلم يعد هو وحده المهيمن على مصائر الحرب ، بل صار للعدد والنظام والسلاح وغير ذلك حساب كبير ، وبطل تصديق المتعلمين بوقائع الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال ، ولكن البطولة على صورة من الصور خالدة ، وعبادة الناس في كل العصور لها قائمة ، بل ان احتفاء الأمة بأبطالها من أبرز دلائل حيويتها ، كما أن من دلائل حيويتها حفول تاريخها بأسمائهم ، بل يغالي كارليل ويزعم أن تاريخ الأمة هو تاريخ أبطالها ، وتاريخ العالم ان هو الا سير الأبطال .

وتلك الأقاصيص المتخلفة عن عصور الأبطال اذا فقدت اعتقاد الناس بصدق كثير مما فيها فما فقدت الا هينا يسيرا ، ولن تفقد ما يعج به من روائع الأوصاف وبدائع الصور وممتع الأخيلة وشائق المواقف والوقائع ، والعرض الصادق لأحوال المجتمعات المتخلفة عنها تلك الآثار ، والتأمل في طبائع الانسان ومذاهبه في الحياة ، فتظل تلك الأقاصيص تحفظ لنفاستها ، وتظل كنزا ثمينا لقرائح الأدباء وأخيلتهم ، يطيب لهم الهيام في عالمها البعيد ، واجراء أفكارهم على ألسنة أشخاصها العظماء ، واستعارة وقائعها وتشاهدها في التمثيل لوقائع عصورهم وأحداثها ، وابراز معانيهم وأغراضهم بالاشارة الى حوادثها وملابساتها ، وخير مثال لكل ذلك عصر الأبطال في بلاد الاغريق :

فعصر الأبطال في بلاد الاغريق ، الذي امتد زمن استقرارهم في شرق البحر الأبيض وتشربهم حضارته ، هو أشهر عصور الأبطال وأسيرها ذكرا ، لأن أشعار هوميروس قد خلدت روائع الصور لأحواله وعظائم أبطاله ، وبدائع الأوصاف الشاملة لمعتقدات القوم وتصورهم لآلهتهم ، حتى اذا ما انقضى ذلك العصر وبرزت اليونان في عالم التاريخ الواضح وطلعت في عصرها الذهبي وحلت الفلسفة محل الخرافة ، وبطل الاعتقاد بكثير من أخبار الالياذة والأوديسة ، اتخذت أشعار الملاحم تلك مادة لضرب جديد من الأدب هو الدراما ، التي ظهرت لتسد من حاجة ذلك العصر ما لم

يعد يسده شعر الملاحم الذى يلتفت الى الماضى ويتوفر عليه ، ولا يعير الحاضر التفاتا ٠

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية قد مرت فى استقرارها وتحضرها بعصر أبطال ترك أثره فى أدبها : وعصر الأبطال فى التاريخ العربى هو عهد الجاهلية الذى انتهى بظهور الاسلام وظهور الأمة العربية فى ضوء التاريخ المستيقن ، فالجاهلية العربية شديدة الشبه بالعصر الهوميرى : فيه كانت الأمة منقسمة على نفسها لا تفتر عن القتال ، ولا يزال يظهر فيها من الأبطال أمثال عنترة ومهلهل ودريد بن الصمة ، ولا تزال تتحدث بأيام المواقع وتتفاخر وتتنافر كما تفاخر أبطال الحروب الطروادية ، ولولا أن الاسلام وضع حدا فجائيا لذلك العصر ، لما بعد أن تتجمع أشعاره واقاصيصه فى ملحمة أو ملاحم كبرى ، وكان العرب على تفرقهم يشعرون بوحدتهم فى الجنس واللغة ويجتمعون فى مواسم الحج وأسواق التجارة والأدب ، كما كان اليونان يجتمعون فى دلفى وأوليمبيا ، وكما كان اليونان يزدرون غيرهم ويلقبونهم بالبرابرة كذلك كان العرب يعتدون بعربيتهم ويلقبون غيرهم بالأعاجم ، ولم يفتهم أن يجمعوا شملهم تحت لواء العربية لدفاع الفرس فى موقعة ذى قار ، كما فعل الاغريق من قبل اذ تجمعوا بزعامة أثينا لرد عادية الفرس أيضا ، وفى موقعة ذى قار يقول الأعشى :

لمـــا أمالوا الى النشـــاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم حتى تولوا وكاد اليـــوم ينتصف

ومر الإنجليز بمثل ذلك العصر فى عهد استقرارهم فى الجزيرة ، وأهم الآثار الأدبية المتخلفة عن ذلك العصر ملحمة بيولف ، التى تصف كيف تغلب أمير انجليزى على وحش هائل أقض مضاجع الناس فى ذلك العصر فى التاريخ الانجليزى شديد الغموض ، ولغموضه ذاك ردت اليه خرافات لعلها لم تكن منه فى شىء كقصص الملك آرثر وفرسان مائدته المستديرة ، وهى قصة قد نالت من احتفال أدباء الانجليزية ما لم تنله قصة بيوالف ، لسذاجة هذه وشدة امتاع تلك ، واحتوائها على كثير من تقاليد العصور الوسطى وأنظمة فروسيتها ومغامراتها ٠

ولما ظهر الأدب الانجليزى الحديث ، بعد انتشار الحضارة والعلم ، اتخذ الشعراء والروائيون من تراث العصر السابق مادة لخيالهم ، ولم يكتفوا بذلك بل استعاروا خرافات عصر الأبطال الاغريقى مضافا اليها

تاريخ الاغريق والرومان ، بما انطوى عليه ذلك التاريخ من سير الأبطال ، فحفل الأدب الانجليزى بذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، سيان انجليزيهم وأجنبيهم ، تاريخيهم وخرافيهم ، عجت بذكر هـؤلاء وأولئك روايات شكسبير ، وتفنن سبنسر وتنيسون فى سرد قصص آرثر وفرسانه ، واستعار شلى أبطال اليونان وآلهتهم لبعض مواضيعه ، كما فى قصيدته « بروميثيوس المقيد » ، ولم يأل سكوت جهدا فى تصوير بطولة القرون الوسطى فى قصصه ٠

تناول الأدباء سير اولئك الأبطال بالدراسة الفنية لشتى الأسباب : لما ركب فى الطبع الانسانى من عبادة الأبطال والشغف بحديثهم ، ولما يضفيه مجدهم وبأسهم على الموضوع المتناول من عظمة وجلال ، ولما يبعثه حديثهم فى النفس من تسام وصبو الى المثل الأعلى ، وما يبثه ذكر أبطال الوطن فى نفوس أبنائه من فخر وثقة : فلعبادة البطولة فى اطلاقها وتمجيد العظمة الانسانية فى عمومها تناول شكسبير سير قيصر وبروتس وكريولانس وعطيل بالوصف ، وكتب ماثيو أرنولد قصيدته الطويلة سهراب ورستم ، ولتبجيل البطولة القومية والاعتزاز بأبوة الوطن الذين شادوا مجده تناول شكسبير مواقف هنرى الخامس فى حرب مائة العام ، وألف سكوت قصصه الاسكتلندية مثل خرافة منتروز وكونتين دروارد ٠

ولم يقتصر أدباء الانجليزية فى تمجيدهم للبطولة واحتفائهم بالأبطال على الماضى الخرافى أو التاريخى البعيد ، بل التفتوا الى الحاضر والماضى القريب ، ووفوا أبطال جزيرتهم الذين وطدوا مكانتها وأعلوا كلمتها حقهم من الذكر والتعظيم ، فى جانبى المنثور والمنظوم ، بل كان الأبطال الخرافيون يستعارون أحيانا رموزا للعظماء المعاصرين ، كما فعل ادموند سبنسر فى قصته الشعرية « الملكة الحسناء » ٠ وكما قيل ان شكسبير قد قصد من الرمز لشخصية هاملت الى شخصية ارل اسكس ، وقد احتفل سوذى وكامبيل وتنيسون وماكولى بتمجيد أبطال الانجليز وعظمائهم فى البر والبحر أمثال نلسون وولنجتون وكلايف ٠ وكتب كارليل كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » فأسهب فى الكلام على مظاهر البطولة فى شتى الأزمان والأمم ، وأثر الأبطال فى تقدم العمران البشرى وما هم جديرون به من حفاوة ٠

فالأدب الانجليزى ، بعد انقضاء عصر الأبطال المحاربين ، لم يخل من ذكر البطولة وتمجيد الأبطال ، بل ظل معنيا بأبطال الماضى ولم يجعل الحاضر دبر أذنه : لأبطال الماضى البعيد بوقائعه الخارقة التمجيد والتصوير

الحضور عاب على الطائي تشبيهه ممدوحه « بأجلاف العرب » حين انشد سينيته فى مدح أحمد بن المعتصم فقال منها :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

ومن مثل هذا الحديث تتبين بعض أسباب اعراض الأدب عن حديث البطولة : كالتكسب بتمليق امراء أنانيين يأبون الا أن يكون كل المدح لهم ، بيد أن هناك سببا أهم هو انعدام روح القومية بين العرب : فقد كانت العصبية القبلية فوق القومية العربية فى عصر الجاهلية . فلما وحد الاسلام العرب تحت لوائه وحض على التآخى ونبذ العصبية ، لم يستمر العرب دولة واحـدة مستقلة منعزلة زمنا طويلا كافيـا لتوحد عناصرها توحدا صحيحا ، واعتناقها جميعا للقومية العربية مكان العصبية القبلية ، بل اندفعوا وهذه العصبية ما تزال على أشـدها يفتحون شرقى العالم وغربيه ، فاذا هم فى بضع سنين يموجون فى امبراطورية مترامية ، ضلت قوميتهم العربية فى قومياتها المتعددة ، وظلت عصبيتهم المتأصلة تستأثر بولائهم وتثير الفتن بين قبائلهم . وكان هذا التناحر القبلى من أكبر أسباب انتصار الفرس ، ووثوبهم الى السلطان على أيدى العباسيين .

فالمجتمع العربى عرف العصبية القبلية الضيقة الحدود والامبراطورية العالمية الفضفاضة الجوانب ، ولم يعرف القومية العربية التى تسمو على العصبية وتفخر بأبطال العرب الغابرين من أى الأحياء كانوا ، والتى تضيق دون مدى الامبراطورية الواسـعة ، التى لا يجمعها ماض واحـد ولا تشترك فى تراث عمرانى ثقافى فرد . فلم يكن العربى المسلم يفخر بأبطال العرب المشتركين كابن الوليد وابن الخطاب قدر ما يفخر بآبائه الذين تنتسب اليهم قبيلته . فابن الرومى فى القـرن الثـالث يمدح أبا الصقر فلا يفوته أن يمـدح قبيلته شيبان ، وأبو الصقر يرى أن ابن الرومى لم يوف شيبان حقها فيحرمه العطاء ، وأبو فراس فى القرن الرابع يفخر ببنى حمدان الذين يراهم لم يخلقوا الا « لمجد أو لبأس أو لجود » ، ولا يرد ذكر العرب فى شعره ، وهذه النزعة القبلية الضيقة لا تنتج شعر بطولة فنيا راقيا ، بل تنتجه الروح القومية المتدفقة .

انما كان الدين يحل محل القومية من نفوس العرب ، ومن ثم كان له فى أدبهم أثر بعيد المدى ، ولذلك نرى أن جانبا عظيما مما قد ندعوه شعر بطولة فى العربية يدور حول أعظم الشخصيات الدينية فى الاسلام بعد الرسول الكريم ، شخصية الامام على ، وشخصيات أبنائه : ففى

الغنى المبـالغ المغرق فى الخيال والشاعرية ، ولأبطال الحاضر التكريم والتاريخ الذى هو أدنى الى الحقيقة دنو عصرهم من الأذهان ، وأبعد عن الخرافه والخيال بعـد الانسانية عن عصـور طفولتها ، أما فى الأدب العربى فقد انقطع ذكر الأبطال أو كاد بانتهاء عصر البطولة الجاهلية : اهمل الأبطال الجاهليون أو فازوا بالنظرة العابرة والذكرة العارضة ، ولم يكن أبطال الاسلام أوفر منهم حظا من عناية الأدباء ، مهما كان نصيبهم من اهتمام المؤرخين ومكانهم فى التاريخ ·

ولم يخل تاريخ العرب بعد الاسـلام من أبطال يمجدون وتنسج حولهم القصـائد الطوال ، ولا أقفر تاريخهم من حوادث مملوءة بالوحى الشعرى الصادق ، بل ان تاريخ نهضتهم وبسط سـلطانهم لهو ملحمة التاريخ الكبرى التى تزرى بكل ملحمة ، وتسخر من الوقائع الموضعية الضئيلة التى حاك حولها هوميروس قصيده الفاخر · وقد أنجبت تلك النهضة ــ بعد شخصية الرسول الكريم التى لم يجد بمثلها الزمن ــ نخبة من أبطال السلم والحرب ، خالد وعمر وعلى وابن العاص ومن عاصرهم وتلاهم من فحول الأبطال الذين لم تنجب أمة أعظم منهم ، واحتوى تاريخ العرب على سير أفذاذ يستفزون الوحى الشعرى بخاصة ، لما انطوت عليه سيرهم من طرافة وجاذبية : كالحسين الذى استشهد على أسنة الرماح آبيا أن يستأسر ، وصـلاح الدين الذى رفع لواء الاسلام وقصم ظهـر الصليبيين فى سورية ، وعبد الرحمن الداخل الذى شاد من الفوضى دولة من أزهر دول التاريخ ، ومحمد بن القاسم ، الذى فتح السند وهو يافع والذى قيل فيه :

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة يا قرب ذلك سؤددا من مولد

والكن الأدب العربى قد نبذ ذكر أولئك جميعا ظهريا ، ولم يحتو من ذكر البطولة والحماسة والحروب الا على وقائع ثانوية كفتح عمورية وأعمال أنصاف الأبطال ، كبدر بن عمار ، وغيره من ممدوحى الشعراء الذين كانوا يطمعون فى رضاهم ونوالهم ، فجاء مدحهم لهم شديد التكلف مغرقا فى التهويل ، أما اذا لم يكن نوال ولا سلطان حاضر فلا بطولة تستهز نفس الشاعر ، ولا عظمة تستدعى اعجـابه وتستجيش وحيه ، ولا يرد ذكر عظماء الجاهلية فى القصيد الا مستعارة صفاتهم وفضائلهم للممدوح مهما ظهرت فضفاضة عليه داعية الى السخرية ، بل كان أولئك العظماء يزدرون فى موقف الملق لأرباب السلطان : فقد قيل ان بعض

الأشعار التى تندب مصارعهم ـ رغم اتسامها بالحزن والفجيعة ، وقلما تسجله من عظائم أولئك الأبطال الذين نهضوا فى الحقبة بعد الحقبة ، وساروا الى الموت مملوئين ثقة وبسالة ـ تمجيد صادق الشعور للمثل العليا مشخصة فى أولئك النفر الغر الميامين ، ولدعبل وابن الرومى وغيرهما أشعار حارة فيهم ، ومن ذلك قول الأول :

وليس حى من الأحياء نعلمه | من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهم شركاء فى دمائهم | كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبة | فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

وسبب آخر عظيم الأثر فى خلو الأدب العربى من تمجيد البطولة ، هو أن هذا الضرب من الأدب ضرب فنى يحتاج فى ممارسته الى تفرغ وطول معاناة وكثرة مراجعة ، ومثل هذا الفراغ لم يتهيأ لأدباء العربية ، ومثل هذا العكوف أو الترهب الفنى الذى حظى به ملتون ووردزورث وتنيسون وغيرهم من شعراء الانجليزية لم يفز به شعراء العرب وكتابهم ، أضف الى ذلك أن الأدب العربى كان دائما يؤثر التقليد ويحجم عن اتخاذ مواضيع أو صور جديدة لم يرثها عن العرب الأولين ، ولهذه النزعة المحافظة قد نفى من حظيرته كثيرا من فنون القول ومنادح الفن ، لم يرها من شأنه ولم يحسبها جديرة بالتفاته ، لأنه لم يرثها عن الأقدمين ولم يطلع على أدب الاغريق فيقف على بدائع النظم التى تأتى من ذلك الباب ·

وكان الأدب العربى كلما نفى من حظيرته بابا من أبواب القول يمت الى الطبيعة الانسانية بسبب لا يجد ، ويروى من النفس البشرية غليلا دائم الحاجة الى الرى ، تلقفه عنه الأدب العامى فنهض عنه بالعبء الذى طرح ، وآثر ارضاء النفس الانسانية حين آثر الأدب الفصيح ارضاء التقاليد ، ومن ثم حاك الأدب العامى ، أو الخيال العربى ، حول أبطال الجاهلية كعنترة وكليب ، وعظماء الاسلام كعلى بن أبى طالب وهارون الرشيد ، روائع قصص البطولة ومنازلة الصناديد ومقابلة الانس والجان واجتلاء أسباب المتعة والبهجة والفكاهة ، وما كان بالأدب العربى الفصيح قصور عن ذلك الضرب من القول لو أراده · انظر الى روعة الوصف فى قول المتنبى :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفى أذن الجوزاء منه زمازم

وقول ابن هانيء الأندلسى فى جيش جوهر :

اذا حـل فى أرض بنـاها مدائنا

وان سـار عن أرض ثوت وهى بلقع

فهذا وصف للجيوش لن تحوى أبلغ أشعار الملاحم أروع منه ، ولا غرو : فقد كانت المادة متوفرة لأدباء العربية لينسجوا من أحاديث البطولة وأوصاف المواقع ما شاءوا ، فقد تفنن المسلمون فى وسـائل الحروب البرية والبحرية وحازوا فيها غايات السبق ، والدول والانقلابات كانت تتوالى على أعين الأدباء تبـاعا واللغة العربية الرحبـة المساعدة بالألفاظ ، الغنية بالأوزان الرصينة والقوافى المتعددة ، خير معوان على نظم قصيد الملاحم ووصف عظائم الأبطال ، فلو التفت الشعراء الى هذا المجال من القول لرأوا سعة ولكنهم أغفلوه فيما أغفلوا ، وعدوا البطولة والأبطال شأنا من شئون التاريخ ، لا فنا من فنون الأدب ٠

موضوعات الأدب

في الأدبين العربي والانجليزي

يعبر الأدب عن شتى خوالج النفس وخواطر الذهن . ويصف تأثر النفس بمختلف صور الحياة وظواهر السكون وصروف الدهر ، وكلها أمور لا يحد مداها ولا تحصى مذاهبها . ومن ثم لا تحد ولا تحصى أشتات الموضوعات التي يعالجها أدب أمة من الأمم في مختلف عصوره . فأدب الأمة الحي يشمل أطراف حياتها المترامية ، مما يوحي به التدين والورع الى ما يمليه التبذل والاستهتار ، وما يمليه الحزن والألم الى ما توحي به الغبطة والسرور ، وما يدعو اليه التفكير والتأمل الرزين أو يحمل عليه التفكه والتندر ، ومن كل ما يبعث اعجاب الانسان ورهبته وخشوعه أو يثير احتقاره أو نفوره ، ومن كل ما يوقظ حب الاستطلاع والدرس والمعرفة المركب في طبع الانسان ، ويمتد مجال الأدب حتى يختلط بشتى فروع العلم في بعض أطرافها .

على أن موضوعات الأدب وان تعذر استقصاؤها يتجمع أكبرها وأخطرها شأنا حول مواضيع رئيسية يكثر طرقها ويعزى الى واحد منها كل أثر من آثار رجال الأدب ، كالنسيب والرثاء مثلا ، كما أن أدبا قد يختلف عن أدب في فن يحتفي به ولا يكاد يوجد في غيره ، أو فنون يدمن طرقها دون غيرها ، بل يختلف الأدب الواحد في عصر من عصوره عنه في عصر آخر من حيث فنون القول التي يحتفي بها ويقدمها على غيرها . فالبيئة والعصر يتركان أثرهما في فنون الأدب التي تحظى بالرواج والاقبال : ففي عصور الجهاد والصراع مثلا تسود أشعار الحماسة وتمجيد الحمى والأبطال ، وفي عصور النزاع بين المادية والترف وبين الدين والتقاليد ، تكثر آثار المجون والزيغ من جهة ، وآثار الوعظ والزهد من جهة أخرى ، وعصور البداوة تتسم آثارها بالسذاجة والعاطفة المتدفقة ، وعصور الثقافة تمتلىء آدابها بآثار التأمل والأزمات النفسية ، وكلما ارتقى المجتمع وصدق أدبه في التعبير عن حياته كثرت فنونه التي يطرقها ، وطال طرقه للفنون الرئيسية التي تمت الى النفس الحية والفكر المهذب بأوثق الأسباب . واختلف أدباؤه كل منهم يخص فنا أو فنونا منها باحتفائه . أما في عصور التدهور والركود فتضيق دائرة تلك الفنون ويتعلق كثير

منها بالسطحي والتقليدي من الأقوال ، ويتفق أكثر الأدباء في طريقة تناول تلك الفنون المحصورة ٠

والأدبان العربي والانجليزي قد تناولا أشتاتا من فنون القول ، وعبرا عما لا يحصى من أفكار الانسان ومشاعره ، واتفقا في كثير من ذلك لاتفاق الطبيعة الانسانية في كل مكان ، واختلفا في مدى الاحتفال ببعض الفنون والاعراض عن بعضها لاختلاف بيئات الانسان من اقليم الى آخر ، وظهرت في كل منهما على تعاقب العصور مواضيع لم تكن معروفة من قبل ، وحظيت مواضيع دون أخرى بالحفاوة والصدارة ، فالشعر الحماسي كان في العصر الجاهلي هو الفن الرئيسي ، لما كانت تتطلبه الحياة القبلية من التعبير عن صفات القوة والغلب ، ثم حلت الخطابة السياسية في صدر الاسلام محل الشعر ، ثم احتل الصدارة في العصر الأموي النسيب والمهاجاة ، وهلم جرا ٠ وفي الأدب الانجليزي بلغت الخطابة الدينية الوعظية شأوها في عهد المطهرين ، وملكت الطبيعة جل اهتمام الشعراء في العصر الرومانسي ، وفاز التحليل القصصي النفسي والاجتماعي بالصدارة في العصر الحديث ٠

ولعل النسيب أحظى فنون الأدب باحتفال الأدباء في شتى الأمم ، لما يصدر عنه من عواطف وغرائز متأصلة في النفس الانسانية على اختلاف البيئات ٠ وقد بلغ من احتفاء العرب به أنهم لم يقتصروا على الحديث عنه في مكانه ، بل استهلوا به منذ عهد الجاهلية قصيدهم ٠ ولم تخل من حديث الحب أكثر روايات شكسبير في القديم وقصص هاردي في العصر الحديث ٠ فوسع الأدبان شتى الأوصاف لحالات الحب الراضية وأطواره الغاضبة ٠ والى الحب يرجع الفضل في كثير من الآثار الأدبية وفي تكوين نفوس كثير من الأدباء ، وحول حديثه يدور جانب عظيم من كل أدب ، وقد غلا قوم فعدوه مصدر كل أدب وفن ٠

والرثاء فن معدود من فنون الأدب في العربية والانجليزية ، يمتاز كثير من آثاره بالصدق وحرارة العاطفة وعمق التأمل ٠ وذاك لأن حلول الموت ينقض الشمل وينغص المسرة ويذهب بالألف (بكسر الهمزة وسكون اللام) ، فيبعث في نفس الأديب ثورة ، ويدفعها الى مراجعة التأمل في الحياة ، ويستخرج خير ما في النفس من صفات الوفاء والمودة وعذب الذكريات وخلجات الحنين ٠ ومن غرر المراثي في العربية رثاء مهلهل لأخيه ، ودالية المعري ورثاء البحتري للمتوكل ورثاء ابن الرومي لأوسط صبيته ورثاء التهامي لولده ٠ ومن روائع المراثي في الانجليزية مرثيــة ملتون المسماة ليسيداس ومرثيــة شلي المسماة أدونيس ومرثيــة

تنيسون المسماة الذكرى · وقد نظم كل منهم قصيدته فى رثاء صديق له رفيق لصباه مات معتبطا · ومن بدائع المراثي الانجليزية أيضا خطبة مارك أنطونى على جسد قيصر فى رواية شكسبير الذائعة الصيت ، ومرثية جراى التى نظمها فى مقبرة قرية ·

والتدين والوعظ فن يشترك فيه الأدبان ، يتمثل فى العربية فى خطب الرسول الكريم وكثير من خلفائه ، وكثير من أشعار أبى العتاهية وأبى نواس وابن عبد القدوس وابن الفارض وأصحاب المدائح النبوية ، وفى الانجليزية فى كثير من شعر ملتون ودن ونثر هوكر وبنيان ونيومان ، وأكثر ما كتب من ذلك فى الانجليزية انما كان بأقلام رجال الدين المنتمين الى الكنيسة · أما العربية حيث لم تكن للدين هيئة رسمية ذات نفوذ كالكنيسة فجاء أدب التدين متفرقا يستوى فى معالجته رجال الدين المتفقهون فيه ورجال الدنيا غير المتوفرين عليه · ومن أنبغ رجال الدين فى الأدب العربى الامام الشافعى الذى يمتاز شعره برصانة ونقاء رائعين، ومن آثاره قوله :

ثلاث هن مهلكة الأنام	وداعية الصحيح الى السقام :
دوام مدامة ودوام وطء	وادخال الطعام على الطعام

وقوله :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة	تجرع ذل الجهل طول حياته
حياة الفتى والله بالعلم والتقى	اذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

والميل الى الصداقة طبع فى الانسان لا يكاد يقل عن الحب تمكنا وقوة ، فما يزال الانسان فى حنين الى الأليف الروحى الذى يبادله الفهم والشعور ، ويقاسمه الحزن والسرور ، ومن ثم تشغل الرسائل والقصائد الإخوانية في الأدبين العربى والانجليزى مكانا معدودا ، بين تخاطب في شتى الأمور وبين تعارف وتقاطع ، وبين تعاتب وتقريع · ومن آثار الصداقة في الانجليزية كثير من مقطوعات شكسبير ، وما كان بين بوب وكوبر وليدى منتاجيو وبعض معاصريهم من تراسل ، وما كان بين جونسون وجولد سميث وبوزويل وجماعتهم من أحاديث دونها الأخير فى كتابه عن الأول ، وما كان بين جراى وشلى وبيرون وكثيرين غيرهم وبين أصدقائهم فى الوطن من مراسلات ، حين كان أولئك الشعراء يطوفون فى

ربوع أوربا ، وللجاحظ والبديع والصابى وابن العميد رسائل الى أصدقائهم بارعة تعد فى صميم الأدب العربى • ولم تكن رسالة الغفران الا رسالة بين صديقين • ومن قصائد التعاتب المشهورة لامية معن ابن أوس التى مطلعها :

لعمرك ما أدرى وانى لأوجل على أينا تعدو المنية أول

وهمزية ابن الرومى الطويلة التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك الاخاء ؟ اين ما كان بيننا من صفاء ؟

ونقد الأدب موضوع مهم من مواضيع الأدب ، تلذ قراءته كما تلذ قراءة آثار الأدب الأخرى ، لما يحوى من عام النظرات وخاص فى مخلفات الأدباء وعصور الأدب • ومما يزيد أكثر كتب الأدب فى العربية ككتاب الصناعتين وكتاب الوساطة امتاعا حفولها بالكثير من بدائع المختارات والمقتبسات • وفى الانجليزية يحتفى بعض النقاد أمثال ماكولى وماثيو ارنولد واديسون بأساليبهم الأدبى فى نقدهم لآثار غيرهم ، حتى ترى آثارهم النقدية مضاهية لما ينقدونه لذة وامتاعا • ويمتزج بنقد الأدب فى الانجليزية نقد الفنون الجميلة عامة ، والاشارة الى القواعد التى تشملها هى والأدب ، ففى مقاله عن بيرون مثلا يوضح ماكولى آراءه بأمثلة من الفنون الأخرى من موضع الى آخر •

وأحوال المجتمع وأحداث السياسة ليست مما يمر بالأديب المثقف دون أن يكرثه ، بل لابد أن يترك ذلك أثره الواضح فى أدبه • وقد كان شعر الجاهلية سجلا موجزا لكبريات أحداثهم ، فلما خضع العرب للملكية بعد الاسلام كفكفت تلك النزعة ، وقل نقد الأنظمة الاجتماعية والسياسية فى الأدب والتعليق على الحوادث الى حد كبير ، الا أن يكون فى ذلك مجاراة ومظاهرة لأصحاب السلطان • وقد قتل المنصور ابن المقفع الذى رفع اليه رسالة فى شئون الحكم وان عزى مقتله الى سبب آخر وأحيط بالغموض • انما أثر السياسة والحوادث فى الأدب بعد الاسلام باد فى الرسائل الديوانية التى كان يتألق الوزراء الكاتبون أمثال سهل بن هارون والقاضى الفاضل وابن زيدون فى كتابتها الى عمال الأمير وأنصاره وأعدائه والخارجين عليه ، كما أن فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع تصويرا واضحا لكثير من أحوال مجتمعهم وأنبائه • ومن أشعار الأحداث السياسية

قصيدة يزيد المهلبي في رثاء المتوكل وقصيدة ابن الرومي في ثورة الزنج التي منها يقول :

بينما أهلها بأحسن حال ... اذ رماهم عبيدهم باصطلام

صبحوهم فكابد الناس منهم ... طول يوم كأنه الف عام

وهذا الفن أوسع محيطا وأحفل بالآثار في الانجليزية ، حيث مهدت الحكومة الديمقراطية السبيل للنظرات الحرة والنقدات الصادقة • وكان استقلال الأمة الانجليزية عن غيرها واعتزالها سواها الى حد بعيد داعيا الى اشتداد الشعور القومي والاحساس بوحدة المجتمع والاهتمام لشئونه كأنها شئون كل فرد الخاصة • وقد قال الامام علي : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته • وما أسماه مبدأ انسانيا ومذهبا ديمقراطيا وحكمة عمرانية ، بيد أنه كان شعار المجتمع الانجليزي أكثر منه شعارا للمجتمع العربي ، ومن ثم كانت لأكثر أدباء الانجليزية نظراتهم الاصلاحية الخاصة، التي تتراوح بين الخطرات العارضة وبين الرغبة في الانقلاب الكلي ، وظهرت القصة نتيجة هذا الاندماج الاجتماعي تصور المجتمع تصويرا دقيقا لا يغادر منحى ولا مذهبا •

ولكن الحياة ليست كلها جدا مرا ، ولا النفس الانسانية تحتمل الجد المتواصل ، وانما يميل الانسان بطبعه الى الترفيه عن نفسه بالتفكه والنظر الى الجانب الهزلي من الحياة • والأدباء لدقة احساسهم ونفاذ نظراتهم سريعون الى ملاحظة مواطن التناقض ومواضع الفكاهة في أخلاق الناس وأعمالهم ، ومن ثم يحفل الأدبان العربي والانجليزي بصور عديدة من صور الفكاهة،تتراوح درجاتها بين العبث البريء في أيدي شكسبير وجرلد سميث وأديسون والجاحظ ، وبين السخر المرير في أيدي سويفت وبوب وابن الرومي والمعري ، ويتناول بها الأدباء منافسيهم ومعاصريهم ويفندون حماقات المجتمع •

وهناك مواضيع احتفى بها الأدب العربي حفاوة بالغة تفوق ما نالته في الانجليزية ، وأولها الحكمة : فأدباء العربية كانوا منذ الجاهلية يعشقون الحكمة ويحبون نظمها والاستماع الى أشعارها ، بل كانوا كما قيل لا يعترفون لشاعر بالفحولة حتى يوفق الى شيء منها • وظل الأعشى مزويا عن مصاف الفحول حتى قال في مدحه سلامة ذا فائش : « والشيء حيثما جعلا » ، فجمع صدق النظرة الى ايجاز اللفظ وهما سمتا الحكمة عند العرب • ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم كان أهم ما احتفوا بنقله

من آدابهم الحكمة • ومن كتب الحكمة مؤلفات ابن المقفع ومقصورة ابن دريد والخطب المنسوبة الى قس ابن ساعدة والامام على ، والجم الغفير من أشعار المتنبى التى سارت مسير الشمس ، وليس من محض الصدفة أن كان أكبر شعراء العربية وأسيرهم ذكرا حكيما مكثرا لصوغ الحكم وضرب الأمثال • وبالحكمة الصادقة البليغة الموجزة كان الأديب العربى يستغنى عن فنون وأشكال من الأدب ازدهرت فى الانجليزية ، كالقصة والرواية التمثيلية والملحمة ، فالعبرة التى تنطوى عليها احدى هذه يجمعها الشاعر العربى فى بيت واحد يلقيه اليك وخلاه ذم •

واقتباس الحكمة والمثل والاستشهاد باقوال السلف أقل حدوثا فى الانجليزية منه فى العربية ، لأن الحكم الموجزة التى تغزر فى الأخيرة قليلة فى الأولى • وكثيرا ما يلجأ المقتبس فى الانجليزية الى الأدبين الاغريقى واللاتينى ، وحتى هذا يبطل تدريجا فى العصور الحديثة • وأكثر أدباء الانجليزية حظوة لدى المقتبسين والمستشهدين شكسبير ، وليس ذلك لأنه كان يتعمد صوغ الحكمة أو يحرص على التكثر منها ، بل لأن رواياته من جهة قد أحاطت بشتى أحوال الحياة والنفس الانسانية ، بحيث يجد فيها كل كاتب شيئا مقاربا لما هو بصدده ، ولأن مقدرته اللغوية العظيمة من جهة أخرى كانت تهديه الى صوغ أفكاره صياغة موجزة ممتعة ، ويليه سيرورة أقوال بوب ، زعيم الأسلوب المحكم الرصين الذى كان شعاره فى الأدب التعبير « عما قيل من قبل كثيرا ، ولكن لم يقل أبدا بهذا الاحكام » ، فسار كثير من أبياته المحكمة الموجزة على الأقلام والأفواه •

ومما يتصل بالحكمة فى الأدب العربى ويمتاز هذا الأدب به التمدح بحميد الخصال كالجود والشجاعة وحمى الذمار وحسن الجوار وحفظ السر وكظم الغيظ ومداراة السفيه ، الى غير ذلك من الدساتير الخلقية التى كان كثير من أشراف العرب الأدعياء يسنونها لأنفسهم ، وامتداح تلك الصفات فى الغير والحث عليها ، وهذا من أنبل مواضيع الأدب العربى ، ولحاتم الطائى ومسكين الدارمى والمقنع الكندى والشريف الرضى والامام الشافعى آثار فى ذلك ، تروع برصانة أسلوبها ومتانة أسرها وعظمة خلقها ، فلما غلب التقليد على الأدب ، ودخل الشعر فى طور التقهقر انقلب مثل هذا التمدح المحبوب الصادق المقرون بالفعال فخرا عاجزا أجوف ، بمآثر وهمية وعزائم مزعومة ، وتيها على النجوم ودلا على الزمان ، كقول السرى الرفا :

وانك عبدى يا زمان واننى   على الرغم منى أن أرى لك سيدا

والغريب أن أحد أولئك الشعراء المتشدقين بالفخر ربما قرنه فى القصيدة الواحدة بشكوى سوء الحال وقعود الجدود وخيبة الآمال ٠ والشكوى موضوع من مواضيع الأدب العربى كانت أقرب الى متناول أدبائه منها الى أدباء الانجليزية ، وقد فشت خاصة فى آثار المتأخرين ٠ والأدب العربى من جهة أخرى أحفل بوصف آثار الترف ومظاهره : من القصور والمحافل ومجالس الشراب وآلات الطرب ودواعى المجون ٠ وللخمر خاصة منزلة فى الأدب العربى لا نظير لها فى الانجليزية ، وقد حظيت من جزالة أسلوب الأخطل وأبى نواس وابن الرومى بما خلد أوصافها وأعلى ذكرها ، وقلما يرد ذكر الخمر فى الأدب الانجليزى الا تظرفا وتشبها بالاغريق الأقدمين واشارة الى باخوس اله الخمر عندهم ٠

وراج فى الأدب العربى فنان ليسا من صميم الأدب فى شىء ، وما زالا برقيان حتى احتلا مكان الصدارة من الأدب ، وموضع الحفاوة من الأدباء ، وهما المدح والهجاء اللذان استفحل أمرهما من عهد الأمويين فنازلا ، حتى استبدا بأجزاء كبيرة من دواوين بشار وأبى نواس وأبى تمام والمتنبى ، وكادا يشغلان كل دواوين آخرين غير هؤلاء ٠ وما كان ارتفاع شأنهما هكذا الا نتيجة فساد تقاليد قديمة ، كانت فى الجاهلية تقاليد محمودة لا ضير فيها ، ثم استمرت بعد ذهاب عصرها واندثار بيئتها بظهور الاسلام وقيام الدولة المتحضرة المركزية ففسدت تلك التقاليد وصارت بلاء على الأدب الصحيح ٠

كان العرب الجاهليون يحرصون على حسن الأحدوثة ، ويتمدحون بكريم الصفات ، وينافحون خصومهم بالشعر ، ويجزون من فعل ذلك عنهم ، وكان ذلك كله وليد بيئتهم البدوية ، فلما كان الاسلام والدولة والحضارة لم يعد لمثل ذلك التفاخر والتهاجى موضع ، ولكن الشعراء استبقوا ذلك التقليد طلبا للنوال ، والأمراء قبلوا منهم ذلك الاحياء المفتعل لتقليد غبر عصره طلبا للمجد الزائف ٠ ومن العسير أن تحصى المساوىء التى جرها هذان الفنان من القول على الأدب العربى : مواضيعه ومعانيه وأساليبه ٠

ولم يكن فى الإنجليزية شىء من هذين الفنين يقاس بما كان فى العربية ، وحتى القليل من المدح الذى كان فى بعض الفترات يستفز الأدباء الأباة الى مثل قول بوب : « فلأعبر عن رأيى فى الأمر فى كلمة : إن وصف الرجل بأكثر مما نعلم فيه عمل بعيد عن الأمانة اذا قصد من ورائه الربح، وعمل أخرق اذا لم يقصد ، وكل من نجح فى مثل هذا العمل لابد أن

يعتقد في قرارة نفسه أنه هو نفسه دجال لأنه فعل ذلك ، وأن ممدوحه أحق لأنه صدق ما قيل فيه » .

وعلى حين احتفى شعراء العربية بهذين الفنين الزائفين من فنون القول ، أهملوا الى حد بعيد فنا هو من صميم الأدب والحياة ، وهو الوصف الطبيعي : فديوان المتنبي الذي يعج بمعاني المدح والهجاء المخترعة لا يضم الا أبياتا معدودة منثورة في التغني بمباهج الطبيعة . أما في الانجليزية فالطبيعة وحي ما لا يعد من قصائد بين مقطوعات ومطولات ، ووصفها يتخلل أشتات المنظوم والمنثور في مختلف الأغراض ، وهي المنظر الخلفي لكثير من روايات العصر الاليزابيثي وملاحم ملتون وسبنسر ومطولات تنيسون وقصص هاردي ، بل بلغ من دقة دراسة تنيسون اياها أن أصبح شعره يقتبس في كتاب الجيولوجيا والجغرافيا أحيانا ، وبلغ من معرفة هاردي بطبيعة الاقليم الذي أجرى فيه حوادث قصصه ، أن كان يخصص الصحائف الطوال لوصف المنظر الواحد في قصصه بدقة العالم لا القصصي .

وهناك مواضيع أدمن أدباء الانجليزية ورود مناهلها وغزرت آثارها في أدبهم ، فكانت فيه مادة فن وامتاع وغبطة : كالتحدث عن المغامرات وروائع القصص وعجائب الرحلات ، وجسام حوادث الماضي وعظائم أبطال الأمم ، وممتع خرافات الأحياء وأغنيات طبقات الشعب وأقاصيصهم ، كل هاتيك وجد فيها أدباء الانجليزية منادح للفن والخيال ومعارض لميول النفس الانسانية وطباعها وسجاياها المرسلة ، أما الأدب العربي فيمتاز بكفكفة غلواء الخيال والتجافي عن البعيد من الأمكنة والأزمنة ، والازورار عن الأمم الأخرى والترفع عن العامة وثقافتهم المتواضعة ، واحتقار الخرافة وأساطير الماضي .

واتخذ الأدب الانجليزي التاريخ الواقعي مادة لموضوعاته : منه اتخذ الاليزابيثيون مواضيع بعض رواياتهم ، وفيه جال جيبون وسوذي وماكولي وكارليل ، يدرسون كبريات الوقائع وعظماء الرجال واليه رجع الشعراء والقصصيون ، وقد صور سكوت في قصصه حوادث التاريخ تصويرا يفوق كتب التاريخ أحيانا دقة ووضوحا ، ولم يكد يلتفت الى التاريخ من أدباء العربية ويتناوله في أسلوب أدبي جزل سوى الجاحظ .

فالأدبان العربي والانجليزي قد تناولا مواضيع مشتركة بينهما ، وطرق كل منهما مواضيع لم يحتفِ بها الآخر . على أن الأدب الانجليزي أغزر موضوعات وأكثر شغلا بأسباب الحياة ، والأدب العربي لم يظل

دائما ترجمانا لكل عواطف المجتمع العربى ، وكانت روح المحافظة التى سببت عدم تطور أشكاله سببا فى قلة تطور مواضيعه أيضا ، فأهمل مواضيع شتى تمت الى الطبع الانسانى بأوثق الأسباب وتدخل فى حظيرة الأدب أول داخل ، وتناول غيرها لا تمت الى الفن بسبب ، ومرجع ذلك ما خالطه من نزعة تقليد جامدة ، وما اعتمد عليه من رعاية الأمراء ، على حين كان الأدب الانجليزى دائما حر النزعة حر الحركة والنمو .

الرومانسية الكلاسكية

فى الأدبين العربى والانجليزى

ينشأ أدب الأمة المتبدية ساذجا بسيطا صريح التعبير قريب المتناول، مطلق السجية فى الاعراب عن الشعور الانسانى ، وتظل له هذه السمة حينا ، حتى تتحضر الأمة وينتقل الأدب من جو الطبيعة الطلق الى حياة المدينة ، بما تشمل من وسائل الحضارة المادية وأسباب الثقافة الذهنية ، فيرتقى الأدب لذلك كله وتتسع جوانبه وتبعد أغواره ، بيد أن الحضارة المادية التى توفرها المدينة لساكنيها ولا توفرها الطبيعة للمتبدين ، ربما طغت فأفسدت على القوم حياتهم ، وكذلك الثقافة العقلية فى ظلها يرتقى الأدب رقيا عظيما وربما زيفت على الانسان شعوره ، وتعاونت مع تلك الحضارة المادية على افساد الأدب بتغليب الصنعة والتكلف فيه على الاحساس الصادق ، وتكبيله بالتقاليد والأوضاع ، وتضييق حدوده ومد آفاقه ، وايلاء الألفاظ فيه المكانة الأولى دون المعانى ·

اذا بلغ الأدب هذا الطور الصناعى التقليدى انحط ولم يعد يسير الا من تدهور الى تدهور ، وصار الأدب المتبدى على سذاجته أرقى منه وأصدق ، ولم يعد للأدب الذى غلبت عليه الصناعة من سبيل للنهوض ، الا الرجوع الى الطبيعة والاقتباس من الأدب البدوى المرسل الطبع ، والاطلاع على آداب الأمم الأخرى التى لم يرهقها التكلف ولم تفسدها الصنعة ، بهذا وحده يتأتى له معاودة الحياة وأن يعود ترجمانا صادقا مبينا لها ، وبغير تلك العوامل الخارجية هيهات أن ينهض الأدب العاثر من سقطته ، وانما يزداد امعانا فى التكلف السمج جيلا بعد جيل ، واغراقا فى اختراع كاذب الأخيلة والأحاسيس ومزجها بالاعيب الألفاظ ، والخروج بكل ذلك عن كل ما يسيغه ذوق أو يقبله عقل ·

فحياة الطبيعة المطلقة فى أعنتها ، وحياة المدينة ذات الحضـــارة والثقافة ، تتنازعان الأدب وتؤثر كل منهما فيه تأثيرا خاصا ، ولكل منهما مزايا هى قادرة على ايداعها الأدب : تمنحه الطبيعة شتى مناظر جمالها وصدق شعورها وبعيد آفاقها وروائع أسرارها ومخاوفها ، وتمنحه المدينة وسائل التفكير العميق والنظر الثاقب والطموح الى المثل العليا ، وأسباب

الذى أصبح فى حاجة اليه ، حين انتقل الى المدينة وشغل بآثار الحضارة والثقـــافة ·

وقد كانت الرومانسية هى الصفة الغالبة على الأدب الانجليزى فى العصر الاليزابيثى ، ففى ذلك العهد كانت البساطة والخشونة تسودان المجتمع والبلاط ، والحركة والنشاط والتطلع تتجلى فى شتى نواحى الحياة : فى العلم والأدب والكشف والمخاطرة والحرب · كان عهد نهضة تتحفز وتستشرف الى الجديد وترمى الى التوسع ، لا تقنع بالقليل الحاضر ولا تقبل القيود والحدود ، وزمن شباب يولع بالقوة والجلاد ويبرم بالأنيار والأقياد ، فهو لا يرضاها فى الأدب ، ومن ثم جاء أدب ذلك العصر غزير المادة متلاطم العباب مترامى الآفاق ، جياشا بشتى العواطف والمعانى ، حافلا بمختلف الأوضاع الأدبية والمذاهب الفنية ، لم يتقيد رجاله بتقاليد فنية غير معقولة : فعلى حين تقيد أدباء الفرنسية بالوحدات الثلاث التى أثرت عن الدراما الاغريقية ، انتفع الأدب الانجليزى بخير ما فى تلك الدراما وضرب بتلك الوحدات عرض الحائط ، ولم يتقيد بألفاظ خاصة فى الشعر ، مما أصبح فيما بعد يسمى « الألفاظ الشعرية » ، بل زاد على استعمال كل ما فى لغة الكتب أن اقتبس من لغة العامة واصطنع بعض ألفاظ اللغات الأجنبية ، واشتق ما راقه من ألفاظ · وأخرج هذا العصر الحافل كبير شعراء الانجليزية شكسبير ، وأنجب بجانبه أحد كبراء شعرائها سبنسر ، وامتد هذا العصر حتى انتهى بظهور علم ثالث من أعلامها هو ملتون ·

تصرم ذلك العهد المملوء بالحرية والنشاط والجرأة والفتوة ، وتلاه عصر كلاسى طويل ، بين أواخر القرن السابع عشر وأواخر القرن الذى يليه ، خمـــدت فيه روح المغامرة والتطلع التى كانت متنبهة فى عصر اليزابث ، واستراح الناس الى حياة المدينة ومنتدياتها ، وانغمر الأدباء فى المعارك الأدبية فيما بينهم ، فكان نزاع بين كل من دريدن وأديسون وستيل وديفو وسويفت ومعاصريهم ، محتدم حينا ومترفق حينا ، ومعلن تارة ومستتر أخرى ، وانغمروا كذلك فى المشادات السياسية وانضووا تحت ألوية الأحزاب ، وشجعهم رجال تلك الأحزاب على الانخراط فى سلكهم والذود عن مبادئهم بأقلامهم ، فكان سويفت فى صف المحافظين ، وأديسون فى جانب الأحرار ، وكان ستيل يختلف من هؤلاء الى أولئك · وخلا أدب ذلك العصر أو كاد من ذكر الطبيعة ومجاليها ، وحتى أولئك الأدباء الذين كانوا يرحلون الى الأقطار الأجنبية ، لم تكن تحرك نفوسهم مناظرها الجديدة ، فكانوا يتناولون فى رسائلهم الى أصدقائهم فى الوطن

الانشاء الأدبي الفني والجهد الأدبي المتصل ، والتفنن في ابتكار صور الأدب وأوضاعه ، والخير كل الخير أن يأخذ الأدب من كلتا الناحيتين بنصيب ، والأدب الذى اجتمع له رحب الطبيعة وحرارة شعورها وجمالها ، الى ثقافة المدينة ووسائل التوفر الأدبي فيها ، أدب لا شك بالغ من الرقي غاياته ، أما الأدب المتبدى فيظل على صـــدقه وجماله قاصرا ساذجا ، وأما أدب المدينة الذى بالغ فى الانغمار فى جوها وأهمل جانب الطبيعة ، فسائر الى الفساد والانحلال لا محالة ٠

والرومانسية هى الصفة التى ينعت بها عادة الأدب الذى يؤثر جانب الطبيعة ، ويحفل بمظاهر عبادتها والتأمل فى ظواهرها ووصف مشاهدها والتسبيح فى آفاقها ، يؤثر كل ذلك على اللفظ فلا يهتم بهذا الا بقدر ما يستخرجه فى ايضاح أغراضه ، وعلى حياة المدينة فلا تستغرق شؤون الســـياسة وعلاقة رجاله برجالها وبرجال البلاط والحروب كل جهده والتفاته ، ولا يصرفه الحاضر عن الولوع بالماضى والتـــأمل فيه وفى المستقبل ، ولا ريب فى أن ذلك لا يعنى اهماله لجانب الحضارة والثقافة ، بل هو بهما شديد الولوع وبدرس ماضيهما ومستقبلهما شديد الشغف ، والكلاسية هى النعت الذى يطلق على الأدب الذى استغرقته حياة المدينة وشغل بها عن جانب الطبيعة وانغمر فيها رجاله ، فى مجتمعها ومنتدياتها ومعاركها السياســـية والحزبية والشخصية ، وآثر التأنق فى اللفظ والشكل الأدبى وكفكف العاطفة فحل محلها الذكاء والبراعة واللياقة ، وضيق مجالات القول وحدد أغراضه ، وكل هاتيك صفات ولوازم تعلق بالمجتمع المترف وتنعكس عنه فى الأدب ٠

وقد كانت الصيغة الرومانسية هى الغالبة على الأدب الاغريقى فى عهد عظمته ، لأنه ترعرع فى مجتمع قريب من البداوة ، وفى حياة شديدة النشاط مطردة الحركة ، تجيش بالمغامرة والجلاد ، وفى حرية فى الفكر والسياسة ٠ أما الأدب اللاتينى فكان أكثر اصطباغا بالكلاسية لأنه لم يبلغ ذروته الا فى الملكية المطلقة والامبراطورية الموطدة المستقرة ٠ فكان أدب مدينة وثقافة متأنقة ، واشتهر أعلامه كفرجيل باحكام الأســـلوب والتشبث بمبادىء وتقاليد أدبية خاصة ، ومازالت الياذة هومير وانياد فرجيل موضوع مقابلة من هذه الناحية ٠ وكان أدباء الانجليزية أكثر احتفالا باللاتينيين واقتداء بهم فى العصر الكلاسى فى الأدب الانجليزى ، كما كانوا فى عهده الرومانسى أميل الى اليونان وأكثر تغنيا بآثارهم ، وبعدم اطلاع الأدب العربى على الأدب اليونانى فقد هذا العنصر الرومانسى

شتى المواضيع ماعداها • واهتم أدباء ذلك العهد باللفظ كل اهتمــــام وقدموه صراحة على المعنى ، وجعلوا للشعر ألفاظا لا يتعداها ومواضيع لا يتخطاها ، واتخذوا للشعر وزنا واحدا مزدوج القافية لم يكد أحد ينظم في سواه ، وقلدوا الأقدمين من أدباء الاغريقية واللاتينية ونقادهما ، وانصاعوا لمبادئهم انصياعا أعمى ، وبهذا كله ضاقت حدود الأدب ضيقا شديدا ، وأرهقه التكلف وفدحته القيود ، فسار الى الانحلال •

وزعيم هذا المذهب الكلاسى الذى بلغ أوجه على يديه هو بوب الذى نال الغاية من احكام اللفظ ، وقد قال عنه بعض مترجميه ان شعره ليس الا نثرا جيد النظم ؛ وذلك حق : فهو يتناول في شعره مواضيع هى أقرب الى النثر وأبعد عن الخيال والشاعرية ، وكان يســـمى بعض قصائده « مقالات » ومنها مقالته في النقد التى نظم فيها مبادىء المذهب الكلاسى في الأدب ونقده ، فظلت مرجعا لمن تلاه من شعراء المذهب ، ومنها يقول : « تعلم اذن التقدير الحق لمبادىء الأقدمين ، فمحاكاتها هى محاكاة للطبيعة ، فتلك المبادىء القديمة — التى انما اكتشـــفت ولم تخترع — ان هى الا الطبيعـــة ، غير أنها الطبيعـــة منظمة مهذبة » ، وقد ترجم بوب الياذة هوميروس ترجمة قدسها معاصروه ، ولكنها قلما تذكر الآن أو يعتمد عليها أو تعد صورة صحيحة لشعر هوميروس ، اذ كان من المستحيل على أديب مشبع بالروح الكلاسى أن يخلص الى روح الشاعر الاغريقى الرومانسى . ثم دبت في المجتمع الانجليزى روح جديدة ، وانتعش الأدب الانجليزى من خموله باطلاعه على آداب الأمم الأخرى الناهضة كالأدب الالمانى ، والعودة الى صدر الطبيعة الرحب الحافل بالأسرار والحياة والوحى • تمخض كل ذلك في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل الذى يليه عن نهضة رومانسية جديدة فكت الأدب من عقاله ونبهت الشعر من غفوته ، ورحبت آفاقه وبسطت جوانبه ، وسبحت به في آماد الكون والطبيعة والانسانية ، وأنجبت هذه النهضة جمهرة أخرى من أفذاذ الأدب الانجليزى : أنجبت وردزورث وبليك وكولردج ، ثم بيرون وشلى وكيتس ، ثم تنيســـون وبراوننج ، عدا من أخرجت من أفذاذ النثر الذين جاء نثرهم حافلا بمظاهر النهضة الجديدة ، ولا غرو : ففى العهود الرومانســـية يتجلى الروح الشعرى حتى في النثر ، وفى العصور الكلاسية يفيض الروح الشعرى حتى في النظم ، وماتزال تلك النزعة الرومانسية ملحوظة في الأدب الانجليزى ، على ما داخله من نزعة واقعية ، واقبال على درس مسائل المجتمع كافة •

والعصر الرومانسى في الأدب العربى هو ولا شك عصر الجاهلية والعهد الراشدى وصدر العصر الأموى : في تلك العهود وكان المجتمع

العربى أدنى الى البساطة والتبدى ، وكان الأدب مرسل السجية صادق التعبير عن خلجات النفوس : من حزن وطرب ولذة وألم ، وحب وبغض وحماسة ووصف ، خاليا فى أكثر نواحيه من مظاهر التكلف اللفظى أو التعمل فى المعنى أو التصنع فى الموضوع • وماتزال لحكم بعض الأعراب والأعرابيات ومراثيهم ، وحماسيات قطرى بن الفجاءة وغزليات جميل وقيس ، روعة فى النفوس وغبطة شاملة ، لصدورها عن طبع سليم وشعور صميم ، هذا على رغم بساطة ذلك الادب وخلوه من مظاهر التثقف والتعمق فى التفكير •

تجرم ذلك العصر بطول عهد العرب بالحضارة والثقافة ، ومهدت حضارة المدينة وثقافتها من أسباب القول ودواعى النظم ووسائل التفنن الأدبى ما لم يتوفر فى البادية فنشأ من ذلك أدب جديد يفوق أدب العصر السالف تعدد مواضيع وعمق نظرة ووفرة محصول ، وتجلى ذلك فى خير آثار ابن الرومى والطائى والمتنبى والمعرى والجاحظ والبديع والجرجانى وأضرابهم • على أن الأدب فى طوره هذا انغمر فى جو المدينة انغمارا تاما ، فكان هذا عهدا كلاسيا صميما : فيه تزايد ولوع الأدباء تدريجا باللفظ • واحتفاؤهم به ، ثم استعبادهم أنفسهم له وللأوضاع والمبادىء الموروثة عن المتقدمين • وضاقت مواضـــيع القول رويدا رويدا وكبلها التكلف والاغراب ، وتجمع الأدباء حول موائد الأمراء ورجال السياسة والحكم والحرب ، وخاضوا غمار مشاحناتهم ، وتشاحنوا هم أنفسهم فيما بينهم ، وهى مشاحنات تذكرنا بحملات سويفت ودريدن من الأدباء ، فمن هجاء الوزراء قول دعبل فى وزير المأمون :

أولى الأمور بضيعة وفســـاد   أمر يـــدبره أبـــو عبـــاد
يسـطو على جلاســه بدواته   فمضـــمخ بدم ونضـــح مداد

ومن تهاجى الشعراء قول ابن الرومى فى البحترى :

أف لأشــــياء يأتى البحترى بهـــا   من شعره الغث بعد الكد والتعب
البحترى ذنوب الوجـــه نعرفه   وما عهدنا ذنوب الوجـــه ذا أدب

وقول المتنبى فى معاصريه :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر   ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول ؟
وكم جاهل بى وهو يجهل جهـله   ويجهل علمى أنه بى جـــاهل

في ذلك العصر الكلاسى الطويل أعرض الشعراء اعراضا يكاد يكون تاما عن الطبيعة وحديثها ومجاليها ، واقبلوا على حياة المدينة أى اقبال ٠ وما منهم من له أمل أبعد من أن ينال النجاح فيما تهيئه لأبنائها من أسباب اللذة والمتعة والشهرة ، فكان منهم طامح الى الملك كالمتنبى والشريف الرضى ، وحريص على الوزارة كالصاحب وابن العميد ، وراغب فى الولاية حظى بها كالطائى وقصر عنها كابن الرومى ، ومغتبط بالحظوة والمنادمة كأبى العتاهية والبحترى ، وغير هؤلاء واولئك ممن سعوا سعيهم ولم ينالوا مثل شهرتهم ، وممن طمحوا فيما هو دون ذلك من متعات الحياة ، ونظير ذلك كله تراه فى العصر الكلاسى الانجليزى سالف الذكر : فقد تقلب دريدن بين الأحزاب وحرص على الحظوة فى البلاط ، وتدرج أديسون فى المناصب حتى صار وزيرا للخارجية ، ولم يقنع سويفت بما تولى من مناصب فى الكنيسة ، وكان اخفاقه فى مطامعه البعيدة أحد أسباب نقمته وتشــاؤمه ٠

وتجلت هذه الصفة الكلاسية فى الأدب ذاته : حددت مواضيعه وتصرت على ما اتصل بالحاضر القريب من شؤون الحياة فى المدينة ، وأهملت المواضيع الرومانسية الصبغة ، كالالتفات الى الماضى واستعراض حوادثه الطريفة واتخاذها مادة للنظم والنثر ، ومعالجة خرافاته واستلهامها ما بها من معانى الجمال والعظمة والبطولة ، وأهملت أحاديث الرحلات وأوصاف البلاد البعيدة والأصقاع المجهولة ، ما وجد منها فى الحقيقة وما يتخيله الشاعر ، وكفكف الخيال ونبذت آثاره من عالم الأدب ٠

خلا الأدب العربى فى ذلك العهد من كل هذه المواضيع ، وهى من صميم الشعر ولباب الفن وجوهر الادب اذا ما تحضر أهلوه وانتفعوا بالثقافة ، وانما تركت هذه المواضيع الجليلة للأدب العامى ، فظل الأدب الفصيح أدبا كلاسيا وصار الأدب العامى هو الممثل للرومانسية ٠

دام ذلك العصر الكلاسى الطويل فى الأدب العربى طوال عهد ارتقاء الأدب ، أى زهاء ثلاثة قرون ، ثم طـــوال عهد انحطاطه أى الى العصر الحديث ، لم تعقبه خلال تلك الأجيال المتوالية نهضة رومانسية تخفف من غلوائه وتصلح من فساده ، وتقيم ما اعوج من مبادئه الأدبية ، وتعود به الى الطبيعة التى هجرها واستغرق فى النوم فى أحضان المدينة : لم تنبعث فيه تلك النهضة التى انبعثت فى الأدب الانجليزى فى أعقاب القرن الثامن عشر ، حين بلغ العهد الكلاسى مداه من التحكم فى أساليب الأدب ٠

وبلغ الأدب الدرك من الاسفاف والامحال ، ذلك لأن الأدب العربى كانت تعوزه تلك العوامل التى تساعد على النهضة وتعاون على الرجوع الى الطبيعة وتنبت الميل الرومانسى ، فكان استمرار النزعة الكلاسية المحتدمة فى الأدب أكبر أسباب تدهوره الطويل ·

فالأدب العربى لم يكن على اتصال بآداب أجنبية فيأخذ عنها حب الطبيعة وايثار البساطة ، ويلتفت باطلاعه عليها الى حقائق الحياة الكثيرة التى أهملها ، أو هو لم يكن يتنازل فيتصل بآداب العامة وأقاصيص الزراع والرعاة ، التى تنسم فيها نسائم الطبيعة والبساطة والشعور الصميم ، وهو لم يكن يرجع الى ماضيه الرومانسى الذى سبقت الاشارة اليه ، فينظر فيه نظرة حرة مميزة ، تستخلص اللباب وتنظر من خلاله الى حقائق الحياة ، انما يرجع اليه طلبا للأسلوب واللفظ ، دون المعنى والموضوع ، كان يعده كنز لغة فصيحة الأساليب والألفاظ لا كنز حقائق منتزعة من الحياة الصميمة · فاذا نظر الى المعانى حاول حكايتها وتقليدها تقليدا كاملا على ما هى عليه ، أى حاول الأديب أن يحيا فى أدبه حياة البدو ويشعرهم بشعورهم كله ، وكان الأجدر أن ينبذ ذلك جميعا ، ولا يهتم الا بصدق تعبير أولئك المتقدمين عن شعورهم ، ووجوب صدقه فى تعبيره عن شعوره الصحيح ، فى عصره وحياته المخالفين لما كان قبله ·

ظل هذا المذهب الكلاسى التقليدى ســائدا الأدب العربى ، يقلد المتأخر المتقدم ، يزيد عليه تقييدا وتضييقا فى مجالات القول وأوضاعه ، مادام الأدب محجوبا عن غيره من الآداب بعيدا عما جهله أو تجاهله من حقائق الحياة والأدب ، حتى أتيح له الاتصال بالآداب الغربية فى العصر الحديث ، فصحا من غفوته ونفض عنه تدريجا غبار التقليد والتقييد اللفظى والمعنوى ، وفتن بحقائق الكون ومحاسن الطبيعة التى كان عنها فى شغل . وتناول شتى المواضيع التى كان حرمها على نفسه ، وبالجملة تقشع عنه عصره الكلاسى الطويل ، وأشرق عليه فجر نهضة رومانسية جـديدة ·

الحـــــرب

فى الادبين العربى والانجليزى

حب الحياة والاقبال على متعانها والرغبة فى التكثر من خيراتها مركب فى طبائع الأحياء · وليس لحاجات الحى ورغباته ومطامحه نهاية ، بل تبقى له حاجة ما بقى كما قال الشاعر ، والنزاع بين الأحياء على خيرات الحياة من اجل ذلك متصل لا يفتر ، وهيهات يفتر وحب الخلاف والنزاع والجلاد ذاته بعض طبائع الأحياء · والشغف بالقلب والتخايل بالقوة والزهو بالسيادة من أكبر مطامع الأحياء والانسان خاصة ، ومن ثم عرف الانسان الحرب من أول عصوره واشتغل منذ همجيته بمكافحة الأحياء من الوحش ومن أبناء جنســه ، وتم له النصر من قديم على أمة الوحش ، وما تزال معارك الانسان مع أخيه ــ أو عدوه ــ الانسان متصلة تنشب بين حين وحين ·

وقد كابد الانسان فى شتى العصور أهوال الحروب وعلم علم اليقين عواقبها الوخيمة ، بيد أنه لم يستطع بعد أن ينبذها ، لقيامها على غرائز فى طبعه راسخة متاصلة ، ولما تليح به أمام عينيه من مزايا النصر ومغانمه ومجده ولألائه ، ومن ثم كانت مهمة دعاة السلم من أشق المهام ومطلبهم من أبعد المطالب ، وقد هبوا فى الفترة بعد الفترة ينددون بالحرب وبلاياها ومغباتها ، فكانت صيحاتهم تترك صداها فى نفوس الكثيرين ، لا سيما فى أعقاب الحروب الطاحنة التى أهلكت الحرث والنسل ، ثم لا تلبث غرائز الانسان الفطرية أن تعاوده على أشدها ، وتبدأ الأمم سيرتها الأولى من الطمع والتفانى وتحكم القوة التى لا يفصـــل ســـواها بين المطامع المتضـــاربة ·

وللحرب آثارها المشهودة فى أدب كل أمة بلا استثناء · ولتلك الآثار ثلاث نواح : فالحرب أولا من أهم وسائل اتصال الأمم واختلاط الأفكار وتلاقح الثقافات ، وهى ثانيا وحى الجم الغفير من نظم الشعراء ونثر الكتاب الواصـــفين لوقائعها وســـلاحها ورجالها ، الممجدين لأبطالها

وانتصاراتهم ، المفاخرين بما كان دحر (١) الأعداء وحماية الذمار وسلامة الشرف الرفيع من الأذى ، والحرب من جهة ثالثة أوحت بآثار أدبية شتى في تبغيض القتال ، وتسفيه اعتداء الانسان على الانسان ، والحض على السلم والدعوة الى الاخاء والصفاء وان كان أثر هذه الدعوة في الأدب أقل كثيرا مما فيه من الترنم بمجد الانتصار والتغنى بالعز والغلب ، ولم تكثر آثار تلك الدعوة فى الأدب الا فى العصر الحديث ·

وكل هاتيك الآثار بينة فى الأدبين العربى والانجليزى ، فقد خبت الأمتان وأوضعتا فى مجال الحروب · وكان بين كل منهما وبين جيرانها واعدائها ملاحم ومواقع جسام ، وشهد أدبها قيام نهضة حربية عظيمة وتشييد امبراطورية واسعة ، وأنجبت كل منهما عظماء القادة وحازت مشهود الانتصارات ، وذاقت أحيانا مرارة الهزيمة ، ووقفت مرارا حيال الأخطار الجائحة التى تهدد كيانها وحريتها وتقاليدها ، وشهدت الكثير من أمثال هذا كله يجرى بين الدول المجاورة والأمم المعاصرة لها ، وعلى كثرة ما يحتويه الأدب الانجليزى من آثار كل ذلك ، فان ما فى الأدب العربى منه أكثر ، وذلك لأسباب عديدة ·

فأولا ارتقى الأدب العربى وتوطد والأمة العربية ما تزال منشقة متناضلة ، تتفاخر قبائلها بأيامها وانتصاراتها ، أما الأدب الانجليزى فلم يبلغ عظمتـــه الا فى ظل القومية الموحدة ، ولم تنشق الأمة على نفسها ويمتشق بعضها الحسام لقتال بعض الا مرة واحدة فى عهد الصراع بين الملكية المطلقة والنظام الدستورى ، وهى الفترة التى أنجبت القائد العظيم كرومويل ، وفيما عدا ذلك يمتاز التاريخ الانجليزى بخلوه من الحروب الأهليـــة ·

وثانيا كانت الحروب أكثر طروءا (٢) فى تاريخ العرب منها فى تاريخ الانجليز ، حتى بعد توطيد الامبراطورية : فان تلك الامبراطورية ظلت ـ مادامت لها قوتها ـ تجالد أعداءها فى الدين من روم ووثنيين ، حتى اذا ما وهنت قوتها انقسمت على نفسها ، وكثرت فى داخلها الدويلات والحـــروب ·

وثالثا لأن كثيرا من أعلام الأدب العربى كعنترة وقطرى بن الفجاءة والمتنبى وأبى فراس ، كانوا جنودا يشهدون الوغى ويتمدحون بمآثرهم

---

(١) دحر : دفع وطرد الأعداء ·
(٢) طروءا : حدث لمجاءة

فيها ، وقل من أدباء الانجليزية من كان كذلك ، بل لقد ذكر أن المقاتلة في عهد التلاحم بين علي ومعاوية والخوارج كانوا اذا تهادنوا ليلا تقابلوا تقابل الأصفياء يتناشدون الأشعار ·

رابعا كان جل شعراء العربية المتأخرين متصلين بالأمراء والقواد ، فلم يكن لهم ندحة عن وصف أعمال ممدوحيهم الحربية ·

كان العرب فى الجاهلية فى قتال لا يكاد يهدأ ، وكانت بين قبائلهم وأشرافهم ثارات وعداوات لا تكاد تنتهى حتى اضطروا الى أن يتخذوا الهم موضعا حراما ووقتا حراما ما تهدأ فيه الخصومات وتغمد الصوارم وتتصل أسباب الحياة والتعاون ، وبالتمدح بالنصر فى تلك الحروب والتفاخر بأيامها والتوعد والتربص ، كان أكثر ما قيل من شعر فى الجاهلية · وظلت لهذا الباب من الشعر المسمى بالحماسة مكانته بعد انقضاء عهد الجاهلية بطويل ، وبه بدأ أبو تمام مختاراته الشعرية وبه سماها ، وكثر فى الشعر الجاهلى ذكر السيوف والرماح والخيول وغيرها من وسائل الحرب ، وكثرت فى العربية أسماؤها وأوصافها ، وارتقى بين العرب البصر بالحروب وتأصلت فيهم ملكاتها ، حتى أخرجت الجزيرة صناديد الاسلام الذين اصطلموا كتائب قيصر وآل ساسان ، ومن الشعر الذى يعرض صور حروب ذلك العهد معلقة عمرو بن كلثوم التى يقول منها :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسم أو تهونا

وكنا الأيمنين اذا التقينا ... وكان الأيسرين بنو أبينا

وكانت الرسالة النبوية ، وكان صاحبها يجمع الى عبقرياته العظيمة المتعددة التى لم تجتمع لانسان ، البصر بالحرب والبلاء فيها فتخلف فى أشعار ذلك العهد ولا سيما شعر حسان أثر ما كان بين المسلمين والكفار من كفاح ، حتى اذا ما وحد الاسلام قلوب العرب انصرفوا الى جهاد أعداء الدين ، ومن عجب أن عصر الفتوح الباهر الذى تلا ذلك لم يترك فى الأدب العربى الا أثرا ضئيلا · وليس امتلاء النفوس برهبة الدين هو كل السبب فى ذلك ، بل يرجع ذلك أيضا الى جدة الحالة التى وجد العرب بها أنفسهم : من قتال أمم مخالفة لهم فى الجنس واللسان والمسكن ووسائل القتال ، ولعلهم لم يجدوا من اللذة والغبطة ودواعى الفخار فى اجتياح تلك الجيوش المرتبة ، ما كانوا يجدونه فى مصاولاتهم البدوية المملوءة بالكر والفر والمساجلات الفردية ·

وأهم من هذا وذاك أنهم لم يتعودوا الفخر بالأعمال القومية ، التى يشترك فى فخارها المضرى والبكرى والتغلبى ، ولم يتعودوا أن ينظموا القصيد فى الفخر على أعجمى ، وانما هم كانوا يترفعون على الأعجمى ترفعا بدهيا بسيطا لا يكلفون له عناء النظم ، ولا يحتفون بالقول ، وآية ذلك حكاية الأعرابى الذى سئل : أتحب أن تكون ابن أعجمية ولك قصر فى الجنة ؟ فقال : لا أحب اللؤم بشىء • قيل : فان أمير المؤمنين ابن أمة ، قال : أخزى الله من أطاعه !

انما كان الفخر كل الفخر عند العرب فى الظفر بعربى مثله ، من قبيلة معادية لقبيلته ، قد توارثت قبيلتاهما العداوة والتراث جيلا بعد جيل • وما هى الا أن دبت الفتنة من جديد بين العرب حتى ظهر أثرها فى الشعر : فمهدد لمعاوية وحزبه ، ومناصر لبنى هاشم أو مناصب لهم • ومفاخر بكلب أو بتغلب أو معير لهذه أو لتلك ، الى عهد بشار الذى يتمدح — على كونه من الموالى — بالغضبة المضرية التى تهتك حجاب الشمس ، وظل الشعراء الذين يمدحون الخلفاء والأمراء والقواد ويمدحون بلاءهم فى الحروب ، لا ينسون أن يذكروا مفاخر قبائلهم من قبل وبلاءهم فى الوغى، فاذا مدح الشاعر الحجاج ذكر ثقيفا ، أو عبد الملك ذكر أمية ، وظل الشعر العربى دائما يردد ذكر بنى مطر وبنى شيبان وبنى تنوخ وبلاء كل أولئك فى الحروب ، وكان التساجل بين الشعوبيين وأنصار العربية فلم يكد يترك أثرا فى الشعر العربى ، وحتى المتنبى يحفل شعره بذكر قبائل من مدحهم على التوالى ، رغم تعصبه للعربية ، وطول تألمه من أن يرى عربا ملوكها عجم •

بجانب تلك العاطفة القبلية نمت تدريجا عاطفة أخرى هى الرابطة الاسلامية ، اذ تمكن الاسلام من نفوس معتنقيه ومجتمعهم تمكنا أحله محل القومية ، وترددت تلك العاطفة فى أشعار الشعراء الممجدين لبلاء الخلائف والأمراء فى دفاع أعداء الملة ، وكان للاسلام فى أول ظهوره عدوان كبيران : الوثنية وزعيمتها فارس ، وقد فرغ من شأنها عاجلا ، والنصرانية وممثلتها الدولة الرومانية ، وقد ظل جهادها دائما من أول مهمات الخلفاء وولاة الثغور ، وظلت حربها من أهم ما يشغل بال المسلمين ويغذى عاطفتهم المشتركة وشعورهم القومى ، ويتجلى أثر تلك الحروب بين الدولتين ، أو بين الديانتين ، فى أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى ، ولما أعيت الدولة الرومانية الحيل استنجدت بغيرها من أمم النصرانية ، فكانت الحروب الصليبية ، التى ظهر أثرها فى شعر شعراء مصر والشام ، ومن ذلك قول البهاء زهير فى السلطان الأيوبى :

فابلغ رســـول الله أن سميه حمى بيضة الاسلام من نوب الكفر
وأقسم ان ذاقت بنو الأصفر الكرى فلا حلمت الا باعـــلامه الصـــفر

وبلغ المسلمون المبالغ فى فنون الحرب البرية والبحرية ، وعنهم أخذ الصليبيون ، ومن لغتهم نقل الغربيون كلمة الأميرال أو أمير البحر وغيرها من مصطلحات القتال ، وحفل شعرهم بوصف المعارك والجيوش ، وما توقعه بأرض العدو من دمار ، كوصف أبى تمام لتخريب عمورية ، ووصف الأساطيل ، والمتنبى هو أصدق وصافى الحرب فى المتأخرين وأروعهم ، لأنه كان يصف ما يميل اليه بطبعه وما يمارسه ويشاهده بنفسه ، ولا تكاد ترتوى منه لهفته ، ومن ثم لا تقل أشعاره الحربية عن أشعار الجاهليين والاسلاميين صدقا وفطانة وتفوق بعضها جزالة وتجويدا ، ومن جيدها وصفه لخيل سيف الدولة الذى منه :

رمى الدرب بالجرد الجياد الى العدا وما علموا ان الســهام خيول
شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحته وصهيل
كتائب يمطرن الحديد عليهم فكل مكان بالســيوف يسيل

ومن جيد وصف الأساطيل قول ابن هانىء الأندلسى :

أنافت بهـــا آطامهـــا وسمالهـــا بناء على غير العراء مشــيد
وليس باعلى كوكب وهو شاهق وليس من الصـــفاح وهو صلود
اذا فرت غيظا قد ترامت بماوج كما شب من نار الجحيم وقــود

ولم يقتصر ذكر الحرب على مواضعها الخاصة بها ، ومناسباتها بين الحين والحين ، بل كان أمرها من الشمول والاتصال والحضـــور فى أذهان الناس بحيث تسرب ذكرها فى شتى أبواب الأدب ، واستعيرت صفاتها وأحوالها لمختلف الأغراض : ففى النسيب استعيرت السيوف والسهام للجفون واللواحظ (١) ، والقتل لشدة التتيم ، وبالسيف شبه الممدوح صقلا ومضاء (٢) وبه جرت الأمثال فقيل : سبق السيف العذل (٣) ، وشبه المتنبى المنون (٤) بعــدو لا تجدى المشرفية والعوالى فى قتاله .

---

(١) اللواحظ : جمع لاحظة وهى المقلة .
(٢) مضاء : أى حادا سريع القطع .
(٣) العذل : فى المثل : « سبق السيف العذل » يضرب لما قد فات ولا يستدرك .
(٤) المنون : الكثير المن .

ولا تنجي السوابق المقربات من خببه ، وقرن التمدح بالبلاء فى الحرب بالتشبيب ، كما كان يفعل عنترة ، وكما قال أبو عطاء السندى وهو البيت الذى تمثل به صلاح الأيوبى فى بعض رسائله :

ذكرتك والخطى يخطر بيننـــا   وقد نهلت منـــا المثقفة الســـمر

وفى الأدب الانجليزى أوصاف رائعة للحروب ، وتمجيد شـــائق لأبطالها ، وتفاخر بانتصاراتها وما كسبته الأمة من اعتزاز وهيبة ، وللتون ومارفيل وكامبيل وتنيسون وكبلنج فى ذلك أشعار مأثورة . وقد كان مجال القول أمام أمثال أولئك الشعراء ذا سعة : فتاريخ الامبراطورية حافل بعظائم جنودها . نعم كانت سياسة بناتها دائما سلمية لا تلجأ الى الحرب الا فى الحالة القصوى . ولا تندفع الى ميدان القتال لمجرد الرغبة فى الظفر والافتخار . ولكن الدولة كانت دائما عزيزة فى وطنية أبنائها وقوة أسطولها ، وقد كسب لها جيشها وأسطولها انتصارات باهرة خالدة ، ودوخ أبطالها أمثال كروموبل وملبرا ونلسون وولنجتون الأمم ، وأعلوا كلمتها فوق كل كلمة .

ولا يستأثر الشعر دون النثر بحديث الحرب ووقائعها وأبطالها ، بل هناك كتاب سوذى عن نلسون ومقـــالات ماكولى عن كليف وهستنجز وفردريك الأكبر ، وتاريخه وتاريخ جيبون ، كل هاتيك حافلة بالوصف الدقيـــق البليغ لشـــتى المواقع والحـــروب ، هـــذا الى ما فى مختلف القصص من ذلك ، ولا يكاد يكون فى العربية من مثل ذلك سوى بعض خطب الامام على بن أبى طالب ، ورسائل فى بعض الخلفاء الى ولاتهم ينهونهم أن يؤذوا المسالمين أو يعيثوا فى الحرث والنسل ، وخطبيم بعض القواد كتلك المنسوبة الى طارق بن زياد والتى تفيض بلاغة وشجاعة . ولا غرو فقد كان للشعر دائما التقديم على النثر ، وقد ظل طويلا يستأثر دونه بالحفاوة .

ولم يقتصر شعراء الانجليزية على نظم القصيد فى تمجيد انتصارات وطنهم وعظائم أبنائه ، بل التفتوا ــ كدأبهم فى كل فنون القول ــ الى الماضى والى الخارج ، ونظموا فى المواقع التاريخية والخرافية ، ارضاء للفن وتسريحا للخيال وتنشيطا للفكر ، فوصف تنيسون آخر معارك الملك آرثر وصفا أصبح من ذخائر الأدب المعدودة وآثاره السائرة ، أودعه كل مقدرته على تجسيم الوصف وخلق المنظر الكامل بدقائقه وألوانه وأصواته ، ونظم هاردى قصائد شتى فى حروب نابليون والثورة الفرنسية ، وكان

له بحروب نابليون غرام كبير لقرب عهدها منه واشتراك بعض اقربائه فيها ، وفى تلك الحروب نظم ملحمته الكبيرة التى تعد أكبر آثار الشعر الانجليزى الحديث ، وفيها ينتقل بين شتى المناظر والأوصاف والنظرات والتأمـلات .

ولم يخل الأدب العربى من ذم للحرب ودعوة الى الاخاء ، ومن آثار ذلك أبيات زهير بن أبى سلمى المعروفة ، من معلقته حيث يمدح السيدين اللذين أصلحا بين عبس وذبيان بعـدما تفانوا ، ويسـتطرد الى قوله : « وما الحرب الا ما علمتم وذقتم » ، غير أن ذلك قليل نادر . وقد كان الجهاد دائما شعار الدولة الاسلامية ، وكان النزاع والغلاب دأب أمرائها ، وبذلك تفاخر فرسانها وبه امتدحهم مادحوهم من الشعراء . وظل السيف والرمح والبنود والخيول فى شعر شعراء العربية مرادفات للعز والمجد والسيادة ، ولم يخل الأدب الانجليزى من محبذين للحرب متغاضين عن مغباتها (١) كتنيسون الذى كان يرى الحرب وسيلة لا غنى عنها من وسائل العمران وتطهير النفوس من شوائب المادية والترف والأنانية ، غير أن الأدب الانجليزى أغنى بآثار النظرة الانســانية ، التى تبغض الحرب وتصور بشاعتها وبلاياها .

ففى قصيدته « البطولة » يقول كوبر معرضا بملوك فرنسا : « أيها الملوك الذين يستهويكم المجد وتؤيدون بالدم دعواكم ، وتهوون بالضربة ثم تبررونها بالدفاع عن النفس ، المجد بغيتكم والحق ذريعتكم ، تسكن عبر النهر الذى يحد ملككم الحق ، ويريكم مدى ما يجوز لكم أن تنشروا عليه حكمكم ، أمة لا مطمع لها فى تاجكم ، حريصة على السلام ، سلام جيرانها وسلامها ، ولكن يا لشؤم طالع تلك الأمة ! ويا شد ما تتقاضاها جريرتها الوحيدة ، جريرة مجاورتها اياكم ، أما هى الا أن تنطلق الأبواق حتى تزحف كتائبكم الى الخارج شاقة طريقها وسط المحصول الناضج ، يطأون فى كل خطوة حياة جماهير وخبز أمة ، فالأرض امامهم جنة يانعة ، وهى خلفهم يباب (٢) بلقع » (٣) .

وفى قصيدته عن موقعة بلنهايم التى كسبها القائد النابغة ملبرا ، يصف سوذى شيخا ألمانيا جالسا ذات مساء أمام كوخه فى أرباض البلدة

---

(١) مغباتها : عاقبتها .

(٢) يباب : خراب .

(٣) بلقع : الخالى من كل شىء .

التي دارت حولها رحى المعركة ، بعد جيل من حدوثها ، وحفيداه يلعبان حوله ، فاذا الطفلة ترى أخاها يدحرج شيئا مستديرا قد عثر به بجانب الجدول ، فتناول الشيخ ذلك الشيء والطفلان مشرئبان اليه يريدان أن يعلما ما هو ، حتى هز الجد رأسه قائلا : هذه جمجمة مسكين سقط يوم النصر العظيم ، وكثيرا ما أعثر بهذه الجماجم في الحديقة » وحين أحرث الحقل كثيرا ما يثيرها المحراث من التربة ، ولا غرو فقد سقط آلاف مؤلفة في ذلك النصر العظيم . فيتساءل الطفلان بفارغ الصبر عن تلك الحرب وسبب تناحر الفريقين ، فيقول جدهما : شتت الانجليز صفوف الفرنسيين ، أما سبب ذلك فلا أعلمه ، بيد أن الجميع يقولون انه كان نصرا عظيما . ويمضي واصفا كيف أحرقت مزرعة أبيه والجيء الى الفرار وكيف هلكت الحبالى والرضع ، ثم يردف قائلا : ولكن مثل هذه الأشياء يا ابني تحدث في كل نصر عظيم، فالمجد لدوق ملبرا ولأميرنا الطيب برجين، فتصيح الطفلة : كيف ؟ لقد كان ذلك أمرا ادا (٤) ! فيراجعها الشيخ . كلا يا بنيتي بل كان نصرا عظيما ، وكل انسان أطرى الدوق الذي كسب تلك الموقعة ، فيصيح الطفل . وماذا كانت فائدة كل ذلك ؟ فيسلم الشيخ تسليم العاجز قائلا : أما ذاك فلا علم لي به ، بيد أنه كان نصرا عظيما .

فآثار الحرب وأحاديثها على مختلف ضروبها ظاهرة محسوسة في جوانب الأدبين ، ولا ندحة من أن تكون ظاهرة محسوسة فالحرب ناحية من نواحي حياة المجتمع الانساني جليلة الخطر حاضرة الأهمية دائما ، تتصل برفاهية الأفراد ومستقبل الجماعات ومصائر الدول والمدنيات ، وبالحرب تتعلق كل معاني القوة والحرية والذود عن الحقيقة ، وقد كانت الحرب أحيانا ممهدة لانتشار الحضارة وازدهار الثقافة ، كما كانت اذا استفحلت وبالا على العمران وبلاء على الانسان بيد أنها قد تركت في الآداب تلك الأوصاف الممتعة لملابسات الحروب ومشاهدها وأعقابها ، وقد خلدت هذه الآثار الأدبية الرائقة عبرة ومتاعا للألباب ، بعد أن غبرت تلك الحروب وهدأت تلك المطامع والثارات ، وذهب مسعروها ومن اصطلوا بها واستوى في الترب القاهر منهم والمقهور .

---

(١) ادا : الأمر المنكر .

سباع وهمية ، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحيلان استحالة الخل الوفى ، وظهر من المثقفين ذوى النفوس الرقيقة من انتهوا ونهوا عن قتل الحيوان والتغذى بلحمه والتلهى بصيده وتعذيبه وسجنه كأبى العلاء الحكيم العربى ، وكالمصور الايطالى ليوناردو دافنشى ، الذى كان يبتاع الطيور الحبيسة ليطلقها ويشفى نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنحتها ذاهبة الى الفضاء ، وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الانســان والحيــوان فى الآداب : ففى الأدب الاغريــقى وصـــف لمغامرات حملة الارجونوت التى خرجت لاستخلاص فراء ثمين يحميه غول فظيع ، وفيه وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوى العيون المفردة ، وما كان بين كبيرهم وبين يوليسيز من كفاح ، وفى الأدب الفرنسى قطعتان بديعتان تفيضان رحمة وجمالا ، تصور احداهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب على أيدى الصيادين ٠

والأدب العربى حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التى عرفهـا العرب فى باديتهم ، كالجمل والحصان والأسد والقطاة (١) والحمامة ، وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضـــا منها كنايات : فأبو قيس للقرد وأبو خالد للأسد ، وكان لبعضهم أسماء فى لغتهم عديدة ، وبها ضربوا الأمثال فقالوا : أهدى من قطاة وأحذر من غراب وأعدى من ظليم (٢) ، وسيروا الكنى فقالوا : جبان الكلب ومهزول الفصيل للجواد المضياف ، واستعاروا أوصافها للانسان فقالوا : جيد كجيد الغزال وعيون كعيون الجآذر (٣) وشبهوا خوذات المقاتلين ببيض النعام ، وتشاءموا بأصوات بعض الحيوانات كالغراب والبومة ، وزجروا الطير يتفاءلون بالسارح منها ويتشاءمون بالبارح ، وأجروا الأمثال على ألسنتها كقصة الثيران الثلاثة المنسوبة الى الامام على ، وكالقصص التى أنطق فيها الحيوان ابن المقفع ، والمحاورات التى نحلها اياها اخوان الصفا ، واسترعت أحوال الحيوان ومسمعاته انتباههم فتدبروها مليا كما فى تلك الرسالة البليغة عن النمل المنسوبة الى الامام على أيضا ، وفى التدبر فى أحوال كثير من الطــير والحيوان والهوام أفاض القرآن الكريم فى شتى المواضع ، ودعا الانسان الى التفكير فيها ، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعا بين العلم والأدب ٠

وقد أطنب أدباء العربية خاصة فى ذكر الابل ووصفها فى أشعارهم ، ووصف سيرها وحنينها الى أعطانها واستحثاثها ومناجاتها ، ولا غرو فقد

---

(١) القطاة : نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء ٠

(٢) ظليم : ذكر النعام ٠

(٣) الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية ٠

الطيران والحيوان

في الأدبين العربي والانجليزي

وحدة الأحياء واشتراكهم في صفات ترفعهم جميعا عن الجماد، وتميزهم بالشعور بالغبطة والألم ، كل هاتيك حقائق من الموضوع بحيث اهتدى اليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقها وخوافيها ، وتنازع الأحياء البقاء ، وعدوان أقواها على أضعفها وفوز القوى بالغلب والبقاء ، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لمحاتها في آدابهم ، وقد كان موقف الانسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريبا لا يخلو من تناقض وطرافة : كان في أول أمره ينازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها ، ثم استأنس بعضها وسخره في أعماله تسخير العبيد ، واتخذ بعضها للزينة والمسرة ثم عاد فقدس بعض عبيده أولئك ورفعهم الى مصاف الآلهة ، لأنهم يدرون على حياته خيرا وبركة ، بينما ظل يتلهى باقتناص أوابد الوحش · ويجرب بأسه وفروسيته باصماء حشاشاتها ، والتفريق بين الأمهات منها وبين الصغار ·

واخترع خيال الانسان في تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطيار ومخيف الكائنات ، كما توهم البابليون وحشا هائلا يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل ، وكما تخيل الاغريق الجياد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلائق شعور رؤوسها أفاع باغية ، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والأفاعي ، وكما تصور العرب الغول والعنقاء ، وزعم السندباد أنه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ ، وكما توهم أوائل الانجليز سبعا ضاريا قد ألقى الرعب في مملكة بأسرها ، حتى صارعه فصرعه الأمير بيولف في الملحمة المسماة باسمه ، ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التي هذى بذكرها الانسان في عهوده الأولى ، الا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التي كانت تقطن البر والبحر في غابر الأزمان ، وكان الانسان المتوحش على فزع منها وحذر دائبين ·

فلما بلغ الانسان طورا من الحضارة أرقى ، انزل تلك العجماوات التي كان ألهها من محاريب عبادته ، ونبذ تلك الخرافات وما بها من

كانت قوام حياة العربي في حله وترحاله ، بل كان لها أثر جليل في تطور الشعر العربي ذاته ، اذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت من مشياتها وتدفعها ، وهو قول وجيه ، وقل شأن الابل قليلا حين تحضر العرب ، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة ، وظلت من أهم وسائل الانتقال وحمل المتاجر برا ، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الاطناب في ذكر الابل وتقديمه بين أيدى المديح حتى استقلت الابل بجانب عظيم من الشعر العربي ، ومن خير أوصافها قول طرفة في معلقته :

واني لأقضى الهم عند احتضـــاره　　بعوجـاء مرقـــال تروح وتغتـدى

تبـــارى عتـــاقا ناجيات وأتبعت　　وظيفـــا وظيفـــا فوق مور معبـد

وأطنب أدباء العربية أيضـــا في ذكر الخيل ووصفها في أشعار الحماسة ، وما ذاك الا لأنهم في جاهليتهم واسلامهم كانوا أمة جلاد وكفاح ، الخيل أول عدتهم في القتال والذود عن حقيقتهم ، فكان أعز مكان في الدنى لديهم ظهر سابح كما قال المتنبي ، وطالت صحبتهم الخيل ، وأطردت ملازمة الخيل لهم ، فكأنما ولدت قياما تحتهم كما قال المتنبي أيضا ، وكأنما ولدوا على صهواتها ، ووصفوا مواقفهم في الحروب ومواقف جيادهم ، كما فعل عنترة في معلقته ، حيث يذكر كيف ازور حصانه من وقع القنا بلبانه ، وكيف شكا اليه آلامه بعبرة وتحمحم ، وصار لكلمة الخيل أو كلمتى الخيل والرجل مغزى خاص بالحرب ، بعد أن استعملها القـــرآن الـكريم في تلك الآية البليغة : « **وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** » ، وتانق أبو تمام والمتنبي في وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزحوفها (١) ، ومن بديع أوصافها في العربية قول الفرزدق في جواد أغر محجل :

فكأنمـــا لطم الصـــباح جبينـــه　　فاقتص منه فخاض في أحشـــائه

وأبيات أبى تمام التي يقول منها :

ذو أولق تحت العجـــاج وانمـــا　　من صـــحة افراط ذاك الأولق

وقول أبى الطيب في وصفه للمعركة التي دارت على ربى حصن الحدث :

اذا زلقت مشيتهـــا ببطونهـــا　　كما تتمشى في الصـــعيد الأراقم

---

(١) زحوفها : الزحف : الجيش الكثير والجمع زحوف ·

وفاز الأسد والذئب باهتمام أدباء العربية ، وتركا في الشعر العربي أوصافا شائقة وقصصا ممتعا ، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلوع أحد الليوث عليهم في جلجلة ورهبة زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجيادهم ، ومنه أيضا وصف الفرزدق للأطلس العسال الذى رأى ناره موهنا فأتاه ، فقاسمه عشاءه ، حتى امتلأ الذئب فتكشر ضاحكا ، ولكن الفرزدق حين رأى نيوب الذئب بارزة لم يظن أن الذئب يبتسم ، بل جعل قائم سيفه في يده بمكان ، وتاه على الذئب بما أناله من قرى (١) بدل أن يرشقه بشباة (٢) سنان ، أما البحترى فلم يكن بهذا المكان من الجود ، بل كان يحدث نفسه بصاحبه الذئب ، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه البحترى ، فرمى الانسان الوحش فأصماه ، ونال من لحمه قليلا ، كذلك يصف المتنبى في أبيات هى من غرر الشعر العربى ملاقاة بعض ممدوحيه للأسد ، وتعفيره (٣) اياه بالسوط ، وهناك كذلك وصف البديع في بعض مقاماته لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدام وبين ملك الحيوان ، ومنه قوله على لسان الفارس :

وقلت له : يعز على أنى	قتلت مناسى جلدا وقسرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه	سواك ، فلم أطق ياليث صبرا
تحاول أن تعلمنى فرارا ،	لعمر أبيك قد حاولت نكرا

ولما تحضر العرب وانتشر في عليتهم الترف ، تأنقوا في اتخاذ الحيوان للزينة والمتعة ، وكان الخروج للقنص من وسائل لهوهم وترويحهم عن النفس ، وكثر في الشعر وصف تلك الأفيال التى كان الخلفاء الفاطميون يسيرونها في مواكبهم ، والمها التى كانوا وكان غيرهم يزينون بها حظائرهم وقصورهم ، ووصف الخروج للقنص وكلاب الصيد ، وقد وصف أبو نواس في أبيات مشهورة كأسا له قد صورت عليها مها تدريها بالقسى الفوارس ، ووصف المتنبى لبؤة مقتولة وأشبالها حولها جاثمة ، وكان قد هيىء ذلك المنظر في حفل استقبل فيه سيف الدولة سفراء قيصر ، ولابن الرومى عينية بارعة في وصف يوم طرد (٤) تمتع به في رفقة له ، ومن نوادر أبى دلامة أنه خرج مع الخليفة المهدى وعلى بن سليمان للصيد ، فأخطأ على الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد فقال أبو دلامة :

---

(١) قرى : كرم ٠

(٢) شباة : حد طرفه ٠

(٣) تعفيره : العفرة : بياض تخالطه حمرة فيصير كلون العفر ٠

(٤) طرد : مزاولة الصيد ٠

قـد رمى المهـدى ظبيـا	شـك بالسـهم فـؤاده
وعلى بن سـليمان	رمى كلبـا فصـاده
فهنيئـا لهمـا : كـل	امـرىء يأكـل زاده

وكان من عادة أدباء العربية أن يمثلوا لأحوالهم بأحوال الحيوان ، ويستعيروا صفاته لما هم بسبيل وصفه ، فيمثلون لحنينهم بحنين الابل الى أعطانها ، ولوجدهم بوجد الظبية على خشفها (١) قد صرعته نبال الصائد ، أو مزقته براثن السبع الضارى ، يصفون مصرع طفلها وافتقادها اياه وجزعها وتلددها (٢) لهلاكه ، فى أبيات كثيرة يبدءونها بقولهم : « وما ظبية ... » أو نحو ذلك ، ويعقبون عليهم بقولهم : « بأوجع منى يوم بانوا ... » أو ما اليه ، كما كان من التقاليد المتبعة فى أشعار النسيب والوجد مناجاة الحمائم وسؤالها عما يشجيها ، ومقابلة شجوها بشجو الشاعر ، ووصف تهييجها لذكرياته وتجديدها لآلامه ومن محاسن ما قيل فى الحمائم قول أعرابى :

وقبلى أبكى كل من كان ذا هـوى	هتـوف البـواكى والديار البلاقع
وهن على الأطـلال من كل جانب	نوائـح ما تخضـل منها المدامع
مزبرجـة الأعنـاق غر ظهورها	مخطمـة بالـدر خضر روائـع
ترى طررا بين الخـوافى كأنهـا	حواشى برد زينتهـا الوشـائع
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها	خواضب بالحنـاء منها الأصـابع

أما أشد شعراء العربية شغلا بأمر الأحياء وتأملا فى أحوالها وذكرا لها فى شعره فهو المعرى ، الذى بلغ من نفاذ البصر فى شؤون الحيوان وشدة الرحمة له حينا ، والانكار للؤم طباعه حينا ، وطول التأمل فيها تأملا موضوعيا لا ذاتيا ، ما لم يبلغه غيره من شعراء العربية فهو تارة ينعى على الضرغام مغادرته غابه لينازع ظبى رمل فى كناس (٣) ، وتارة يسمح للذئب بالشاة علما بما بالذئب من داء السغب (٤) ، وتارة يبكى للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرهـا وهديلهـا ، وطورا يرميها بمماثلة غيرها من الحيوان فى الجور والعدوان ، وهو ينهى عن فجيعة

---

(١) خشفها : الخشف : ولد الظبية اول ما يولد .

(٢) تلددها : التلدد هو الالتفات يمينا ويسارا تحيرا .

(٣) كناس : مدخل فى الشجر يأوى اليه الظبى ليستتر والجمع اكنسة .

(٤) السغب : سغبا وسغابة : جاع مع تعب .

النحل في شهدها أو الناقة في فصيلها في حائيته الرصينة من لزوم ما لا يلزم ٠

لا يكاد يوجد في الأدب الانجليزي شيء من ذكر تلك الأنواع من الحيوان سالفة الذكر ، التي احتفى بها أدباء العربية أي احتفاء ، وحفل بذكرها الشعر العربي في شتى عصوره ، فلا الجمل ولا الحصان ولا الأسد والذئب ، ولا الحمائم والظباء ، تمثل ذلك المكان الظاهر من موضوعات الأدب وتشبيهاته وكناياته وأمثاله ، وذلك لاختلاف البيئة الاقليمية والاجتماعية ، فتلك ضروب من الحيوان لا تكثر في انجلترا كثرتها في بلاد العرب ، بل لا يوجد بعضها أصلا ، والانجليز كانوا جوابي بحار لا رحالي صحار ، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على البر ، فلا غرو ألا يمروا بتلك الأنواع الا عرضا ، وأن يمتلىء أدبهم بوصف ضروب أخرى من الأحياء غير هذه ٠

انما يحفل الادب الانجليزي بذكر الطيور الجميلة المغردة ، ووصفها ومناجاتها ، ووصف أغاريدها والاسترسال معها الى آماد الخيال البعيدة والطيران معها على أجنحة الشعر ، فالأدب الانجليزي غني بالشعر الطبيعي الذي قصد به الوصف الطبيعي وحده ، وهذا الوصف حافل بوصف الأطيار ، والأدب الانجليزي غني أيضا بالوصف الطبيعي لم يقصد لذاته ، وانما يتخلل شتى أغراض القول ، وهذا مملوء بذكر الطير أيضا ، والشعر الانجليزي غني فوق ذلك بالقصائد التي كتبت خاصة في مناجاة الطيور وعبادة أصواتها المطربة ، ولم يخل الأدب العربي من شيء من ذلك ، ومن محاسن ما فيه منه وصف الصابيء للببغاء ، وهو من غرر الشعر العربي ومنه يقول :

عدت من الأطيار ، واللسان	يوهمني بأنها انسان
تنظر من عينين كالفصين	في النور والظلمة بصاصين
تميس في حلتها الخضراء	مثل الفتاة الغادة العذراء

بيد أن الشعر الانجليزي أغزر وأحفل بتلك الآثار ٠ ولكل من وردزورث وكيتس وشلي وتنيسون وسوينبرن قصائد في ذلك بالغة غاية السمو العاطفي والكمال الفني ، ولم يكتف الشعراء بمناجاة أطيار جزيرتهم الغريدة الكثيرة ، فلجأوا على عادتهم الى الخرافة وتصور كولردج طائرا عجيبا سماه الألباتروس جلب اليمن والبركة لأصحاب الملاح القديم ، ثم جزاه هذا الأخير جزاء سنمار فقتله ، فكان ذلك سبب ضلاله وهلاك أصحابه ٠

ومن غرر تلك الاشعار فى الانجليزية قول وردزورث : « أيهـــا القادم السعيد ، هأنذا أسمعك فأطرب ، أأسميك طائرا أم صوتا محلقا ؟ أنا أسمع هتافاتك المرددة وأنا مضطجع على العشب ، ويخيل الى أنها تمر من ربوة الى ربوة ، قريبة بعيدة فى آن واحد : ترسل أغاريدك فى الوادى المكسو بالأزهار وضياء الشمس ، فتثير فى نفسى رؤى بعيدة ، مرحبا بك يا رسول الربيع ! يا من كنت اليه أستمع اذ أنا صبى بالمكتب · وطالما جعلنى هتافك هذا أتلفت فى كل ناحية باحثا فى الشجيرات والأدواح والسماء ، وطالما ضربت فى الغابات والأعشاب فى نشدانك ، وظللت أنت دائما أملا أو حبا يطول التشوق اليه ولا يرى أبدا ، وما أزال أستطيع الاستماع اليك والانبطاح فى السهل مصيخا اليك ، حتى أستعيد فى مخيلتى ذلك العهد الذهبى » ·

ولجون لوجان من شعراء القرن الماضى مقطوعة عذبة فى مناجاة الطائر عينه ، قد وقع فيها على بعض معانى وردزورث وتعبيراته ، وان لم يقل عنه جمالا وابتكارا ، قال : « مرحبا يا غريب الأراكة الجميل ، يا رسول الربيع ، ها هى ذى السماء تعد لك مقعدك من الريف ، ويردد الغاب صدى الترحيب بك ، اذا ما رقش (١) الأقحوان العشب أيقنا أن سنسمع صوتك من جديد ، فهل لك نجم يهديك السبيل أو يوقت لك دورة العام ؟ أيها الزائر المطرب ، انى معك أرحب بأوان الأزهار وأسمع الموسيقى العذبة التى ترددها الاطيار فى حواشى الخمائل ، ويسمع صبى المكتب صوتك المنبىء بالربيع الجديد ، وهو يطوف فى الغــاب يقطف آخر زهيرات الشتاء ، فيتوقف منصتا ويقلد تغريدك ، أيها الطائر المطرب : ان خميلتك خضراء أبدا ، وسماءك أبدا صافية ، وليس فى أغاريدك شجن ولا فى عامك شتاء ، فياليتنى أستطيع الطيران فأخف معك على جناح الحبور ، نطوف طوفتنا السنوية حول الأرض ، رفيقى ربيع مستمر »

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة ، والمناجاة الحارة الصادقة يحفل الشعر الانجليزى ، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجاتها ووقف القصائد والمقطوعات على الترنم بحبها غير شائع فى الأدب العربى فالشعر العربى أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سالفة الذكر والشعر الانجليزى قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير ، ولا غرو فقد كان العرب رجال مجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله ، يحمدون الابل التى هى قوام حياتهم والخيل التى هى عمادهم فى معركة الحيـــاة.

---

(١) رقش : حسن وزين ·

ويتمدحون بالبأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة الذئاب ، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير التفات الى الطبيعة ، ولا شديد عطف على أبنائها ، وأشعارهم فى هذا الباب لا تنم عن حب للحيوان أو شغف بحياته ، وكان حب الطبيعة والهيام بجمالهـا من أكبر مميزات الأدب الانجليزى ، والطيور أكثر تمثيلا لجمالها وحبورها من الأسود والذئاب ، فكثر فى الأدب الانجليزى وصف الطيور ، كما كثر وصف الأزهار والآجام والأنهار ، وفى شغف الأدب الانجليزى بهذه واحتفاء الأدب العربى بتلك رمز وبيان للصبغة الاجتماعية التى ترين على الأدب العربى ، والنزعة الطبيعية التى تتجلى فى الأدب الانجليزى ٠

الذاتي والموضـــوعي

في الأدبين العربي والانجليزي

تتأثر النفس الانسانية بكل ما تحس من مظاهر الحياة ، فاذا ما عبر المرء عن تأثره ذاك نثرا أو نظما في لفظ نقي ، كان تعبيره ذاك أدبا ، فالأدب نتاج عاملين : مؤثر هو مظاهر الحيـــاة التي تحفز الأديب الى الانشاء ، ويتخذها موضوعا لانشائه ، ومتأثر هو ذات الأديب التي يترجم القول المنظوم أو المنثور عن خوالجها ، وليس يخلو عمل أدبي من آثار هذين العاملين ممتزجين ، فكل عمل أدبي هو ذاتي وهو موضوعي ، غير أن الأعمال الأدبية تتفاوت حظا من هذا ونصيبا من ذاك ، فاذا استرسل الأديب في وصف ما هو بازائه من مظاهر الحياة وشرح أحوالهـــا على علاتها . مكفكفا (١) من عنان عواطفه محكما دونها الفكر ، كان العمل الأدبي موضوعيا ، وان أرخى الأديب العنان لعواطفه ملما بالموقف الذي هو حياله الماما خفيفا ، كان عمله الأدبي ذاتيا .

فمظاهر الحياة المختلفة هي مادة الأدب لأنهـــا مادة الاحســــــاس والتفكير ، وبدونها لا يتصور تفكير ولا شعور ، ولا تكون النفس الا خواء تاما ولا الفكر الا فضاء مطلقا ، والنفس الانسانية هي العامل الفعال الذي يعكس صور مظاهر الحياة تلك ، ويمنحها من الصفات ما يروق المرء حينا ويطربه ويحببه فيها ، وما يسوؤه حينا ويؤلمه ويبغضه في بعض تلك المظاهر ، والأديب مهما توفر على موضوعه الذي هو بصدده ، ومهما كان موضوعه ذاك بعيدا عن نفسه وعن محيطه وزمنه ، ومهما حكم فيه الفكر السليم والرأي المنزه ، لا يخلو من أن يكون معبرا في عمله الأدبي عن ذاته ، مصدرا عن طبيعته ، وهي طبيعة يتفق فيها مع الآخرين الى مدى ، ويختلف عنهم في بعض نواحيها .

بل لا يعدو الحق من يقول ان الأديب لا يزيد مدى حياته على ان يعرض نفسه على قرائه ، مهما تباينت موضوعاته وتعددت اشكال أدبه ، فسواء راح مادحا أو ذاما أو واصفا أو قاصا ، أو ملاحظا لأحوال الناس

---

(١) مكفكفا : مصرفا .

أو متأملا فى ماضيهم ومستقبلهم ، فهو لا يعدو محيط نفسه وتجاريبه وعواطفه ، بل ان بعض كبار الأدباء انما بلغوا أوج نجاحهم الأدبى فى العمل الأدبى الذى يصف كل منهم فيه قصة حياته ، أو أهم تجربة من تجاريبه ، أو أزمة نفسية عبرت به ، كما قص لامرتين قصة حبه فى « رفائيل » ، وكما وصف كل من شاتوبريان وأناتول فرانس نشأته فى آثاره الأدبية ، وكما وصف تشارلز دكنز قصة طفولته فى « دافيد كوبرفيلد » ، وبلغ القصصيون ذروة نجاحهم فى قصصهم التى كان أبطالها صورا من أنفسهم أو من بعض حالاتهم النفسية ، كما كان جوته فاوست ، وكما كان أناتول فرانس بعض أشخاص كل رواياته •

وأناتول فرانس نفسه يقول اننا لا نكتب الا عن أنفسنا ، ويزيد فيقول اننا لا نقرأ حين نقرأ الا أنفسنا • ولا غرو فالمرء لا يدمن الا قراءة الضرب الذى يعجبه من القول ويصادف هوى فى فؤاده ، ولا يصطفى من الكتاب الا من يشاكله نفسا ، وهو حتى حين يقرأ موضوعاته الأثيرة من آثار أدبائه المختارين يصبغ كل ما يقرأ بصبغة نفسه ويؤوله على حسب ادراكه وطبعه ، ويستخلص منه ما قد لا يستخلصه غيره ، وما لعل المنشىء نفسه لم يقصده ، والناس انما يقرءون الشاعر أو الكاتب وهو يتحدث عن نفسه لأنهم يرون فى نفسه صورة من أنفسهم ، وفى ذاته صدى من ذواتهم ، فاذا ألفوه قد أغرب وباعد بين ما يصف وما يحسون نبذوه واستهجنوه ، ولم يعنهم مما يصف من أحوال ذاته التى لا يحسونها فى ذواتهم ، أكثر مما يعنيهم من أحوال معيشته الخاصة ومطعمه وملبسه •

والذاتى فى أدب اللغة أسبق ظهورا من الموضوعى : يبدأ الأدب فى عهده الأول بتعبير الانسان عن خواطره العاجلة وأحاسيسه السانحة وتجاريبه الحاضرة ، يرسل ذلك على سجيته وبديهته قولا سائرا أو أبياتا شاردة ، لم يعد لها العدة ولا تكلف فيها عناء طويلا ، ويرقى الأدب رقيا كبيرا وما تزال الصبغة الذاتية هى السائدة فيه ، وتظل له هذه الصبغة ما دام قريبا من البداوة غير آخذ أهله بشىء من الثقافة أو مقيدين لآدابهم بالكتابة • فاذا ما انتفع الأدب بالثقافة والتدوين ظهر فيه الضرب الموضوعى اذ تتبسع آفكار الأدباء ويمتد أفق نظراتهم ويقصدون التأمل فى شئون الحياة قصدا ، غير منتظرين التجارب التى تسنح (١) عرضا ، ويطلبون من مناحى الحياة ومذاهب التفكير الأبعد فالأبعد ، فتزاحم الصفة الموضوعية الصفة الذاتية •

---

(١) تسنح : تعرض •

فغزارة الضرب الموضوعى فى الأدب من لوازم رقيه ووصوله الى الطور الفنى ، بيد أن العنصر الذاتى لا يمحى ببلوغ الأدب هذا الطور ، بل يبقى ويزداد رقيا وحرارة وعمقا ، ويظل صدقه وعمقه وحرارته خير مقياس لصدق الأدب ورقيه ، ويقترن ضعفه وتلاشيه بضعف الأدب وفتور العاطفة فيه وتغلب اللفظ على الشعور الصحيح . ففى عصور تدهور الأدب يسود الضرب الموضوعى ، وتنفق موضوعات بذاتها يصطلح الأدباء على طرقها على أساليب مخصوصة لا يعدلون عنها . ويكفكفون عواطفهم الذاتية ، فلا يكاد يتميز واحد منهم عن الآخر فى السمات والميول ، فالضرب الموضوعى يظهر متأخرا عن الضرب الذاتى فى الآداب ، ثم يبقى متخلفا عنه عند اضمحلال الأدب ، يبقى على حال من الضعف والتكلف والابهام .

ولما كان الضرب الذاتى من الأدب أسبق الى الظهور فى تاريخ الأدب ، كان مقترنا بالشعر الذى هو أسبق الى الظهور من النثر الفنى فالأدب فى عهوده لا يكاد يزيد على أن يكون شعرا ذاتيا ، فاذا دخل الأدب طوره المتحضر الفنى ظهر فيه النثر وظهر الضرب الموضوعى فى الشعر والنثر معا ، بيد أن الشعر يظل دائما متعلقا بالضرب الذاتى ، بينما يستأثر النثر منذ نشأته بالجانب الأكبر من الأدب الموضوعى ، فالشعر لما له من مزايا الموسيقى والخيال أقدر على التعبير عن الوجدانيات ، والنثر لما له من مزايا الرحب والدقة والتحرر من قيود الوزن والقافية أقدر على تتبع الوصف لموضوع الانشاء ، والاسهاب فى شرح دقيقه وجليله ، فاذا جمع أديب بين الصناعتين رأيته يندفع اندفاعا تلقائيا الى النظم ، اذا حفزته ثورة نفسية متدفقة ، وينساق بداهة الى النثر اذا أراد التأمل الهادىء والتوسع فى الشرح والاستقصاء ، على أن هذا ليس بمانع أن يحتوى النثر أحيانا على بدائع من آثار الضرب الذاتى ، وأن يشتمل الشعر على لطائف من آثار الضرب الموضوعى .

ولما كان الشعر أشبه بالضرب الذاتى من الأدب ، والنثر أقرب الى الموضوعى ، كان الشعراء بطبيعتهم أدباء ذاتيين أو أنانيين كما قد يلقبهم بعض المنكرين عليهم ، وكان الكتاب أدباء موضوعيين ، يتناولون من مجالات القول ما لا يمس أنفسهم وشخصياتهم الا قليلا ، بينما لا يكاد بعض الشعراء يخوض فى غير شؤون نفسه ، من طرب وشجن وغضب ورضى وحب وبغض ، حتى تلوح دواوين بعضهم كأنها صخب مستمر مزعج ، أو بكاء طفل مدلل وضحكه يتتابعان بلا انقطاع ، والبكاء أظهرهما جلبة والسخط والنقمة والشكوى أبين أثرا ، فاذا فرغ الشاعر من صخبه

وثورانه جاء الكاتب من بعده هادئا وقورا ، يصرف في شعره نظر الحكيم الخبير ، ويحكم على شعره وخلقه وحياته وفهمه للدنيا حكم القاضى المتمكن ، فلا يزال الشعراء يلوحون كأنهم فريق من المتهورين الأغرار ، ولا يزال النقاد يظهرون فى مسرح الراشدين الأكبر منهم سنا وخبرة بالأمور .

ولا يقتصر التفريق على الشعر والنثر فى هذا الصدد ، بل هناك أشكال من الأدب هى أصلح للذاتى وأخرى هى أوفق للموضوعى : فالقصة والترجمة والتأريخ والملحمة كلها ضروب موضوعية يتحدث فيها المنشىء عن غيره من رجال الحقيقة أو الخيال ، ومن أبناء الحاضر أو الماضى ، ويدرس حوادث لم يساهم فيها ولم يختص بها ، وان تكن لذاته فى كل ذلك آثار تقل أو تكثر ، والرسائل الاخوانية والمذكرات ، والتراجم الشخصية والاعترافات وما جرى مجراها ، كلها أشكال من الأدب ذاتية يخصصها الأديب لتحليل ذاته وعرض صور من حياته ، وان خالط ذلك شتى النظرات الموضوعية ، أما المقالة فيتراوح حظها من كل من الضربين ،

وكما تفترق أشكال الأدب وتتميز فى هذا الصدد ، كذلك تفترق وتتميز موضوعاته : فالوصف والمدح والهجاء والحكمة أقرب الى الضرب الموضوعى من الفخر والحماسة والنسيب والشكوى ، أما الرثاء فيجمع الى وصف خلال المرثى وهو أمر موضوعى ، وصف مشاعر الراثى وهى أشياء ذاتية ، على أن موضوعات الأدب هذه قلما ترد فى أثر الأديب خالصة مستقلا ذاتيها عن موضوعيها ، بل يتمازج الضربان كما أن الأشكال الأدبية كثيرا ما تختلط ، فيتصل بالأثر الأدبى الواحد الترجمة بالقصص مثلا ، ويمتزج الوصف بالنسيب ، وتبدأ القصة أو القصيدة بوصف منظر وتنتهى بخواطر وجدانية ، ومن ثم تمتزج الذاتية والموضوعية فى أكثر الآثار الأدبية .

ومن التعسف تفضيل ضرب من الاثنين على الآخر : فللذاتى من آثار الأدب محاسنه ، وللموضوعى مزاياه ، كما أن الشعر لا يفضل النثر ولا الأخير يرجح الأول ، بل لكل فضائله ومواقفه ودواعيه ، فالعمل الأدبى الذى ترين عليه مسحة الذاتية يروع بحرارته واخلاصه وصراحته ، ويشوق بكشفه عن نفس صاحبه وتحديده لشخصيته ، كما تحدد خطوط المصور شكل الصورة وجوانبها ، ويروع بقدرة صاحبه على التأمل فى نفسه وتوضيح خلجاتها ، والضرب الموضوعى يسر اذ يعكس فى صفحة الفن ما نشهد ونحس فى عالم المشاهدة والخبرة ويروع بقدرة الأديب

المنشيء على الملاحظة والتقصي والتجرد من أهواء نفسه والتوفر على ما هو بصدده ، لكل من الضربين مكانته وروعته ما اتفقت له صفتان : الصدق والعمق .

وكل من الأدبين العربي والانجليزي حافل بآثار الذاتية والموضوعية في مختلف نواحيــه ، ترين هذه أو تلك على بعض آثاره أو تغلب على أدبائه ، أو تظهر في بعض عصوره ، أو تتجلى في أشكال وموضوعات دون أخرى ، بيد أنه لاختلاف تاريخي الأمتين واختلاف ظهورهما في عصر الحضارة والثقافة ، يحتل الطور الذى كان الأدب فيه ذاتيا عهدا مهما من عهود تاريخ الأدب العربي قبل أن يظهر الضرب الموضوعي ويشيع في الأدب ، على حين لم يتخلف في الأدب الانجليزي من ذلك العهد شيء ذو بال ، وانما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزي الحديث من عهد اليزابث والضربان الذاتي والموضوعي فرسا رهان في حلبته ، بل كاد الضرب الموضوعي أن يستأثر بالصدارة في ذلك العصر .

ففي عهد الجاهلية وحقبة من الاسلام كان الأدب العربي — اذا استثنى القرآن الكريم والحديث الشريف — اغلبه ذاتي الصبغة ، وكانت للشعر فيه المكانة العليا ، وكان الشعراء دائبين يبدءون القول ويعيدونه فيما خالج أنفسهم من خواطر ، أو مس حياتهم من قريب من حوادث فامتلأ قصيدهم بالحماسة والنسيب والمنافرة والمهاجاة والفخر والتمدح بكريم السجايا ، فلما توطدت الحضارة وشاعت الثقافة اتسعت جوانب الشــعر وتعددت مجالاته ، وظهر بجانبه النثر الفني ، وتناول كلاهما موضوعي الشؤون بجانب ذاتيها ، فكان من الفنون التي جدت في الشعر أو توسعت فيه الوصف المسهب والمدح المطنب ، وتناول النثر رسائل الأمراء ، كما جال الجاحظ والبديع وغيرهما في نواحي الحياة ومذاهب التفكير وأحــوال المــاضي وخصــــائص الأحياء واخبار الأمم ووجوه النقد الأدبي ، فأفرزت في الأدب العربي منظومه ومنثوره في هذا الطور آثار الذاتية والموضوعية . يتحدث المتنبي مثلا عن عظمته وفتوته ومطامحه وأشجانه ، فيجيء شعره ذاتيا صادقا رائعا ، ويمدح سيف الدولة أو سواه ويصف مآثره ومواقعه فيميل الى الموضوعية ، والأرجح أن الموضوعية كانت أظهر في هذا العصر ، لرواج ضربين من القول موضوعيين عج بهما الأدب : عج الشعر بمدح الأمراء ، وعج النثر بوسائل الدواوين

ذانك هما الطوران الأولان من أطوار الأدب العربي من جهة الذاتية والموضوعية : الطور الأول هو عهد نشأة الأدب الذى كانت الذاتية فيه

غالبة ، والثانى طور نضج الأدب الذى فيه اجتمع الضربان ، أما الطور الثالث فهو عهد اضمحلال الأدب تدريجا ، وهو طور تغلب الضرب الموضوعى وتلاشى الضرب الذاتى تدريجا : جمد الأدب على موضوعات خاصة اصطفاها الأدباء ، فى مقدمتها المدح والهجاء ـ وعدوها وحدها مجال الأدب وشغل الأديب ، وطرقوها على أساليب خاصة يتنازعهم فى ممارستها عاملان : الحرص على تقليد الأقدمين ، والرغبة فى اظهار البراعة بالتلاعب بالألفاظ والمعانى ، أما المشاعر الذاتية الصادقة ، والخصائص النفسية المميزة ، فاختفت من الأدب ، وحتى فى شرح عواطفه كان أديب ذلك الطور مقلدا ، لا يشرح عواطفه الا على نحو خاص قد جرى به العرف ، وحض عليه النقاد ، وبذلك جاءت الآثار الذاتية نفسها موضوعية عامة مبهمة .

ومن أحسن أمثلة الضرب الذاتى الصريح فى الطور الأول قول عنترة :

فاذا ظلمت فان ظلمى باسل   مر مذاقته كطعم العلقم
واذا شربت فاننى مستهلك   مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى   وكما علمت شمائلى وتكرمى

ومن أمثلة أشعار الطور الثانى التى يمتزج فيها الذاتى والموضوعى قصيدة المتنبى التى يعاتب بها سيف الدولة ، ومنها قوله :

مالى أكتم حبا قد برى جسدى   وتدعى حب سيف الدولة الأمم
فوت العدو الذى يممته ظفر   فى طيه أسف فى طيه نعم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا   حتى تعجب منى القور والأكم

ومن أمثلة أدب الطور الثالث الذى طغت فيه الموضوعات المأثورة وطمست الشخصية الذاتية قول القائل :

وقفت بأطلال الأحبة سائلا   ودمعى يسقى ثم عهدا ومعهدا
ومن عجب أنى أروى ديارهم   وحظى منها حين أسالها الصدى

وكانت للشعر المكانة الأولى فى الأدب الانجليزى فى العصر الاليزابيثى، وكان يتناول الضربين الذاتى والموضوعى من النظم ، تختص بالأخير

الروايات التمثيلية التى ازدهرت اذ ذاك ازدهارا عظيما ، وتختص بالأول القصائد المرسلة طويلها وقصيرها . وفى القرن الثامن عشر هبط فاضمحلت فيه النزعة الذاتية ، وأصبح أكثره موضوعيا مبهما ، واحتل مكانه النثر شمل شتى النواحى الذاتية والموضوعية ، ففى الأولى كتب كاولى واديسون وستيل كثيرا من مقالاتهم ، وفى الثانية كتب جيبون وبوزويل ورتشاردسون وديفو وآخرون لا يحصون كتبهم فى التاريخ والترجمة والقصص والمغامرات . فلما كانت النهضة الرومانسية عادت للشعر فضليته ، وحفل بشتى الآثار الذاتية والموضوعية بين وصف الطبيعة وسرد الخرافات الشائقة ، ووصف تأثر النفس بهذه وتلك ، وتمجيد الجمال وشرح أطوار الحب ، ولم يزل الشعر والنثر منذ ذلك العهد فرسى رهان ، يطرقان شتى المناحى بين ذاتيها وموضوعيها .

بيد أن الذاتية ما زالت منذ عهد شكسبير الى العصر الحاضر تطغى على الموضوعية رويدا ، وتستأثر شيئا فشيئا بالتفات الأدباء وتفوز بأشكال أدبية جديدة . ففى عهد شكسبير كان الروائى يحرك روايته حول أشخاص تاريخيين أو خرافيين بعيدين عنه بعدا كبيرا وفى القرن الثامن عشر عهد النثر الذهبى كان الأدباء يكتبون القصص يضمنونها من طرف خفى صورا من حياتهم وجوانب من أنفسهم ، فيكتب سمولت الآفاق قصة كونت فاثوم المغامر ، ويكتب جولد سميث ابن القسيس قصة قس ويكفيلد التى ليست الا حكاية عهد نشأته فى أسرته ، ثم يكتب تشارلز دكنز فى القرن التالى قصة صباه فى كتابه دافيد كوبرفيلد ، ثم تزداد الذاتية بروزا ويرفع الأدباء حجاب التخفى وينبذون الأسماء المستعارة ، فيكتبون قصص نشأتهم ومذكرات رجولتهم وينشرون رسائلهم وتراجمهم الشخصية ، والأدب الانجليزى المعاصر حافل بآثار هذه الذاتية السافرة .

وقد امتاز بالذاتية الواضحة ، او الأنانية الأدبية ، كثير من الأدباء الانجليز ، كانوا لا يملون التأمل فى نفوسهم والتحدث عن ذواتهم صراحة أو تحت غشاء شفاف : فملتون يعرض لكوارثه وعماه ومبادئه السياسية والدينية والاجتماعية فى ملاحمه الثلاث ، ووردزورث يؤلف المطولات الشعرية فى تصوير صباه وخواطره من طفولته الى كهولته ، وبيرون ينظم القصيدة تلو القصيدة ويصور البطل تلو البطل ، ولا يزيد أن يتحدث عن نفسه وميوله وآرائه ، وشلى يسمى نفسه « ارييل » باسم اله اغريقى ، ويكتب عن نفسه تحت ذلك العنوان أشعارا ، وكل من هازلت ولام يصور تصويرا دقيقا أمينا ما يحس عند خروجه للرياضة على الأقدام أو حين سماعه النواقيس تتجاوب مؤذنة بانتهاء العام أو نحو ذلك .

ومن جهة أخرى نرى أدباء من أمثـال جراى وكولردج ورسـكن يستترون وراء حجاب من الوقار والتفكير الهادىء الشامل ويتحدثون مصورين أو قاصين أو ناقدين ، عن غيرهم من رجال التاريخ والأساطير وأعلام الفن والأدب . فأكثر آثار هؤلاء موضوعية ، وأكثر مؤلفات الأولين ذاتية . كما كان من الأدباء من أخذوا من كلا الضربين بنصيب وافر ، ومن برزوا في مجالى الشعر والنثر . ومن أنهوا حياتهم الأدبية باصدار تراجمهم الشخصية ، ومن خلفوا في النقد آثارا تبارى آثارهم فى النظم والانشاء ، أو تفوقها ، مثل دريدن وماكولى وماثيو أرنولد .

ويعد بعض المغالين تزايد هذه النزعة الذاتية فى الأدب الانجليزى علامة ضعف وانحلال ، ولا شك فى أن غلبة أحد العنصرين الذاتى أو الموضوعى على الأدب من دلائل نقصه ، وانما يكون رقيه مقترنا برقى العنصرين فيه معا . يدل ما فيه من آثار الذاتية على صدق الشعور وعمق التأمل وتميز الشخصيات ، ويدل ما فيه من آثار الموضوعية على شمول النظرة واتساع أفق التفكير وتناول الأدب لمختلف نواحى الحياة .

الشـــعر والنثر

في الأدبين العربى والانجليزى

الشعر أسبق ظهورا من النثر فى عالم الفن الذى يحتفى صاحبه بانشائه وتنميقه ، ويتعمد ايداعه شعوره وأفكاره على نحو جميل يراد له السيرورة والبقاء • فالشعر يظهر ويرتقى والأمة ما تزال متبدية قليلة الحظ من الثقافة وأسباب العمران ، أما النثر الفنى فلا تدعو الحاجة اليه ولا تتم وسائله الا فى أمة متحضرة مستقرة واسعة الثقافة منتشرة فيها الكتابة الخطية ، فالكتابة الخطية تتيح للكاتب أن يتوفر على انشاء النثر المنمق ، الذى يحوى تعمقا فى التأمل واتصالا فى المجهود الأدبى وتدبيجا للفظ ، وتتيح أيضا للنثر الفنى أن يبقى ويذيع • أما الشعر فهو غنى بموسيقاه ورويه عن تقييد الطروس(١)،وهو أهل للنهوض بحاجة الأمة المتبدية ، من التعبير عن عواطفها وأفكارها البسيطة ، ومن ثم ارتقى الشعر الاغريقى كما يتمثل فى ملاحم هوميروس رقيــا عظيما ، والأمة ما تزال الى البداوة أقرب ، وتطور حتى تفرع منه فن جـــديد هو فن التمثيل ، كل ذلك قبل أن تتوطد قواعد النثر اليونانى ، وقبل أن يبلغ مبالغه على أيدى هيرودوت وتيوسيد وأفلاطون •

وكلا الشعر والنثر مدينان فى ظهورهما ورقيهما ــ كسائر الفنون ــ للدين والدولة بفضل عظيم : ينشأ الشعر مختلطا بالموسيقى مصاحبا للرقص فى الحفلات الدينية ، التى تحفلها الجماعات الأولى فى مواسم آلهتها ، وينفصل عن الموسيقى والرقص ويخرج من حظيرة الدين الى حظيرة الدولة ، فيمدح الملوك ويزين قصورهم كما كان يفعل الشعر الاغريقى فى عصر الطغاة ، وعلى أيدى الكهنة يتألف أول ما تعرف الأمة من مبادىء النثر الفنى ، من نبوءات مسجوعة وحكم وعقائد مدونة أو شفاهية وقصص عن الملوك والآلهة ، ثم ينحاز الكتاب الناثرون كما انحاز الشعراء الى بلاطات الملوك ودواوينهم ، يزجون بضائعهم وينزلون آمالهم ، ثم يستقل الشعر والنثر عن حظيرتى الديانة والدولة قليلا قليلا ، بشيوع الرقى العقلى وانتشار الثقافة وتميز شخصية الفرد عن شخصية الجماعة ،

---

(١) الطروس : الصحف •

فيصبح كل منهما فنا غايته التعبير الجميل عن شعور الانسان بالحياة ، وعلى قدر تحرر كل منهما من العلاقة بالكهان وبالحكام ، وتخلصه من الغرض المادى يكون رقيه الفنى وصدقه فى أداء رسالة الحياة .

فبانتشار الحضارة والثقافة يرتقى الشعر عما كان عليه فى عهد البداوة ، ويظهر بجانبه النثر فنا ثانيا مترجما بالألفاظ عن شعور الانسان وتفكيره ، منافسا له فى كثير من مواضعه ومعانيه . فيتقاسمان النهوض بمهمة الأدب ، ويظهر من الأدباء من يجمعون بين الفنين ، يبرزون فى كليهما أو يشتهرون بأحدهما فوق اشتهارهم بالثانى . ويشارك النثر الفنى الشعر فى كثير من خصائصه ، أى خصائص الفنون جميعا كالموسيقية ، والخيال ، والتقابل ، والتماثل ، والتجاوب ، بيد أنه وان تشارك الفنان فى شتى الخصائص والموضوعات ، فما يزالان متميزين فى خصائص مستقلا كل منهما دون الآخر بموضوعات هى به أشبه وهو على تأديتها أقدر . فللشعر قصب السبق فيما هو أدخل فى باب الخيال والعاطفة والشمول والغموض أحيانا ، وللنثر ما هو أقرب الى التفكير والمنطق والدقة والترتيب والاستقصاء ، ومن ثم يلجأ الشاعر الناثر الى الشعر طورا والى النثر تارة .

فالشعر والنثر كلاهما قادران على تأدية أغراض الوصف والحكمة والعتاب والاعتذار والفكاهة ، وربما رق النثر فى كل ذلك وتشبع بالخيال حتى صار أشبه بالشعر ، لا يميزه عنه سوى انعدام الوزن وان ساواه فى الموسيقية ، أما الحماسة والنسيب مثلا فالشعر أمهد لهما سبيلا وأرحب مجالا ، الا أن يجيء النثر الحماسى خطابة فيكون له من رهبة الموقف وتعبير سيماء الخطيب وهيبة محضره عوض عما يمتاز به الشعر من خيال وروعة واستجابة للعواطف ، ومن ثم كانت الخطابة من أشبه فنون النثر بالشعر ، وأما فى سرد الوقائع التاريخية أو القصص الفردية ، أو تقرير الحقائق العلمية والأدبية ، فالنثر أرحب بكل ذلك صدرا وأطول باعا . ومن ثم كان نقد الشعر والأدب عامة وتسديد خطى الأدباء واظهار محاسن الشعراء من أهم وظائف النثر التى يضطلع بها اذا ما توطد وساير الشعر جنبا لجنب .

وقصارى القول أن موضوعات الشعر والنثر يتباعد طرفاها ، ويلتقى الطرفان الآخران حتى يختلطا ، وان الروح الشعرى قد يكون فى النثر الجيد كما قد ينعدم من النظم الردىء ، ولما كان الشعر والنثر يعبران مشتركين عن شتى خوالج النفس الانسانية ، فمن الطبيعى أن يرتقيا معا

فى عصور الرقى الانسانى وينحطا معا فى عصور الانحطاط . بيد أنه يلاحظ بجانب ذلك أن أحدهما ربما ارتقى وفاز باحتفاء الأدباء والثانى فى انخذال وقعود ، تبعا لما تميل اليه نزعة الشعب فى عصر من عصوره ، فكما يختلف الفرد الواحد بين نزعة الخيال والعاطفة والخفة أحيانا ، وبين نزعة التأمل الوقور والاستقصاء الهادىء للحقائق أحيانا حسب اختلاف أطوار النفس الانسانية الخفية الأغوار المتقلبة الأطوار ، كذلك تمر الأمم بعصور طموح ومغامرة يزدهر فيها الشعر والنثر الشعرى وبعصور هدوء وركود ، وتأمل علمى وفلسفى ، يغزر فيها النثر ويلعب دورا كبيرا ويخفت صوت الشعر .

فاذا نحن رسمنا لأطوار الشعر والنثر دورة ، كتلك التى رسمها أرسطو لنظم الحكم فى المدن اليونانية ، بين ملكية وأرستقراطية وهلم جرا ، كان أول أطوار تلك الدورة طورا شعريا طويلا ، يبلغ ذروته بنهضة الأمة بين الأمم ، ونيلها نصيبا وافرا من الحضارة والثقافة ، يلى ذلك طور نثرى يشتغل فيه النثر بنقد ما تجمع لديه من آثار الشعراء المتقدمين ، وينخذل الشعر فى أثنائه أو عقبه مباشرة ، فاذا ما انبثت فى الأمة روح جديدة جاء طور شعرى جديد سابق أيضا ، يليه طور نثرى وهلم جرا . ولعل فى تاريخ الأدب الفرنسى مثالا لذلك واضحا : اذ سبق الشعر الفرنسى بالظهور على أيدى التروبادور ورونسار ، ثم نهض النثر على أيدى رابليه ومونتين فى عهد النهضة الأوربية ، ثم نهض الشعر مرة أخرى فى عهد لويس الرابع عشر على أيدى كورنى وراسين ، ثم كان القرن الثامن عشر عهد نثر طويلا ظهر فيه فولتير وروسو ، ثم كانت النهضة الرومانسية الشعرية فظهر لامرتين وهوجو ، ثم نهض النثر بانتشار الحركة العلمية وذيوع القصة ، وظهر القصاصون كبلزاك وموباسان ، والنقاد كريبان وتين .

يتشارك النثر والشعر ـ منذ ظهور النثر الفنى ـ فى تأدية رسالة الأدب ويتشابكان موضوعات وغايات ، ويتراوحان صعودا وهبوطا مع تعاقب العصور ، ويظهر النوابغ فى كل منهما ، وينال هؤلاء وأولئك حب المثقفين واعجابهم ، بيد أن الشعر يظل آثر لدى المثقفين وأكثر استئثارا بحفظهم واستشهادهم ، ويظل الشعراء أحظى بالرعاية والاهتمام ، وآثارهم أحظى بالدرس والنقد . والى الشعر والشعراء ينصرف الذهن أول ما ينصرف اذا تحدثنا عن الأدب أو فكرنا فى الأدباء ، أو أردنا الموازنة والاستشهاد أو التدليل على صحة نظرية . وباسماء فحول الشعراء تسمى عصور الأدب المتتابعة فى تاريخ الأدب الانجليزى ، كل ذلك لما يمتاز به

الشعر من تضمين المعنى الشامل اللفظ الموجز ، والنظرة النافذة القول الرصين ، وما يتوفر عليه من شرح العواطف والذكريات ، والآمال والأشجان والأطراب ، وما زال الانسان أكثر انجذابا الى العاطفة منه الى الفكر ، وهو من ثم يؤثر الشعر على النثر ٠

نشأ الشعر العربى وارتقى فى البادية ، سابقا للنثر ، اذ بلغ ما بلغه من الرقى على أيدى أصحاب المعلقات وأضرابهم ، والنثر لا يتعدى بعد الخطب القصار والحكم المنثورة والأسجاع المأثورة والوصايا المتفرقة ٠ نعم كان للقبائل خطباء كما كان لها شعراء ٠ ولكن العرب كانوا بالشعر أولع حتى عدوه معرض مفاخرهم ، وقالوا : « الشعر ديوان العرب » ، ولم يقولوا : « الأدب » ولا « الخطابة » ٠ ولم تذع كلمة النثر حتى تحضروا وتثقفوا وانتشرت بينهم الكتب ٠ وكان الشعر والنثر معا فى بدء أمرهما مختلطين بالدين والدولة ، فشاعر القبيلة كان وزير دعايتها بتعبير العصر الحاضر ، والشعر والسحر والكهانة والعرافة والتنبؤ والسجع كانت معانى وألفاظا متلاحمة الوشائج ٠ وقد كان للدين بين العرب من أقدم عصورهم مكان ، وأخرجت جزيرتهم عددا من الأنبياء عديدا ، وكان الشعر الى ظهور الاسلام ينشد فى المواسم الدينية ، وتخاطب به الآلهة ، من ذلك قول بعض اليمانيين فى طوافهم ٠

عك اليك عانية عبادك اليمانية

ولم يفصم الشعر والنثر العربيان يوما علاقتهما بالدين والدولة ، بل ظلا طول عصورهما على اتصال بهما متين ، بل بفضل الدين احتوى النثر العربى على أثر فنى لا يجارى بلاغة ، بل هو نموذج البلاغة الذى ظل يحتذى ويدرس ويقتبس فى النثر والشعر معا طول العصور ، وهو القرآن الكريم ، وبقيام الملك على أساس دينى اتصلت علاقة الأدب بكلا الملك والدين ، وظل الشعر يتقرب الى الحكام بالمدح ، والنثر يعمل فى دواوينهم ، ولم يخرج الأدب العربى خروجا تاما من طور خدمة الملوك ، الى الطور الفنى الخالص المنزه عن كل غرض خارجى أو مطلب مادى ، وانما ظل الشعراء والكتاب يعتمدون على رعاية الأمراء ، ويسخرون فنهم لخدمتهم ٠

وتوالت أطوار الشعر والنثر فى تاريخ الأدب العربى : فسبق الشعر فى الجاهلية ، وحل محله النثر فى صدر الاسلام متمثلا فى الكتاب الكريم وخطب الرسول وخلفائه وكتبهم وكتب عمالهم ، واستعاد

الشعر مكانه فى عهد الأمويين على ألسنة جرير والفرزدق والأخطل وجميل وكثير وابن أبى ربيعة وأضرابهم ؟ وعند ذلك كان العرب قد تشربوا الحضارة والثقافة ، فظهر النثر الفنى على أقلام عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ والبديع ، وبلغ الشعر فى الوقت نفسه أوجه على أيدى معاصرى هؤلاء من الشعراء ، كبشار وأبى نواس والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى والمعرى ، ثم أفل نجم الشعر بدءا من القرن الخامس وأفسده التعمل ، وأعوزته روح الطموح والمغامرة التى غاضت من نفوس الأمة التى أرهقها المتسلطون . وبقيت للنثر بقية من قوة مستمدة من نضج الثقافة الاسلامية ، فكان العصر التالى طور نثر طويلا أنجب من النقاد والمؤرخين والكتاب أضراب ابن خلكان والنويرى والقلقشندى وابن رشيق وابن خلدون ، ممن كان هم أكثرهم جمع الآثار الأدبية والتاريخية المتخلفة من العصور السالفة ، وتنظيمها والتعليق عليها . ثم لحق الوهن والاسفاف النثر كما لحق الشعر . فلما كانت النهضة الحديثة ، كان الشعر أسبق الى النهوض والحياة والتخلص من شوائب الصنعة والتقليد ، فالشعر أسبق من النثر الى الازدهار وأسبق منه الى الذبول .

كان الشعر أسبق الى الظهور والرقى فى الجاهلية ، وكان العرب يعدونه ديوانهم ، وكانت له لديهم مكانة عظيمة ، وقد ظلت له هذه المكانة على توالى العصور ، على رغم ظهور النثر الفنى ورقيه وحصول الكتاب دون الشعراء على المراتب السامية كالوزارة ، وظل الشعر أعلق بالنفوس وآثر بالحفظ والذكر ، ولم يسايره فى الحفظ والسيرورة من آثار النثر الا القرآن الكريم ، وهو مملوء بالروح الشعرى حافل بالتشبيهات والمجازات البليغة . ولما ارتقى النثر الفنى راح يتتبع خطى الشعر : يقتبس أبياته ويضمن شطراته ، ويتناول موضوعاته ، ويحاكى موسيقاه ووزنه ، فاصطنع السجع والازدواج والجناس ، وأصبح السجع فى النهاية للنثر لازما لزوم القافية للشعر . والحق أن الأدب العربى بفنيه الشعر والنثر اتسم دائما بالاحتفاء باللفظ وجرسه وتنميقه ، والأسلوب وتقسيمه وتدبيجه ، وقد ظل ذلك مستساغا مقبولا حينا ثم أفرط وسمج . وظل الشعر العربى شديد الحرص على فخامة الموسيقى ووضوحها واطرادها بلا اخلال ، كالاخلال الذى يكثر فى الشعر الانجليزى ويلجأ اليه شعراء الانجليزية قصدا للتنويع واجتناب الاطراد الممل ، وظلت القافية فى الشعر العربى كذلك واضحة جزلة مكونة فى الواقع من قافيتين صوتيتين ، كما فى « عانيه » و « مانيه » فى البيت السالف الذكر ، وهذا ما يعرف فى الانجليزية بالقافية المؤنثة ، وقد دخلت الانجليزية نقلا عن الايطالية ولكن الشعراء سرعان ما نبذوها ، لعدم

ملاءمتها لطبيعة اللغة الانجليزية التى تمج (١) الافراط فى الموسيقية نثرا أو نظما ٠

ولما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر ، ونبغ فيه الكتاب واحترفوا انشاء الرسائل الديوانية ، وحرصوا على التزود بكل أسباب الثقافة ، والتحلى بكل موجبات الفضل ، عالج أكثرهم الشعر طبعا أو تكلفا ، فأثرت عن الحسن بن وهب وابن الزيات وابن الصولى وسعيد بن حميد وابن العميد وابن عباد والخوارزمى والبديع والجرجانى والعسكرى ، أشعار قالها بعضهم تظرفا ورياضة للقريحة ، وقالها بعضهم جادين فى التعبير عن خوالج صميمة وآراء صادقة ٠ وقد قيل ان الجاحظ عالج قرض الشعر طويلا ثم أقلع حين لم يفلح ٠ وكان البديع والحريرى يخالفان فى مقاماتهما بين شعر ونثر لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر الا بالعروض ، وفيما عدا ذلك يتساويان تنميق لفظ وبلاغة انشاء ، ومن أجمل أشعار الكتاب قول الجرجانى من أبيات هى من غرر الشعر العربى :

يقولون لى : فيك انقباض وانما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

اذا قيل : هذا مشرب قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظمـا

وقد كانت المقابلة والمفاضلة بين الشعر والنثر من هم نقاد العربية وكان أكثرهم يميل مع الشعر ، على أنها مفاضلة لا موضع لها : فليس الشعر خيرا من النثر ولا النثر خيرا من الشعر ، وانما كلاهما ضروريان وكل منهما جميل فى موضعه ، زد على ذلك أن أولئك النقاد كانوا يدخلون فى حسابهم اعتبارات خارجية لا صلة لها بالفن الصميم ، بل هى شؤون اجتماعية أو سياسية أو فردية صاحبت الأدب فى بعض العصور ، فأصحاب الشعر يستدلون على أفضليته بأن الشاعر يخاطب الأمير باسمه مجردا وباسم أمه وبصيغة المفرد ، وبأن الشعر رفع قبائل كأنف الناقة ووضع أخرى كنمير ، وبأن الكذب ومدح النفس يقبلان فيه ولا يستساغان نثرا ، وأصحاب النثر يؤيدون حجتهم بأن الرسول الكريم لم يقرض الشعر ، وأن الشعراء يخدمون الكتاب ويأخذون هباتهم ٠ وأن الكاتب يجلس والشاعر ينشد وهو قائم وهلم جرا ٠

نشأ الشعر والنثر الانجليزيان كذلك على صلة بالدين والدولة ، وكان مزاولوهما الأوائل أمثال تشوسر وسبنسر وهوكر من رجال السياسة

---

(١) تمج : تلفظ ٠

والدين والحرب ، أو كانوا على اتصال بالساسة والمحاربين وعلماء الدين. ومن الكنيسة خرج فن التمثيل ذو الصلة الوثيقة بالأدب ، فكان قوامه الشعر أولا على عهد شكسبير ، ثم انحاز تدريجا الى النثر ، وكان للانجيل أثر بليغ فى اللغة الانجليزية ، غير أن الشعر والنثر ما لبثا بعد ذلك أن انسلخا تدريجا عن الملك والكنيسة والأحزاب والأعيان ، واعتمد كلاهما مكان أولئك جميعا على الجمهور القارىء ، ودخلا فى طور الفنون الخالصة التى لا غاية لها سوى وصف مشاعر الانسان وشعوره بجمال الحياة وغبطاتها ، وهو الطور الذى لم يبلغه الشعر والنثر العربيان تماما ، بل قام من الأدباء الانجليز من ناصبوا الملكية والكنيسة ، مثل شلى وبيرون .

وكان الشعر الانجليزى أسبق الى الازدهار من النثر : فبلغ أوجه فى عهد اليزابث فى آثار شكسبير ومعاصريه ، وتجلت الروح الشعرية حتى فى النثر القليل الذى خلفه ذلك العصر الحافل بروح الاقدام ، فهوكر مثلا وهو يدرس مسائل دينية يعرج فيصف الموسيقى وصفا شعريا رائقا ، وتلا ذلك طور نثرى طويل فى القرن الثامن عشر ، بلغ فيه النثر الغاية من السلاسة ورحب الجوانب ، ثم كانت هبة قومية جديدة فنهض الشعر فى العهد الرومانسى نهضة باهرة ، وكان كثير من شعرائها كتابا حذاقا أيضا تفيض كتاباتهم النثرية بما تفيض به أشعارهم من روح رومانسية ، ثم ارتقى النثر فى أعقاب ذلك مرة أخرى ، فظهر من النقاد ماكولى وارنولد ، ومن القصصيين ثكرى ودكنز ، وما زالت القصة فى ازدهار مطرد .

وبلغ النثر الانجليزى من الرقى الشكلى والموضوعى ما لم يبلغه النثر العربى : فظهرت فيه المقالة والصورة والترجمة والتأريخ والقصة الفنية . وبهذا كله تهيأ له أن يزاحم الشعر على مكانته ، لا سيما بفضل القصة والرواية التمثيلية ، بل هو انتزع الرواية التمثيلية من الشعر واستأثر بها . والقصة اليوم تستقل بأسماء أعلام الأدب الانجليزى ، وقد مارسها أكبر شاعرين محدثين : كبلنج وهاردى ، بل كانت ممارسة النثر بجانب الشعر دائما من أدب شعراء الانجليزية ، يبسطون فيه آراءهم فى النقد الأدبى والأحوال الاجتماعية . فكان دريدن وكاولى وبوب الشعراء مثلا من أوائل من كتبوا المقالات ، أما كبار شعراء العربية فقلما روى لهم نثر مطنب .

على أن الشعر الانجليزى وان زاحمه النثر فى العصر الحديث هذه المزاحمة · واستأثر دونه بأكثر احتفال الأدباء والقراء ، لم يفقد موضعه الأثير من نفوس المثقفين ، وانما هو يجتاز مثل عصر الركود الذى شهده فى القرن الثامن عشر ، اذ أن النثر والشعر كما تقدم يتجاذبان النفس الانسانية على اختلاف العصور ، بيد أن الناس حتى فى مثل هذا الطور لا ينزعون عن حبهم للشعر · بل يلتفتون الى الماضى يروون صداهم من عبابه الزاخر ، ولا تزال لشكسبير وملتون ووردزورث وشلى منازل فى قلوب قراء الانجليزية ، كمنازل ابن الرومى والمتنبى والمعرى فى قلوب قرائهم ، لا يحتل مثلها الكتاب الناثرون فى كلا الأدبين ·

الطـــور الفنى

فى الأدبين العربى والانجليزى

مما عرف به الانسان أنه حيوان يتذوق الفن ، فحب الفن طبع فيه ، تبدو مظاهره حالما يأمن على نفسه وتتوفر له قوته وحاجاته ، فاذا ما فرغ من الضرورى من أموره التفت الى الكمالى ، وطاب الفن والجمال ، ومن ثم تظهر بعض الفنون بدائية بين الجماعات المتبدية ، وترتقى بينها وتتنوع بقدر ما تسمح به بيئتها ودرجتها من الرقى المادى والعقلى • والرقص والموسيقى والشعر من الفنون السابقة الى الظهور ، لقلة ما تحتاج اليه من المواد الأولية ، أما التصوير والنثر الفنى والنحت والعمارة ، فأكثر تأخرا عنها ، لما تحتاج اليه من تقدم الصناعة والمعرفة بالكتابة والاستقرار فى موطن •

ومهما بلغ الشـــعر من التقدم فى عهد البداوة فما يزال محدود الجوانب قريب الأغوار متشابه الآثار ، فاذا كانت الحضارة والاستقرار والثقافة والتدوين ، اتسعت مواضيع الشعر باتساع جوانب العمران ، وبعد غوره باستفادته من العلم ، وجاد أســـلوبه باستخدامه التدوين والتروى ، واتصلت الجهود فيه وتكاثر الابتكار بتوفر الوقت للتفرغ والتفنن ، وظهر بجانب الشعر أخوه الأصغر سنا وهو النثر ، وظهر بجانب الشعراء الكتاب ، وبظهور النثر يمتد مجال الأدب حتى يتاخم مجال العلم أو يتداخل واياه ، واذ يدون الأدب يطلع عليه أبناء الأمم الأخرى ويطلع أدباؤه على آداب تلك الأمم ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، بعد أن كان الشعر فى عهد البداوة معزولا لا يحس به سواه ولا يعلم هو بوجود غيره ، وبتقييد الأدب يتوارثه جيل عن جيل ، ويزداد تراثه باطراد ، بعد أن كان فى عهد بداوته سريعا الى التلاشى فى ضباب النسيان ، لا يكاد يذكر منه جيل عن أجداده الا القليل المحرف غير المستيقن •

فحين تتحضر الأمة وتتثقف ، يصبح شعرها فنيا ويظهر بجانبه النثر الفنى ، على أن هذا يستغرق زمنا ، ولا يجىء الفن الا متأخرا عن الصناعة وعن العلم • فالانسان يعمد دائما الى الضرورى ، حتى اذا ما قضى منه وطره تحول الى الفن ، أو تحولت الصناعة ذات الغرض المادى الى فن

لا غرض له خارجا عن ذاته ، وهكذا ينشأ التصوير والنحت والعمارة والنثر جميعا ، تكون في أول أمرها صناعات تخدم أغراضا مادية وتسد حاجات الانسان،من اتخاذ المسكن وزينته وتدوين المهم من الأحكام والمواعظ والأخبار ثم العلم ، فاذا ما أطرد سلم الرقى تخلص الفن من تلك الأغراض الخارجية وصار غرضا فى نفسه ومتعة فى ذاته ، وتعبيرا عن الشعور خالصا ، وعبادة للجمال منزهة ·

اذا ما دخل الأدب هذا الطور الفنى ، صارت الصنعة الفنية فيه أظهر والتجويد أوضح ، وليس يخلو الشعر حتى فى بداوته من صنعة ومعالجة وتجويد ، وبغير هذه لا يتصور له وجود ولا لسلكه انتظام ، بيد أن الأديب فى الطور الفنى يصبح أكثر بصرا بتجويد اللفظ وتنسيق الأسلوب وتجميل المعنى ، لما يمتاز به دون شاعر البداوة من ترفه المعيشة ورقة الذوق وسعة القراءة ، والاطلاع على الآثار الأدبية والقواعد والآراء ، فكلما أمعن الأدب فى طوره هذا زاد الأدباء لألفاظهم تخيرا وتسهيلا ، ولأساليبهم تقسيما وتذليلا ، ولمعانيهم استقصاء وتوضيحا ·

وتزداد موضوعات الأدب اتساعا وبعدا عن أسباب الحياة الشخصية الحاضرة ، وتحليقا فى عنان الفكر وأجواز (١) الخيال وآفاق الماضى والمستقبل : فعلى حين يكون أكثر ما ينظم من شعر البداوة نتيجة حادث طارىء أو خاطر عابر ، يتوفر الأدب فى الطور الفنى على تقصى غايات التفكير ، ارضاء لنزعة التأمل والتفكير فى ذاتها ، وعلى توخى مناحى الفن حبا للفن وحده ، ويمسى الأديب ويصبح ولا هم له الا استقصاء الحس والمشاهدة وتصويرها فى أدبه ، وتكثر فى الشعر والنثر آثار التأمل الطويل والوصف الفنى ·

واذا ما تكاثرت الآثار المتجمعة بالتدوين جيلا بعد جيل ، وزخر التراث الأدبى بما تجود به قرائح الأدباء من فيض ، اذا انقضت سحائب منه أعقبت بسحائب كما يقول الطائى ، وكثر نظر الأدباء فيها واستظهارهم لها وحتذاؤهم اياها ، لم يعدموا أن ينتبهوا الى شواهد فيها تتكرر ، وحقائق تتماثل ، وجزئيات تندرج تحت كليات ، فاستخلصوا من كل ذلك قواعد يجعلونها نصب أعينهم فى الانشاء ، ثم يحتفى بعضهم بجمعها وتبويبها والاستكثار من أمثلتها ، فتكون من ذلك علوم المعانى والبيان والبديع ، وكتب النقد والموازنة والتحليل ، وبرغم أن الفن سليقة والأدب ملكة

---

(١) أجواز : الجوز من كل شيء وسطه والجمع (أجواز) ·

لا اكتساب ، والشــعر طبع لا تطبع ، فان تلك العلوم وهاتيك الكتب المستحدثة تترك أثرها فى تقويم الســلائق ، وتوجيه الملكات وتحسين البصر بالادب وأسبابه ، وجمع أشتاته ولم أطرافه ، ولا يستأثر النثر بهــذا التبصر فى الأدب ، بل ينظـم الشعراء القصيد فى مزايا الشعر وأطواره وأحوال الشعراء •

ومن ذلك التراث الأدبى الزاخر يكتسب الأدب شيئا آخر : يكتسب على مر الأجيال لغة أدبية خاصة ، والفاظا خاصة للشعر وأخرى للنثر ، قد صقلها الاستعمال الطويل ورفعها استخدام كبار الادباء اياها الى مرتبة عالية ، وارتبطت بمعان سامية،الأمر الذى يجعلها اهلا لما ينزع الى تصويره الأدباء من عواطف رفيعة ، فتصير للشعر والنثر من كل ذلك لغة خاصة متسامية على لغة العصر المستعملة فى الكلام ، الممتازة بسهولتها واسفافها أحيانا ، وتطورها المستمر بتطور الحضارة المادية ، وتظل لغة الشعر والنثر الخاصة تلك فى ازدياد كلما أضاف اليها أقطاب الأدب الفاظا من اختراعهم أو اشتقاقهم أو مما يرفعونه بعبقرياتهم من لغة العامة ، أو يقتطفونه من لغات الألم الأخرى ، وتتوارث فى الأدب بجانب ذلك تعابير خاصة جارية ومجازات وأخيلة وأمثال ، يموت بعضها تدريجا ويحيا بعض، ويزداد بمرور الزمان صقلا وانسياغا •

هذا الطور الفنى لا شك طور نضج الأدب وبلوغه أشده : فيه يجمع بين حرارة الشعور وعمق الفكرة ، وبين طرافة الموضوع وجودة الأسلوب ، وفيه يتخلص من أقذاء (١) المادية وشوائب الصناعات ، وفى هذا الطور لا فى طور البداوة يظهر أكبر أدبائه وفحولة شعرائه ، وما يزال الأدب فى رقيه المطرد ، وتراثه فى ازدياده المستمر ، مادامت فى الأمة فورة الحياة وصدق الشعور وصحة النظرة ، فاذا خمدت النفوس وزاغت النظرات ، انقلب الفن صناعة ، والحرية قيودا ، وتمسك الأدباء بالقشور دون اللباب، وبالألفاظ دون الحقائق •

كان أدب الجزيرة العربية فى الجاهلية وصدر من الاسلام بدويا : الشعر قوامه والبساطة سمته والقريب الحاضر من شئون الحياة مادته ، محدود المواضيع ، غير متسق الأسلوب ولا منظم الافكار ولا ظاهر الوحدة فى القصيدة • وقد استعاض العرب عن التدوين بالرواية : يروى أشعار

---

(١) اقذاء : القذى ما يتكون فى العين من رمص وغمص وغيرهما والجمع (اقذاء) •

كل فحل ناشيء يقوم له مقام الديوان المخطوط ، ويقوم الشاعر من راويته مقام الأستاذ يبصره بالشعر ووجوه القول ، وبطريقة الرواية هذه حفظ من شعر العرب شيء كثير ، وبها ترعرت الصناعة الشعرية حتى بلغت في هـذا العصر مبلغا من التقدم يعتد به ، وصارت لها تقاليد خاصـة في الأوضاع والمعاني والألفاظ ، كتصريع البيت الأول من القصيدة وتقديم النسيب في مستهاها ، تتجلى كل هذه الميزات في المعلقات ، التي يتحدث صاحب كل معلقة منها في نفس القصيدة ، عن أحبابه وشرابه ، وحربه وأسفاره ، وحكمته وآدابه وقبيلته وعزها وهلم جرا ٠

وبازدياد حظ العرب من الرفاهية والتثقف والتهذب ، ازداد الشعر تهذيب لفظ واتساق أسلوب ، كما يتمثل في شعر ابن أبي ربيعة وجميل ، وظهر النثر يستخدم أولا في تدوين العلوم ورسائل الأمراء واجراءات الحكومة ، ثم مازال حتى استحال على أيدي ابن المقفع والجاحظ والبديع ، فنا يتطلب الجمال اللفظي والمعنوي ويتوخى نواحي الفن ومذاهب التفكير بعيدة عن النفع المادي والغرض الحاضر ٠ وبلغ الشعر الغاية من الصناعة الفنية والحلاوة اللفظية ، والتقسيم الموضوعي ، والتقصي في المعاني ، والتفنن في الوصف ٠ على أيدي أبي نواس وأبي تمام وابن المعتز وابن الرومي وغيرهم ، وهؤلاء وأضرابهم هم لا شك فحولة شعراء العربية ، وان ظل كثير من الأدباء لنزعتهم من المحافظة يقدمون امرأ القيس وأصحابه من الجاهليين ٠ وظهرت كتب النقد وعلوم البلاغة ، ونظم الشعراء القصيد في اطراء فنهم ، ودبجوا أشعارهم بالتشبيهات والأمثال يحتفون بطلبها ويكاثرون بعرضها ، كقول الطائي :

وإذا أراد الله نشر فضـيلة　　طويت أتاح لها لسـان حسـود

لولا اشتعال النار فيمـا جاورت　　ما كان يعرف طيب عرف العـود

وقد سئل بشار فيما قيل : بم فقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ فاجاب : بأني لم أقبل كل ما توررده على قريحتي ، ويناجيني به طبعي ، ونظرت الى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشـبيهات ، فسرت اليها بفكر جيد وغريزة قوية ، فاحكمت سبرها وانتقيت حرها ، وكشفت عن حقائقها واحترزت (١) عن متكلفها ٠ فهذا قول أديب صناع يروض المعاني والالفاظ ، ويعرف خطر التروي واعمال الفكر ، ولا يرسل القول على عواهنه ، ولا يطمئن الى الارتجال الذي كان

---

(١) احترزت : توقيت ٠

شيمة الجاهليين • ومن أمثلة التدقيق فى انتقاء الألفاظ ونقدها ومراعاة تناسب حروفها ومخارجها أيضا ، أن ابن المعتز عاب على أبى تمام تكرار كلمة « أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء ، وهما معا من حروف الحلق ، وذلك فى قوله :

كـريم متى أمدحه أمدحه والورى   معى واذا ما لمتــه لمتــه وحــدى

هكذا يجرى تاريخ أدب كل أمة : يبدأ بطور أولى ، الأدب فيه ظاهر البداوة ، يليه طور فنى تابع لتحضر الأمة وأخذها بأسباب الكتابة والعلم ، وقد استطال الطور الاولى فى العربية وغزر ما حفظ من آثاره لظروف خاصة ، وان يكن الكثير مما أثر من ذلك موضع الشــك • أما الأدب الانجليزى فلا يحتوى تاريخه على آثار ذات بال تمت الى الطور الأول المتبدى ، الا أساطير وشذورا اتخذها الأدب فيما بعد مادة لسبحاته الفنية ، وانما يبدأ تاريخ الأدب الانجليزى الصحيح بعصر اليزابيث الذى كانت الأمة فيه قد تشربت ثقافة اللاتين والاغريق ، واقتبست كثيرا من حضارة أوربا ، وخمدت فيها الفتن واستتب السلام فى ظل آل تيودور • ومن ذلك العصر يبدأ الطور الفنى للأدب الانجليزى وهو طور تاريخه تاريخ رقى مطرد للأدب فى الأشكال والمواضيع والافكار والأساليب ، وتخلص مستمر من شوائب الصناعة وتجرد تام فى عالم الفن الصحيح • والأدب الانجليزى فى هذا كله يمثل التطور الطبيعى المعقول لكل أدب : جرى الشــعر الى غاياته وتلاه النثر ، وتوسعت جوانب كل منهما تدريجا ، وتعددت مجالاته وتميزت أشكاله وتبينت أغراضه •

تهيأت لكلا الأدبين العربى والانجليزى أسباب الدخول فى الطور الفنى • فازدهرت الحضــارة وذاعت العــلوم ودونت الكتب وانتشرت الرفاهية وتوفر الوقت للعمل الفنى المتصل ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد شوطا فى مضمار الفن الخالص ، وأكثر تجردا من شــوائب الصناعة والمادة التى تلازم الأدب أو الفنون عامة فى بداءتها ، اذ أحاطت بالأدب العربى ظروف حالت بينه وبين التخلص من جميع هاتيك الشوائب، فجاء الأدب الانجليزى أكثر فنية فى الموضوع وفى الأسلوب •

ففى الموضوع احتوى الأدب الانجليزى من تصوير الطبيعة وسير الأبطال وخرافات الماضين وأوصــاف الرحلات وآثار الفنــون الأخرى كالتصوير ، ما يفيض جمالا وتنسم منه نسمات الفن الخالص والفكر البعيد والانسانية الشاملة ، وكل هاتيك مواضيع لم يولها الأدب العربى

مكانة أولى ، وفى الأسلوب توفر الأدباء الانجليز على استخدام اللفظ قدر المستطاع لأداء المعنى وتصوير المنظر مستعينين بجرس اللفظ ونغم الوزن فى النظم ، فى حين اهتم أدباء العربية للفظ فى ذاته لا على كونه مجرد وسيلة للمعنى ، وظهرت الوحدة الفنية أو الفكرة الجامعة فى القصيدة وفى المقالة وغيرهما من أشكال الأدب فى الانجليزية ، على حين ظلت القصيدة فى العربية وان أصبحت أكثر تقسيما وأجود ترتيبا مما كانت عليه من قبل ، عديمة الوحدة مختلطة الأجزاء ، تثب من قريب الى بعيد ومن نسيب الى مديح ، ومن مديح للغير الى فخر بالنفس ، ومن فخر الى شكوى .

ولم يتخلص الأدب العربى من شبهات الصناعة والغرض المادى قط : اذ ظل أكثر الشعراء والكتاب يخدمون الأمراء ويتوخون مواقع رضاهم . وليس يخرج الأدب من حيز الصنعة الى عالم الفن الحر مادام ذا غرض خارج نفسه ، وذلك ما لم ينكره أدباء العربية أنفسهم ، فظلوا يسمون الأدب صنعة أو حرفة أو آلة ، وكان النقاد يوازنون بينها وبين صناعة المغنين ، ويقول ابن رشيق فى تعليقه على حكاية شاعر مدح علويا ثائرا فدفنه المنصور حيا : ان ذلك الشاعر قد جنت عليه حماقته ، اذ ما للشاعر وللزج بنفسه فى أمثال تلك المآزق وانما هو « طالب فضل » ؟

واحتفى أدباء العربية بالألفاظ احتفاء متزايدا : فنشأ السجع والطباق والجناس والتورية وما اليها فى الشعر والنثر معا ، حتى بدا اللفظ منافسا للمعنى مزاحما له على انتباه القارىء وفهمه ، بل صارت له فى النهاية المكانة الأولى ، وتضاءل المعنى بين يديه واختفى ، وأصبحت همة الأدباء موجهة لا الى الغوص على حقائق الوجود وبواطن الشعور . بل الى اقتناص شوارد الكلم وبارع النكات اللفظية ، فعيسى بن هشام مثلا يقول انه كان يطوف البلدان « وقصاراى لفظة شرود أصيدها ، وكلمة بليغة أستزيدها » وعيسى بن هشام أيضا يعيب على الجاحظ أنه « قليل الاستعارات قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ » .

وانما قصر بالأدب العربى عن غايات الفن المطلق ، ما قيد به من اتصال بالأمراء ، وما أرهق به من تقليد للقديم : أدخلت الأولى فيه التكلف والصنعة ، وأبقت فيه غرضا خارجا عن نفسه وصرفت الثانية همه الى

اللفظ البليغ والعبارة الطنانة ، التى تدل على بصر باللغة وتمكن من آثار فحولها المتقدمين ، ويتجلى الفرق بين مدى الادب الانجليزى من الفنية الخالصة ، ومدى الادب العربى منها ، من موازنة حيـــاة الفن الخالص والتأمل الدائب ، والمعالجة المستمرة لأشكال الأدب ومواضيعه ، والطرق المتكرر لمذاهبه ومناحيه ، التى كان يحياها وردزورث وشلى وتنيسون مثلا ، وبين حياة البحترى والطائى والمتنبى المتصلة أوثق اتصال بالأمراء ومنادمتهم وتملقهم ، كان الأولون كأنهم كهنة الفن المنقطعون الى آلهته فى محاريبه المقدسة المصونة ، وكان الآخرون يعيشـــون فى جلبة البلاطات وضجة المحافل والمواكب .

فالأدب الانجليزى بعد ان توفرت له أسباب الحضـــارة والثقافة والتدوين والفراغ ، التى لابد منها لبلوغ الأدب أوج رقيه ، توفرت له أيضا مزيتا الاستقلال بنفسه عن ارادة الحكام وخدمتهم ونزعة التجديد والحرية التى لا تقلد الماضى ولا تقف عند حدوده وبهاتين المزيتين الى تلك الأسباب تجمعت للأدب الانجليزى كل وسائل التطور الطبيعى وبلوغ آماد الفن الخالص ، أما الأدب العربى فأعوزته هاتان الميزتان ، فقعد به اعوازهما فى مجال الفن ، وأبقى به بعض شوائب الصناعة ، ومن ثم أمكن القول بأن الأدب الانجليزى بلغ طور الفن ، أما الأدب العربى فى جملته فظل أقرب الى الصناعة الفنية .

القصص

في الادبين العربي والانجليزي

الميل الى تاليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعيان في الانسان ، فهو كما يميل تبعا لغريزة الاستطلاع الى مشاهدة حوادث الحياة تترى أمام عينيه ، يميل الى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها ، ويميل الى الاستماع الى غيره يرويها له ، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه ٠ والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول ٠ وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء الى القصص ، والى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق ، وبالقصص يشغف الأطفال أشد الشغف ، وبه شغف الانسان في عهد طفولته التاريخية ٠

كان القصص أول صور الأدب ظهورا ، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى ، يشمل معارفهم بالخلق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم ، فما من شيء من ذلك كله الا حاكوا له قصة ، ولا مظهر الا اخترعوا له حكاية تعلله ، فكان قصص تلك العهود مملوءا بالخرافات والأوهام ، دائرا حول الآلهة والملوك والأبطال والقبائل ، وبالجملة كان قصصا رومانسيا تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات ٠ وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر ، يتمثل في أساطير الأولين من مصريين وفرس واغريق ورومان ، وبارتقاء الجماعة العقلي يتخلص العلم رويدا رويدا من آثار القصص والخرافة ويختص الأدب بتلك الآثار وتتمثل في شعر الملاحم وما شاكله ٠

واذا ما ظهر النثر الفني فقد ولت في آثاره أساطير الأولين تلك ، وان بطل الاعتقاد في كثير منها ، وخطا القصص الى المرحلة الثانية من مراحل تطوره ، فاتخذ وسيلة لاسداء المواعظ واذاعة التجارب وتحبيذ الفضيلة ٠ أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على ألسنة الطير والحيوان ، أو أفواه الأرواح والجان ، وصيغ أحيانا في شكل حوار ، كما يرى في قصص ايسوب وجمهورية أفلاطون وحكايات لافونتين وكتاب أميل لروسو ، ويتطور القصص الشعري أيضا فتظهر الرواية

الشعرية التمثيلية ، وتحل محل الملحمة ، وينفصل التاريخ مستقلا عن الأدب متخلصا جهده من الأساطير ، وان ظل الاتصال بين التاريخ والأدب وشيجا طول العصور ·

فاذا اطرد رقى الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج النثر الفنى ، خطا القصص الى مرحلته الأخيرة نحو الكمال ، فصار فنا مستقلا من كل غاية خارجة ، غايته الوحيـــدة غاية كل الفنون ، وهى الجمال والشعور وتصوير النفس الانسانية ، وصارت له قواعده وتقاليده المفهومة، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب الأدب كالملحمة والدراما والخطابة ، وسامى به النثر الشعر وباراه جولانا فى ميدان النفس الانسانية وأداء لوظيفة الأدب ، وظهر فى مضماره من فحول الكتاب من يضاهون فحول الشعر منزلة ونبوغا ، بل ظهر من الأدباء من يجمع بين الشعر والقصص ، وذهب الوهم الذى كان سائدا من قبل من أن القصص مطلب هين ، وقنص شهب البزاة سواء فيه والرخم (*) ·

وللقصص ، اذا ما بلغ هذا الطور السامى من أطوار رقيه مزايا يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومنثوره فهو يمتاز برحب المجال رحبا يمكن من يمارسه من تناول أطراف الحياة المترامية ، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب ، وهو يفسح للخيال متسعا بعيد الآفاق ، ويمتع اللب بما يعرض من دقائق الحياة وتفاصيلها الى جانب جلائلها وبعيد أقطارها ، وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه ذرعا باستقصائه الى لمحات خاطفة ، وقبل القصص كان النسيب وقفا على الشعر دون النثر ، والقصص لسهولة متناوله يذيع فى الخاصة والعامة على حد سواء ، على حين كان الشعر وقفا على خاصة المثقفين ·

ولذيوع القصص فى الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون وسيلة عديمة النظير لنشر آرائهم ودعاياتهم ، بتصوير الحال التى يكرهون وابراز

(*) قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم ·

شهب : خالط بياض شعره سواد ·

البزاة : البازى جنس من الصـقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم تميل أجنحتها الى القصر وتميل أرجلها واذنابها الى الطول ومن أنواعه الباشق والبيدق والجمع (بزاة) ·

الرخم : طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد له منقـار طويل مدبب يبلغ طوله نحو نصف متر والذنب طويل ·

« والمقصود بالعبارة أن الأمر سهل » ·

مساوئها وعرض ضحاياها والتنديد بجناتها وتشخيص سبل ملاقاتها ، كان ذلك فى أسلوب قصصى شائق تقبله النفس وتستسيغه وتقتنع به اقتناعا كان صعب المنال لو عرض عليها الأمر صورة النصح أو الوعظ . ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوى الذى كان له أكبر الأثر فى الفكر الحديث وأعظم الضلع فى التطور العقلى والمادى ، وهو أثر قل أن يجاريه أثر الشعر فى سالف العصور .

فالقصة ضرب من الأدب مرن ، يجمع مزايا الشعر كالخيال والعاطفة الى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة العملية ، وهى بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملاءمة ، وهذا سر ذيوعها حتى كادت تعطل ما عداها من ضروب القول ، فقد تهيأت الأسباب من القرن الثامن عشر الى اليوم لنهوض القصة الفنية ، التى تدرس نفس الفرد وحياة المجتمع وتحلل العواطف وتشرح الآراء والمبادىء ، وذلك برقى السواد الأعظم من الأمة بعد أن كان هملا فى غابر العصور ، وانتشار التعليم العام وبروز شخصية الفرد وذيوع مبادىء الحرية والديمقراطية ، هذا الى ارتقاء الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارىء لا على رعاية الأمراء والوجهاء .

ولم تقتصر القصة فى رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت ضربا قائما من ضروب الأدب ، يتوفر على ممارسته بعض أقطاب الأدب ، بل تطورت القصة تطورا داخليا ، وتميزت فيها ضروب من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين : فهناك القصة التاريخية التى تدور حول الملوك والعظماء السابقين ، والقصة البيئية التى تصور المجتمع المتواضع تصويرا شائقا ، والقصة النفسية التى تحلل بواطن النفوس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث أحيانا ، والقصة الاصلاحية التى تحاول تحسين حال العامل أو تعديل بعض النظم القانونية أو الاجتماعية ، أو تقويم بعض المعتقدات والتقاليد ، والقصة المستقبلية التى تتنبأ بما سيصير اليه الانسان وتحاول تسديد خطاه الى ما يجب أن ينزع اليه فى مستقبله ، والقصة البوليســـية التى تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبيهم من الشرطة ، وقصة المغامرات التى تصف أعمال بعض الأفاقين ورحلاته فى المجـــاهل .

هكذا يتطور القصص ، من نوادر وأساطير بدائية واهية القصد منتشرة النظام ، الى صور فنية محكمة ، ومن أشباح مبهمة وحوادث متضـــاربة الى شخصيات ناطقة وسياق منطقى منسجم ، ومن الخرافى والخارق والبعيد الى الواقعي والعلمي والحاضر ، ومن الماضي بآلهته وأبطاله

وعظائمه الى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده المشهودين ، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والعاطفة الثائرة الى المعنى المتدبر والتأمل الهادىء والوصف المفصل ، وهذه الصفات التى تكتسبها القصة فى طورها الراقى تكتسبها معها أو بعدها الرواية التمثيلية التى هى أسبق من صاحبتها الى الظهور ، فتهجر الشعر الى النثر ، والخيال الى الدقة ، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لهما ، لا تكادان تختلفان الا شكلا وطريقة تناول • فصـــاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأفواههم ، وصاحب القصة لا يدعهم يفعلون ذلك الا الى مدى ، ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلا دقيقا ، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابة الرواية التمثيلية والقصة المقروءة •

كان للانجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيرهم من الشعوب ، وكان كل ذلك يتداول شفاها ، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق الى الرقى ، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربرى ، ثم ارتقت الرواية التمثيلية فى عصر اليزابث على يد شكسبير ومعاصريه رقيا عظيما ، وبدأت القصة النثرية مرحلتها الثانية ، فاتخذت وسيلة لغيرها : اتخذها صـــاحب كتـــاب « يوفيواس » وسيلة لشراح آداب الجنتلمان ، واتخذها مؤلف « يوتوبيا » وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة ، واتخذها كاتب « اطلانطس » وسيلة لبسط النظريات العلمية ، وفى كل هذه كان الفن هزيلا والشخصيات مطموسة أو معدومة والسياق متداعيا •

ثم تهيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سالفة الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث ، طور الفن المنسجم المهذب الذى يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع ، وذلك فى أوائل القرن الثامن عشر ، وقد بدأ ذلك التطور تدريجيا كما هو الشأن فى كل تطورات الطبيعة والمجتمع الانسانى ، فانسلخت القصة رويدا رويدا عن المقالة الاجتماعية التى كانت منتشرة اذ ذاك فى الصحف الدورية على أيدى ستيل وأديسون : كانت تلك المقالة تهتم بالأحوال الاجتماعية ، وتعرض لشخصيات المجتمع تحللها ، وأولعت بشخص واحد يدعى سير رودجر ، تتبعه فى شتى المواقف وتنطقه بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات ، فكان من مجموع تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعى وهلم جرا ، ولم يبق أمام الكتاب الذين جاءوا بعد أديسون وستيل ، الا أن يزيدوا التصميم احكاما والحوار تسديدا والشخصيات بروزا •

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ تطور ورقى مستمرين ، أحكمت أوضاعها وتعددت ضروبها وتتابعت أزياؤها ، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالا ونساء : منهم فيلدنج وديفو وسمولت كتاب قصص المغامرات ، وجين أوستن وشارلوت برونتى ومسز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع ، وســكوت صاحب القصص التاريخية ، ودكنز وبتلر أصحاب القصص الاصلاحية ، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذى صير اسم شرلوك هولمز علما على ذلك الضرب من القصص ، الى غير هؤلاء من القصصيين الذين لا يحصون ، والى غير تلك من ضروب القصص التى لا تستقصى • وفى تلك القصص تناول القصصيون أطراف الحياة المتباعدة وأمتعوا النفوس وأرضوا الفن ، وما زالت القصــة فى صــعود وكأنها لما تبلغ ذروتها •

وفى خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيلية تتطور وتبعث بعثا جديدا ، على صورة مماثلة للقصة المقروءة ، قوامها النثر السهل المرسل والواقع الحاضر ، ومرماها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الآراء والمذاهب ، وظهر فى مجالها أرنولد بنيت وبرناد شو وجالزوورذى وغيرهم. والى الأخيرين يعزى الفضل فى كثير من الاصلاح الذى طرأ على النظم الاجتماعية والمذاهب الفكرية فى الجيل الأخير ، حتى شبه شو بمكنسة كهربائية ذهنية ، تنقى أوضار (١) العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقاليد فاسدة •

وكان للعرب فى جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم ، متداخلا كل ذلك فى شعرهم ونثرهم ، مختلطا بثقافتهم ودينهم ، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية ، وظل مختلطا بالأدب ممتزجا بالتاريخ ، يظهر فى كتابات الجاحظ والأصمعى والطبرى والأصبهانى ، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء ، وحيكت نوادر جديدة حول أعلام الحب والحرب ، كابن أبى ربيعة وأبى نواس وعنترة ومهلهل ، وحوى القرآن الكريم طرفا جليلا من شائق القصص ، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سوز القرآن الى نفوس الخاصة والعامة ، ثم انتشرت الكتابة وذاع النثر الفنى ، فدخل القصص طوره الثانى : الطور الذى فيه يستخدم وسيلة لغيره ، فاتخذ فى كليلة ودمنة وسيلة لبث الحكمة ، وفى رسالة حى بن يقظان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة ، ولا حاجة الى القول بأن خصائص القصة الفنية فى هذه الكتب وامثالها كانت ضعيفة واهية •

---

(١) أوضار : وضر فهو وضر مثل وسخ وسخا فهو وسخ •

ثم تمهدت بعض أسباب دخول القصة فى طورها الثالث الفنى : باستقرار الحضارة والرفاهة ، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان ذلك فى القرن الرابع ، فبدأت تنمو بذور القصة الفنية التى تدرس المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفنى والفكرة الموحدة ، ويبدو كل ذلك فى مقامات بديع الزمان ، فهذا الكاتب يمثل فى العربية من هذه الوجهة مكان أديسون وستيل فى الانجليزية ، وقد أبدى فى ثنايا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو جدير بأسمى أنواع القصص ، واخترع شخصية أبى الفتح الاسكندرى فكان على الأرجح المؤلف العربى الوحيد الذى اخترع شخصية شائقة واضحة من صنع الخيال المجرد ۰ ولم تكن شخصيات المقامات التالية فيما بعد الا نسخا مكررة منه لا ابتكار فيها ، وشخصية أبى الفتح الاسكندرى تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التى تعينها شخصية سير رودجر ديكفرى من تطور القصة الانجليزية ۰

فمقامات البديع فى الأدب العربى بمثابة مقولات أديسون وسبتيل فى الأدب الانجليزى : تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلة ، بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه ۰ ولم يبلغ مرحلته التالية ۰ لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن مكتملة : فالمقامات ذاتها قد ظهرت متأخرة ، ظهرت فى أوج رقى الأدب العربى فى القرن الرابع ۰ وكان أجدر أن تأتى متقدمة فى القرن الثانى مثلا ، فيليها باقى التطور المنشود الذى تلا مقالات أديسون وصاحبه فى الانجليزية ، وما ذاك الا لنزعة الجمود والتقليد التى كانت دائما مخيمة على الأدب العربى ، تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنويع فى الأشكال والموضوعات ، وفقدت المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعبا بالألفاظ والمعانى ۰

أضف الى نزعة الجمود تلك استمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون جمهور الشعب ، قلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده وقيادة طريقه : فالحريرى مثلا حين تابع بديع الزمان وكتب مقاماته لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعوه الى تناول مشاكل المجتمع ومطامع الشعب بالدرس والعرض والاصلاح والتوجيه ، بل امتثالا لاشارة بعض الأمراء ممن « اشارته حكم ، وطاعته غنم » كما يقول هو فى مقدمته ۰ ومحال أن ترقى القصة الاجتماعية فى مجتمع أدباؤه منفصلون من مشاكل شعبه لائذون بظل أمرائه ۰

زد على ذلك مكانة المرأة فى المجتمع ، التى كانت قد بلغت قبل أن يكتب البديع مقاماته حدا من التدهور بعيدا ، بعد ما كان من امتداد

الفتوح واختلاط الأجناس وتفشي التسرى والعبث . فضرب على المرأة انحجاب ، وخيم عليهـا الجهل واعتزلت المجتمع ، والمجتمع بغير المرأة لا يخرج القصة الفنية التى تدرس الحب وتقدس الزواج وتشرح العواطف، وانما ينتج الشعر المستهتر البذىء كشعر بشار وأبى نواس . وقد كان انهاض حال المرأة نصب عينى أديسون وستيل وغيرهما ممن تلاهما من القصصيين كما كان الحب مدار أكثر القصص ، كما كان من النساء جم غفير من القصصيات كما تقدم .

والى نزعة التقليد التى كانت تسود الأدب العربى ، كان ذلك الأدب ينزع الى الصنعة اللفظية : فمقامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات، ولا غرو ، فاذا كان الأدب قد تخلى الى حد بعيد عن مشاكل المجتمع ، فلم يبق له من مواد القول الا النزر اليسير ، فلما أعوزه الافتنان فى المعانى التفت الى التلاعب باللفظ ، والى هذه الزركشة اللفظية قصد الحريرى أول ما قصد فى محاكاته للبديع ، ولم يفكر قط فى ابتكار جديد من جهة المعانى والأفكار ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضـــوعات الاجتماعية ، بل اكتفى بالتقليد الشكلى ، فجعل فى كل مقامة شخصين يروى أحدهما عن الآخر ، وتنقسم المقـــامة بذلك الى قسمين : دهليز للقصة كما يقول العامة ، والقصة ذاتها التى تبدأ بظهور البطل ، ولم تجىء شخصية بطله فى وضوح شخصية أبى الفتح وتعدد نواحيها .

فحالة المجتمع العربى ، ونظام الحكم فيه ، ومنزع الأدب العربى ، كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص الى كماله ، فوقف عند بدء الطور الثالث ، وهو الطور الفنى الصميم ، فعرف الأدب العربى النوادر والأخبار والسير وما اليها ، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلمى أو الخلقى ، ولم يعرف القصـــة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم والشخصيات الواضحة ، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفنى ، ولم تسم القصة فى الأدب العربى الى منزلة عالية كالتى تمتع بها الشعر والخطابة والنقد ، وظلت للشعر المكانة الأولى وبقى مستأثرا بأكثر ضروب القول ، ولم يظهر فى القصة من الأعلام أمثال من ظهر فى الشـــعر والنقد والخطابة ، وترك القصص الطول الحافل بالوصف الاجتماعى والخيالى للعامة .

أثـر المجتمـع

فى الأدبين العربى والانجليزى

انما يقصـــد الأديب فيما ينشىء الى التعبير عن شـعوره وأفكاره لأنه يحس حافزا يدفعه الى ذلك التعبير ، ويشـعر براحـة وغبطة اذا ما طاوع ذلك الحافز ، بيـد أنه يتأثر فى كل ما يحس ويفكر ويكتب ببيئته الجغرافية ووسطه الاجتماعى وجيله الذى يحيا فيه ، لا ندحة له مهما بلغ من استقلال الشخصية والأصالة فى الابتكار عن التأثر بكل ذلك ، بل لا نغالى اذا قلنا ان عبقرية الأديب ليست الا مجموعة مؤلفة من تلك العوامل ، والأديب الذى يعتزل مجتمعه لا يتأثر به سائر أدبه الى الاضمحلال وان يكن سطحيا ، وكلما كان الأدب حيـا كانت صلته بمجتمعه شديدة التوثق ، وكان هو مرآة لذلك المجتمع واضحة ، وان لم يمنعه ذلك أن يزخر بآثار الفردية القوية والشخصيات المتميزة .

فالأديب يتأثر بالمجتمع تأثرا تلقائيا غير مقصود ولا محســـوس أحيانا ، ثم هو يتأثر به تأثرا واعيا مقصودا ، وذلك حين يلجأ الأديب عمدا الى وصف ما يحيط به من أحوال المجتمع ، وما يحمد منها وما يذم ، ومن يصادفهم ويخالطهم فى المجتمع من أفراد ذوى خلائق متباينة ، يلذ للأديب أحيانا عرض كل ذلك فى أدبه كما تعرض الصور والدمى فى المعارض والمتاحف ، ويغتبط أى اغتباط بقدرته على تصوير ما راعه من تلك الحقائق والسلائق على ما هى عليه ، وقد يزيد فيجلوها فى مجلى الفكاهة والسخرية ، أو يزيد فيندد بما يرى من مســاوىء ويدعو الى الاصلاح ويوضح وسائله ، ويؤلف لنفسه مبادىء يرضاها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والدين وهلم جرا ، ولا يعود معبرا عن شعور الفرد فحسب ، بل يصبح قائد فكر بين الجماعة كذلك .

هكذا يصبح للأدب غرض اجتماعى اصلاحى ، ولا ريب فى أن غرض الأدب الأول هو غرض كل الفنون ، من التعبير الصحيح عن صـادق الشعور بحقائق الحياة وجمالها ، فاذا ما ظهر بجانب ذلك غرض اجتماعى أصبح للأدب غرضان ، بيد أنهما لا يتنافران بل يأتلفان فى يد الأديب القدير أحسن ائتلاف ، ويصوران الحياة أصدق تصوير وأجمله ، أما فى

يد الداعية المتحمس لدعوته الاجتماعية دون كبير احتفال بجمال الفن وروعة الأسلوب ، فيوشك أن يخرج الأثر المنشأ من عالم الأدب الى حيز العلم ، فيندرج تحت عنوان الاقتصاد أو التربية أو السياسة أو غير ذلك ، أما الأدب الصميم فلا غنى له عن الجمال والصبغة الفنية ، ووظيفته الكبرى فى بيان الشعور وما اتصل به من أفكار ٠

وتدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق بنيه لا شك مجال للأدب رحيب ، ومسرح لفن الأديب خصيب ، ومهما تغيرت أحوال المجتمعات على تتابع الأجيال ، فان طباع الانسان المركبة فيه واحدة لا تتغير ، ومظاهره من كرم ولؤم ونبل وادعاء وغرور ونفاق ، وولع بالمظاهر وتفاخر بالنعمة المحدثة ، كل هاتيك أمور تتكرر ولا تتبدل ، وتبدو فى شتى الأشكال والأزياء وهى فى الصميم سواء ، ومن ثم نرى صورا لها فى شتى آداب الأمم على تباعد عصورها ومنازلها : فالمسيو جوردان محدث النعمة الذى رسمه موليير متعثرا فى أذيال ثروته مكاثرا بها فى سذاجة ، هو أحد « النوابين » المحدثى النعمة الذين أولع بتصويرهم كتاب الدراما الانجليز فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهو هو ذلك المحدث النعمة الذى صدع رأس عيسى بن هشام فى المقامة المضيرية بتعداد محتويات بيته وأثمانها ومزاياها ، فالأديب الحاذق يفطن الى الخطوط الرئيسية فى الصورة الشخصية التى يبغى رسمها ، فاذا ما صورها لم تكن صورة فرد من الأفراد ، بل جاءت صورة ضرب من الناس فى شتى الأمم والعصور ٠

وقد ترك المجتمع آثاره الواضحة على تعاقب العصور فى الأدبين العربى والانجليزى ، واختلط أدباهما بتاريخيهما اختلاطا شديدا ، ولا غرو فالأدب من بين الفنون أشدها بالحياة اليومية والأحوال الاجتماعية والأحداث السياسية ارتباطا ، وتبينت فى ذينك الأدبين سمات الأجيال المتتابعة ، وكثرت فيهما النظرات الاجتماعية كما كثرت التأملات الفردية ، وقام فيهما من الآثار ما قوامه تدبر أحوال المجتمع ونقد أخلاق أبنائه ، بجانب الآثار التى قوامها نظر الأديب فى ذات نفسه وبوحه بأشجانه واطرابه ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أبعد فى تناول الشئون الاجتماعية مدى ، وكان أدباؤه أكثر شغلا بالدعوة الى الاصلاح ، وان لم يهملوا التعبير عن خوالجهم الفردية ، ولم يقصروا فى تصوير شخصياتهم المستقلة ٠

ترى طابع العصر الاليزابثى فى أدب شكسبير ومعاصريه ، فهو عهد فتوح ومغامرات ، فامتلأت رواياته التمثيلية بذكر الشجعان والأسفار

والحماسة الوطنية وتاريخ انجلترا ، وهو عصر لم تبدد الثقافة بعد أوهام سواد أبنائه ، فمسرحياته تعج بذكر الشياطين والسحرة والأشباح والعرافة والتطير ، ولم تكن نفوس أبناء ذلك العصر قد رقت ولا أذواقهم قد صقلت ، ولذلك تكثر في رواياته المذابح والمبارزات وسفك الدماء ، وكان عهد تعصب ديني ، ومن ثم يسخر أدباؤه من أبناء النحل (١) الأخرى كاليهود ، ولم يكن الحكم الدستوري قد توطد بعد ، وما تزال للملك اليد الطولى والكلمة العليا في السياسة الداخلية والخارجية ، ومن ثم ينسج شكسبير لنفسه في رواية هنرى الرابع وغيرها نظرية سياسية قوامها الملكية المستبدة العادلة ، ويعدها أساس نظام الكون ٠

ونرى أثر عهد الاصلاح الديني في انجلترا في أدب عهد المطهرين : اذ خفت صوت الأدب وغيره من الفنون التي لا يطمئن اليها عادة المتشددون من المتدينين ، واتصف الأديبان الكبيران اللذان ظهرا اذ ذاك – ملتون وبنيان – بالاهتمام بالشئون الدينية والتأثر بالكتاب المقدس موضوعا وأسلوبا ، ونرى أثر عصر المجون الذى تلا ذلك في مسرحياته المملوءة بالسقاط ، حتى اذا ما أشرق العصر التالى وقد اطمأنت النظم الدستورية وانتشرت الثقافة والثروة في جمهور الشعب ، أوغل الأدب في تناول الشئون الاجتماعية ، ولم يقنع بالاشكال الموجودة أصلا ، فاتخذ لنفسه شكلا أدبيا هو أليق لتصوير المجتمع ونقده وهو القصة ، وفي قصة القرن الثامن عشر وفي شعره يتجلى ما كان يسود مجتمع ذلك العهد من تأنق وتصنع ، وحرص على تعلم اللغات وممارسة بعض الفنون ، ويجرى ذكر خروج الأرستقراط للصيد بخيلهم وكلابهم ، ويبدو مع ذلك ما كان يتخلل المجتمع من نفاق ورذيلة وادمان للشراب وافراط في الطعام وما كان يعصف بالطرق العامة من عبث الأشقياء ٠

اتخذت القصة وسيلة لوصف المجتمع ، وقد أدت غرضها ذاك خير أداء ، وكيف لا تؤديه والقصة في يد الأديب الحصيف ليست الا قطعة من المجتمع الحى المتحرك منقولة على القرطاس ؟ قطعة من المجتمع طوع بنان (٢) الأديب يؤلفها كيف شاء ويرسم بها من الأشخاص من شاء ويبرز بها من الآراء ما يختار ، فلا غرو أن ازدادت القصة الاجتماعية رقيا وذيوعا في القرن التالى ، بازدياد المبادىء الديمقراطية انتشارا أعقب

---

(١) النحل : المذاهب والديانات ٠

(٢) بنان : أطراف الأصابع ٠

الثورة الفرنسية ، وانتشار التعليم العام ، وتعقبه مشاكل المجتمع بظهور الصناعة الكبيرة ، وانتشار المذاهب الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة كالاشتراكية والشيوعية ، ونزاع الرأسماليين والعمال ، ونهضة المرأة ورقى علوم الاجتماع والنفس والتربية ، وخاض الأدباء غمار كل هاتيك الحركات والتيارات المتضاربة ، ونقلوا فى غضون قصصهم صور هاتيك المعارك الفكرية والأحوال المادية ، وفى قصص مريديث ودكنز وبنلر وهسكلى وبنيت من آثار كل ذلك ما لا يستقصى ، ومن تلك القصص تستخرج صور لتلك الحركات أوضح مما قد تعرضه التواريخ المنظمة .

وطمت هذه النزعة الاجتماعية الاصلاحية وهذه الصبغة العلمية التحليلية ، فى القصة المعاصرة ، فأقطاب القصة والدراما المعاصرون أمثال شو وهاردى وولز وجالزورذى ، كلهم متأثرون بالكشوف العلمية الحديثة والنظريات الاقتصادية الجديدة ، والأحوال الاجتماعية الراهنة ، ولكل منهم مبادئه ودعواته حتى أصبح الأدباء يختلفون ويعتركون ، لا على المذاهب الأدبية والآراء النقدية الفنية كما كان الشأن فيما مضى ، بل على المذاهب الفكرية والآراء السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى هذه المبادىء لا على مبادىء الفن والأدب ينقسمون شيعا ومدارس ، ويسرف بعض الكتاب كبرتراند رسل فى التحمس للدعوة الاجتماعية واطراح الأسلوب الأدبى ، حتى لتخرج بعض مؤلفاتهم من عداد كتب الأدب ، ولا تعد الا فى كتب العلم ان كانت لها قيمة هناك !

كان الشعر العربى فى الجاهلية حقا ديوان العرب كما دعوه : كانوا يقولونه فى شرح أحوالهم الفردية ، من حب وذكر للديار ومناجاة للمطايا ، وفى شرح أمورهم الاجتماعية ، من التمدح بالقوى والتفاخر بالبلاء فى الحرب والتوعد بالثار واباء الضيم (١) ، يرسلون كل ذلك على السجية فيجىء رائعا بصدقه معجبا برجولته ، ويصوغونه فيما اتفق من لفظ وعر وأسلوب شديد ، فظل شعر ذلك العصر ممثلا صادقا له رغم عبث العابثين به ، بل لعله كان أهم مصادر تاريخ ذلك العهد حين دون تاريخه ، فقد ظل المؤرخون يذكرون ما يذكرون من حوادث وحقائق ويتبعونها أبيات الشعر مستشهدين .

وظهر أثر عهد الاستقرار والثروة والنجاح فى ظل الأمويين فى غزليات ابن أبى ربيعة وجميل وأضرابهما ، ومفاخر جرير والفرزدق وأشياعهما ، ثم ظهر أثر الافراط فى تلك الثروة والفراغ والاسراف فى اجتناء لذات الحضارة ، فى شعر بشار وأبى نواس وأمثالهما ، ثم كان

---

(١) الضيم : الظلم والاذلال .

العهد التالى بدء التدهور والانحطاط المادى والخلقى : فهوت مكانة المرأة الى حضيض من القهر والازدراء والجهالة ، وفشت الرشـــوة والمحاباة والمصادرة بين الحكام ، وكثر الفقر من جراء ذلك وادعاء الفقر والتسول والاحتيال باسم الدين والطب والادب والعلم ، وذاع الفســاد وفاحش القول ومبتذل التندر ويبدو أثر كل هذا فى تنديد المعرى بالمرأة وسخر غيره من القراء منها ، وتلك الأقاصيص التى افتن الجاحظ والأصفهانى وابن دريد فى جمعها وتاليفها ، عن عبث النساء وغدرهن وخيانة الزوجات ووجوب تشديد الحجاب عليهن ، فكان ابن دريد مثلا يخترع الحكايات يفسر بها الأمثال السائرة فيتخذ ذلك الضرب من حديث النساء مادة لها • وبدا أثر تلك الحال السالف شرحها أيضا فى مقامات بديع الزمان والحريرى ، حيث لا يزال بطل المقامات يتنقل من تسول الى احتيال الى خديعة ، ولا يزال الحارث ابن همام يؤكد حرصه فى أسفاره اذا ما هبط بلدا أن يتعرف الى واليه أو قاضيه أو بعض ذوى الكلمة فيه ، يتقى بمعرفته ظلم الغاشمين والمرتشين من عمال الحكومة ، ويتحاشى غوائل الارهاق والمصادرة والسجن • ويقف كاتبا المقامات المذكورة صفحات طويلة على استعراض ضروب الشتائم والبذاء يتقاذفها أشخاص الأقصوصة • ويقول ابن الرومى واصفا حال الموظفين والتجار وأضرابهم :

أتـــرانى دون الألى بلغـــوا الآ ... مال من شرطة ومن كتاب ؟

أصبحوا ذاهلين عن شـجن النـا ... س وان كان حبلهم ذا اضطراب

وتجـــار مثـل البهـــائم فـازوا ... بالمنى فى النفـوس والأحبـــاب

هذه لمحة خاطفة الى آثار أحوال المجتمع المتعاقبة فى الأدب العربى ، اذ كان من المحال تقصى تلك الآثار الاجتماعية التى تنعكس فى الأدب ، مادته وأشكاله ومذاهبه وألفاظه ، وما يزال الناظر فى مخلفات الشعراء والكتاب يطلع من آثار مجتمعهم على جديد • وفى نوادر أبى نواس وفكاهات الجاحظ وحكايات الأصبهانى دلائل متفرقة على شتى نواحى الحيـاة الاجتماعية فى عصورهم • واذا قرأنا فى مقامات البديع مثلا ان أبا الفتح اصطنع فيما اصطنع من حيل لاقتناص الدراهم والدنانير حرفة القراءة ، فرآه عيسى بن هشام مرة وسط جمع من الغوغاء يضحكهم بألاعيب قردة ، علمنا أن تلك الحرفة التى ما تزال مشاهدة فى بعض البلدان حتى عصرنا هذا بعد انتشار حدائق الحيوان ، كانت تمارس منذ تلك العهود • وكذلك نعلم أن أبناء السند وفدوا فيمن وفدوا من أبناء الشعوب الى مقر الخلافة

يبتغون الرزق تارة بالصيرفة (١) اذ يقول الجاحظ انه لا يكاد يوجد ذو تجارة رابحة الا وصاحب كيسه سندى ، وتارة باضحاك العامة ـ شأن أبى الفتح الاسكندرى ـ بألاعيب الفيل ، وذلك اذ يقول دعبل :

هذا السنيدى لا فضل ولا حسب   يكلم الفيل تصعيدا وتصويبــا

كل هذه الآثار الاجتماعية ما جل منها وما ضؤل ، واضحة فى الأدب العربى شعره ونثره ، بيد أن أغلبها قد جاء فى الأدب عفوا أو عرضا ، ولم يقصد لذاته ، ولم تنظم القصيدة أو لم يصنف الكتاب عمدا لوصفه وبيانه ، بله نقده واصلاحه ، فاكثر أدباء العربية بعد الاسـلام وبعد استتباب الملك كانوا عن مجتمعهم فى شــغل ، قد يرون من أمـوره ما لا يرضيهم ، وقد تكون لهم آراء فى السياسـة ومذاهب فى الدين لا ترضى أصحاب السلطان ، ولكنهم كانوا فى أغلب الأحـوال يكتمون مثل تلك الآراء والنظريات ، وكيف يبوحون بنقداتهم وهم بين رجاء لنوال السـلطان واشفاق من غضبه ؟ ان النقد الصريـح الحر والنظر الاجتماعى الصادق لا يترعرعان بين ذهب المعز وسيفه ، انما كان يجهر الأدباء بالنقد والمعارضة فى الجاهلية وصدر من الاسلام ، وهما عهد الحرية واستقلال الفرد ، فلما توطدت الملكية المطلقة خفتت أصـوات الأدباء وقطعت السنتهم • وكان شعراء الخوارج الكثيرون الذين أطاح الأمويون رؤوسهم عبرة لسواهم من الشعراء وقد مدح سويف الشـاعر بعض العلويين الثائرين فوأده المنصور ، وثار المتنبى فى صباه يبتغى اصلاح الأحوال المتفاقمة فزج فى السجن •

فالملكية المطلقة قد فرضت على الشعب ألا يراجعها فى أمر ، وانقلبت بالأمة العربية بذلك من النقيض الى النقيض • كان العرب فى جاهليتهم مسرفين فى الاستقلال والفردية ، فصـاروا فى ظل الملكية مسرفين فى الخضوع والاستسلام ، وفرضت تلك الملكية على الأدباء أن يعيشوا عالة عليها وعلى المجتمع ، لا يشاركون الشعب آماله وأعماله ، ولا يقودون أفكاره وحركاته ، فلم يكن المجال متسعا أمام الأديب العربى ، كما كان متسعا أمام الأديب الانجليزى ، لوصف المجتمع ونقد أحواله والدعوة الى اصلاحه • فان هو فعل عرض نفسه للتهلكة ولم يفد المجتمع فتيلا • انما يؤمل الأديب الانجليزى أن يفيد مجتمعه بآرائه ، لأنه يخاطب بآثاره الأدبية الرأى العام فى بلاده ، الذى هو فوق الحكومة يملى عليها ارادته ،

---

(١) بالصيرفة : مهنة الصراف •

أما فى ظل الملكية المطلقة فى الدولة الاسلامية ، فلم يك هناك رأى عام ، وكان رأى الحكومة الأعلى •

لذلك عاش أدباء العربية طالبى فضل ، يمدحون الأمير ويعيشــون من عطاياه ، وهى السبيل التى ألجىء اليها المتنبى بعد محنة سجنه ، وعاش بها حيـــاته على مضض باكيـا مما هو به محسود ، واستوزروا للأمراء وكتبوا وعملوا لهم ، وطلبــوا بذاك النجاح الشخصى لأنفسهم لا النفع الشامل لمجتمعهم • أما أدباء الانجليزية فقل منهم من عاش فى ركاب الملوك ومن فضلهم على هذا النحو ، وكان أكثرهم اما مثرين غانين عن العمل لكسب القوت متوفرين على فنهم وحده ، واما مساهمين فى الحياة العملية بجانب الحياة الفنية ، فكان منهم من ضربوا بسهم فى السياسة والدين والحرب والكشف الجغرافى وكبار وظائف الدولة ، ومن أولئك فيليب سدنى وبيكون ورالى وملتون وبنيان وأديسون وبيرون ، وكان أكثرهم فى صف الشعب وجانب الحرية •

بل كان من أدباء الانجليز من عاف الاجتماع الانسانى قاطبة ، ونقم على أنظمة الملكية والكنيسة ، وكره التقاليد والأعراف السائدة ، وحاول انشاء مجتمع جديد تسوده البساطة والمساواة ومن هؤلاء شعراء عهــد الثورة الفرنسية ، فالكتاب الفرنسيون الذين مهدوا لتلك الثورة أمثال فولتير وروسو اكتفوا بالعمل النظرى وتركوا التنفيذ لغيرهم، أما معاصروهم ومن جاءوا بعدهم من أدباء الانجليز ، فحاول بعضهم تنفيذ مبـــادئهم بأنفسهم ، ولهذا الغرض انتقل بركلى الى أمريكا وشلى الى أيرلندة ، يريد كل منهما انشاء مدينته الفاضلة ، وان كانا قد منيا بالفشل لضخامة المشروع،وعاضد وردزورث الثورة الفرنسية بقوة لمناداتها بمبادئها المعروفة حتى نقم على دولته اعلانها الحرب على فرنسا الثائرة ، وكاد ينتظم فى أحد أحزاب الثورة ، ويركب تيارها الخطر ، واستشهد بيرون فى حرب استقلال اليونان •

ولقد أبدى بعض أدباء العربية فى عهد نضج الحضارة والثقافــة والأدب شغفا بتتبع أحوال الناس ومعايشهم وعاداتهم وأخلاقهم وظهر ذلك فى كتب الجاحظ ، على أنه كان يروى الأشياء على علاتها ويخلطها بفكاهاته ، وفى مقامات البديع ، ولم يكن أيضا يزيد على التصوير المجرد ، فاذا ما صرح بسخطه على بعض الأحوال والأحكام والأنظمة ، فتصريحا سريعا فيه تسليم واقتناع بعدم جدوى محاولة الاصلاح وعدم امكان أحسن مما كان • وظهر ذلك الميل أيضا فى شعر ابن الرومى ، الذى صور كثيرا

من الشخصيات الفكاهية ، على انه كان يتناولها من ناحيته الفردية وينحى عادة على أعدائه الشخصيين ، وظهر نفس ذلك الميل الى تتبع أحوال المجتمع فى شعر المعرى خاصة ، وذلك من الأبواب التى تفرد بها أو كاد بين أدباء العربية ، وسبق فى التصريح بها عصره ، وله فى ذلك أبيات رائعة ليست الا خلاصة موجزة لبعض مذاهب السياسة والاقتصاد فى العصور الحديثة ، ومن ذلك اعتباره الحكام خدام الرعية ، ونقمته على عدم تساوى توزيع الثورة ، وذلك قوله من لزومياته :

مـل المقـام فكـم أعاشر أمـة ... أمرت بغير صـلاحها أمراؤهـا

ظلموا الرعيـة واستباحوا حقهـا ... وعدوا مصـالحها وهم أجراؤهـا

وقوله :

لقد جاءنا هـذا الشـتاء وتحته ... فقـير معـرى أو أمـير متـوج

وقد يرزق المجدود أقـوات أمـة ... ويحرم قوتا واحـد وهو أحـوج

على أن الشعر ليس بأصلح المجالات للنقد الاجتماعى والاصـلاح الشعبى ، وانما مجال ذلك النثر الذى هو أكثر شيوعا وأقرب الى متناول القارئين ، والذى هو أرحب صدرا بالشرح والتفصيل والاسهاب ، والمقالة والقصة فرسا رهان هذا المضمار ، ولكن النثر العربى لم ينهض بهذا العبء ، ولم يزد أن خطا الخطوة الأولى فى هـذا السبيل فى كتابات الجاحظ ومقامات البديع ، وقد جاءت هذه الخطوة متأخرة • ولما جاء الجيل التالى لم تتبعها خطوة أخرى بل أعقبها تقهقر الى الوراء ، فلم تتطور المقامة الى قصة فنية اجتماعية تدرس المجتمع وتقوده فى سبيل الاصلاح ، بل تحولت فى يد الحريرى وغيره الى معارض للألفاظ المزركشة والألغاز المعماة والحيل الملفقة ، فقد كانت الأمة فى طريقها الى الانحلال ، والأذهان فى انحدارها الى الخمود ، والحكام يزدادون على مرافق الأمة وطاة ، والأدب يتقلص رويدا رويدا ، ويهجر لباب الحياة الى قشور الألفاظ •

فالأدبان العربى والانجليزى قد تأثرا فى مختلف العصـور تأثرا كبيرا بأحـوال مجتمعيهما ، وهو أمـر لم يكن منه بد ، بيد أن الأدب الانجليزى كان أكثر بالمجتمع تأثرا وأكثر فيه تأثيرا ، وأشد تشابكا وتفاعلا معه ، لما أحاط به من ظروف مساعدة ، مرجعها سيادة الحكم الديمقراطى وانتشار حرية القول والعمل وقوة الرأى العام ، أما الأدب العربى فلبلوغه أوج ازدهاره فى ظل الملكية المطلقة ، قد كاد يقتصر تأثره بالمجتمع وتأثيره

فيه على ما جاء عرضا غير مقصود ، وما تم بحكم الظروف وطبائع الأشياء ، وكان تناول أدبائه لشؤون مجتمعهم رفيقا محدودا ، وفيما عدا ذلك كان كل منهم عاكفا على وصف خطراته وأشجانه وصبواته ، مولعا بذم أعدائه ومساجلة صحابته ، الى غير ذلك من الشؤون الفردية ٠

الوصـــف

فى الأدبين العربى والانجليزى

الوصف من صميم الفن ولبـــاب الأدب وأدل ضروب القول على صدق الشعور وذكاء القلب ، اذ أن روائع المشاهدات وطرائف المحسوسات وجديد المرئيات من أشد الأمور تأثيرا فى نفس الأديب ، واستجاشة (١) له الى التأمل ، ودفعا له الى القول ، وليس خير الوصف ما أحاط بكل حقائق الموصوف وأحصى كل دقائق أجزائه ، كما تحصى الصـــورة الشمسية كل صغيرة وكبيرة من الشيء المصور ، وانما خير الوصف ما أظهر المهم الرائع من أجزاء تلك الصـــورة ، وأبان عن أثرها فى النفس ، وما تبعثه فيها من ذكريات وأطياف وأشجان واطراب ، وارتحال الأديب من صقع الى آخر ، ومن بلد الى سواه من دواعى لجوئه الى الوصف ، يعرض فيه ما يتوالى على عينيه وحواســـه من آثار ومظاهر ، ومن ثم كانت الرحلة من أهم الأحداث فى حيـــاة الأديب بل من أهم مكونات شخصيته •

والوصف من أشد آثار الأدب امتاعا للنفس واستدعاء لانتباهها وارضاء لغرائزها : اذ هو يرضى من الانسان غريزة التقليد والحكاية لشتى المرئيات والمحسوسات ، ويروى منه الميل الى احساس صـدى عواطفه لدى الآخرين ، فهو يستريح الى الأديب الذى يصف من المشاهدات ويروى ما قد يكون القارىء مر به فى مختلف أطوار حياته • والوصف أيضا يحرك الخيال ويمتعه ويفسح له مجال العمل ، ويبعد به وراء حدود الحياة اليومية الحاضرة • ومن ثم نرى البيت أو البيتين يعرضان فى القصيدة الطويلة مشتملين على وصف رائع لمنظر أو حادث أو احساس ، فيكونان غرة القصيدة وأحب أبياتها الى النفوس •

ولما كان الوصف ضربا من القول فنيا صميما ، وكان يحتاج لتجويده الى اطالة النظم وطول التقصى ورياضة الكلام ، وكانت موضوعاته أكثر من أن تعد وأوسع من أن تغنى كان الوصف يبلغ أوج ازدهاره حين يبلغ

---

(١) استجاشة : جاشت نفسه ـ جأشا : اضطربت من حزن أو فزع •

الأدب طوره الفنى ، باستقرار الأمة وتحضر مجتمعها وذيوع الثقافة بين أبنائها ، واستعمال الكتابة الخطية وتوفر الفراغ للتروى والمعالجة والمعاودة للمنشآت الأدبية فالوصف من أهم أبواب القول التى تتسع وتترقى فى طور الأدب الفنى ذاك • ومصداق ذلك واضح فى الأدب اليونانى قبل ازدهار الحضارة وبعده : ففى أشعار هوميروس لا يأتى الوصف الا عرضا ولا يوصف من الأشياء الا ما دعت اليه الضرورة ، وأكثر الاهتمام مصروف الى القصص ، فلما جاء شعراء الدراما واستغلوا نفس موضوعات هوميروس أحيانا ، وشوها ببديع الأوصاف الفنية المقصودة لذاتها •

وفى الشعر العربى الجاهلى شذرات من الوصف رائعة ، اذ كان ذلك الشعر بلغ من الفنية حدا لا بأس به ، وكان لبعض الشعراء المام بالموضوعات يبدون فيه ما عرف به العربى من توقد القريحة ونفاذ البديهة وبلاغة الايجاز ، ولهم أوصاف حسنة لبعض أنواع الحيوان ولا سيما الجياد والابل والظباء ، وللمواقع والأطلال والأنواء ، وفى المعلقات نماذج لكل ذلك ممتعة ، حيث يصف كل من عنترة وامرىء القيس جواده ويصف لبيد ناقته ، ويصفون جميعا أطلال ديار أحبتهم •

ومن أجود أوصاف الحرب فى الشعر الجاهلى قول القائل :

صريف أنيابها صوت الحديد اذا	قض الحديد بها أبناؤها الوقر
فى جوها البيض والماذى مختلط	والجرد والمرد والخطية السمر
جاءت بكل كمى معلم ذكر	فى كفه ذكر يسعى به ذكر
لهم سرابيل من ماء الحديد ومن	نضح الدماء سرابيل لهم أخر
مضاعفات عليهم يوم بأسهم	لونان جون وأخرى فوقهم حمر

وبانتشار الحضارة وذيوع الثقافة اتسع باب الوصف فى العربية أعظم اتساع ، ووصف الشعراء مظاهر العمران والترف وقصور الملوك ومواكبهم وحدائقهم وجيوشهم وسفائنهم ، ووصفوا الخمر ومجالس الشراب والطرب ، ووصفوا الجوارى والغلمان ، ووصفوا الصيد والسباق ، وأولع الجاحظ وبديع الزمان بوصف الأحوال الاجتماعية ، فصورا مناظر فى الحمام وفى السوق ومواقف التخاصم والتقاضى ، وأجريا الحوار بين شتى الأشخاص عاليهم وسافلهم • واشتهر أبو نواس بوصف الخمر ، والبحترى بوصف القصور ، والمتنبى بوصف الحروب ، وابن الرومى بوصف الفواكه والمآكل وتصوير الشخصيات الهزلية •

ولما تغلبت الصناعة وطلبت البراعة اللفظية والنكتة المعنوية والتأنق والتطرف ، انعدم الحس أو كاد فى الوصف ، وتعلق الأدباء بوصف توافه الأشياء أو الاسطرلاب أو القلم أو الكأس ، أو ما شابه ذلك مما هو فى غنى عن الوصف ، وما وصفه الا تحصيل حاصل واضاعة وقت ، فان الأصل فى الوصف الفنى كما تقدم أن يكون له باعث من شعور صميم ، لا أن يكون الغرض منه حكاية تفاصيل باردة فاترة ۰ وقد أولع بذلك الضرب من الوصف النظرى ابن المعتز وابن خفاجة وكشاجم ، فلما أوغل الأدب فى التصنع وجانب الأدباء كل ذوق وكل معقول فى التعمل والاغراب، انقلب الوصف فى أيدى أكثرهم الغازا ، فألغزوا فى أنواع المآكل والأشياء والآلات ، وبأمثلة هـذا الضرب من الأحاجى السـقيمة تمتلىء مقـامات الحريرى وأشعار ابن نباتة المصرى وأضرابه ۰

والأدب الانجليزى حافل منظومه ومنثوره بمحاسن الأوصاف ، بيد أن باب الوصف فيه مخالف للوصف فى الأدب العربى من وجوه شتى : فهما مختلفان فى الموضوعات التى اتخذها كل منهما مادة وأدمن طروقها ، فقد تناول الأدب العربى ــ كما تقدم ــ وصف أنواع من الحيوان ، ووصف مظاهر اللهو والرفاهية ، وتناول بعد ذلك قليـــلا من وصف الطبيعة والمجتمع ، أما الأدب الانجليزى فهو أحفل بوصف هذين الأخيرين منه بوصف أى شىء آخر ، فالطبيعة كانت قبلة أكبر شعرائه وكتابه وشغلهم الشاغل ، ووصفها كان دأبهم أيا طرقوا من موضوعات القول ، فامتلأ الأدب الانجليزى بكنوز من أوصاف الطبيعة ، تكاثر ما قيل فى أى باب آخر من أبواب الشعر والنثر ، فالوصف الطبيعى مادة جانب عظيم من الشعر الانجليزى ، كما أن الوصف الاجتماعى مادة جانب عظيم من القصص والدراسات ۰

وفى الأدب الانجليزى ضرب آخر من الوصف يستأثر به دون الأدب العربى ، على أنه من صميم الفن وأعلق نواحيه بالانسـانية الشـاملة والشعور العميق ، ذلك هو وصف آثار الأقدمين من عمائر وحصون وتماثيل وصور وأبناء وعظائم ، ففى ذلك كله منادح للخيال ومجـــال للابتداع ومذاهب للفكر ، وتأملات فى أحوال الانسان وتقلب العصور والأحداث ، وتعظيم لقدرة الانسان وتقدير للفنون ، وكل ذلك يكاد يكون معدوما فى الأدب العربى ، والمثل الرائع الفريد فى هذا الباب هو سينية البحترى التى لو كثرت مثيلاتها فى الأدب العربى لكان أرفع قدرا ، وكان أعلامه أسير فى العالمين ذكرا ۰

ولم يقتصر أدباء الانجليزية على آثار التاريخ يستوحونها ما فيها من منادح الوصف الشائق والتصوير المجسم ، بل عمدوا الى الخرافة ولعلها أحفل بذلك من التاريخ ، اذ كانت أحفل منه بآثار الخيال وأحلام الانسانية ومثلها العليا فى القوة والجمال والسعادة ، فاتخذ الشعراء والقصاصون تلك الخرافات مادة وهيكلا لمنشآتهم ، ورصعوها بما شاءت لهم براعتهم من أوصاف ووجدوا فى أشعار هوميروس وفرجيل وقصص العصور الوسطى وأساطير الشرق والغرب مجالا لفنهم ، فأعادوا سرد ما راعهم من حوادثها ومواقفها سردا فنيا مسهب الوصف مشبعا بجميل المناظر والعواطف ٠

وكما يختلف الوصف فى الانجليزية عنه فى العربية فى الموضوع اختلافا كبيرا ، يخالفه فى الوسيلة مخالفة معدودة ، ففى العربية أوصاف بالغة من الكمال والامتاع ، بيد أنها جميعها تعتمد على المعنى دون اللفظ ، وعلى التشبيهات والمجازات ، وتحتوى على كأن أو كاف التشبيه ظاهرة أو مستترة ، أما فى الانجليزية فيستعين الشعراء بجانب هاتيك جميعا بوسيلة أخرى ، ليست أقل أداء للغرض وتصويرا للمنظر واشباعا للخيال والحواس ، تلك هى الملاءمة بين صوت اللفظ وبين المعنى المصوغ فيه ٠

وهذه الطريقة التى يلجأ اليها الانسان عمدا وعن وعى فى طور الأدب الفنى ، قد لجأ اليها فى عهوده البدائية ، أيام كان يصوغ ألفاظ لغته ويطلق كلا منها على كائن من الكائنات ، أو صوت من الأصوات ، أو عمل من الأعمال ، أو غير ذلك ٠ فألفاظ الرشاش والشواظ والسلسبيل والسكون وغيرها ، تدل بنطقها على مدلولها لأن الأقدمين انما اشتقوها من هيئة مدلولاتها ، فعلوا ذلك عفوا وبداهة ، حتى اذا ما بلغ الأدب الطور الفنى واستعان الشعراء والكتاب بالتدوين وأطالوا التجويد لما ينشئون استرعت الألفاظ انتباههم بعد أن كان جل اهتمامهم موجها الى المعانى ، وعند هذا الحد من التطور افترق الأدبان العربى والانجليزى فى طريقة استخدام الألفاظ ٠ فأما الأدب العربى فجعل اللفظ غاية فى ذاته ، وجعل التأنق فيه مطمحا مستقلا ، وأما الأدب الانجليزى فعالج اللفظ وراضه وتأنق فى صياغته ، ولكن لا على أنه غاية فى نفسه ، بل على أنه وسيلة للمعنى لا أكثر ٠

فان كان المنظر المراد تصويره حركة كجريان نهر أو عدو جواد ، استخدم الشاعر الانجليزى بحرا من بحور الشعر يلائم تلك الحركة ،

واذا كان به صوت أو أصوات مختلطة كهدير الأمواج أو قصف المدافع ، اختار من الألفاظ تلك التى تحتوى على حروف خشنة قوية ، واذا كان يصف منظرا ساكنا وادعا لم يذكر ذلك فى القصيدة ذكرا ، وانما استعمل الألفاظ ذات الحروف اللينة كالسين مثلا ، وهناك عدا هذا وذاك ضروب شتى من الملاءمة بين الصيغة والمعنى يفتن فيها الشاعر الوصاف ما شاء له فنه ، ككثرة العطف أو القطع ، وتكرار الحروف أو الكلمات أو التراكيب أو الشطور أو الأبيات الكاملة • وقد اشتهر بالتفنن فى هذا التصوير اللفظى تنيسون وسبنسر وملتون ، بل سائر أقطاب الشعر الانجليزى ، بل جاراهم فى ذلك بعض الكتاب مثل ستيفنسون •

وقد وقع شىء من ذلك فى بعض أشعار الوصف فى العربية ، ولكنه كان الهاما محضا أو اتفاقا عارضا ساقت الشاعر اليه الصدفة السعيدة أو السليقة المجيدة ، دون أن يتعمده عن وعى أو يتكلف فيه عناء كالذى تكلفه فى استخراج ما به من تشبيه ومجاز • ويتجلى الفرق بين الأدبين فى هذا الصدد فى علم البديع فيهما : فالبديع فى العربية يشمل الجناس والسجع وهلم جرا ، وهى محسنات للفظ مستقلا بنفسه وليست لها علاقة بالمعنى ، أما علم البديع (١) فى الانجليزية فيشمل الملاءمة بين جرس الألفاظ وبين المعانى التى تؤديها ، ويشمل تشابه الحروف الأولى فى جميع الفاظ الجملة الواحدة لأداء المعنى بطريق الجرس أيضا ، وغير ذلك من حيل بلاغية ليست لها مصطلحات تترجم اليها فى العربية ، لأنها لم تكن من مألوف أدبائها •

واللغة العربية بغزارة مادتها وتلاطم عبابها وتعدد أوزانها وقوافيها ، وجمعها بين وعر الألفاظ ولينها ، ودقيق الأوصاف وجليلها ، وما لها من مرونة فى التراكيب ورحب فى الأساليب ومطاوعة لفن الأديب ، هى خير معوان له على ابراز شتى الصور من جرس الحروف وتتابع الألفاظ وتجاوز التراكيب ، وتدفع الأوزان ورنين القوافى • انظر الى الوزن كيف ساعد على ابراز المعنى فى قول بشار فى صوت مغنية :

تميت به أرواحنـــا وقلوبنا　　مرارا وتحييهن بعد هجـــود

---

(١) ليس فى اللغات كلها أوسع ولا أدق من علم البديع فى اللغة العربية • والمحسنات المعنوية فيه ثلاثة أرباعه • والنوع الذى يصفه الكاتب الفاضل فى الانجليزية يشبه (ائتلاف اللفظ والمعنى) فى العربية — (الرسالة) •

وقول ابن المعتز فى خيل السباق :

خرجن وبعضـــهن قريب بعض سـوى فوت العذار أو العنـان
ترى ذا السـبق والمسـبوق منها كمـا بسطت أناملها اليـدان

ساعدت السليقة المواتية أو الجد الموفق بشارا ، فجاء بيته ذاك ببحره الطويل وحروف اللين المتتـالية الوئيدة الحركة فى « تميت » و « أرواحنا » و « قلوبنا » و « مرارا » و « تحييهن » و « هجود » أصدق مصور لصوت المغنية اذا هى مددته وخالفت بين المدات فيه والقصرات ، ويبدو ذلك جليا اذا قرىء البيت على مهل · كذلك حالف التوفيق ابن المعتز فاختار لبيتيه البحر الوافر المتدفق تدفق الخيل فى مجالهـا ، وحالفه التوفيق مرة أخرى فذكر العذار والعنان ، وفضلا عن أن تتابع هذين اللفظين مما يزيد الحركة جلاء فان ذكرهما مما يزيد الصـورة تجسما ، فان ذكر جزء من الصورة دون بقية الأجزاء كثيرا ما يزيد الصورة وضوحا ، ويبعث من تلقاء نفسه باقى الأجزاء الى الخيال · ولذلك مثال آخر فى قول جميل :

ولما قضـينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحـاديث بيننـا وسالت بأعناق المطى الأباطح

فذكر الأعناق هنا بلاغة فائقة ، فهو يستتبع الى المخيلة منظر الابل والأباطح والركب ، ويرسم حركة المطى معا · ومما يزيد الحركة تصويرا أيضا اختيار الشاعر البحر الطويل البطىء النغم · وهناك وسائل أخرى لتجسيم الحركة البطيئة ، منها كثرة العطف ففيها دلالة على التطاول والتوانى ، ومنها كثرة الألفاظ القصيرة فانها تستغرق نفس القارىء حتى يكاد يلهث بعد قراءتها ، ومن ثم يشعر بالبطء فى المعنى تبعا للبطء فى اللفظ · ومثال الوسيلة الأولى قول امرىء القيس فى تطاول الليل :

فقلت له لما تمطى بصـلبه وأردف أعجـازا ونـاء بكلكل

ومثال الثانية قول المتنبى :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفى أذن الجـوزاء منه زمازم

فقد احتوى بيت امرىء القيس على ثلاث جمل معطوفة ، واحتوت الشطرة الأولى من بيت المتنبي علي خمس كلمات كلها قصيرة ، اذا قرأها

القارىء متروبا جاءت بطيئة مشعرة ببطء الجيش أو موحية بضخامته ، فلم يذكر المتنبى صراحة ومباشرة أن الجيش كان ضخما ، فيعتمد على المعنى وحده فى اعطائنا الصورة ، بل أوحى الينا بمعنى الفخامة بوساطة كلمات الشرق والغرب والزحف ، ولا علاقة لهذه الكلمات فى غير هذا البيت بالضخامة قط ، وبذلك استخدم المتنبى اللفظ ونطقه لأداء المعنى وهى هى الوسيلة التى استغلها أدباء الانجليزية قصدا وعمـــدا أكبر استغلال وأبدعه · أما الحركة السريعة فيؤديها البحر الكامل المتدفع ، وهو لذلك خير ما يصور فيه عدو الجياد ، كما فى قول المتنبى :

أقبلت تبسم والجياد عوابس   يخببن بالحلق المضاعف والقنا

وقول ابن هانىء الأندلسى :

وفوارس لا الهضب يوم مغـارها   هضب ولا الـوعر الحزون حزون

ففى هذين البيتين تصوير رائع لعدو الخيل · وقد ساعد التوفيق الشاعرين فى ألفاظهما بجانب الوزن الذى اختاراه ، فتكرار حرف الباء فى بيت أبى الطيب مما يزيد وقع حوافر الخيل فى بيته جلبة ووضوحا ، وتكرار كلمتى الهضب والحزون فى بيت ابن هانىء يوحى الى المخيلة تتابع الهضاب والروابى أثناء عدو الفوارس ، حتى يكاد يتخيل الانسان سيقان الخيل وهى تنهب تلك الحزون وتقفز من ربوة الى ربوة · ويكاد البيت يعرض أمامك شريطا سينمائيا متحركا ، ومتى بلغ الشاعر هذا المدى من دقة التصوير وروعته ، فقد أوفى على الغاية من الفن والشاعرية ، كذلك نرى الوزن واللفظ قد اصطلحا على ابراز المعانى فى قول مسلم بن الوليد فى مفازة :

تمشى الرياح بها حيرى مولهـــة   حسرى تلوذ بأطراف الجـــلاميد

وقول ابن حمديس :

وراقصـــــة لقطت رجلهـــــا   حســـاب يد نقرت طارهـــا

وقـــول المتنبى :

في سعة الخافقين مضـــطرب   وفي بـــلاد من أختها بدل

ففى بيت مسلم تكاد تحس الرياح المحرقة تلفح وجوهنا ونتمثلها تضرب جوانب الصخور ، وفى بيت الصقلى تتمثل حركة الراقصة السريعة الخاطفة ، وفى البيت الثالث تتمثل المتنبى على ظهر ناقته وهى تخالف بين أظلافها (١) ممعنة فى الذهاب ، لما يمتاز به بحر المنسرح من اضطراب الحركة واندفاعها ، على حين يمتـــاز بحر الخفيف بالتؤدة ورنة الحزن ، مما يجعله أليق البحور بالمراثى والوجدانيات ، وهو من أهم أسباب سيماء الوقار والشجن التى تتسم بها دالية المعرى المشـــهورة التى مطلعهـــا :

غير مجـــد فى ملتى واعتقـــادى نـــوح باك ولا ترنم شـــاد

وصفوة القول أن الأدبين العربى والانجليزى قد احتويا على بدائع من الوصف ، هى غذاء اللب ومتاع الخيال ، بيد أن آثارها فى الأدب الانجليزى أغزر ، ونواحيها أكثر تعددا ، ونصيب الطبيعة منها أوفر ، ووسائلها أكثر عددا واختلافا ، وأدباء الانجليزية كانوا أكثر بصرا بها وأطول رياضة لها ، وكان نجاحهم فيها راجعا الى المجهود المتبصر الواعى ، بجانب الطبع الصادق المواتى ، على حين كان نجاح أدباء العربية الذى مرت بعض أمثلته راجعا فى أكثر الأحيان الى عفو الخاطر وهداية البديهة ، وما ذاك الا لأن أدباء الانجليزية كانوا أكثر عكوفا على فنهم ، وتفرغا لأدبهم ، على حين كان أدباء العربية يولون الأمراء وذوى الهبات من اهتمامهم وتفرغهم ما كان فنهم به أحق ، وشاعريتهم به أولى .

---

(١) أظلافها : الظلف هو الظفر المشقوق للبقرة والشاة والظبى ونحوها والجمع (اظلاف) .

الخيـــال

فى الأدبين العربى والانجليزى

الخيال ، أو القدرة على انتزاع شتى الصور الذهنية من الواقع واستحضارها والتصرف فيها ، من المواهب التى يمتاز بها الانسان على سائر الأحياء ، ويمتاز بها النابغة على سائر الناس • رقى العلم رهين برقيه ، واتساع الأدب متصل باتساعه ، وهو بين الجماعات الأولى مصدر تلك الأساطير والأوهام التى تسود بينهم ، كما أنه مصدر ما تغص به اللغات من مجازات وتشبيهات ، بها تتسع جوانب اللغة وجوانب التفكير معا أيما اتساع ، ولولا الخيال لالتزم الفكر الانسانى الواقع المتحجر أى التزام •

والخيال قوام جانب عظيم من الأدب ، ان لم يكن قوام الجانب الأرقى فيه ، ان لم يكن قوام الأدب جميعا : فبالمجازات والتشبيهات يتأتى للأديب أن يصور شعوره ويبرز تفكيره ، اذ يمثل لنضرة الخد بنضرة الورد ، ولطلعة البطل بهيبة الأسد ولجيشان المعركة بتدافع الأذى ، وهلم جرا • وبالخيال يستطيع الأديب أن يسبك موضوعه ويجمع أطرافه ، وينبذ ما لا حاجة به اليه من تفصيلات قد تشوه ما هو بسبيله ، ويضفى ثوبا من الجمال والانسجام على ما ينشىء • والخيال أظهر ملكات الشاعر وأول مميزات الشعر التى تفرق بينه وبين النثر •

وارتقاء الخيال واتساعه وكثرة آثاره أهم ظواهر دخول الأدب فى طوره الفنى : فانه اذا خرجت الأمة من بداوتها وعزلتها وبسطت سيادتها واتصلت بجيرانها القريبين والبعيدين ، وتحضرت وتثقفت ، اتسعت أذهان أبنائها وترامى خيالهم وتصوروا من الحقائق والمعانى والممكنات ما لم يكونوا يتصورون ، وغزر المعين الذى يستمدون منه التشبيهات والاستعارات ، وينتزعون منه الحكم والأمثال ، ويتوفر الفراغ ويتسع للمجهود الأدبى المتصل ، فتظهر القصة والدراما والقصيدة الطويلة ، ويحلق الأدباء فى أجواز (١) الخيال وآماد الماضى والمستقبل ، مبتعدين عن دواعى الحاضر

---

(١) أجواز : الجوز من كل شيء وسطه والجمع (أجواز) •

الحازبة (١) ومجالاته الضيقة ، ولا يبلغ الأدب أوج رقيه حتى يرتقى الخيال فيه هذا الارتقاء وحتى يشغل أكثر جوانبه ·

وللخيال فى الأدب الانجليزى مكان رفيع وأثر بعيد شامل يتمثل فى موضوعات الأدب وأشكاله وطرائق تناول الأدباء لما هم بسبيله : فالأديب الانجليزى غزير العاطفة ، اذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله ، وأثار به منظر طبيعى أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم شتى الأحلام والأطياف ، وتناهت به عاطفته الى حدود الأمانى وآفاق الماضى والمستقبل ، وهذا الاسترسال مع الخيال اذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة فى الانجليزية ·

وهناك عدا هذا الخيال المنبث فى كل مناحى الأدب أشكال خاصة من الأدب قوامها الخيال ، ينهض بكيانها ويوثق وشائجها · وهذه هى الملاحم الطوال فى الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعرا أو نثرا ، ففى هذه لا يلتزم الأديب الواقع المجرد بل يفترق عنه افتراقا جسيما ، ويؤلف من شتى أفكاره وتجاريبه وأمانيه وصور الحياة التى مرت به ، عالما يجيش بالحياة والحركة ويموج بالعواطف والنوازع ويفيض بالجمال والامتاع ، بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض يحفل الأدب الانجليزى ·

فقد عالج الملاحم والمطولات من القصائد ملتون وسبنسر وهاردى ووردزورث وكثيرون غيرهم · وأشعار الملاحم تعج بالبطولة ، وهى على رغم هذا لا تخرج عن عالمنا الانسانى ولا تغفل النفس الانسانية ، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلها هى الهدف الذى يرمى اليه ناظموها : اذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد ، وان فاقوا البشر قوة وعظما ، ومن هنا يتأتى للشاعر أن يبسط آراءه فى ميدان متسع والى مدى فسيح ، فيستعرض مشاغل عصره ويبث خوالج نفسه ، فالخيال هنا لا يعدو الحقيقة وانما يوضحها أحسن توضيح ، فضلا عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال ·

وفى الأدب الانجليزى ما لا يعد من قصص فى الشعر والنثر ممثلة ومقروءة ، وقوام القصة بطبيعتها الخيال ، وان تراوح نصيبها منه ،

---

(١) الحازبة : حزب الامر حزبا ، اى اشتد ·

فهناك القصص التى ترمى الى أغوار الماضى وتدور حول عظماء التاريخ والأساطير ، من طموح يبيع نفسه للشيطان كى يعينه الشيطان على ادراك مطامحه ، الى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه ، كما فى روايات مارلو وشكسبير • وهناك القصص الواقعية التى تلتزم الحقيقة الى حد بعيد ، وتصور المجتمع الحاضر تصويرا دقيقا لا يدع شاردة ولا واردة ، كقصص هاردى ، ودرامات جالزوورذى ، ولكل من الضربين متعته •

ولشغف الانجليز بسبحات الخيال ، وميلهم الى اطلاق الفكر فى أجوازه ، لجأوا فى شعرهم ونثرهم الى تصوير حوادث التاريخ وغرائب الأساطير ، فاستقى شعراؤهم وكتابهم عذب القصص وممتعه من تاريخ انجلترا وتواريخ اليونان والرومان وبنى اسرائيل وغيرهم ، واتخذوا من خرافات الأمم مجالا لفنهم ، فعرض سبنسر وتنيسون وكولردج وغيرهم تلك الخرافات عرضا شعريا رائقا مرصعا بجميل الوصف وبدائع المناظر الطبيعية ، وشائق مواقف الحب والبطولة •

ومن ثم امتلأ الأدب الانجليزى بأسماء الشخصيات الخيالية التى اخترعها الأدباء من مخيلاتهم ولم يكن لها قبلهم وجود أو كان لها وجود مبهم فى عالم الخرافة فأخرجوها بعبقرياتهم الى عالم النور والوضوح ، وألبسوها ثوبا من الجمال والجاذبية ، وأصبح بعض هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين امتلأت بذكرهم وأخبارهم الملاحم والقصص والشعر والنثر ، أعلاما على طبائع فى الانسان معروفة ، ورموزا على حقائق فى النفس البشرية مشهودة ، فشكسبير مثلا لم يكن يدع خلقا انسانيا نبيلا أو وضيعا الا صوره فى رواياته وخلق ما لا يعد من الشخصيات الحية • مثل هاملت وروميو وجولييت وياجو وشيلوك ، وغيرهم ممن صار لهم وجود قائم فى عالم الأدب كوجود أعلام الماضى فى عالم التاريخ •

لم يجر الأدب العربى الى هذا المدى من الخيال ، فلم تكن فيه ملاحم ولم تكن المطولات من هم شعرائه ، ولم يرتق فيه القصص ولم يحتو على شخصيات متخيلة من خلق الأدباء ، وظل الحاضر القريب والواقع المحقق ديدن (١) أدبائه ، فالأديب العربى كان شديد الايجاز فى مقاله وتعبيره عما يحس ، يعبر عن أفكاره أشتاتا كلما عن له حافز الى الكتابة ، لا يدخر أفكاره ولا يربط منها حاضرا بماض ، بل يرسلها الشاعر على السجية أبياتا محكمة النسج موجزة البيان ، ويرسلها الكاتب روايات

---

(١) ديدن : العادة والدأب •

قصيرة متتابعة منسوبة كل رواية منها الى صاحبها أو راويها أو شهودها ، فأحسن أشعار المتنبى حكم موجزة متتابعة مستقل كل منها ببيت لا تكاد تجمعها علاقة ، وقوام كتب كثيرة كمؤلفات الجاحظ والثعالبى وابن عبد ربه روايات وشـــواهد متتابعة ، لا يكاد يكون للأديب فضـــل غير جمعها وتبويبهـــا .

كان الشعر الجاهلى محدود الخيال قريب المأخذ لمكان أربابه من البداوة وبعدهم عن الثقافة ، فلما تحضر العرب وتثقفوا واختلطوا بالأمم واطلعوا على أحوال الأقطار البعيدة ، اتسع من جراء ذلك خيالهم وبان أثره فى شعرهم ونثرهم ، فالمحدثون من الشعراء لا شك أبعد خيالا وأكثر تفننا فى التشبيهات من الجاهليين ، وظهر ضرب من القصص الخيالى يتجلى فى مقامات بديع الزمان ، ورســـالة الغفران ، ففى هذه وتلك مواقف وحوادث محلها من اختراع الخيال ، ثم هناك الروايات والأخبار العديدة التى كان يخترعها الرواة والكتاب يطلبون الاغراب والتطرف والرواج ، أو يؤيدون الحجج والمذاهب .

بيد أن هاتيك جميعا آثار ضئيلة الشأن ، وهى اذا قيست بما فى الانجليزية من سبحات الخيال ، لم تكن الا شبيهة بطيران الدجاجة الخفيف مقيســـا بتحليق البـــازى الكاسر . ورسالة الغفران على جمـــال فكرتها ومشابهتها لما فى آداب الأمم الكبيرة فى جريان حوادثها فى عالم الخلد وامتلائها بممتع المواقف والمحاورات ، مكتظة بمســـائل النحو والأدب النظرية العقيمة ، التى كان كثير من الأدباء ينفقون أعمارهم فى غياهبها غافلين عما هو أهم منها من حقائق الحياة وجمالها ، ولم يكن الخيال ولا الجمال ولا القصص غرض المعرى الصحيح حين أملاها ، وانما كانت تلك المسائل اللغوية هى مقصده الأول : ومقامات البديع على جمالها واهتداء البديع الى اختراع شخصية أبى الفتح فيها مكتظة كذلك بالالاعيب اللفظية والبراعات اللغوية ، فالمقامات ورسالة الغفران جميلتان على أن تكونا خطوتين الى ما بعدهما ، ومرحلتين فى طريق نمو القصص الصحيح وازدهار الخيال الراقى ، بيد أن ذلك النمو لم يطرد وذلك الرقى وقف فى أول الطريق وان من العجائب حقا أن يكون أعظم أثر خيال فى الأدب العربى من صنع شاعر كفيف محجوب عن آفاق الحياة ومباهجها ! فكبح عنان الخيال كان دأب أدباء العربية حتى بعد دخول الأدب عصره الفنى ، فالفكرة التى تخطر للأديب الانجليزى فيؤلف حولها قصة تموج بشىء الصور المنتزعة من الحياة ، أو ينظم حولها قصيدة طويلة تجمع أشتات الأفكار والمعانى ، يكتفى الأديب العربى بصوغها فى بيت شعر محكم يذهب

مثلا ويروع بايجازه وشموله ، لا بتقصيه واستيعابه ، فكل بيت من أبيات المتنبي السائرة يحوى نظرة نافذة الى حقائق الحياة ، هى بنفسها محور صالح أن تدور حوله قصة أو دراما . بينما الأديب العربى قد أودعها أوجز لفظ وأعمه ·

وقد نظم شلى قصيدة فى قرابة مائة بيت ، حين استرعى تفكيره هبوب ريح الشتاء الباردة فى ايطاليا ، فصور عصفها بالأوراق الجافة ، ودفعها البذور الى حيث تنام فى التربة حتى ينبهها الربيع بدفئه وطيب أوانه ، وشبه ثوران عاصفتها على الأفق بالشعور المتهدلة عن رأس مايناد احدى العرائس الخرافية ووصف اقشعرار النبات المائى فى قاع المحيط لدى احساسه مرور تلك الرياح ، ثم طلب الى الريح أن ترفعه كما ترفع تلك الأوراق وتدفعه كما تدفع تلك البذور ، وتنفخ فيه من قوتها ، وتتخذه نايا لها عله يستطيع أن يطير بأجنحتها ، ويبذر بين الخلق بذور أفكاره الاصلاحية التى كان أمينا لها طول حياته ·

ولشكسبير مقطوعة عن ريح الشتاء أيضا فى رواية « كما تشاء » يسترسل فيها فى التأمل على ذلك النحو ، أما الشاعر العربى فاذا استرعى انتباهه ، هبوب الريح فانه يودع خاطره أوجز لفظ ، واصفا تهييج الريح لذكرياته أو محملا اياها سلامه الى أحبائه كما قال بشار :

هوى صاحبى ريح الشمال وانما أحب لقلبى أن تهب جنوب
وما ذاك الا أنها حين تنتهى تناهى وفيها من عبيدة طيب

والغريب انه برغم غنى الادب الانجليزى بآثار الخيال وندرة تلك الآثار فى الادب العربى ، نرى كلمات الخيال وخيال الشعراء والمخيلة وغيرها كثيرة التداول فى العربية نادرة الورود فى النقد الانجليزى ، وانما كان نقاد العربية يطلقون اسم الخيال على أبعد الأقوال عن مجال الخيال الصحيح ، يطلقونه على ما درج عليه الشعراء المداحون من اختراع مواقف الغرام فى استهلال قصائدهم وتلفيق صفات الجود والبأس لممدوحيهم ، ومن ثم اشتهر البحترى بالخيال لا لأنه دبج القصص المحكم أو نظم المطولات الرائعات، بل لأنه كان من أمضى الشعراء فى بابى المديح والغزل الاستهلالى ومن أكثرهم ذكرا للأطياف والوداع واللقاء ، وليس تحت مثل هذا الخيال طائل . اذ قوامه التكلف والمحال والايغال فى البعد عن حقائق الحياة والشعور ، بينما اخص خصائص الخيال الفنى الصحيح صدق البيان للشعور فى أعمق أعماقه وأرحب آفاقه ، فاذا قال بشار ان الجود من كف ممدوحه يعدى ، وقال أبو تمام ان ممدوحه

لا يستطيع قبض انامله لأنه تعود بسطها بالعطاء ، وقال المتنبى أن أسنان صواحبه برد خشى أن يذيبه من حر أنفاسه فكان هو الذائب من حر أشواقه ، واذا شبه ابن المعتز الهلال بمنجل يحصد نجوم الليل حصدا ، أو شبه ابن خفاجة النهر وعبث ضفافه بهدب يحف بمقلة زرقاء ، فقد باعدوا جميعا وأغربوا وخالفوا حقائق المنطق والشعور وجاءوا بما هو أشبه بعبث الصبيان وهذر المخمورين وكان قولهم أبعد الأشياء عن الخيال ، فالخيال ليس هو تجاهل حقائق الحياة وتحديها والتفنن فى منافضتها ، وانما هو قدرة الفكر على استيعابها والاشتمال على قريبها وبعيدها ، والتصرف فيها والتفنن فى عرضها ، ولا غرو اذا كانت تلك نظـرة نقاد العربية الى الخيال أن قالوا ان أعذب الشعر أكذبه ، والحق أن أعذب الشعر أصـدقه واجود الخيال أكثره اشتمالا على الحقيقة وغزارة آثار الخيال فى الأدب الانجليزى ترجع لا شك الى اختلاف مناظر الطبيعة فى انجلترا وتعددها وتقلب أحوال الجو ، ثم ترجع الى اتساع أذهان الانجليز باقتباسهم حضارة أوربا ومساهمتهم فيها ، والى الكشـوف الجغرافية العظيمة التى عاصرت نهوض الأدب الانجليزى ، وهى ترجع أيضا الى اطلاع الانجليز على الأدب اليونانى الحافل بروائع الحوادث والاساطير ، المملوء بأشعار الملاحم والدرامات ٠

فقد كان لشعراء الانجليزية ، وكتابها من ذلك معين لا يفنى وكان الاطلاع على التراث الكلاسى بمثابة كشف جغرافى آخر واطلاع على عالم ثان غير هذا العالم المعهود مما أطلق الأذهان الى غايات الخيال ، وكان للأدب العامى فى ذلك أثره أيضا ٠ وترجع ضآلة حظ الأدب العربى من الخيال الصحيح السامى وكثرة ما به من آثار التخيل الزائف الى نزعة الجمود التى كانت تسوده وتقره دائما على محاكاة الأقدمين واحتذاء الأدب الجاهلى ، وهذا لطبيعته المتبدية وبيئته الصحراوية التى ترعرع فيهـا أدب أولى قليل الحظ من الخيال كثير الالتزام للواقع الحاضر ، هذا الى اشتغال الأدباء بمدح ذوى السلطان واجتهـادهم فى تخيل كل منقبة واضافتها اليهم ، أضف الى ذلك أن الأدب العربى لم ينتفع كما انتفع الأدب الانجليزى بأدب الاغريق ، فحجبت عنه تلك العـوالم الزاخرة بالحقائق والخيالات ٠ وقد اطلع العرب على فلسفة الاغريق فحاكى غير واحد من فلاسفتهم جمهورية أفلاطون يتخيل المدينة الفاضلة ولو اطلعوا كذلك على أدبهم لاستفادوا منه فائدته المحتومة ٠

ظل الأدب العربى مكبوح الخيـال ملتزما للواقع مؤثرا للايجـاز متشبثا بالرواية التاريخية المسـندة ، وترك الخيال الواسع للعامة

يسبحون فى عوالمه التى تستهوى النفس الانسانية ، فجالوا فى نواحى القصص يودعونه أفكارهم على ما بها من قصور ، وآمالهم على ما بها من سذاجة وما يشوبها من شهوات الحس ، وثقافتهم على ما يخالجها من جهل واضطراب ، وجاء الأدب العربى الفصيح فى أزهر عصوره مشتملا على ضروب من التخيل الفج لا يستسيغها لب ولا يقرها فن ، مشتملا بجانب ذلك على وجدانيات صادقة وحكم وأمثال رائعة موجزة ، هى خير ما فى الأدب العربى من لباب الفكر والشعور ، فالأدب العربى يبلغ قمة مجده بما فيه من آثار الحكمة لا بما يحويه من صور الخيال .

التـــــاريخ

فى الأدبين العربى والانجليزى

التاريخ قصة الانسانية وحكاية ماضيها ، يصف حياة الانسان من قديم عهوده ، وتقلب أحواله على مرزر العصور ، وكفاحه فى سبيل التقدم والسعادة ، ويعرض أعمال الأمم وعظائم الأفراد وتعاون الشعوب حينــا وتعاديها أحيانا ، ويشرح سريان الحضارة والثقافة من صقع الى صقع ، ومن جيل الى جيل ، ومن أمة الى أخرى ، وما أضافته اليهما عبقرية كل شعب ، من مستحدثات العلوم والفنون والصـناعات ، فالتاريخ سـجل ملء بالعظات والدروس ، حافل بالمتعات والطرائف ، يمتع اللب سياقه القصصى ، وينبه الخيـال بعـده الزمنى ، ويملأ النفس أحيانا بالفخـار الوطنى ، ويثقف الانسان فى حاضره ويبصره بما بين يديه ، حين يعرض عليه أنباء الماضى ووقائعه ٠

ولا يستمد التاريخ مما دونه المؤرخون فى كتبهم فقط ، بل يستمد بجانب ذلك من آثار الفنون المتخلفة عن الأمم ، من عمارة ونحت وتصوير وأدب ، ففى كل هاتيك صور من عقلياتها ومذاهبها ومجتمعاتها ومنازعها ، فتاريخ الحضارة المصرية القديمـة لايسـتمد الا أقله مما دونه المصريون أنفسهم أو من جاء بعد عهدهم من مؤرخى الأمم التالية ، أما أكثر ما يعرف عن حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم وديانتهم وعلومهم ، فمستقى من مخلفاتهم فى عالم البناء والنحت والنقش والصناعة ، وقل مثل ذلك فى تاريخ اليونان والرومان ، وغيرهم من الأمم التى أنشأت الحضارات وكان لهـا فى العلم والفن شأن يذكر ٠

فتاريخ الأمة وفنونها متصـلان أوثق اتصال ، فالعوامل النفسية التى تسيطر على المجتمع والحكومة وتؤدى الى الأحـداث والتطورات السياسية والاقتصادية ، هى هى العوامل النفسية التى تسيطر على فنون الأمة ، فيميل أبناؤها الى فنون دون أخرى ، وينحون بفنونهم أنحاء خاصة دون غيرها ، فقدماء المصريين الذين كانوا يخضعون لملكيـة مطلقـة دينية الصبغة ويؤلهون ملوكهم ، نبغوا فى عالم العمارة فى بناء المعابد والمقابر دون القصور ، ونحتوا التماثيل للملوك والآلهة ، لا للأبطـال والزعماء

والخطباء والرياضيين كما فعل الاغريق ، ولم يرتق فيهم الأدب الذى يترجم عن مشاعر الفرد ، ويعبر عن خوالج المجتمع ٠

والأدب أشد الفنون اتصالا بتاريخ الأمة وارتباطا بتطورات المجتمع ، اذ كان صدى ناطقا دقيقا لما يحس به الفرد والمجتمع ، بل الأدب مصاحب فى بدئه للتاريخ فى ظهوره ، يتمازجان لدى الجماعات البدائية فى محاولتها تفسير ظواهر الكون والتغنى بمفاخر أسلافها ، ويشاب كل ذلك بالخرافات ، ويظل الأدب والتاريخ مختلطين على ذلك النحو ما دامت الأمة فى عهد بداوتها ، فاذا ما تحضرت ودونت الكتب بدأت العلوم تتفرق وتتميز ويستقل كل منها بنفسه ، فظهر المؤرخون واستقلوا بأمرهم عن الأدباء ، بيد أن الصلات بين الأدب والتاريخ تظل محكمة ، اذ كان كل منها مرآة للمجتمع تعكس صورته من زاوية مختلفة ٠

فالأديب لا غنى له عن درس تاريخ الماضين والتبصر فى تاريخ عصره ، كى يتثقف عقله ويحصف فكره لأحوال البشر ، والمؤرخ لا غنى له عن النظر فى كتب الأدباء ليفهم روح العصر الذى يؤرخ له ومثله العليا ، ولا غنى له اذا أراد أن يجىء تاريخه كاملا عن أن يفرد جانبا منه لدرس الحياة الأدبية لذلك العصر ، والمؤرخ للأدب لا غنى له عن درس التاريخ السياسى للعصور الأدبية ، والبيئات السياسية والاجتماعية التى عاش فيها الأدباء الذين يترجم لهم ، وقد كان من عظماء اليونان والرومان أمثال ديموستين وتيوسيديد وقيصر وشيشرون من جمعوا بين البلاغة الأدبية والتأليف التاريخى ، أو بين حرفة الأدب وحرفة السياسة وصنعة الحرب ٠

اذا ما بلغت الأمة طور الحضارة والاستقرار والثقافة ، ودخل الأدب فى طوره الفنى ، وتميز التاريخ وقام علما مستقلا بنفسه كما تقدم والتفت اليه الأدباء فوجدوا به مجالا لفنهم رحيبا ومرتعا لابتكارهم خصيبا ، فهم لايكتفون باستيعاب حقائقه واجتناء فوائده ، بل يتخذون من مشاهده وأحداثه ورجاله مادة وغذاء لأقلامهم ، ومسارح لخيالهم ومنادح لبيان آرائهم فى الانسان والحياة ، وشواهد لتدعيم حججهم فى المذاهب والمشاكل ، فيتخذ منه الشعراء موضوعات لقصيدهم ، والقصصيون هياكل لقصصهم ، ويجدون فى عوالمه البعيدة وحوادثه القريبة وعظمائه النابهين ، مهربا للنفوس من عقال الحاضر القريب ، وأحداثه العادية ٠

كان الشعر فى الجاهلية ديوان العرب لانه ـ هو والقصص ـ كانا يحويان أخبـار العرب ، ويحفظان مشهور حوادثهم وأيامهم ، ويحكيان أخبـار رحلاتهم واستقرارهم ، ويشـيران الى ما وراء ذلك من عوامـل اقتصادية واجتماعية وعصبية ، فلم يكن العرب اذ ذاك يعـرفون مـن التاريخ الا حفظ الأنساب ، فلما تحضروا واستقروا فى المدن تضاءل شأن النسابة وظهر التاريخ المدون ، ظهر أولا لغرض عملى شـأن كل العلوم والفنون ، لحفظ أخبار الفتوح وسيرة النبى الكريم وصـحابته وتفسـير بعض آيات الذكر الحكيم ، وارتقى التاريخ شيئا فشيئا وصارت له أغراض غير هذه وتناول موضوعات أخرى أرحب وأعم ٠

بيد أن التاريخ لدى العرب ـ كالأدب ـ ترعرع فى ظـل الملكية المطلقة ، فجاء كلاهما مشتملا على نفس النقائص : احتفى كلاهما بأمـر الملوك وأغفل جانب الشعوب ، واهتم بالأحداث السياسـية والحروب وتجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصـادية ، واتسم كلاهما بالمحافظة والتقليد والنقل فى غير نقد ، لأن وطأة الملكية كانت تضطر كلا منهما الى الاطراق (١) والاغضاء والتغافل عن مواطن الضعف ودواعى الاصلاح ، وكما كان الشعراء يقرضون الشعر ليتقدموا به الى الأمراء متزلفين (٢) ، فيملأونه بالمدح المغالى فيه ، كان بعض المؤرخين يصنفون أسفارهم ليرفعوها الى بعض الخلفـاء والسلاطين بغية الثواب والحظوة ، فيملأونهـا بمدحه ومدح أسرته وتعداد مآثره ومفاخر دولته ، ويؤيدون دعواه وينحون على عداه ، ويتغاضون عما عدا ذلك ٠

وقد ظل الاتصال قائما بين الأدب والتاريخ بعـد تدوين الكتب واستقلال علم التاريخ بنفسه ، فظلت كتب الأدب تحوى كثيرا من أخبار الجاهلية والاسلام ، بل كانت تلك السير والأخبار والشذرات والنوادر من أهم مواد كتب الأدب العربى ، ووردت فى أشـعار الشعراء شـتى الاشـارات الى أحـداث الماضى ورجاله ، كمـا أن المؤرخين وكتاب التراجم والمعاجم كثيرا ما كانوا يلجأون الى الشعر مستشهدين لما هم بصدده من تحقيق حادثة ، أو تصويب رواية ، وكان بعضهم يعيرون الشعراء اهتمامهم فيترجمون حياتهم ترجمة موجزة ، وكان بعض الشعراء ينظم فى أحداث جيله ، كما فعل ابن الرومى فى ثورة الزنج وفى مقتـل بعض العلويين الخارجين ٠ وكان كتاب الأمراء يتناولون مسائل السياسة فى رسائلهم ،

---

(١) الاطراق : أطرق : سكت لحيرة او خوف او نحوهما ٠

(٢) متزلفين : تزلف : تقدم وتقرب ٠

فتندرج أشعار أولئك وكتابات هؤلاء فى تراث التاريخ اندماجهـا فى كنــوز الأدب •

بيد أن الأدب العربى الذى أغفل كثيرا من موضوعات القول التى ينهافت عليها الأدب اذا ما بلغ طوره الفنى ، أهمل التاريخ اهمالا كبيرا ، فلم يتخذ من حوادثه وحيا للنظم ، ولا من أعاجيبه مدارا للقصص ، ولا من أبطــاله أمثلة للتمجيد ، فليس من بين أدباء العربية الكبار من استهزه حادث تاريخى قرأه ، أو أثر تاريخى وقف به ، الى نظم قصيدة أو انشاء رسالة يستجلى فيها عبر التاريخ ويمجد قوة الانسان ، أو ينـدب ضعف حيلته ازاء جبروت المقادير • وليس من كتاب العربية ذوى الأســاليب الجزلة من شمر عن ساعد الجد والبحث والاطلاع حتى كتب تاريخا رفيعا لبعض العصور أو الرجال ، تاريخا يعد تحفة فى عالم الأدب كما قد يعد مرجعا فى عالم التاريخ ، وانما كان بعض الشعراء يتنصلون من الشؤون الاجتمــاعية والســياسية ، ويتبرءون من الاشتغال بمسائل التــاريخ ، كما قال ابن المعتز :

قليـــل هموم القلـب الا للذة
ينعم نفســا آذنت بالتنقــل
ولست تــراه ســائلا عن خليفة
ولا قائلا : من يعزلون ؟ ومن يلى ؟
ولا صــائحا كالعير فى يـوم لذة
يناظر فى تفضيل عثمان أو على

أما فى الانجليزية حيث كان الأدباء والمؤرخــون كغيرهم من أفراد الشعب يشاركون فى الحياة الاجتماعية والسياسية بآرائهم ومذاهبهم ، بل بأعمالهم ومساعيهم ، فقد جاء كل من الأدب والتاريخ أكثر حرية وأقرب الى جانب الشعب ، وأكثر طروقا لمواضيع المجتمع ومشاكل بنيه ، وجاء الاتصال بين الأدب والتاريخ شديد التوثق ، وجاء الأدب الانجليزى أحفل بآثار المجتمع الذى قيل فيه من الأدب العربى ، ومن ثم تدرس النصوص الأدبية الكثيرة فى أثناء دراسة التاريخ فى الجامعات ، فتدرس آثار ملتون مثلا عند دراسته عهد المطهرين فى انجلترا •

ووجد أدباء الانجليزية فى التاريخ مجالا واسعا لفنهم وابتداعهم ، فجال فيه شكسبير ومعاصروه جولات عديدة ، واتخذوا مشاهد رواياتهم

فى بلاد اليونان أو ايطاليا أو الدانمارك أو انجلترا القديمة ، واشتق ملتون ودريدن موضوعات كثيرة من قصيدهم من تاريخ اليهود وأبناء ملوكهم وأنبيائهم ، فلما ظهر النثر الفنى بجوار الشعر لم يغفل التاريخ ولم يكن أقل لموضوعاته طرقا من الشعر ، بل كان أحرى أن يشتمل على حقائقه ودقائقه ويعالج مسالكه ودروبه ، بما يمتاز به على الشعر من رحب جوانبه ودقة تعبيره ، فعالج جيبون وهيوم وآدم سميث وكارليل وغيرهم التاريخ والاجتماع وفلسفتيهما فى أسلوب أدبى شائق وجمع بعض الأدباء أمثال ماكولى وأرنولد بين الكتابة فى الأدب والتأليف فى التاريخ فكان الأدب والتاريخ لديهم كلا واحدا يجولون فى نواحيه بلا تفريق ، وبقيت كتاباتهم يدرسها طلاب الأدب كما يدرسها باحثو التاريخ .

بل بلغ غرام بعض الأدباء بالماضى ، وشغفهم بتقاليده وأزيائه ومحبتهم لأفذاذه وعظمائه حدا بعيدا ، وقد كان سكوت من ذلك الضرب الذى يحيا فى الماضى وبجلائله ولألائه وبطولته ، ولا يكاد يلتفت الى الحاضر أو يعنى بالمستقبل ، وفى ذلك العالم السالف كتب سكوت أحسن قصصه . وممن كتب فى الروايات والقصص التاريخية أيضا تنيسون وبراونبج ودرنكورتروشو ، وقد نرى موضوعا تاريخيا حديثا كالثورة الفرنسية ، وقد تناوله المؤلفون الانجليز من شتى النواحى : فمحلل لحوادث الثورة وشخصياتها ككارليل ، مندد بمبادئها كبرك ، ومرحب بتلك المبادىء مترنم بها كوردزورث ، ومتخذ من قصة وليد تلك الثورة نابليون موضوعا لملحمة طويلة كهاردى ، وهكذا تحيا حوادث التاريخ فى أذهان مطالعى الأدب مصورة من شتى النواحى .

ولا شك فى أن هذا التاريخ الأدبى ، اذا سميناه كذلك ، أجدر بالقراءة وأحق باهتمام المثقف من التاريخ المجرد ، اذ فى آثار الأدباء تحيا حقائق التاريخ وتدب فيها روح انسانية جديدة وتمتلىء بالامتاع ، ويعود التاريخ والأدب وكلاهما مظهر لحياة الانسان المطردة التطور والتغير ، وتفكيره الدائب الحركة والتقلب ، وفى هذا التاريخ الأدبى يرتبط الحاضر بالماضى ، والقريب من الأمم بالبعيد ، وتتقاصر مسافات الزمان والمكان ، ولا يبقى الا الانسانية الشاملة ، وهذه الانسانية هى مجال كل فن صميم .

هذا التاريخ الأدبى لم يعرف فى العربية ، فكان هناك المؤرخون وكان هناك الأدباء ، ولكن كلا منهما كان مستقلا عن الآخر استقلالا كبيرا ، ولم يكن الأدباء يعدون التاريخ مجالا من مجالات أدبهم ، أو مطمحا من مطامح فنهم ، يبتكرون فى مجاله وينشئون ، وما ذلك الا لانشغالهم

بالقريب الحاضر من شؤون العيش ، عن البعيد المترامى من أمور الحياة وآفاق الفكر لأن الأدب ظل أكثره مرتبطا بالبلاط يمدح الأمير ويحرر رسائله ، وكان الفوز بتلك الحظوة مطمح الأديب ووسيلته الكبرى الى الظهور فاذا ما بلغ ذلك المكان لازم ذلك الضرب الوحيد من القول ، ولم يعرف أدبه الى التأمل فى شئون الماضى والمستقبل ، وهكذا أغفل الأدب العربى التاريخ فيما أغفل من موضوعات هى صميم الفن ، لوثيق صلتها بالانسانية ٠

بيئات الأدباء

فى الأدبين العربى والانجليزى

أثر البيئة فى الانسان ومجتمعه وعلومه وفنونه من النواميس التى اهتم العلم الحديث بكشفها وتتبع مظاهرها والرجوع اليها فى شتى الدراسات · وأثر البيئة في أدب كل أمة على اطلاقه واضح مشاهد ، بيد أن لكل أديب بيئة خاصة داخل البيئة العامة التى تحيط به وبغيره من أدباء أمته ، ولهذه البيئة الخاصة أثر بعيد فى تكييف عبقريته وتوجيه ميوله وصبغ نظرته الى الحياة وتكوين فهمه للأدب ، ولهذه البيئة فى أكثر الأحايين فضل توجيه عبقريته الى الأدب دون غيره من الفنون والحرف الانسانية ·

فالوراثة لها أثر فى فن الأديب ، لاشتراكها فى تكوين مزاجه وميوله ، وذلك الأثر الوراثي ملحوظ فى أدب شلى وبيرون من شعراء الانجليز ، بل فى حياتهما اذ عاش كل منهما ساخطا قلق المقام مضطربا بين البلدان مساجلا المجتمع حربا لاتهدأ ، وقد كان كلاهما منحدرا من أسرة أرستقراطية عرفت صفات الجماح والتمرد فى غير واحد من أسلافها · وللوراثة أثرها الواضح فى أدب ابن الرومى الذى جاء لانتمائه الى الروم مخالفا أدب غيره من فحول العربية ، فى النظرة الى الحياة والطبيعة ، وفى استقصاء المعانى وتوليدها ·

ولتكوين جسم الأديب ، بين الصحة والمرض والكمال والنقص والوسامة والدمامة أثره كذلك فى أدبه . فالأديب سليم الجسم يكون صافى المزاج معتدل النظرة الى الحياة ، والآخر المعتل الصحة المنهوك بالأوصاب (١) ، كالمعرى وابن الرومى فى العربية ، وبوب وسويفت وجراى فى الانجليزية ، يكون ضيق العطن أو قاتم النظرة الى الحياة أو كثير النقمة على معاصريه شديد الشغب معهم · وقد قيل قديما ان للأدب ضريبة على محترفه يتقاضاه اياها من ذات جسمه أو ذات نفسه ، فلا تكاد ترى أديبا الا محروبا أو شقيا أو معسرا ، ولعل فقدان الأديب لبعض

---

(١) بالاوصاب : الوصب : الوجع والمرض والجمع (اوصاب) ·

ما يتمتع به سواه من بهجة الحياة من دواعي ارهاف حسه وصرفه الى التأمل وعطفه الى الأدب ، ولعل المعرى لولا عماه وانحباسه عن متع الدنيا على ذلك الوجه ، لما حفل بالتفكير فى الأرض والسماء وأصل الخلق ومصير الانسان وهلم جرا ٠

وللتربية والنشأة المنزلية أثرهما فى تكوين الأديب ، فكثيرا ما تتجه عبقرية الناشىء الى الأدب لأن أباه أو كافله مشتغل بالأدب ، وقد كان ذلك شائعا بين العرب ، اذ كان الآباء يقومون بتأديب أبنائهم ، فنشأ كثير من الأدباء كالصاحب وابن العميد وابن المعتز وابن زيدون فى بيوت فضل وأدب ٠ وقال ياقوت فى ترجمة المعرى : « وكان فى آبائه وأعمامه ، ومن تقدمه من أهله وتأخر عنه من ولد أبيه ونسله ، فضل ، وقضاة وشعراء ، أنا ذاكر منهم من حضرنى لتعلم نسبه فى العلم » ٠ ولحظ البيئة المنزلية من الرقى أو الحطة أثره كذلك فى أخلاق الناشىء ومنازعه ، ومن ثم يتسم أدب الشريف الرضى فى العربية وتنيسون فى الانجليزية بنزعة التسامى والتدين ، لانتمائهما الى أرومة شريفة دينية ، بينما تبدو لوثة العامية والتبذل فى أشعار بشار وأبى نواس ٠

ولنصيب الأديب من الغنى أو الفقر أثر بعيد فى حياته وعقليته وأدبه ، فلابد للأديب من حظ من المال يستطيع معه أن يتفرغ الى فنه أو يتفنن فى ابتكاره ، أما اذا كان لا يكسب رزقه الا بجهد جهيد فهيهات أن يوفى الأدب حقه ٠ والأديب المعسر المخفق كابن الرومى لا ينفك شاكيا فى شعره متحرقا ، ولا يشكو هذه الشكوى أديب نشأ فى بيت نعمة كابن المعتز أو نجح فى ادراك الغنى كالبحترى ، فشعر هذين أكثر امتلاء بوصف اللذات وأوقات الصفاء ٠ وقد وجد ابن الرومى على البحترى وهجاه حسدا وغيظا ، فرد عليه البحترى ردا هادئا وأتحفه بهدية ، فعل المطمئن الى نفسه الراضى فى بحبوحته ، ولم يطلب الطغرائى شططا حين قال :

أريد بسطة كف أستعين بها

على قضاء حقوق للعلى قبلى

ولنوع الثقافة التى يتلقاها الناشىء ، والأدب الذى يقرأ ، والأستاذ الذى يأخذ عنه ، والأديب الذى يقدمه ويشغف بآثاره ، والأدب الأجنبى الذى يدرسه ، لكل ذلك أثره فى توجيه أدبه وفلسفته فى الحياة ٠ فآراء المتزندقة التى فشت فى صدر العصر العباسى ظاهرة الأثر فى شعر

بشار وحماد وأبى نواس ، والآراء الفلسفية التى ذاعت بعد ذلك ظاهرة فى اشعار الطائى والمعرى والمتنبى ، ولم يتأثر أدباء العربية بأدب اجنبى تاثرا ذا بال ، أما أدباء الانجليزية ففضلا عن اغترافهم جميعا من مناهل الأدب اليونانى ، كان منهم من تاثر بالادب الايطالى كسبنسر ، وبالالمانى كشلى وسكوت وكارليل ، وبالفرنسى ككثير من كتاب القرن الثامن عشر وشعراء القرن السابع عشر ، وكما أثر مذهب أبى تمـــام الشعرى فى تلميذه البحترى وفى المتنبى وغيرهما ، كان لملتون أثر بعيد فى كثير من شعراء الانجليز منهم وردزورث وتنيسون ٠

ولجيل الأديب ، بسياسته وأدبه وأخلاقه وأزيائه وفنونه ، أعظم أثر فى أدبه : فبعض الأدباء ينحاز الى حزب سياسى ويخصص جانبا من كتاباته للدفاع عنه ، كما كان الكميت ودعبل وعمارة اليمنى شيعيين ينتصرون لآل البيت ، وكما كان بشار عقليا بالولاء ينتصر لمضر ويفخر بغضبتها التى تهتك حجاب الشمس ، وكما كان ابن الرومى علويا بالولاء أيضا ٠ وكان أدباء الانجليزية أكثر اتصالا بشئون المجتمع والسياســة وتأثرا بها ، فعرضوا لمشاكل عصورهم فى أشعارهم وقصصهم ، وحين ملأ دكنز قصصه بوصف أحوال الطبقات العاملة ، انما كان متأثرا باحوال عصره الصناعى ، واذا امتلأ شعر المتنبى بذكر القنا والصوارم والفتكة البكر وتضريب أعناق الملوك ، فانمـــا كان ذلك صـــدى عصر التناحر والقلاقل الذى عاش فيه ٠

وتؤثر حرفة الأديب كذلك فى أدبه ، موضوعه ولغته وتشبيهاته : فالأديب الجندى كعنترة وأبى فراس لايكاد يخوض فى غير حديث النجدة والعزة والباس واطاحة الرؤوس عن الأجسام ، والأدباء الوزراء الذين عرفوا فى الدول الاسلامية تتعلق خير كتاباتهم بالسياسة والولاية والعزل وهلم جرا ، والشاعر المداح كالبحترى لاينفك عن ذكر أحوال الملك ومظاهر أبهته ،وتوماس هاردى الذى كان مهندسا معماريا مشغوفا بفن العمارة لايزال يبدىء ويعيد فى وصف العمائر والصروح فى شعره وقصصه ، ويستخدم فى ذلك من المصطلحات العلمية ما لا يكاد يفقهه الا خبير مثله بتلك الشـــئون ، أما الأديب المنقطع الى الأدب فلا يكاد يخوض فى غير شئون الأدب وسير الأدباء ٠ وقد أورد الجاحظ هذه الحقائق مورد الفكاهة فى رسالة صناعات القواد ، اذ جعل الطبيب والخياط والخبـــاز المؤدب وصاحب الحمام وغيرهم ، يتحدثون فى الأدب وينظمون الشعر فيستخدم كل منهم مصطلحات حرفته فى استعاراته وتشبيهاته ٠

وللاقليم الذي يختاره الأديب مستقرا ومقاما ، والأقاليم التي يرحل اليها في أدوار حياته ، أثر عظيم في موضوعاته وأسلوبه : اذ هو يشتق أسباب القول مما يحيط به في حله وترحاله ، ولا ريب في أن الأديب كثير الرحلة يكون أوسع افقـا وأغزر مادة وأعمق فكرة من الأديب القاعد ، اذ كان من يعيش يرى ومن يسير يرى أكثر كما يقول المثل العامي ٠ وقد كان وردزورث يقطن مقاطعة البحيرات في انجلترا وكان كثير التجوال بين الجبال والروابي ، فجاء لفظه مجردا عاريا عرى الصخور وتجردها ، وكثرت فيه ألفاظ الوحشة والوحدة وهلم جرا ٠ ونشأ كبلنج في الهند فامتلأ شعره وقصصه بوصف غياضها وأدغالها ، وحفل بالتعصب الجنسي المتطرف ، وتركت رحلات المتنبي بعض الآثار في أشعاره ، من وصف الطبيعة كوصف بحيرة طبرية وشعب بوان ، الى وصف الأحوال السياسية في مثل قوله :

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كانها غنم

فالى البيئة التي ينشأ فيها الأديب وتضطرب في محيطها حياته ، مرد ما يمتاز به أدبه من اتجاه خاص وطرق موضوعات دون غيرها ، وتناول لها على نحو خاص ، وما يتصف به من سمو أو ضعة ، وورع أو استهتار ، وفكاهة أو انقباض ، وتفاؤل أو تشاؤم ، وعمق أو سطحية ، يختلف حظه من كل ذلك عن حظوظ أبناء أمته بل أبناء جيله بل أصحابه وخلفائه ، وبسبب عوامل البيئة تلك يختلف عنترة وعمر بن أبي ربيعة والشريف الرضي والمتنبي في العربية في الموضوع والنزعة واللفظ والأسلوب ، كما يختلف وردزورث وبيرون وسكوت وشلي في الانجليزية، حتى يستغث الثاني شعر الأول أي استغثاث ، ويحمل الثاني رأيه في الأخير في قوله : ذلك الملحد شلي ! وما ذاك الا لاختلاف ما يحمل رأس كل منهم من آثار الوراثة والثقافة والعقيدة والتربية والنشأة ، على تعاصرهم وتشاركهم في وجوه أخرى ، وعلى كونهم يعدون اليوم أبناء مدرسة واحدة ٠

على أن اختلاف بيئات الأدباء أشد ظهورا في الانجليزية منه في العربية ، لأن أدباء الانجليزية أكثر اضطرابا في المجتمع وادخالا له في أدبهم وأكثر ارتحالا في البلدان وذهابا في آفاق الفكر واعرابا عن أفكارهم الصميمة وآثار تجاربهم ، ولأن المجتمع الانجليزي تغير وتجدد على توالى العصور من عهد اليزابث الى الوقت الحاضر ما لم يتغيره المجتمع الاسلامي ، والثقافة الانجليزية تطورت بتقدم العلوم ما لم تتطوره الثقافة العربية ،

فالمحافظة كانت أغلب على المجتمع والفكر العربيين ، وهى أيضــا كانت سمــة الأدب العربى وديدن أدباء العربية ، ومن ثم تشــابهوا كثيرا فى الموضوعات والأساليب على تباعد المواطن والعصور .

فأدباء العربية بعد قيام الدولة الاسلامية ودخول الأدب طوره الفنى الراقى ، كانوا يأخــذون أنفسهم بضروب من القول يطلبون بها البراعة الفنية أو الشهرة أو الحظوة والنجاح ، كالتمدح بجليل الصفات والتفاخر بتالد (١) المجد ومدح الأمراء . وجروا فى ذلك على سنن مألوفة واغترفوا من مناهل مطروقة ، حتى تشابه أولهم وأخيرهم وبعيدهم وقريبهم . فاذا قرأت مئات القصــائد التى نظمها مروان بن أبى حفصة وبشار وأبو تمام والبحترى وغيرهم فى مدح الخلفاء ، كى ترى أثر البيئة الخاصة للشاعر فى كل ذلك فلن تظفر بطائل ، لأنهم انما نظموها لأغراض مادية وعلى انماط مأثورة ، لا دخل للنفس ولا لتراثها الفكرى فيهــا . واذا قرأت قول أبى نواس :

ومســـتعبد اخــوانه بثرائه	لبست له كبرا أبر على الكبر
لقد زادنى تيها على الناس أننى	أرانى أغناهم وان كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لســـانى حاجة	الى أحــد حتى أغيب فى القبر
فلا يطمعن فى ذاك منى سوقة	ولا ملك الدنيا المحجب فى القصر

كدت تحسب قائل هذا الشعر شريفــا حسيبا عفيفا ، يزهد فى غرور الدنيا ويقنع بالقليل استمساكا بالأنفة والكبرياء ، ولم تعز هذا الفخــر المغرق الى ذلك المداح السآل الذى أنفق العمر فى اجتــداء عطايا الحكام ليبذرها فى انتهاب اللذات الجسدية ، وما ذاك الا أن أبــا نواس اقتفى فى نظم هذا الشعر الطنان أثر أشراف الجاهلية الذين كانوا يتمدحون بالأنفة ، وأراد أن يظهر أنه لا يقصر عن شأوهم فى ذلك البــاب من أبواب القول . والأدب العربى حافل بهذا الضرب من الانشـــاء التقليدى الذى لا أثر فيه يذكر للشخصية المستقلة والبيئة الخاصة .

هذا ، ونشأة كثير من أدباء العربية مجهولة ، وبيئتهم الأولى غامضة ، وأكثرهم لا يظهرون فى ضوء تاريخ الأدب الا حين يصلون الى ذرا الأمير ، وقد كان ذلك الوصول غاية أكثرهم ، ومن ثم نرى فى تاريخ الأدب العربى بيئتين كبيرتين تتلو احداهما الأخرى وتشملان أكثر أعلام الأدب العربى : الأولى بيئة القتال التى كانت بيئته الجاهلية ، وكان الجلاد فيهـــا هم

---

(١) بتالد : بقدم .

الأشراف ، والتمدح بالبلاء فى الوغى هم الشعراء ، وكان الأشراف فى كثير من الأحوال هم الشعراء وهم الخطباء الفحول ، يشفعون بلاءهم فى الهيجاء ببلاغتهم فى القصيد والارتجال ، والبيئة الثانية بيئة البلاط التى اضطرب فى محيطها أكثر الشعراء والكتاب بعد الاسلام وقيام الدولة ، وناثروا بها ونظموا فيها ونثروا •

فبيئات أدباء العربية المادية والذهنيــة كانت كثيرة التشــابه من وجوه ، والبيئات الأولى التى شب فيها كثير منهم مبهمة غامضة ، وقد كان نقاد العربية قليلى العناية بأمر البيئة وأثرها فى تكوين الأديب ، انما كانوا يعرضــون لبعض التواريخ الجافة المتعلقة بمولد الأديب ووفاته ورحلته الى بعض العواصم واتصاله ببعض الحكام ، ويستحسنون بعض ما أنشأ أو يستهجنونه ، ويفضلونه أو يفضلون عليه ما قال أديب غــيره فى نفس الباب ، ولهم فى ذلك بعض العذر ، اذ كانت للقول كما تقــدم أوضاع وأنماط معروفة ، يأخذ الأديب بها نفسه ما استطاع ، ويحاكى الأقدمين فيها ما أمكنته براعته • أما بيئته الخاصة وتراثه الذهنى والنفسى ، فيذره جانبا وقلما يدخله فى أدبه •

ولا يرد ذكر البيئة وأثرها فى كتب النقد العربى الا عرضا ، كالذى ورد من أن ابن الرومى سئل لم لا يشبه كتشبيهات ابن المعتز ، فقــال لسائله : أنشدنى شيئا من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ، فأنشــده بعض أشعار ابن المعتز التى يشبه فيها النجوم والأزهار بالفضة والعنبر ومداهن الغالية وهلم جرا ، فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا الا وسعها ! ذاك انما يصف ماعون بيته ، وأنا أى شىء أصف ؟ ووضع الجاحظ رسالته سالفة الذكر على لسان أرباب المهن ، فأجرى القول فيها مجرى الدعابة والمغالاة ، وكان أولى لو عرض للأمر من ناحيته الجدية • واستعرض بديع الزمان فى بعض مقاماته عددا من فحول الشعراء المتقدمين فقال ان أحدهم أشعر الناس اذا غضب ، والآخر أشعرهم اذا رهب ، والثالث اذا شرب وهلم جرا ، فلم ير الا أن هذه جبلتهــم التى فطــروا عليها ، ولم يتخيل لبيئة كل منهم فى ذلك أثرا •

أما فى الأدب الانجليزى ، ولاسيما فى العصر الحديث ، فدرس أثر البيئة وعواملها من وراثة وتربية وثقافة وعقيدة ، أساس كل دراسة أدبية وكل نقد وترجمة ، والوسيلة الأولى لفهم الأديب وقدر آثاره حق قدرها ، وما ذاك الا نتيجة ارتقاء العلوم والاجتماعيات فى العصــور الحديثة ،

واستفادة الأدب الانجليزى بمجهودات أدباء الأمم الأخرى ، كأدباء الايطالية الذين ارتقوا بعلم تاريخ الأدب ، وأدباء الفرنسية الذين هذبوا أصـــول النقد ، وقد درس الأدب الانجليزى وترجم أدباؤه على ضوء هذه القواعد والأصـــول ، فبلغ من الوضـــوح والترتيب ما لم يبلغـــه تاريخ الأدب العربى بعد .

المعنى والأسلوب

في الادبين العربي والانجليزي

المعنى الصادق الرفيع والاسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب خليق بهذا الاسم ، لايغنى أحدهما اذا غاب الثانى ، فلا بد من شعور عميق ، أو تفكير ثاقب جدير بعناء الانشاء والقراءة ، ولابد بجانب ذلك من عبارة منسجمة جميلة تعرض المعنى على احسن وجه واحبه الى النفوس ، وكبار الأدباء فى شتى الأمم يجمعون دائما بين الفكر الواسع المتصرف فى شؤون الحياة ، وبين المقدرة اللغوية التى تذلل لهم أعنة البيان ، ويتصرفون بها فى الالفاظ والتراكيب ، ويكون لكثير منهم فضل ترحيب جوانب اللغة واكساب تعبيراتها جدة ومرونة ، واعطاء بعض الفاظها منزلة سامية لورودها موردا حسنا فى بعض آثارهم ، وشأن الاديب الكبير فى ذلك شأن غيره من رجال الفنون ، فالمصور مثلا لا يبلغ الذروة فى فنه حتى يجمع الى خصب مشاعره بصرا بتأليف الألوان والأصباغ ، وكل فنان لابد له من الجمع بين رقة الشعور وبين البصر بالآلات التى يكون بها أداء ذلك الشعور ·

والفكر واللغة ، أو المعنى واللفظ ، شديد التوثق والتوشج ، فلا ندحة للأديب عن التأثر بروح اللغة التى يكتب فيها وتراثها على مدى الأجيال ، ولا سبيل له الا الانشاء والنظم فيها حتى يختلط بروحها ، وتمتزج أفكاره بالمفردات والأساليب التى تهيئها له اللغة ، والأديب الصناع يختار من المفردات تلك التى تنهض بأفكاره ومشاعره فى أوجز لفظ وأحكمه وأوضحه بيانا ، بما تمتاز به تلك المفردات من أجواء من المعانى رحيبة تجمعت حولها على مرور الأجيال وتوالى الاستعمال ، حتى غدت يثيرها مجرد ذكر تلك المفردات على نحو خاص ، وذلك ما يجعل آثار بعض الأدباء المفتنين والشعراء المجودين متعذرة الترجمة الى غير لغتها ، لتعذر نقل هذه الأجواء المعنوية برمتها من لسان الى لسان ، بل يتعذر أحيانا التفريق بين المعانى والأساليب التى هى مفرغة فيها · لتمازجها تمازج الروح والجسد ·

ويبلغ الأدب كماله حيث يسود القصد والاعتدال بين اللفظ والمعنى، فاذا استبد المعنى بالأهمية كلها وتحيف اللفظ خرج الأثر المنشأ من حظيرة

الادب الى حيز العلم ، واذا تحيف اللفظ المعنى وصار غاية في ذاته هبطت قيمة الأثر الأدبى ، وأصبح أشبه بالزخرف والصناعة منه بالفن السامى . ويغلب الاحتفاء بالزخرف اللفظى في عهد طفولة الأدب ، اذ يكون الشعر مجرد أهازيج وقواف موسيقية تافهة المعانى،وفى عهود انحطاط الأدب حين ينصرف الأدباء عن لباب الحياة الى القشور ، وبالزخرف اللفظى والبراعة اللغوية والأسجاع والايقاع الموسيقى يكلف الأديب الناشيء أول عهده بالأدب ، وكلما نضجت نفسه وحصف ذهنه بتجربة الحياة واستيعاب المعارف تحول اهتمامه الى المعانى والحقائق والتزم اللفظ فى آثاره منزلته الصحيحة ، وهى كونه وسيلة للمعنى لا غاية فى ذاته .

وقد عرف أقطاب الأدب الانجليزى بواسع بصرهم بأسرار لغتهم ، واليهم يرجع فضل توطئة جوانبها وتعبيد مسالكها ، ولكل منهم فى هذا الباب أثر : فشكسبير قد استخدم فى رواياته أكبر عدد من مفردات اللغة استخدمه أديب ، وصرف تلك المفردات على شتى الوجوه ، وسبنسر أغنى اللغة بما أدخل فيها من ألفاظ جديدة لم تعرفها قبله ، وملتون أصبح اسمه علما على ضرب من النظم عذب الموسيقى فخم الرنين ، وبوب بلغ الغاية من احكام الصناعة وجزالة الأسلوب ، ووردزورث كان دائم التجارب فى الأساليب يحاول أن يشق للشعر أسلوبا جديدا ، وتنيسون تفنن فى استخدام الألفاظ وتحوير التراكيب يؤلف بها روائع الصور الشعرية ، ولا تزال مخطوطات بعض أولئك الأدباء موضع دراسة النقاد والأدباء ، يتفقهون بها فى أسرار اللغة ويزدادون بصرا بخصائص الألفاظ والتراكيب، ويرون كيف يحل لفظ محل لفظ فتشرق به ديباجة البيت من الشعر ويسفر به وجه المعنى جميلا بعد خفاء والتياث (١) .

على أن أولئك الأدباء برغم احتفائهم بالأسلوب ذلك الاحتفاء لم يغلبوه على المعنى ولم يجعلوه غاية فى ذاته ، ولم يصبح الأدب فى أيديهم براعة فى اللفظ وتأنقا فى النسج ، بل ظل اللفظ لديهم دائما خادما للمعنى ، وظل غرضهم الأول من الانشاء الافصاح عن الفكر والشعور . ولم يسرف الأدباء فى الاحتفاء باللفظ الا فى عهد انحطاط الشعر فى بعض القرن الثامن عشر ، فى حقبة لم تنجب شاعرا كبيرا ، ولم يحظ بالشهرة فى حياته والذكر بعد موته من أدباء الانجليزية الا من أهلته لذلك نظرة فى الحياة صادقة عميقة ، ولم تكن كل بضاعته أسلوبا مزخرفا ، منمقا ، بل عرف من كبار الشعراء من لم يكن يولى أسلوبه كبير احتفاء ، ومع ذلك رفعه

(١) التياث : لاث بالشيء أى خلطه به ومرسه .

فكره الجوال فى آفاق الحياة ، ونفسيته الجياشة بأشتات الأحاسيس الى قمة المجد ، فبيرون كان كما قال عن نفسه لا يعاود النظر فى بيت شعر خطه ، ووردزورث نظم كثيرا من بدائع شعره فى أبسط لفظ يستعمل فى النثر والتحدث ، وهاردى لم يكن شعره الا نثرا جيد النظم عاريا مجردا من تلك الألفاظ الشعرية ذات الأجواء المعنوية ، ومن ثم لا يسمو به النقاد الى طبقة الفحول كشكسبير وملتون ، بل ينزلونه الطبقة الثانية بين الشعراء ، وهذا الأسلوب العارى المجرد يزداد شيوعا فى العصر الحديث ٠

أما فى العربية فكان الأمر على نقيض ذلك : فلم يكد يكون بين كبار أدبائها بعد دخول الأدب طوره الفنى من أهمل الأسلوب واحتفى بالمعنى وحده ، وان كان أكثرهم ليقدم الأسلوب على المعنى ويحتفى للفظ ورنينه أى احتفاء وان تضاءل المعنى وتفه ، فاذا كان النثر العربى يبلغ ذروته من الكمال على أيدى ابن المقفع والجاحظ ، والشعر العربى يجرى الى غايته فى آثار المتنبى وابن الرومى والمعرى ، حيث يجتمع صدق النظرة وجمال الأسلوب ، فان غيرهم من مشهورى أدباء العربية انما نبه ذكرهم لبلاغتهم اللفظية ، لا لفلسفة فى الحياة معدودة ، ولا لرسالة فى الأدب عتيدة ٠ ومن أولئك البحترى ومن نحا نحوه من الشعراء والمداحين ، والصاحب بن عباد ومن سلك دربه من المنشئين المسجعين ، فالناظر فى الأبيات الآتية من نظم أشهر شعراء العربية ، يرى أن حظها من المعنى ضئيل ونصيبها من جزالة الأسلوب ورنين اللفظ وعذوبة الموسيقى كبير ، قال أبو نواس فى مدح بعض الوزراء :

عباس عباس اذا احتدم الوغى ... والفضل فضل والربيع ربيع

وقال البحترى فى النسيب :

لما مشين بذى الأراك تشابهت ... أعطاف قضبان به وقدود

ومتى يساعدنا الوصال ودهرنا ... يومان يوم نوى ويوم صدود

وقال أبو تمام فى رثاء طفلين ٠

مازالت الأيام تخبر جاهلا ... ان سوف تفجع مسهلا أو عاقلا

بدران شاء الله أن لا يطلعا ... الا ارتداد الطرف حتى يأفلا

ان الفجيعة بالرياض نواضرا ... لأجل منها بالرياض ذوابلا

نصيب هذه الأبيات جميعها من الفكرة البعيدة أو النظرة المستقلة أو الشعور الصميم ضئيل ٠ وماذا فى قول أبى نواس ان العباس

عباس والفضل فضل والربيع ربيع ، الا أنه ظرف وأحسن نظـــم تلك الأسماء مزدوجة في سلك البيت ؟ وأي الناس لا يعبس اذا احتدم الوغى ؟ ولو قال : عباس بسام لكان وصفه بالشجاعة التي لاتحفل بالموت المحدق • ثم ماذا من جديد في جمع البحتري بين الغصون والقدود وشكواه النوى والصدود ، أو في تشبيه أبي تمام للطفلين بالبدرين الآفلين مرة وبالروضين المصوحين أخرى ؟ انما فضيلة هذا الشعر كله حسن اختيار اللفظ النقي وجمـــال الموسيقى ولطافة التقسيم والمقابلة ، أما المعنى فلا عمق فيـــه ولا ابتكار •

فالاحتفاء باللفظ ولو على حساب المعنى قد تزايد في العربيه تدريجا مع دخول الأدب طوره الفني ، طور التـــدوين والتجويد ، وتزايد الولع بالتسجيع والمطابقة وغيرهما من المحســـنات اللفظيـــه • وكاد الولع بالسجع عند الصاحب بن عباد فيما روى يبلغ حد الجنون ، حتى قيل انه عزل قاضيا بناحية يقال لها (قم) لأنه أراد أن يتم سجعة فقال : أيهـــا القاضي بقم ، قد عزلناك فقم • وتكلف في بعض أسفاره كما حدث عنـــه ابن العميد أن يذهب الى قرية غامرة ذات ماء ملح يقال لها النوبهار لا لشيء الا ليكتب اليه : كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار ، وما زال اللفظ يستبد باحتفال الأدباء ويطغى على المعنى ، حتى ارتد الأدب في عصور التدهور زخرفا لفظيـــا صرفا ، ولم يبق من المعنى الا هذيان كهذيان المخالطين •

فلا نبالغ اذا قلنا ان المعنى كان في ازهر عصور الأدب العربي يحتل المكان الثاني بعد اللفظ ، وهذا واضح في أقوال النقاد • قال الآمدي في موازنته بين الطائيين : « وليس الشعر عند أهل العلم به الا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها •• فان اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد في بهـــاء الكلام ، وان لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » • وقال الخليلي في سياق حديث له أورده ياقوت في ترجمة الصاحب بن عباد : « الشاعر يطلب لفظا حرا ومعنى بديعا ونظما حلوا وكلمة رشيقة ومثلا سهلا ووزنا مقبولا » ، فكل الاهتمام هنا موجه الى لطافة النسج والتجويد لا الى عمق الفكرة والشعور •

كان الشعراء في الجاهلية وصدر الاســـلام يرسلون القول على سجيته في نسج محكم يرمون به الى بيان أفكارهم وشعورهم على اقصد سبيل وأقربه ، فلما كان عهد التحضر والتثقف أحاطت بالأدب عوامل

أدت الى تقديم اللفظ على المعنى ، منها فساد اللغة بمخالطة الأعاجم فاشتد الحرص على طلب اللغة الصحيحة واتقان أساليب العرب الأقحاح وتقليد فحول المتقدمين • وزاد هذا الحرص شدة اشتغال الأعاجم أنفسهم بالأدب وجدهم فى تحصيل لغة العرب ولسان الكتاب المنزل ، وسبقهم فى العلوم والتاليف ، وتفاصحهم بمحاكاة أدب الجاهلية وصدر الاسلام ، وتظاهرهم بالقدرة على التصرف فى الألفاظ والتراكيب ، فكان همهم صحة التعبير وبلاغته قبل صدق المعنى وعمقه •

ومما زاد الأدباء انصرافا الى اللفظ وتجويده واختيار الأسلوب والافتنان فى صياغته وتحويره ، انتشار المدح والتكسب بالأدب ، فانه لما كانت الفضائل الانسانية ، ولا سيما تلك التى كانت مشهورة مطلوبة فى المجتمع الاسلامى ، محدودة معروفة ، كان مجال القول فيها محدودا ومجال الابتكار ضيقا ، فطلب الشعراء المداحون السعة فى جانب اللفظ ، يتأنقون فى تزويقه وترصيعه ، ويعتاضون عن الابتكار فى المعانى بالأوزان الرشيقة والقوافى الرخيمة والتشبيهات اللبيقة ، والتقسيم والمقابلة والسجع والتجنيس • وبهذه المحسنات البديعية – ما راق منها وما سمج – تحفل مدائح أبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وابن الرومى ، اذا جردت من زيناتها اللفظية لم يبق من نسيبها الاستهلالى ومدحها المغرق شىء ذو بال ، من ذلك قول أبى تمام فى مدح بعض القواد ، ولا داعى لذكر اسم ذلك القائد أو صفته ، فما كان لكل ذلك أى دخل فى نظم مثل ذلك القصيد :

وجرد من آرائه حين أضرمت ... به الحرب حدا مثل حد المناصل
وسارت به بين القنابل والقنا ... عزائم كانت كالقنا والقنابل
وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى ... بعقبان طير فى الدماء نواهل

فكل هذه المعانى الدائرة حول شجاعة القائد وآرائه التى تفوق الجيوش ، وعزائمه التى تفل السيوف ، والعقبان التى تتبع اعلامه لتنهل من دماء أعدائه ، كل هذه المعانى مطروقة من قبل أبى تمام ، مذكورة بعده فى ميمية المتنبى المشهورة وغيره من مدائحه لسيف الدولة ، ولا غرو فقد غدت أكثر معانى الأدب فى أبواب المدح والهجاء والفخر والوصف والحكمة وغيرها ، تراثا متداولا بين الشعراء من جيل الى جيل ، اذا تفنن الشاعر صاغ بعضه صياغة جديدة أو ولد منه بعض التوليد ، فاذا اتفق له أن صاغ معنى قديما صياغة جديدة يفوق صياغة صاحبه الأول صفق له النقاد

وقالوا سرقة مغفورة ولص ظريف هو أولى بالمعنى من صاحبه لأنه أجود لفظا ، كما قيل فى بيت البحترى فى مدح المتوكل :

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما   فى وسعه لمشى اليك المنبر

أخذه وتصرف فيه من قول أبى تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصها   فتركب من شوق الى كل راكب

كان الشعراء اذا صرفوا القول الى المديح اتوا بالمعانى الجوفاء الهزيلة ، واحتفوا باللفظ يدارون بزخارفه ركاكة المعنى ، وكان أكابر شعراء العربية فى طور الأدب الفنى مداحين ، فامتلأ الأدب العربى بذلك الضرب السقيم المعانى الطنان الألفاظ ، وانما كان الشعراء يبتكرون المعاني الجيدة يلبسونها من اللفظ أجمل لبوس حين ينظمون فى غير المديح من الوجوه التى يدفع الى النظم فيها شعور صحيح وفكر ثاقب ، فكانت من ذلك حكم المتنبى وأوصاف ابن الرومى ونظرات المعرى ، كما ظهرت فى الأدب العربى تلك الظاهرة الفريدة ، وهى ان أشعار كثير من المقلين وممن يعدون فى الطبقة الثانية من الشعراء كالصولى والامام الشافعى ، تروع النفس بصدقها وحصافتها أكثر مما تروعها أشعار المكثرين المشهورين ، لأن أولئك المقلين كانوا لا ينظمون الشعر الا تلبية لحافز نفسى ، وهؤلاء المكثرين كانوا ينظمون ابتغاء النوال ٠

ومن عوامل احتفاء أدباء العربية باللفظ أيضا ، أن الأدب العربى فى ظل الدولة الاسلامية كان أكثره أدبا بلاطيا وأرستقراطيا ، مكفوفا عن شؤون المجتمع ، منزويا عن أكثر مواضيع القول ومجالات الفن ومسارح الأدب ، من وصف الطبيعة والتأليف التاريخى الفنى ووصف آثار الأقدمين فى عالم الحضارة والفنون ، وسبحات الخيال فى عوالم الحقيقة والخرافة ، وتصوير آثار الرحلات والمغامرات ، فلما حرم الأدب طرق هذه المواضيع الجمة الخصبة الحافلة بمنادح التفكير والشعور والقول ، لم يبق لديه كبير مجال للابتكار فى المعانى ، فتوفر على الافتنان فى الألفاظ يدور بها فى مجالاته المحدودة الموروثة عن المتقدمين ٠

وزاد مجال القول ضيقا حرمان الأدب العربى من الاطلاع على الأدب اليونانى ، فلو كان على اتصال مستمر بذلك الأدب ٠ لتمهدت أمامه منادح للقول من جهة ، ولانصرف اهتمامه من جهة أخرى الى المعانى دون

الالفاظ ، لان المعانى دون الألفاظ هى التى تتشـــارك فيها آداب الأمم المختلفة ، اما أدباء العربية الذين لم يطلعوا على أدب أجنبى راق ، فكان اعتدادهم بتفوق اللغة العربية على اللغات شديدا ، وكانت ألفاظهـــا وتعبيراتها تقوم فى مخيلتهم مقام الحقائق المتحجرة ، وكان التجويد فى استخدام تلك الألفاظ والتعبيرات فى الأبواب المطـــروقة من قديم غاية الأديب ، فظل بيت زهير بن أبى سلمى الذى قاله فى عهـــد البـــداوة ، يصدق على شعراء العربية فى أوج عهد الحضارة والثقافة :

ما أرانـــا نقول الا معـــارا   أو معـــادا من قولنـــا مكرورا

ثم لاشك فى أن حياة الترف وزخارف العيش التى انغمس فيهـــا العرب بعد الفتوح ، وأبهة البلاط التى كان الأدباء يحومون حولهـــا ويتزاحمون فى مراكبها ، كانت من أسباب شيوع الزخرف فى الأدب الذى هو مرآة للحياة المحيطة به ، فاذا كان الأدب الفارسى قد كان فى ذلك العهد من الضآلة بحيث لم يؤثر كثيرا فى أدب العرب ، فقد أثر الفرس فى الأدب العربى بمظاهر الترف والبذخ المادية التى نقلها عنهم العباسيون وتركت آثارها فى الأدب ، وهذا الترف الأدبى كالترف المادى دليل الرخاوة والضعف ، والسير الى الانحلال ·

وقد ساعدت طبيعة اللغة العربية ذلك الميل الذى غلب على أدبائها ، الميل الى التأنق فى اللفظ ، وتثقيله بالمحسنات التى ينوء المعنى تحتها ويتضاءل ، وذلك لما للغة العربية من بلاغة أصيلة وموســـيقى فخمـــة ، وما لألفاظها وتراكيبها فى النفوس من روعة وبهـــاء ، وما لأوزان الشعر العربى وقوافيه من رصانة وجلال ، وما للغة من ثروة طائلة وغنى بطرف الاشتقاق وامتلاء بالمترادفات ، واتساع لصنوف التشبيهات والمجازات ، بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يجمع حوله المستجيدين ويستولى على الألباب ، دون أن يبتدع فى المعنى أو يتعمق فى الشعور · كما تصرفك عذوبة اللحن الموسيقى عن تفاهة المعنى المتغنى به ، وقد استغل كتاب العربية كابن العميد والصاحب والبديع والحريرى ثروة اللغـــة هذه أبعد استغلال ، وجاءت رسائلهم ومقاماتهم معارض مائجة بتلك الكنوز العظيمة ·

ففى الأدبين العربى والانجليزى آثار بالغة حد الفن من الصـــدق والعمق والجمال ، تجمع بين حرارة الشعور وجودة الأسلوب ، غير أن الأدب العربى لاحاطة تلك الظروف والعوامل به ، أحفـــل مـــن الأدب

الانجليزى بالآثار التى يغلب فيها اللفظ على المعنى ، وتظهر الصنعة على الطبع ، وتبدو فيه دلائل الاحتفاء بالأساوب واضحة ، حتى فى مخلفات أكبر أدبائه وأعظمهم حظا من النبوغ والشاعرية . ويعد بين اقطابه افراد لم تؤثر عنهم فلسفة فى الحياة خاصة او شخصية مستقلة . ولم يرفع ذكرهم الا اقتدارهم على تصريف الكلام . ويحفل الأدب بآثار اولئك الأدباء التى تعجب بحلاوة أسلوبها وان لم تعجب بعمق افكارها . ولسنا نسرف اذا قلنا فى الجملة ان الأدب العربى كان ادب أساوب ، والأدب الانجليزى أدب معنى .

أثـر الأخـلاق

فى الأدبين العربى والانجليزى

التخلق من صفات الانسان الذى يحيا فى الجماعة ، تضطره الحياة الاجتماعية الى تعديل كثير من طبـاعه الفطرية التى يجبل عليها ، وكبح ما يتنافى منهـا مع مصلحة المجتمع ، والأخـذ بما فيه تلك المصلحة ، فالأخلاق الحسنة أو الفضائل هى الصفات التى بها يكون صلاح الفرد والمجتمع ، ومن أجل هذا الصلاح يحمد الصدق والشجاعة والعفة ، ويذم الكذب والجبن والفجور ، وهذه الأخلاق الحسنة التى هى مزيج من طباع الانسان المركبة فيه ، ومقتضيات المجتمع التى يفرضها عليه ، تكاد نتفق بين جميع الأمم فى شتى الأصقاع والعصور ، فما من أمة لا يحمـد فيها الكرم والايثـار والقناعة وتذم الرذائل المضـادة لهذه الفضائل ، معايير الأخلاق هذه يكاد يتحد فيها الجميع ، انما تختلف الأمم والأفراد فى مدى مراعاتها حقا واتباعها عملا ، باختلاف الجبلات والأوسـاط الجغرافيـة والاجتماعية .

وللأخلاق أثرها المحقق فى آداب الأمة وأدب الفرد . تنعكس الأخلاق فى مرآة الأدب كما تنعكس العقليات ، ويكون ظهـور آثارها فى الأدب أحيانا بدهيا تلقائيا غير مقصود ، كما يكون أحيانا مقصـودا معنيـا ، اذ يلجأ الأديب الى تصوير أخلاقه الذاتية وأخلاق غيره من أفراد مجتمعه ، وتختلف صبغة أدب الأمة الأخلاقية من جيل الى جيل ، حسب ما يتوالى على المجتمع من عوامل الفضيلة والرذيلة ، ومتانة العقيدة الدينية أو انحلالها ، وارتفاع المثل العليا التى يتوخاها المجتمع أو انحطاطها ، أثـر كل ذلك واضـح فى آداب الأمة المكتوبة وفى أقاصيصها الشعبية وأناشـيدها المتداولة .

وفى الأخلاق الفاضلة كما تقدم صـلاح المجتمع ، بيـد أن تحبيذ الفضيلة وذم الرذيلة ليسا وظيفة الأدب الأولى ، انما وظيفته تصـوير الجمال ووصف الشعور وبيان الحقائق على ما هى عليـه غير مموهة ، والعبقرية الفنية والفضيلة ليستا دائما توءمين ، بل ربما كان الكثير من رجال الفن أميل الى الافراط والتفريط فى حياتهم ، وأبعد عن القصد

والاعتدال من عامة الناس ، وقد ترقى الفنون وتزدهر فى عصور الادبار الخلقى ، كما كانت الحال فى ايطاليا فى عهد النهضة الأوربية ، على أن الأدب وان لم تكن غايته نشر الفضيلة ، ولا وظيفته ترقية الأخلاق ، ان هو الا مظهر من مظاهر رقى الانسان وتحضره ، وناحية من نواحى حياته الاجتماعية يجب عليه أن يخضع لما يخضع له سائر مناحى تلك الحياة من مقاييس خلقية فيها صلاح المجموع .

فاذا لم يكن واجب الأدب الوعظ والارشاد الى الخلق القويم فواجبه الذى لاشك فيه ألا يصادم الخلق القويم ولا يتحدى تقاليد المجتمع الصالحة ، وواجبه أن يتجه ما استطاع وجهة الخير ويتنكب (١) مواضيع الفساد ودواعى التبذل ، وكل أثر أدبى مهما بلغت براعته وصدقه ودل على عبقرية صاحبه ، اذا خالطه الفجور والافحاش واتسم بالاستهتار وتوخى الهنات والسوءات ، لابد أن يمجه الذوق السليم وينفر منه الطبع الكريم ، لما فيه من منافاة للأخلاق السامية التى يأخذ نفسه بها كل متحضر متهذب متثقف ويدرج عليها حتى تتأصل فيه وتصير له طباعا ثانية .

وكانت للعرب فى الجاهلية أمثلة عليا من الأخلاق الفاضلة التى تمليها حياة البادية كالشجاعة والذود عن الذمار والدفاع عن الحريم والجود والقناعة واجارة المستجير ، وحول التمدح بتلك الأخلاق يدور جانب عظيم من الشعر الجاهلى ، يعزو الشاعر تلك الفضائل الى نفسه تارة كما فعل عنترة فى معلقته ، والى قومه عامة كما فعل عمرو بن كلثوم ولبيد والسموأل ، والى ممدوحه كما كان يفعل زهير والأعشى ، ولبعض أشراف الجاهلية كالأفوه الأودى وحاتم الطائى وذى الأصبع العدوانى ، آثار فى ذلك رائعة ببلاغتها وقوة أسرها وسمو منزعها ، ويرسلها بعضهم قصيدا رصينا ، وبعضهم يرسلها نصائح للمخاطب ، ويصوغها بعضهم وصايا الى أبنائهم ، وبعضهم يجعلها حوارا بينه وبين زوجه على تلك الطريقة العربية الجميلة ، وطلب العرب حسن الأحدوثة وطيب الأثر ، ولم يدخروا فى ذلك قولا أو فعلا ، قال حاتم الطائى :

وتذكر أخلاق الفتى وعظامه ‏ ‏ مغيبه فى اللحد بال رميمها

وبدهى أن التمسك بكل هاتيك المثل العليا الخلقية لم يكن ديدن جميع العرب ولا التغنى بها دأب جميع الشعراء ، بل كانت أسباب الشر

---

(١) يتنكب : يتجنب .

والفجور موفورة ، ودواعي المجون والخلاعة عديدة ، تتجلى فى سـيرة امرىء القيس الذى لم يكن يكاد يفيق غراما أو خمارا ، وحياة طرفه التى صورها فى معلقته ، حيث وصف ثلاث حاجاته فى الحياة ، فمنهن سبقه لعاذلات بشربة كميت(١) ، وتقصير يوم الدجن ببهكنة (٢) تحت الخباء(٣) المعمد ، وتراه اذا نادى المضـــاف محنبا (٤) ، وكان ذيوع المفاســـد قبيل ظهور الاسلام سبب ظهور كثير من الحـكماء الذين أخذوا أنفسهم بالزهد ودعوا اليه ، كما أخذ كثير من أشراف العـرب أنفسهم بمجانبة الخمر والقمار ونحوهما ، ومن أولئك عامر بن الظرب الذى يقول وقد حرم فى جماعة من السادة الخمر على أنفسهم :

أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق ترب القبر أوصالى
مورثة القوم أضـغانا بـلا احن مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى

وظل أكثر المثل العليا الأخلاقية فى الاسلام كما كان فى الجاهلية ، بعد أن هذب الاسلام من حواشيها وكفكف من غلوائها ، فتمدح شعراء الاسلام بالفضائل كالكرم والوفاء وحسن الجوار وكتمان السر والحلم عن السفيه والتصون عن الفحشاء والترفع عن المماراة والمجازاة بالحسنة عن السيئة ، كما فعل مسكين الدارمى وأوس بن معن ، والمقنع الكنـــدى والشريف الرضى ، وتفاخروا بالبلاء فى الحروب والاباء على الضيم والتعالى على الجهال وطلب السيادة والمعالى ، كما فعل أبو فراس والمتنبى ، ومدح الشعراء ممدوحيهم بهذا وذاك ، ورموا مهجويهم بأضداد تلك الفضائل ، وتهكموا فى مداعباتهم بالبخلاء والجبناء والمنهزمين والأدعياء والمتطفلين . ومن محاسن أشـعار امتداح الخلق الكريم قول سالم بن وابصـة الذى يتمثل فيه الروح الاسلامى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشـــة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطا أذى ولا مانعا خيرا ولا قائلا هجـرا
اذا ما أتت من صاحـب لك زلة فكن أنت محتالا لزلتـه عذرا

---

(١) كميت : الخمر .
(٢) ببهكنة : أى المرأة البضة الناعمة .
(٣) الخباء : بيت من وبر أو شعر أو صوف يكون على عمودين أو ثلاثة ويشـير هنا الى بيت طرفة بن العبد :

ويقصر يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخبـاء المعمـد

(٤) محنبا : حنب الفرس ، أى اعوجت ساقاه ، والمحنب : المقوس والمنحنى .

وقول الشريف الرضي :

يصـــول على الجاهلون وأعتلي ويعجم فـــي القائلون وأعرب
لساني حصاة يقرع الجهل بالحجى اذا نال مني العاضه المتأوب
ولا أعرف الفحشاء الا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

وكان احتواء الشعر على تلك الآداب النفسية من أسباب ضن العرب الشديد به ، وتسميتهم اياه ديوانهم ، وأخذهم أبناءهم بحفظه • وكانت دراسة آثار أبطال العرب وأشرافهم تلك تقوم في التربية العربية مقام دراسة أشعار هوميروس في التربية اليونانية القديمة ، كل منهما تقدم للناشىء نماذج من الفضيلة وأمثلة من الشخصيات العظيمة يحاكيها ويتشبه بها ، وهذا الباب من أكرم أبواب الشعر العربي وأجمعه لخير ميزات الأدب العربي ، من البلاغة والصراحة والايجاز ونفاذ النظرة •

على انه بجانب هذه النزعة الخلقية الساميـة المتخلفة عن أشراف الجاهلية ، والتي رفعتها فضائل الاسلام درجات من الرقة والسمو ظهرت رويدا رويدا نزعة مضادة لها كانت ذات أثر في الأدب واضح وضوح نزعة التسامي تلك أو هو أوضح ، وتلك هي نزعة الاستهتار والمجون والاباحية التي كانت نتيجة محتومة لاتســاع الفتــوح واختــلاط العرب بأشتات الأجناس واستفحال الترف واتســـاع الثـروة وتفاقم دواعي الشهوات ، ثم انحطاط مكانة المرأة من جراء ذلك واختفائها من المجتمع • حتى ذاعت فيه الآداب الخشنة والألفاظ الفاحشة ، بدل أن يتهـذب مع الحضارة ، ويتخلص من جفوة البداوة الجاهلية •

وانعكس أثر كل هذا الفساد في الأدب العربي ، فجاءت كتب الأدب محملة بالحكايات المخزية والعبارات النابية والاشارات المندية ، وشبب الشعراء بالذكور ، وتمدحوا بالتسلل الى الخدور ، وتفاخروا بالاسراف في الشراب والعكوف على سماع الألحان ، وجاهر بعضهم بالزندقة وتهكموا بعقائد المجتمع الدينية ، ووقع بعضهم في خصومهـــم بأقذع الهجـــاء وتهجموا على أعراضهم واتهموا حلائلهم • وفي أشعـار جرير والفرزدق وبشار وأبي نواس والمتنبي وابن الرومي من ذلك الشيء الكثير •

أوغل الشعراء في تلك الأبواب ايغالا لايكاد يصدقه العقل ، ومن العجيب أن الطريقة التقليدية التي يجري عليها تاريخ الأدب العـــربي

لاتزال تعد من فحول العربية شعراء لم يكد يؤثر عنهم مقال في سوى تلك الأغراض الحيوانية · ومن البدهي أنه مهما تفنن الناظم في وصف الخمر وتصوير الشهوات ، فلن يرفعه ذلك الى مصـــاف الشعراء العظـام · ودواوين ابن أبي ربيعـــة وبشار وحماد وأبي نواس وأمثـالهم ان هي الا استهتار وتمدح بالمخازي ومجاهرة بالفسوق محكمة الديباجة بارعة النظم ، فاذا كان هؤلاء من فحول الأدب العربي فما أقصره عن بلوغ المثل الأعلى للأدب الراقي · ومن أيسر مجون أبي نواس قوله :

ألا فاســـقني خمرا وقل لي : هي الخمر

ولا تســـقني سرا اذا أمكـن الجهــر

فهو لا يقنع أن يفرط في الشراب ما شاء ، بل يأبى الا الامعان في الفجور والا أن يتم لذته بالجهر بالعربدة ·

ولئن خدمت الحرية الفكرية التي كان يتمتع بها الفلاسفة والعلماء في كثير من الدول الاسلامية ، فما كذلك هذه الحرية التي اســـتباحها المجان من الأدباء : الأولى حرية تساعد تقدم الفكر ورقي العلم ، والثانية تؤدي الى انحطاط الخلق وتضرب في دعائم المجتمع · الأولى حرية فكرية نافعة ، والثانية اباحية خلقية ضارة ، والأدب يرسم للمجتمع ـ وان لم يقصد ـ مثلا عليا يتوخاها ، فاذا تمادى في تصوير دنيء النوازع فانه يهبط بالنفوس الى مستوى منحط لا تريد عنه ارتفاعا · وليس شك في أن أشعار أبي نواس وأمثاله كانت من أكبر اســباب انحطاط المجتمع الاسلامي ، وقد كانت حياة الصعلكة التي كان يحياها ، وأشعار العربدة التي نظمها ، نموذجا للأدباء في عصور الادبار ، فكان الأدب والصعلكة وادمان الشراب ووصف الخمر في نظرهم توائم لابد أن تجتمع ·

ففي الأدب العربي آثار من الخلق الكريم وتمدح بالفضيلة ، بجانبها آثار من الأخلاق المنحطة ومجاهرة بالاستهتار ، وفي الانجليزية طرف من هذه وطرف من تلك أيضا : فقد تأثر بعض شعراء الانجليزية بالمثل العليا الأخلاقية التي سنتها المسيحية ، بجانب تلك التي أثرت عن الوثنيـــة ، وظهر أثر ذلك في أشعار سبنسر الذي جعل كل فارس في ملحمتـــه « الملكة الحسناء » عنوانا على فضيلة من الفضائل المسيحية · وبدا ذلك أيضا في أدب عهد المطهرين ، ففي كتاب « رحلة الحاج » لبنيان تتشخص الفضائل والرذائل على ذلك النحو ، ثم كان تنيسون وكبلنج يمزجـان النزعة المسيحية بالنعرة الوطنية ، وظهرت في الأدب الانجليزي بجانب

ذلك نزعة الاستهتار والمجون في بعض الفترات ، كما حــدث في بعض القرن السابع عشر من جراء التاثر بالبلاط الفرنسي المترف ، وفي أواخر القرن التاسع عشر من جراء التاثر بالأدب الفرنسي أيضا ، الا نزع بعض القصصيين الانجليز كأوسكار وايلد الى ذلك الضرب التحليلي من القصص الذي يسرف في تصـــوير اللذات ، واستكنــاه دنيء العواطف وخسيس النزعات .

على أن كلا الأمــرين ـ أعني التمدح بكريم الأخــلاق والمجاهرة بالاستهتار والتبذل ـ كانا ضئيلي الأثر قصيري العمر قليلي الأتبــاع في تاريــخ المجتمع والأدب الانجليزيين ، فالتشدق بالمحامد والمكارم ليس يعجب الذوق الانجليزي الذي يؤثر الصمت ويفضل العمل على القول ، ومن ثم لم تنفق أخلاقيات تنيسون وأضرابه بين صفوة المثقفين ، بل كانت من أسباب خمــول ذلك الشــاعر بعــد وفاته ، والتمادي في التحدث بالشهوات بعيد كذلك عن طبع الانجليزي والاجتراء على قواعد الفضيلة ومراسيم الحشمة وتقاليد المجتمع لايحظى منه بغير الانكار والاعراض ، ومن ثم ثار بالمتهورين من الشعراء والكتاب أمثال بيرون وشلي واوسكار وايلد ، فالجأ الأولين الى حيــاة المنفى وزج بالثالث في غيابة السجن ، ولم تشفع لهم لديه مواهبهم الممتازة ولا صيتهم خارج انجلترا ، بل قد يغلو المجتمع الانجليزي في الغيرة على تقاليده الى حد يسميه بعض الناس نفاقا اجتماعيا ، فيغضب على أدباء كرام سليمي الطوية ، كما غضب على هاردي ولورانس من القصصيين المحدثين .

فالطبع الانجليزي يأبى أن يكون الأدب مطيــة للتفلسف الخلقي والفخر الطنان ، كما يأبى أن يكون الأدب معرضــا للتبذل والتوقح ، وانما رسالة الأدب الانجليزي التي ورثها عن الأدب الاغريقي هي الجمال والشعور الصادق ، يحوط ذلك جو من الوقار والتسامي كان يعوز حتى الأدب الاغريقي ذاته أحيــانا ، وانما احتفظ الانجليز بصفات الرجولة والرزانة تلك لأنهم ـ فضلا عن طبيعتهم الهادئة التي هي وليــدة جوهم البارد ـ لم ينساقوا في تيار من الترف الموبق بانتشــار فتوحهم وترامي أملاكهم ، كما فعل غيرهم من الأمم التي شادت الامبراطوريات في عصور التاريخ ، لأن تشييد الامبراطورية البريطانية جاء تدريجيا هادئا كالنمو الطبيعي ، وبنجاة الانجليز من مفاسد الترف والثروة المفاجئة سلمت لهم أخلاقهم القويمة .

أضف الى ذلك تمتعهم بالحكم الديمقراطي ، اي بحكمهم أنفســهم وخضوع الشعب لمشيئة الشعب وحدها ، مما جعل للرأي العام الكلمة

العليا فى المحافظة على الأخلاق والذب عن تقاليد المجتمع اذا تحداه متحد وقع عليه الغرم المادى والأدبى، وطاشت دعوته قبل أن يتأثر بها سواه ، على حين كان الرأى العام فى الأمم الاسلامية ضعيفا مستخزيا أمام جبروت الملكية المطلقة ، فكان أفاضل القوم ينقمون على حـركات الاستهتار فى المجتمع وآثار المجون فى الأدب ، ولكنهم كانوا مغلولى الأيدى لا يستطيعون عن عقيدتهم دفاعا ، وألف بعضهم حينا جمعيات للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والضرب على أيدى العابثين فأصابهم من بطش السلطـان وتعقبه ما لم يصب أولئك العابثين ٠

وكانت الملكية فى الدول الاسلامية أحيانا تشجع التهاجى بالمقذعات بين الشعراء شغلا لهم وللجمهور عن شؤون السياسة وظل بشار يتحدى عقائد الناس ويسخر من فضائلهم وينال من أعراضهم وهو آمن معافى ، حتى تطاول على عرض الخليفة ذاته فكان فى ذلك تلفه ٠ ولما لم يكن للناس من قوة الرأى العام حارس ومدافع ، عمد من استطاع منهم بحول أو مكيدة الى الانتقام بنفسه ممن تعرض له بالفحش ، فلقى كل من المتنبى وابن الرومى حتفـه على يد مهجوه ٠ هكذا استفحل المنـكر فى المجتمع والاباحية فى الأدب من أثر ذيوع الترف وتحكم الملكية المطلقة ، رغم أن المجتمع كان مجتمعا اسلاميا والدولة كان أساسها دينيا ، وكان الأجدر أن أدبا يزدهر فى ظل الدين الاسـلامى الحنيف ، يكون أعف الآداب لفظا وأشرفها قصدا ٠

وقد تقدم القول أن سريان ذلك الفساد فى كيان المجتمع الاسلامى عقب الفتوح أدى الى انحطاط المرأة واختفائها من المجتمع ، وكان ذلك من دواعى انتشار هجر القول فى الأدب فان وجود المرأة فى المجتمع عامل تجمل وتوقر وتعفف فى المسلك والمقال ، وهو عامل سـعد به الأدب الانجليزى فكان من أسباب تساميه الخلقى ، وظلت النظرة الى المرأة فى الانجليزية سامية عفيفة ، وظلت صحبتها منبع وحى وداعية تكرم لدى الأدباء ، وقد قال ستيل عن صاحبة له فاضـلة ان محادثتهـا هى ثقافة قائمة بذاتها ٠

فالأديب الانجليزى لا يتمدح بالمحامد ولا يجاهر بالمباذل ، لأن طبعه لايستسيغ هذا ولا ذاك ، ومجتمعه لايقبلهما منـه ، ثم هو لايهجو غيره ولا يفحش فى الهجاء ٠ وانما يصور أخلاق أفراد المجتمع بما فيهـا من فضائل ومعايب ، ويتهكم بالمتشدقين بالفضـائل والمتظاهرين بالعـلم

أو بالثروة أو بالعظمــة ، أى بالمسرفين فى كل شىء المجاوزين حد القصد والاعتدال ، والتوسط الذى هو خير الأمور ، فالاعتدال شعار الانجليزى فى مسلكه وفى أدبه والتطرف يثير سخرينه واحتقاره ، وهــذا الميل منه واضح فى مواضيع الأدب الفكاهية وضوحه فى أغراضه الجدية .

الحكمة

فى الادبين العربى والانجليزى

يولد المرء جاهلا ثم لا تزال التجارب تبصره بحقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤدبه ، ولا يزال هو بثاقب فكره ، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته ، ويصوغ من جزئيات التجارب التى يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء ، التى يجدر بالعاقل أن يسايرها ويحتال لها ، لا أن يصادمها ويجرى على غير سننها ، وتلك هى الحكم التى هى لباب التجارب وثمار المعرفة ، والتى يغتبط الأديب أى اغتباط حين يستخلص عصارتها من مرير الشدائد وعصيب الأزمات ، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف ، ويتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، وتتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم، ويشدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها الا الكبار ، بعد ان يخوضوا أتون (١) التجارب الذى ينضج النفوس •

فالحكمة خلاصة التجربة العملية ، ولا تقرأ فى الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين • ومن ثم يستوى فيها الخاصة المثقفون والعامة الأميون ، اذ كان كلاهما يستقى من معين الحياة المشهودة ، وتذيع بين العامة أمثال وحكم هى غاية فى الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير • وقد يطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء فى كتبهم ، وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله ، من سعى وتوان ، ووقار واستهتار ، وامعان فى الحروب واستراحة الى السلم والدعة ، ومن ثم نرى كثيرا من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضى ، رغم صدقها وعمقها مصوغة فى ابذأ لفظ وأفحش صورة ، ونرى كثيرا منها يحث على القناعة والتواكل والقعود •

ومن الحكم ما ترسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسمائه ، ومنها ما تصاغ فى قصة محكمة ذات مغزى ، ومن تلك القصص ما ينسب الى حكيم من الأقدمين كلقمان ، أو الى

---

(١) أتون : الاتون : الموقد الكبير •

شخص خيالي مثل جحا الذى صاغ العامة حوله قصصا بالغة غاية الحكمه والمتعة والفكاهة ، ومن تلك القصص ما يجرى على ألسنة الحيوان ، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتيال ، ويمثل الذئب دور الغدر والافتئات ، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود ، من كل هذه الضروب حظ وفير ، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم ، ويحضون على حسن المعاملة ويدعون الى الفضيلة .

والشرق ، مهد المدنيات القديمة والامبراطوريات العظيمة ، والملكيات المطلقة ذات الحول والأبهة والبذخ ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة ، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والانبياء ، فيه تتجلى طباع الأشياء على جهارتها ، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمض ، وتتتابع السعود والنحوس ، وتتقلب الأيام والدولات وتعقب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والادبار ، ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظاتها ، ويتجلى لذوى النفوس العالية غرورها وبهارجها ، وتنصرف همة الحكماء والفضلاء الى هداية مواطنيهم الى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون فى أمن من جور الغاشمين وبطش الأقدار ويسعون جهدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء ، واصلاح مايرون من اسباب الفوضى والفساد ، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أمم الشرق ، بين الفترة والفترة .

للحكمة الصادقة المصوغة فى اللفظ البليغ المحكم مكانها فى أدب كل لغة : ففى كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الادباء فى مواطنها ، وقد نسيت أسماء قائليها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع ، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التى أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التى عركتهم ، وفى الأدبين العربى والانجليزى تراث حافل من الحكم والأمثال ، وفى كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه ، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وايجاز اللفظ .

ففى الانجليزية اشتهر شكسبير أولا وبوب ثانيا بروائع حكمهما وسارت كثير من أبياتهما مسير الأمثال ، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير ، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة الى الحياة ومذهب فى الفن ، وندر من كبار أدباء الانجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال

والاجتماع والمرأة وهلم جرا • ومن الانجيل سرت في اللغة الانجليزية المكتوبة والمتكلمة أمثال وحكم عديدة ، لاتزال تحمل طابعها الاسرائيلي وتدل بأسماء أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية ، وسرت في الانجليزية كذلك أمثال عديدة من الاغريقية واللاتينية يترجمها الأدباء اذا استعملوها وقد يثبتونها في لغتها الأصلية •

بيد أن ذلك هو كل ما هنالك ، والحكمة في الانجليزية نادرة الى حد بعيد ، وهي لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمدا ويودعونها اللفظ البليغ الموجز ، ولم يكن الايجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها في أحسن آثارها وأزهر عصورها ، فالأديب الانجليزي اذا أخذ في الكتابة أرسل لخياله العنان ، وأبرز فكرته الواحدة في شتى الصور متسلسلة مستتبعة غيرها من الأفكار ، أما الأديب العربي فيؤثر الايجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة ويتجه الى غيره ، وهذا الايجاز المشهود في جيد الشعر الجاهلي راجع بلاشك الى أمية العرب وحاجتهم الى الاستغناء بالقول الجامع ، والاجتزاء بالحكمة الشاملة ، وقد توورثت هذه الخلة من خلال الأدب الجاهلي فيما تلا ذلك من عصور الأدب العربي كما توورث غيرها من خلال •

ومما حبب العرب في جاهليتهم في الحكمة أخذهم بحياة الحل والترحال ، واشتغالهم أبدا بالقتال وادراك الثارات : فتلك حياة شديدة كانت تتطلب كثيرا من العمل وقليلا من الكلام المفيد مع قلته • وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها ، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء ، ومنهم كان كثير من فحول الشعر ورجال البيان ومصاقع (١) الخطباء كالأفوه الأودي وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الأيادي • ومن ثم أثر عن الجاهليين ما لا يعد من روائع الحكم نظما ونثرا • ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبي سلمى في معلقته • وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما اعجاب ، وشمروا عن ساعد الجد للاتيان بأمثالها ، وعدوها محك قدرة الشاعر وبرهان الشاعرية الصادقة ، وكاد يلهيهم الاشتداد في طلبها عن ابتكار شيء جديد في الشعر •

---

(١) مصاقع : المصقع : البليغ يتفنن في مذاهب القول •

وكان العرب فى الجاهلية لا يعدون الشاعر فحلا حتى ينطق بالحكمة . فما لم يأت بشىء منها فهو عبد عر لم ينضجه تنور (١) التجارب ولم تتكشف له حقائق الحياة ، وظل الأعشى فيما قبل مزويا عن مرتبة الفحول ، رغم ضربه بسهم فى مجالات المدح والهجاء والاعتذار ووصف الخمر ، حتى قال فى مدحته سلامه ذو فائش : « والشىء حيثما جعلا » فرفعته هذه الجملة الموجزة الى مصاف النابغه وامرىء القيس . ويروى حكايات كهذه عن شعراء الاسلام : فقد قيل ان جريرا سمع دالية عمر بن أبى ربيعة التى يقول منها : « انما العاجز من لا يستبد » ، فقال : « ما زال هذا الفتى يهذى حتى قال الشعر » ، فهو لم يحفل بكل ما قاله الفتى فى التشبيب ، حتى ضرب على وتر الحكمه واستثار اعجابه .

وادب الجاهلية وصدر الاسلام حافل بتلك الحكم البليغه المشتمله على تجارب قائليها من سادة القبائل واشرافها ، الجامعة لنظراتهم فى الحياة وخطتهم وسننهم فيها . وتمدحهم بما رسموه لأنفسهم من مناهج وما أخذوها به من فضائل . وهذا الباب من أكرم أبواب الأدب العربى وادعاها الى الاعجاب ، ومن أجله كان العرب فى تلك العهود يغالون بالشعر وينشئون أبناءهم على مدارسته . وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالأدب ، لأن حفظ آثاره والعمل بهما يؤدبان النفس ويهذبان الخلق ، وذلك هو الاسم الذى اطلقه ابو تمام فى حماسته على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة . وقد اتسع معنى هذا اللفظ فيما بعد أن كان اسم جزء صار اسم كل وأطلق على الشعر جميعه والنثر معا . وليس شك فى أن هذا التطور الطبيعى البسيط هو منشأ كلمة أدب اللغة . وان يكن بعض المستشرقين قد تحذلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة داب ، فذلك من قبيل النظريات المحضة التى لا تبلغ مبلغ اليقين أبدا ، وليست الا من قبيل التظرف العلمى والتظاهر بالعمق فى البحث ، وان لم يجد ذلك العالم فتيلا (٢) ، ولم يدرك يوما منزلة الاقناع .

كانت الحكمة من أظهر ابواب الأدب فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وكان من أقطابها فى الجاهلية من ذكر ، وفى الاسلام الامام على والأحنف ابن قيس وكثير من الصحابة ، وبظهور الاسلام ثم توطد الدولة زاد العرب كلفا بالحكمة وزاد الداعى اليها اهمية ، فقد جاء القرآن الكريم والحديث

---

(١) تنور : التنور فرن يخبز فيه .

(٢) فتيلا : الفتيل الخيط الذى فى شق النواة .

حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم ، التى أربت (١) على الغاية من البلاغة والسمو ، وحثا على طلب الحكمة التى هى ضالة المؤمن ، وقد ظل الكتاب والحديث دائما نموذج الأدباء ومستقاهم ، فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة ، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد ، عادلة حينا وجائرة أحيانا ، وجد الناس فى الحكمة الشاملة المعممة سلوة للنفوس المقهورة ، وعزاء عن المآرب المحظورة ، وتنفيسا عن المطامح المستورة ، واتقاء لشبهات السلطان ، فأجريت الأمثال والمواعظ على ألسنة السلف الصالح ، وملوك الأمم الغابرة وحكمائها وفلاسفتها ، ووضعت على أفواه الحيوان والأرواح ، وأرسلت شعرا ونثرا . وترجمت عن اللغات ، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع .

وكانت الصبغة الدينية التى لازمت توطد الدولة الاسلامية وتطور المجتمع الاسلامى ، داعيا آخر الى انتشار الحكمة فى الأدب وفى الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين ، ومن آثار الحكمة التى مبعثها الشعور الدينى أشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس والامام الشافعى ، ومما زاد هذه النزعة الدينية احساسا ، وهذه الحكم الدينية ذيوعا ، ما كان يجاورها من مظاهر الترف المغرق وآثار اللذات والمفاسد ، فكانت تلك رد فعل لهذه ، وكان من الشعراء المغرقين فى المجون والتبذل كأبى نواس وبشار ، من تعاودهم رجعات من التبصر فى الحياة وغرورها ، حين تسئمهم اللذات ويرهقهم بشمها (كثرتها) وخمارها ، فيرسلون فى أشعارهم من الحكم ما قد ينسب الى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء .

وبدخول الأدب العربى طوره الفنى طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم ، وكانوا يشفعون الحكمة الانسانية أحيانا بمصدأقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد ، فاذا أرسل أبو تمام حكمة فى ظهور فضل المحسود على يد الحاسد ضرب لذلك مثلا اشتعال النار فيما جاورت واعلانها بذلك طيب عرف العود ، ويقول فى موضع آخر منتزعا مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة :

واذا رأيت من الهلال نموه ... أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

ويقول غيره :

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقى اللحاء

---

(١) أربت : أرب الشىء : عقده وأحكمه .

واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليوناني ، فتأثر أدباؤهم بتلك الدراسة ، وازداد ولعهم بالحكمة ، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب الى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمى ، وذلك واضح فى أشعار المتنبى والمعرى اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربى الأصيل ، الذى يمتاز بالبلاغة والوضوح والاطلاق ، وبلغ من تأثر شعر الحكمة فى العربية بروح الفلسفة اليونانية ، أن أبا على الحاتمى وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبى الى كلام أرسطو · وفى شعر المتنبى بلغت الحكمة العربية أوج رقيها ، أو بالأحرى بلغ الشعر العربى ذروة عظمته ، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قيل فى الموازنة بين أبى تمام والمتنبى والبحترى ان الأولين حكيمان ، والشاعر البحترى ، لكثرة ما فى شعرهما من الحكم ، وأبو تمام هو القائل فى ذلك الضرب من الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة	ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى	بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فالولع بالحكمة ظاهر فى الأدب العربى : فاقتباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذيوعا فى العربية منه فى الانجليزية ، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التى تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم ، وهى موضوع مطولات كثيرة كمقصورة ابن دريد ولاميه ابن الوردى وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم ، وبها تمتلىء الخطب المنسوبة الى وفود العرب الى كسرى والى أهل بيت المهدى عند مشاورته لهم فى حرب خراسان · وقد أولع الكتاب بنثر حكم الشعراء فى رسائلهم مسجوعة منمقة ، كما أولع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة ، وكان الشعراء أكثر لجوءا الى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة فى قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات ، وكثيرا ما كانت تساق الحكم فى هيئة نصائح · ويقول ابن عبد القدوس : « والنصح أغلى ما يباع ويوهب » ومن شعر النصيحة جيمية محمد بن بشير التى يقول منها :

قدم لرجلك قبل الخطو موضعها	فمن علا زلقا عن غرة زلجا

أما الموضوعات التى طرقتها الحكمة فى الأدب العربى فلا تحصر ، فقد جالت فى شتى نواحى الحياة : من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها ، الى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال ، الى ندرة

الصديق الصدوق ، ومن شؤون الحياة اليومية الى سياسة الدول وحكم الشعوب ، ومن آداب الحوار الى آداب مصاحبة السلطان وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة ، حسب ما توجههم اليه بيئاتهم ونفسياتهم ، فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت ، والمتنبى كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التى كان يحياها ، والمعرى كان يستقى حكمته ويستخرج عبره من ظواهر الكون التى كان دائم الاشتغال بها ، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا الى سواه :

يغـادر غابة الضرغام كيمـا ينازع ظبى رمل فى كناس
سـجايا كلهـا غدر ولؤم توارثهـا أناس عـن أناس

فكثير من الظروف التى أحاطت بالأدب العربى فى الجاهلية والاسلام كانت تدعو الى انتشار آثار الحكمة فيه ، فجاء حافلا بها منثوره ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع ، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الانجليزى ، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيرا ، فلا البـداوة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط ، ولا الروح الدينى المتغلغل فى المجتمع ، لم يؤثر شىء من ذلك فى الانجليزية تأثيره فى العربية ولم يقتصر الانجليز على دراسة الفلسفة الاغريقية بل درسوا معها الأدب الاغريقى ، وعنه تلقوا رسالته وهى الجمال ، فصـارت هذه رسالة الأدب الانجليزى أيضا ، فكان الأديب الانجليزى يتوخى الجمال فيما يشاهد ويحس ويكتب ، فى حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قبلة الأديب العربى فى كل ذلك ، ومن الأدب الاغريقى تعلم الأديب الانجليزى أيضا أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال ، على حين ظل رائد الأديب العربى بلاغة الايجاز ، وكبح جمحات الخيال .

ومن ثم تمثل خير ما فى الأدب العربى فى حكم الشعراء والخطباء والكتاب ، وجوامع كلمهـم وموجز بيانهـم ، وتمثل خير ما فى الأدب الانجليزى فى سبحات الخيـال المطلق المطنب ، من درامات وملاحـم وقصص ، فالعيب الاجتماعى أو النقص السياسى الذى كان يراه الأديب العربى ، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تثير ريبـة السلطان ، كان يحوك حوله الأديب الانجليزى فى قصـة

اجتماعية رحيبة الجوانب تشخص موضع الداء تشخيصا ، وتعين الدواء ، ويتجلى الفرق بين الأدبين ، فى هـذا الصـدد فى نوع عبقرية شاعريهما الفذين : فقد بلغت العبقرية الشعرية الانجليزية ذروتها فى آثار شكسبير صاحب الدوامات المتلئة بالخيـال المطلق ، وبلغت العبقرية الشعرية العربية أوجها فى قصيد المتنبى الحافل بالحكمة البليغة .

التشـابه والاختـلاف

فى الأدبين العربى والانجليزى

يروع الناظر فى الأدبين العربى والانجليزى شـدة ما بينهما من تباعد ، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختـلاف ، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والاتفاق · ولا غـرو فان الظروف الجغرافيـة والتاريخية التى احاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره ، كانت متباينة أى تبـاين ، والعوامل الاجتماعية والسياسـية التى تترك آثارها فى الأدب كانت متضادة أى تضاد ، فجاء الأدبان اللذان هما وليدا تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف ، فى الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض ، ولم يتفقا الا فى كل عام من الوجـوه التى يستوى فيهـا جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الانسانية ·

فالأمة العربية أمة ساميـة ضربت فى فيافى الجزيرة أحقـابا ، وترعرع أدبها تحت سماء البادية ، ثم خـرجت من جزيرتهـا فورثت حضارات الأمم الشرقية ، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوائها شعوبا أرقى منها مدنية وأعرق فى العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة ، وكان الدين أساس دولتها وشارة مجتمعها ، والأمة الانجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة فجولت فى البحـار ، وشاركت فى تراث الاغريق والرومان ، واعتنقت المسيحية ، وساهمت فى الحضارة الأوربية ، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطى ، فهما أمتان مختلفتان فى الجبلة ونوع المجتمع ومتجه التفكير ، فاختلف أدباهما تبعا لذلك ، ولم يتفقا كما تقدم الا فى وجوه عامة ومناح عارضة :

فعصر الجاهلية فى تاريخ الأدب العربى شبيه بعصر ما قبل اليزابث فى التاريخ والأدب الانجليزيين : ففى ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته فى عزلة كبيرة عن العـالم · على حال شبيه بعصر الأبطال فى بلاد اليونان الذى أنتج ملاحم هوميروس ، وكان الأدبان تبعة لذلك جافيين ، وعرى اللفظ والأسلوب ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الفنى الذى جاء فى العصر التالى ، وان يكن الأدب العربى بلغ فى عهد الجاهلية والبداوة والعزلة

مبلغا من الرقى أعلى كثيرا مما بلغه الأدب الانجليزى قبل أن يتصل اتصالا وثيقا بثقافات الأمم الأخرى وآدابها ٠

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر اليزابث ، بوصول النهضة الأوربية الى انجلترا ، واتجاه نظر الانجليز الى ما وراء البحر ، ففى كل من هذين العصرين بدات الامه تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها ، وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته ، وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جزاء ذلك ارتقاء عظيما ، ورقت ديباجته ودخل فى طوره الفنى ، طور الانشاء المحكم والمجهود الأدبى المتصل ، وانتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيرا من الأمم : فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهلية ، صار يتكلم (بضم الميم) من تخوم الصين الى المحيط الأطلسى ، وأثر فى لغات وأزال غيرها وحل محلها ، واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها الا ملايين معدودة فى عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم ٠

ولم تكن كل من الأمتين توطد أركان امبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلا حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، وداناها فى ازدهار العلوم والآداب : فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية ، استقلت الولايات الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ، بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى : فلم تنجب الأندلس من الأدباء من بذوا فحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شكسبير وملتون ، فلعل التراث الثقافى الحافل ، والماضى التاريخى المؤثل من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية ، وذلك ما كان يعوز الأندلس الاسلامية ، وما يعوز أمريكا الحديثة ، فظلت كلتاهما تلتفتان الى الوطن الأول فى ظل النموذج والمنهاج والوحى ٠

وكلا الأدبين العربى والانجليزى تأثر الى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته : فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم شامل ، فقد كان منذ جاء مثلا أعلى فى البلاغة وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم الى الانجليزية فى عهد الاصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة وادخال مفردات جديدة ، واشتقاق

غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت الى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائما قدوة للأدباء يحتذونها في اسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلي في كتابين هما من ذخائر الأدب الانجليزي ، أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثاني « الفردوس المفقود » لملتون ، ففي كليهما يقوم أساس القصة على ما ورد في الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل ان دراسة الانجيل كانت هي الثقافة الوحيدة التي نالها بنيان ، الذي كان قسا ضئيل الحظ من العلم ، ومع ذلك يعد أسلوبه المبني على أسلوب الانجيل في الذروة في أدب اللغة .

تلك امثلة من وجوه التشابه في الأدبين ، وظاهر أنه تشابه عام عارض محدود ، أما وجوه التناقض فعديدة تشمل نواحي الأدب وتضرب جذورها في صميمه : فالأدب العربي ازدهر في كل دولة اسلامية فهو أشد تأثرا واصطباغا بالنزعة الدينية من الأدب الانجليزي ، ومع ذلك قد جرى العرب الى غايات من الترف واجتناء اللذات لم يبلغ بعضها الانجليز ، وبدا أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الديني في أدبهم ، وقضت التقاليد التي نمت في المجتمع الاسلامي باسدال الحجاب على المرأة ، فتقلص ظلها من المجتمع وضؤل أثرها في الأدب ، وازداد ضآلة بمرور الأيام بدل أن يزداد جسامة بتوطد الحضارة وذيوع التعليم واتساع جوانب الأدب ، فكانت المرأة الانجليزية أبين أثرا في أدبها — كاتبة ومكتوبا عنها — من المرأة العربية .

وعرف الانجليز فنونا لم يحفل بها العرب كثيرا كالتصوير والنحت، وأغرموا بما اطلعوا عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة ، وامتلأ أدبهم بوصف كل ذلك وتقديره والأدب العربي يكاد يكون خلوا من ذلك ، وانكب أدباء الانجليزية على دراسة الآداب الأوربية المعاصرة وأفادوا منها كثيرا ، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب الاغريقي القديم ، فكان لهذا الأدب أبعد الآثار وأشملها في الأدب الانجليزي : رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله ، ومد أمامه منادح القول ووجه نظره الى جمال الحياة الذي تصويره غرض الأدب والفن جميعا واكتسب الأدب الانجليزي صبغة اغريقية ظل الأدب العربي بعيدا عنها ، فان هذا الأخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره ، أو يستفيد من تراث اليونان الأدبي الحافل فكان ذلك الاقبال على الأدب الاغريقي من جانب الانجليز ، وذلك الاعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعي اختلاف الأدبين وتباعدهما .

وفى عهد الدولة والحضارة والثقافة ، عهد الطور الفنى للأدب حين بلغ أوج رقيه ، رضخ العرب للملكية المطلقة ، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الأدب عن النقد والاصلاح وتلحق الأدباء بحاشيتها ، فجاء الأدب العربى بلاطيا فى جملته ، يتمدح بمآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم ، ويغفل الشعب وأحواله وآماله الى حد بعيد ، على حين اعتمد الأدب الانجليزى فى أكثر عصوره على استجلاب رضى الشعب . وتصوير أحواله ونشدان آماله ، فامتلأ الأدب الانجليزى بالنظرات النقدية والقصص الاجتماعية والبحوث السياسية ، وحفل بتمجيد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والرأى العام ، على حين امتلأ الأدب العربى بالمدائح والرسائل الديوانية ، فمن أكبر مظاهر اختلاف الأدبين العربى والانجليزى ، صبغة الأخير الشعبية الفردية وصبغة الأول البلاطية الرسمية .

وهذا الانضواء تحت لواء الملكية أكسب الأدب العربى صفات وخصائص ظل الأدب الانجليزى خلوا منها : فغلبت على الأدب العربى ـ الذى تعود الاغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الاصلاح ـ نزعة المحافظة والتقليد ، على حين سادت الأدب الانجليزى روح التجديد ، وتجدد على طول العصور لفظا وأسلوبا وموضوعا ، وكان من دواعى تلك المحافظة أيضا اشتغال غير العرب بالأدب العربى ، بل ظهورهم على العرب فى جمال الصناعة الأدبية ، وقدم من جراء ذلك كله الأسلوب على المعنى . وكان يعد أديبا من تمكن من أصول اللغة وأحكم انشاء الجمل البليغة . لا من لطف حسه وأرهف شعوره ، واتسعت نظرته وسمت فكرته فى الحياة ، وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التى سادت الأدب العربى أن جمدت أشكاله وموضوعاته ، فلم تتطور أشكاله وتتميز وتتعدد ، ولم تتجدد موضوعاته وتتكاثر وتتوالد ، على حين كان تاريخ الأدب الانجليزى تاريخ تجدد مستمر واخصاب متزايد فى هذه النواحى جميعا .

ولسير الأدب العربى فى ركاب الأمراء ، واعتماده على عطفهم دون عطف الجمهور ، أهمل الأدب موضوعات كثيرة هى من صميم الفن ولباب الحياة ، وهى هم الأديب المفكر المحس ، كعبادة مفاتن الطبيعة والتفنن فى عرضها ، واستلهام حكم التاريخ والتأنق فى وصفها ، واستيحاء جلائل البطولة وتصوير روائعها ، واستخلاص مواضع الفتنة والمتعة والجمال من خرافات الأقدمين ، وارضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها ، وعرض آثار الرحلات التى يقوم بها الأديب ووقعها فى نفسه ، والسبح فى عوالم الخيال البعيدة الساحرة ، والضرب فى أعماق الماضى وآماد

المستقبل وآفاق الانسانية الواسعة . كان الأدب العربى ـ لاعتماده على صلات الأمراء ـ فى شغل شاغل بحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة ، فأهمـــل بعضها ولم يمس بعضها الا مسا رقيقا . وبكل هاتيك العوالم وذخائرها وأصدائها يحفل الأدب الانجليزى .

هذا الاختلاف المطرد الشامل فى البيئة والمجتمع والموضــــوع والاسلوب ، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدبى العرب وكتب الادب الانجليزى ، وفحول هذا واقطاب ذاك ، وسيرهم وآثارهم وعقلياتهم وشخصياتهم ، حتى ما نكاد نرى فى الأدبين شاعرين متماثلين او كاتبين يذكرنا أحدهما بالآخـر ، من جهـة العقليـــة والأســلوب او الموضوعات ، أو يتشابه موضوع كتاب هنا وموضــوع كتاب هناك . او تخال فكرة قصيدة فى هذا الأدب صـــادرة عن نفس الحالة النفسية الصادرة عنها أخرى فى الأدب الآخر ، ليس هناك شيء من ذلك ، وليس بين الأدبين الا التباعد والتناكر ، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية ، والعقيدة الدينية والثقافة ، والنزعة فى الحياة والمتجه فى التفكير .

فاذا وازنا بين كبيرى شعراء الأدبين ، المتنبى وشكسبير ، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم : فجانب كبير من شعر المتنبى موقوف على المدح والهجاء ، ولم يقل فيهما شكسبير حرفا ، وشعر المتنبى ملء بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة يزاحم بعضها بعضـــا وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلا مسهبا لا يتوخى بلاغة الايجاز فى شيء ، وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبى يطرق موضوعا آخر بعيدا عن دائرة حيـــاته الشخصية ، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموســــيقى وتمجيد الأبطال . وتضرب فى شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ، وشكسبير يراوح فى نظمه بين أشكال الشعر المختلفة ، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولا ، المتداخلة القوافى ، وقد دعى ضرب الســـونيت باســـمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة ، على حين ظل المتنبى ـ وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والأدب المطلع على حقائق الحياة ـ متمسكا بالشكل الشعرى الوحيد الذى وصل اليه من المتقدمين ، وهو القصيد المصرعة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فلم يمنح الأدب العربى شكلا ولا موضـــوعا لم يكن من قبله ، وعاش المتنبى ومات طامحا الى الملك وتضريب الأعناق ، ساخطا على تبريزه فى

مضمار الأدب الذى كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شيء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال •

وجلي واضح أن هذه الفروق بين الشاعرين العظيمين انما ترجع الى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التي كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، والى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملتون وبيرون وشلي وكيتس وجيبون وكارليل وماكولى من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الأول بواحد من الفريق الثانى ، فى سيرته في الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الأدبى ، وان كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجـــه الاختـــلاف والتضاد •

هذا الاختلاف فى البيئتين الجغرافيـــة والظروف التاريخيـــة ، والعوامل الاجتماعية والاقتصـــادية ، والجبلة والتقاليد والمنازع ، وهذا التباين بين الأدبين فى المشرب والأسلوب والموضوع وشخصيات الادباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الأدبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلهـا بالدروس والعبر ، وأدعاها الى استخلاص المبـادىء والنظريات الأدبية ، والى التفطن الى العوامل المؤثرة في الآداب ونتائجها ، وقديمـــا قيل : وبضدها تتميز الأشياء ولو كان الأدبان شديدى التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان فى الموازنة بينهما كبير طائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولأشبها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين ، موزعا بين لسانين •

ثانيا : مقــالات أخــرى

تشسترتون

زعيم الرجعية في عصر التطور

شهدت أواخر القرن الماضي وأوائل الحاضر تحولا عاما في المبادىء السياسية والاجتماعية والأدبية في انجلترا : اذ نفر الناس تدريجا من المبادىء التي كانت تسود تلك المناحي في العصر الفكتوري : كانت النزعة الاستعمارية في العصر الفكتوري تسود السياسة حتى ساقت انجلترا الى حرب جنوبي أفريقيا التي كبدتها خسائر فادحة ، وكان للفكتوريين اعتداد شديد بحالتهم الراهنة ومبادئهم السائدة ، تجعلهم يشيحون عن كل جديد ويتمسكون بما لديهم ، وكان الفرق الاجتماعي في ذلك العهد بين الطبقات كبيرا ، وكان مركز المرأة تثقله القيود ، وكانت الأخلاق تتسم بالتزمت والتحرج المغرق ، وكانت معايير الأدب تتمثل في اشعار تنيسون وقصص دكنز ، حتى مل الناس تلك المبادىء والمعايير كما هو دأب المجتمعات الحية من دوام التطور والتبديل ٠

وكان زعيما التطور الفكري الذي تجلى في مستهل القرن الحاضر هما برنارد شو وهـ ٠ ج ٠ ولز ، هذان الكاتبان العظيمان أوسعا الأحوال الراهنة والآراء المعتقدة نقدا وتفنيدا وتجريحا ، وفتحا للناس أبوابا من الفكر لم تكن معروفة ، وحثا الجمهور القارىء على اصلاح مساوىء المجتمع الراهن والتطلع الى مجتمع في المستقبل أقرب الى المثل الأعلى يحيا فيه انسان هو أقرب الى السوبرمان ، فبينما كان الفكتوريون يعتقدون أن مجتمعهم هو المثل الاعلى للحضارة ، اذا ولز يقول ان الحضارة الانسانية لم تبدأ بعد لأن تاريخ البشرية في الماضي لم يكن الا سلسلة أخطاء ومجازر وجرائم ، واذا شو ينادي بانسان أعلى ، نسبة الانسان الحاضر اليه كنسبة القردة الينا ٠

فوجىء الناس بهذه الآراء الجريئة وهذه العوالم الجديدة يعرضها على أبصارها ذانك الكاتبان القديران ومن ماثلهما فكرا وقل عنهما عبقرية وشهرة ، وكان حريا أن يفاجأ الناس ويعجبوا في مجتمع كالمجتمع الانجليزي معروف بمحافظته واجلاله للتقاليد ، وكان حريا بجانب الاعجاب الذي قوبل به المذهب الجديد أن يقابل من كثيرين بالبغض والنفور

والنقد والهجوم ، وهذا ما كان ، بل ان شو نفسه لم ينل مكانته الحاضرة لقمة سائغة بل اضطر الى أن يسلك اليها شتى الطرق ويتذرع بشتى الوسائل • أما الحملة المضادة للمذهب الجديد التى كان حتما ظهورها فقد كان فارسها المعـلم جلبرت كيث تشسترتون زعيم الرجعية فى عصر التقدم السريع والتطور المطرد •

ولد ج • ك • تشسترتون فى لندن عـام ١٨٧٤ ، ومات منذ نحو ثلاث سنين ، ونشأ عظيم الجسم ، مديد القامة ، حتى قال عنه شو : انك حين تخاطبه يظل نصف منه خارجا عن متناول بصرك ! ويقول هو عن نفسه فى ترجمة حياته بقلمه : انه كان آكولا محبا للطعام مشغوفا بشرب البيرة ، وهو فى ذلك يناقض شو البيوريتانى النزعة الذى لا يشرب الخمر ولا يقرب اللحم ويتجنب أشتات اللذات ، والتحق تشسترتون بمدرسة للفنون لميله الى التصوير ، ولكنه لم يتم دراسته بها ، واحترف الصحافة والنقد الفنى والأدبى ، وظل ذلك عمله الى آخر حياته الخاليـة من مهم الأحـداث ، وزار ألمـانيا وأسبانيا وبولندة والولايات المتحـدة وغيرها للمحاضرة فى الأدب الانجليزى •

لم يكن تشسترتون تلميذا نجيبا ، بل هو يعترف فى ترجمته لنفسه بأنه كان غبيا ، وقد هجر الدراسة قبل أن ينال شهادة ما ، بيد أنه كان منذ صغره محبا للأدب بارعا فيه ، فأنشأ هو ورفقة من زملائه فى المدرسة الابتدائية مجلة جذبت اليهم الأنظار ونالت تشجيع ناظر مدرسته ، وفى مدرسة الفنون سالفة الذكر بلغ تشسترتون مبالغ الرجال ونضجت أفكاره وهاجمته شتى مسائل الحياة ، حتى اسـتولى عليه القنوط ، وتملكه التشاؤم وتزعزعت عقيدته الدينية ، بيد أنه ما زال فى بحثه وتفكيره حتى اهتدى الى العقيدة التى استراح اليها ضميره واستقرت بها بلابله، ولم تكن تلك الا العقيدة المسيحية ذاتها ، تلك العقيدة التى هجرها منذ مدة باحثا عن الحقيقة فما لبث أن عاد اليها مهتديا •

قال فى هذا الصدد فى مقدمة كتاب « السنة » : « لقد كانت نفسى تحـدثنى دائما بكتابة قصـة خيالية عن بحار انجليزى أخطأ فى قيـاس طريقه حتى اكتشف انجلترا وهو يحسبهـا جزيرة من جزر البحـار الجنوبية » ويستطرد فيبين أن ذلك مثله هو نفسه : اذ خرج طائفا باحثا عن الحقيقة فاهتدى الى القانون الكنسى الذى كان يعرفه حق المعرفة قبل ذلك المطاف ، ذلك بأن التشاؤم الذى ران على نفسه حقبة كان قد أرهقها وهى الميالة بطبيعتها الى المرح ، فوجدت نفسه ضالتها فى المسيحية التى

تدعو الى قبول الحياة على علاتها فى بشر ، ومنذ ذلك الحين صـــار تشسترتون زعيم التفاؤل وعدو نزعة التشاؤم السائدة فى كتابات بعض معاصريه كتوماس هاردى وهاوسمن ، فهو يقول عن هاردى فى كتابه عن الادب الفكتورى انه « ملحد ريفى قابع فى اكتئاب يلعن ويجدف فى احتفائه بأجلاف القرويين » ·

ففى عصر الشك والمروق تمسك تشسترتون بعقيدته الدينية،وتعلق بأهداب مسيحيته وعاب على معاصريه فى مقدمة ما عاب زيغ عقيدتهم ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل مازال وهو البروتستـانتى النشـأة يميل رويدا رويدا الى الكاثوليكية فى آرائه ، حتى اعتنقها رسـميا وهو فى الثامنة والخمسين من عمره · ولعل صديقه الحميم هيليربيلوك هو الذى ساقه الى اتخاذ هذه الخطـــوة ، وبيلوك هذا كاتب مؤرخ فرنسى الأب كاثوليكى المذهب تعرف به تشسترتون فى مطعم ــ وهذا شبيه بتشسترتون الكثير الارتياد للمطاعم ــ فسرعان ماتوافقا فى الرأى والمزاج ، وأعجب المترجم بصاحبه أشد اعجاب ، وكانا بعد ذلك يدا واحدة فى الحملة على شو ، حتى عدهما ، شخصا واحدا أو غولا واحدا يقوم هو بمجالدتهما ، كان الفرسان فى القديم يجالدون الغيلان والوحوش ، ويجالد شو ذلك الغول « تشسterبيلوك » ·

أحب تشسترتون الكاثوليكية لما فيها من روح البشر والتفاؤل الذى يلائم طبعه ، وتولى الدفاع عنها ازاء حملات البروتستانت الذين يصمونها بالرمزية والوثنية ، ودافع عن تقاليد الاعتراف والكفارة وغفران الذنوب، وقال ان المذهب الكاثوليكى الرومانى يحل كل مسائل الفكر التى كانت تعترضه ويرضى نزعته الى الحرية ، وله فى كل ذلك كتابات طويلة ولما كتب فى هذا الصدد أول كتبه دهش القراء ولم يكادوا يصدقون أنه جاد ، وانما ظنوه يبغى الطرافة وينوخى الاغراب ، ولكنه لزم موقفه ذاك فى اخلاص وشجاعة وحماسة الى آخر حياته ، واصطبغت كتاباته بهذه النزعة الدينية الغالبة : فهو كثير الطرق لمواضيع الدين ، ومعظم أبطال قصصه قسس أو فلاسفة متدينون ، حتى انه لما كتب جملة قصص بوليسية على نمط قصص شرلوك هولمز جعل بطلها المحقق قسيسا حلالا للمعضـــلات كشافا للغوامض · ومن آثار نزعته الدينيـــة هذه قصيدة له طويلة عن موقعة « ليبنتو » البحرية بين العثمانيين وبين أساطيل أوربا المتحدة ، فهو يرى فى تلك الموقعة نصرا للمسيحية حمى بيضها ·

ورغم هذه المسيحية المتأصلة لم يكن تشسترتون فى نظرته السياسية داعية سلام ولا مؤمنا بالسلام ، نعم انه كان من كبار معارضى حرب البوير فى منصرم القرن الماضى ، ولكن تلك المعارضة لم تكن لحب فى السلام بل لاعتقاد بخطأ البواعث التى دفعت بالانجليز الى غمارها . كان يرى البوير على صواب والانجليز على خطا ، لأن البوير انما كانوا يدافعون عن استقلالهم وحماهم ، وقد كان تشسترتون من أكبر المؤمنين بالوطنية – وفى هذا أيضا مناقضة لمبادىء المسيحية التى تسوى بين البشر – وكما كان يحب انجلترا ويغار على وطنيته ، كان لايحب الاعتداء على وطنية الآخرين ، وهو لذلك كان يمقت الامبراطورية لأن الامبراطورية لاتقوم الا باهدار بعض الوطنيات والحريات .

انما كان تشسترتون يحب انجلترا وحدها دون امبراطورية ولا مستعمرات : انجلترا كما كانت فى عهد اليزابث وشكسبير ، وكما كانت فى العصور الوسطى ، وهنا تلتقى آراء تشسترتون الدينية وآراؤه السياسية معا : فهو يعشق العصور الوسطى التى كانت للمسيحية فيها الدولة والسلطان ، كما يعشقها لان انجلترا فى عهدها كانت جزيرة مستقلة بشأنها غير ذات مشاكل خارجية ولا امبراطورية مبنية على اهدار قوميات شعوب أخرى . وقد كانت الحماسة التى دافع بها تشسترتون عن وجهة نظره فى مسألة الحرب البويرية بدء ترامى شهرته وارتفاع مكانته ، وقد تولى هو ونخبة من أصحابه اصدار جريدة لهذا الغرض وانتهى الأمر بهم الى شراء جريدة الديلى نيوز لنشر آرائهم ، فكان تشسترتون وكبلنج فى هذه الحرب على طرفى نقيض يقود كل منهما معسكرا ، وظلت هذه الخصومة الفكرية بينهما قائمة فيما بعد .

أما حين نشبت الحرب الكبرى فكان لتشسترتون موقف آخر ، اذ عدها حربا ضرورية للدفاع عن القومية الانجليزية والثقافة الانجليزية ضد « بربرية برلين » وقام بمجهود عظيم فى نشر الدعوة هذه المرة تحبيذا لمواصلة الحرب ، فكان يكتب فى الصحف وينشر الكتب ويعمل على توزيعها فى الداخل والخارج ، وكان يكتب فى صحف حزب الأحرار حتى اختلف معها فصار يكاتب صحيفة العمال ، حتى انقلبت ورحى الحرب دائرة الى تحبيذ السلام ، فهجرها وهجر الأحزاب جميعا ، وبعد الحرب خرج من ميدان السياسة جمعا بعد أن جال فيها جولات مشهودة ، وكانت له مقابلات مع ملك الانجليز وكبار الوزراء أمثال كيرزون وهيو سيسل وبلفور وماكدونالد وغيرهم .

وانما انحاز تشسترتون الى الأحـــرار دون المحافظين حقبـــة بحكم طبقته ، اذ نشأ فى أسرة متوسطة الحال ، وكان معظم أبنـاء الطبقة الوسطى يشايعون حزب الأحرار ، أما تشسترتون ذاته فكان أميل الى المحافظة بل الى الرجيعة : كان فى طباعه رجلا عاديا يحب الحياة العادية فى المدينة ، ولا يرى من وجوه النقص فى الحياة الراهنة مثل ما يجـد شو الدائب النقد والطعن ، فهو يعيب على شو أنه صعب ارضاؤه ، واذا وجد تشسترتون للحياة الحاضرة عيوبا فهى مخالفة للعيـوب التى تتقذى بها عين شـو ، بل هى مضادة لها : شـو يرى المجتمع الانسانى الحاضر متاخرا عما يجب ويقول : اما أن ينهض الانسان بالعبء الذى اختارته له الطبيعة ، عبء تعمير هذه الأرض ونشر المدنية الصحيحة فيها ، واما أن الطبيعة تنحيه وتختار لهذا العمل حيوانا سواه أصلح • أما تشسترتون فلا ينظر الى المستقبل على هذا النحو بل ينظر الى الماضى ، ولا يرى المجتمع متاخرا عن المدى الذى يجب أن يقطعه ، بل يراه قد جاوز الحد فى سيره وعليه أن يقفل راجعا . الى أين ؟ •

الى العصور الوسطى : حين كانت الحياة بسيطة غير معقدة ، حين لم تكن الآلات تتخم المدن وتخنق الحياة الروحية ، حين كانت القرية الصغيرة لا المدينة الرحبة وحدة المجتمع ، وحين كانت المسيحية هى الوطن وهى الدولة ، وهى نبراس الناس فى تفكيرهم وفى فنونهم وآدابهـم ، وهو يشمر عن ساعد العزم للدفاع عن العصور الوسطى ضد من يتهمونهـا بالتوحش أو بالجهل أو بعقم الفن أو الأدب ، ومما كتبه فى هذا الصدد كتاب عن القس المشهور القديس فرانسيس آسـيسى ، والفيلسوف المسيحى المشهور أيضا توماس آكويناس ، فاذا وجد كل من شو وولز « طوباه » أو مدينته الفاضلة فى المستقبل ، فان تشسترتون يجدهـا فى الماضى •

يدافع تشسترتون بهذه الحماسة عن العصـور الوسـطى التى تسمى احيانا بالعصور المظلمة ، لفرط ما نفر الناس منها ومن ذكراها • وبمثل هذه الحماسة يدافع عن العصر الفكتورى الذى أمعن شو وولز وأمثالهما فى التهكم عليه والتحقير له والكشف عن مساوئه ، فهو يدافع عن فضائل الفكتوريين من حب الاحتشام والوقار والاعتزاز بالمهنة والاعتداد بالطبقة التى يمت اليها المرء ، والتى كان التعليم يطبعها بطابع خاص باق• ويدافع عن المعلم فى العصر الفكتورى الذى كثرت حملات الحاملين عليه ، فيقول ان معلميه اكتشفوا مواهبـه الأدبية ، وشجعوها وتعهـدوها ، حين لم يكن هو نفسه يفطن اليها أو يهتم بها ، ولغرامه بذلك العصر كتب

ترجمـــــة لاثنين من فحـــــول أدبائه ، هما الشـــــاعر براوننج والقصصي دكنز ، وكلاهما يشبهانه في نزعة التفاؤل ، ويشبهه دكنز خاصـــــة في ديمقراطية نظرته والتفاته الى حياة الرجل العـــــادى ، واعتقاده أن تلك الحياة العادية تقدم أكبر الفرصة لصوغ المأساة ·

وكان حريا أن يقع الصدام بين تشسترتون وبين ممثلى نزعة التطور والتجديد ، وكان تشسترتون البادىء ، اذ نشر كتابا سماه « الهراطقة » نقد فيه مذهب العصريين وعاب تهورهم فى كسر الحواجز وهدم الحدود ، ونبذ العقائد ، فالمرء فى نظره لا يحيا بغير عقيدة ، والمادية عقيـــــدة من يعتقدون ألا عقيدة لهم ، وأنهم تحرروا من جميع القيود والأنيار · وكان شو وولز خاصة هدف سهامه فى هذا الكتاب ، رغم ما كان بينهما وبينه من صداقة واعجاب كل واحد من الثلاثة بالآخرين كل اعجاب ، فلما دعاهما وأتباعهما بالهراطقة سالوه اذ لم ترقه عقيدتهم أن يبدى لهم ما عنده هو من عقيدة وفلسفة ، فما كان اسرعه فى اخراج كتاب « السنة » يشرح فيه مذهبه المستند الى الدين المصطبغ بالكاثوليكية المعتمد على التفاؤل القائل بحرية الاختيار المنادى بالرجوع عن الطريق المادى المهجور الذى اندفع فيه العالم منذ القرن الثامن عشر ·

ومن أقوال تشسترتون الجامعة لمذهبه فى هذا الصراع الذى دار بين القديم والجديد ، بين دعاة التطور وزعيم المحافظة على التقاليـــــد ، بين الداعين الى المستقبل والداعى الى الماضى ، قوله فى وصف اتباعه اتباع التطور السريع والهدم الذى لا يبقى ولا يذر : « فالالحاد نفسه فى نظرنا اليوم ذو صبغة دينية لا تطاق ، والثورة ذاتها نظام لا يحتمل ، والحرية نفسها تشمل قيودا لا صبر لنا عليها ، ولسنا نقبل احكاما عامة · وقد عبر مستر برنارد شو عن هذا المذهب فى صيغة محكمة قال : « ان القاعدة الذهبية أنه ليست هناك قاعدة ذهبية » ، ونحن نزداد كل يوم ميلا الى مناقشة التفاصيل فى الفن والسياسة والأدب ، ونهتم مثلا برأى المرء فى الترام أو فى المصور بوتيتشيلى ، أما رأيه فى كل شىء فلا يهم ، وندعه يبحث وينقب فى مليون من الأشياء ، ولكن لا نرضى أن يهتدى الى ذلك الشىء الغريب ـــ الكون ! لأنه ان فعـــــل صـــــار له دين وبذلك يضل ، فكل شىء يهم ـــ ما عدا كل شىء ·

وكان انتاج تشسترتون الأدبى متنوعا تنوعا بعيدا المدى ، كتب الأشعار والقصص القصيرة والطويلة والمقالات والتراجم الأدبية والتاريخية وقد ظل منذ سنة ١٩٠٥ الى مماته ـــ أى زهاء ثلاثين سنة ـــ يكتب مقالا

كل أسبوع بلا انقطاع لمجلة خاصة هي « أخبار لندن المصورة » ، وأسلوبه الأدبي جزل ممتع فكه يشوق القارئين حتى من غير المعتنقين لآرائه سالفة الذكر ، وكان له ولع خاص بصوغ ضرب من الجمل المتناقضة المعنى في الظاهر ، يريد بذلك الاغراب وادخال الروعة في قلوب قارئيه ، كقوله في النبذة سالفة الذكر : « فكل شيء يهم ما عدا كل شيء » وقوله وهو يريد اثبات أن العقل وحده لايجدي المرء دون الاعتماد على المحسوسات وانتزاع النظريات والأمثلة من الواقع المتحجر : « ان الرجل المجنون هو رجل قد فقد كل شيء الا عقله » ، ومن توخيه المبادهة والاغراب قوله وقد عجب بعض الناس من عدم تخليف الرومان آثارا في انجلترا : « كيف لا ؟ اننا معشر الانجليز كلنا آثار رومانية » وقد طغت هذه النزعة الى الاغراب والتناقض على كتاباته في آخر أيامه حتى ردت كثيرا منها مستثقلا محنقـــا ٠

والحق أن كتابات تشسترتون في شتى المناحي سالفة الذكر كثيرة جدا مترامية الأطراف ، ولكن كثيرا منها صحافي الصبغة زائل الألوهية ، يموت — بل قد مات — بمضي ظروفه الأدبية أو السياسية ، وكثير من الباقي هراء ممجوج ، ولكن كثيرا جدا مما كتب يحوى فكرا صائبا وأدبا جما وأسلوبا رفيعا ،وبعضه يستحق الخلود ٠ وتشسترتون فوق هذا له فضل عظيم على الجيل الذي عاش فيه : بحمله لواء المحافظة بل الرجعية في وجه دعاة التجديد المغرق والهدم الذريع ، اذ كان لمواقفه وحملاته أثر عظيم في تخفيف غلواء المجددين والاشارة الى أخطائهم والاعراب عن موقف جانب من الشعب تجاههم ٠ ولعل تشسترتون وان لم يبلغ عبقـرية شو ولا ولز قد كان أحب الى قلوب أكثرية الانجليز من أي منهما ، لما يمتاز به دونهما من الطبع الانجليزي الأصيل وما ينفرد به عنهما من تمثيل جبلات الشعب الانجليزي الوئيد الحركة المحافظ النزعة ٠

الفن يعيد نفسه

من الأمثال السائرة أن التاريخ يعيد نفسه ، وذلك أن الناظر في صفحات التاريخ لا يزال يعثر بظواهر متشابهة وحوادث متماثلة ، من عصر الى عصر ومن اقليم الى اقليم ، وهذه الظواهر المتماثلة هي التي تقوم عليها قوانين فلسفة التاريخ ، كتلك القوانين التي يحفل بها كتاب مقدمة ابن خلدون ، فكثير مما ذكره ذلك المؤرخ الكبير من نظريات عن الدولة ونشـوئها وتطورها وعوامل ارتقائها وانحطاطها وما تمـر به من أطوار الحضارة والثقافة والعمران ـ كل ذلك يصدق على شتى الأمم التي عرفها ابن خلدون وأرخ لها ، وتلك التي لم يؤرخ لها ولم تكن قد ظهرت بعد في عهده • والقول السائر بأن أغريقيا (بلاد الاغريق) المقهورة في الحرب قهرت الرومان قاهريها في ميدان العلم والحضارة والفن ، قول يصدق أتم الصدق على ما كان بين العرب والفرس بعد الفتح الاسلامي الفارسي •

وانما تتماثل ظواهر التاريخ وتتكرر حوادثه لأن الطبيعة البشرية واحدة في أي عصر كانت وبأي اقليم استوطنت ، والمجتمعات البشرية التي هي نتيجة لهذه الطبيعة البشرية تتماثل الظواهر التي تبدو فيها في شتى مناحي العمل والفكر والنزعات والصناعات والفنون ، ودواعي السلم والحرب ، ولا يختلف جيل عن جيل ، ولا شعب عن شعب الا اختلافات عرضية والجوهر واحد ، وهذا التماثل في الظواهر والأحداث هو ما يشير اليه ذلك المثل السائر ، وان كان مصوغا في صيغة عليها سيماء الاغراب ، مما جعل بعض الناس يتخذون صحته ويتشككون في صدقه ، وهكذا شأن الانسان اذا استخلص الحكمة أو العبرة من تجاربه ومشاهداته مال بطبعه الى صوغها في أوجز لفظ وأروعه ، ولو بدت الحكمة اذ ذاك في صورة قريبة من الاغراب أو المفارقة ، وهذه السيماء تدعـو أحيانا الى رفضه أو التشكك في قيمته ، بيد أنه مما لا شك فيه أن التاريخ يعيد نفسه على النحو الذي فسرناه •

ويحق لنا أيضا أن نقول ان الفن يعيد نفسه على ذلك النحو أيضا ، ولمثل هذا السبب المتقدم ذكره ، وهو تماثل النفس البشرية في طباعها في شتى العصور والشعوب ، وهل يعبر الفن في أي عصر أو قبيل الا عن الحب

والالم والكراهية واللذة والذكريات والأماني والتساؤل والتعجب والتفكر في شؤون الكون والحياة ، وما يدخل تحت هذه الموضوعات من أمثالها وما يلحق بها من أشباهها ؟ واذ كان شعور النفس الانسانية في كل العصور وعكسها لتاثير البيئة المحيطة بها واحدا ، وكان الفن هو المعبر عن هذه المشاعر ، كان حريا أن يعيد نفسه من جيل الى آخر ومن أمة الى سواها ، رغم تطور الأحوال قليلا وتغيير الأزياء ، وتبـدل طرق التعبير واوضاع الفنون ٠

فكم من شاعر مثلا وأديب وقصصي تحدث عن جمال الطبيعة أو لوعات الحب أو حرقات فقد الأهل والأحباب ، أو شكا خطوب الدهر ، وندب تبدل الأحوال وعدم دوام الصفاء واغارة البلى والفناء على كل شيء ، وكم أديب او مفكر صرف مقلتيه في هذا الكون المترامي الأطراف ، يحاول النفاذ الى اسراره وبواطنه ، وأطال التفكر في مصير الانسانية ومآل العالم ، ووازن بين قصر حياة الانسان وخلود معالم الكون وآثار الطبيعة ! هذه كلهـــا موضوعات خبت فيها وأوضعت ألسنة الشعراء وأقلام الكاتبين من قديم ، ولم يكد المتأخر يعدو أن يقول ما قال المتقدم في صورة جديدة وزي قشيب٠

واحظى الغرائز باحتفاء الأدباء من قديم هو الحب طبعا ، وموضوعاته ومعانيه المترددة المتكررة أشهر من أن يشار اليها أو يقتبس منها ، ولكن هناك غرائز وعواطف أخرى أولع الأدباء بعرضها في شتى الصور ، ومنها الغيرة والحسد والسعاية والبخل والتفاخر بالنعمة المحدثة ، فالبخـل اوسعه شعراء العربية وصفا وتهكما وتفنيدا كلما خاب ظنهم في ممدوحيهم المتصفين بتلك الخلة ، وقد صور الجاحظ صورا من البخلاء في كتابه المعروف ، وصور موليير صورة أخرى لبخيل آخر ، ورســـم شكسبير الصورة المشهورة لليهودي شايلوك في تاجر البندقية ، وللقصصي دكنز بخيل ذاع أمره في المجتمع الانجليزي حتى غدا مثلا سائرا في البخل ، فيقال : فلان ان هو الا « سكروج » آخر ، فيعرف المخاطب لفوره ماذا يعني صاحبه ٠

والغيرة قد صورها شكسبير واضحة في رواية « عطيـــل » حيث تنفث سمومها المهلكة في نفس القائد المغربي حتى تنتهي الى خنق زوجه وهي أطهر النساء وأوفى الأزواج ٠ وصور أناتول فرانس تأثير تلك الغريزة القاتلة في روايته « الزنبقة الحمراء » حيث يغار بطل الرواية

من منافس له قديم قد نبذته حبيبته نبذا نهائيا ، وتوفرت على حبيبها الجديد بكل روحها مخلصة · وصور توماس هاردى نفس تلك الأزمه النفسية فى روايته « عينان زرقاوان » حيث لا يكاد « نايت » يعلم أن محبوبته التى كان افترض فيها النقاء التام ، كانت قد عرفت شابا آخر قبله ـ وان كانت معرفة عابرة غير ذات أثر ـ حتى يهجرها هجرا قاسيا تهتز له أركان نفس الفتاة الوفية ولا تبل من عقابيله حتى يحملها الداء الى قبر باكر · وقد عبر الشاعر العربى القديم عن شعور الغيرة الكريه فى أبيات ساذجة لا تطاول تلك الآثار الفنية سالفة الذكر ، ولكنها ليست دونها صدقا وروعة تصوير قال :

نبأوها بأننى قد تزوجـ ... ـت فظلت تكاتم الأمر سرا
ثم قالت لجارة ولأخـرى ... كمدا : ليته تزوج عشرا
وأسرت الى نســاء لديهـا ... لا ترى دونهن للسر سترا
ما لقلبى كأنه ليس منى ؟ ... وعظامى كأن فيهن فترا ؟
من حديث نمـا الى فظيع ... خلت فى القلب من تلظيه جمرا

وحلول البلى وجفاف الجمال وسقوط الجبابرة ونزول الهرم والعودة الى الثرى ـ هذه كلها موضوعات دارت على أقلام الكتـاب والشعراء فى شتى العصور ، وأبدع كل منهم فيها على طريقته وطرازه ، وما تزال رغم ذلك التكرار جديدة تسترعى الاهتمام والتأمل ، لأن دواعيها فى النفس مازالت يقظة ثائرة ، تحسر كثير من الشعراء على جفاف جمال عهدوه فى صباهم أو طفولتهم رائعا ناضرا ، ثم التقوا به بعد غياب سنين فاذا هو ذاو ذابل ، ومن ذلك الباب قصة صغيرة لموباسان على ما أذكر يصف فيها فتاة عرفها كاعبا رشيقة تطفر كالغزال ، ثم لقيها بعد سنوات ، فاذا هى امرأة ذات بعل وبنين بدينة ثقيلة الفهم والحراك ، وهو يعجب لقيمة ذلك الجمال الذى لا يدوم من عهد نضجه الى عهد ذبوله أكثر من عشر سنوات · وفى كتاب « صديقى » يصف أناتول فرانس فتاة جميلة أخرى عرفها فى صغره وضاءة الجمال ، وعرف أمها تلبس السواد ، وكانت عجوزا شمطاء ، ودار الدهر دورته ، ولقى أناتول السيدة ذات الرداء الأسود وعرفته ، واذا هى الفتاة الفاتنة بالأمس غدت اليوم عجوزا شمطاء ترتدى السواد ، وقد سكنت أمها اللحد منذ زمان ·

ورباعيات عمر الخيام حافلة بهذا التأمل فى دوران الفلك وهرم الصغير وجفاف كل حسن نضير · وللمعرى فى ذلك أشعار كثيرة منها تلك

التى فيها يتحسر على كل صائن خده عن قبلة قد سلطت الأرض على خده ، ولكل حامل جيــده ثقل الثرى ، وكان يشكو جيــده ذاك ثقل العقد ، ولتوماس هاردى قصيدة في هذا الموضوع اسمها « أمابل » يقول منها : « راقبت ضوءها الخابى وآراءها العتيقة المتزمتة ، وتساءلت : أيمكن أن تسكن أمابل فى ذلك الشبح ؟ ونظرت الى ثيابها التى كانت فيما مضى وردية ، فاذا هى اليوم داكنة قاتمة ، كلون الأرض ، فخيل الى ان ذلك التبدل ينعى الى أمابل ، وقد فقدت خطاها الآلية نشاط عهــد الربيع ، وغدت ضحكتها التى كانت قدما ترن رنينا عذبا ، كريهة ممجوجة من أمابل ، فساءلت نفسى : منــذا الذى يترنم اليوم بالنشيد الذى كنت أترنم به قبل أن تخبو حرارة هذه الحياة ، ومنذا الذى يظن أن شعره يصف محبوبته أمابل ؟ » .

وهناك عدا هذه موضــوعات أخرى كثيرة تداولتها أفكار الكاتبين واقلامهم من قديم كشتى ضروب الغرور والادعاء ، من تفاخر محدثى النعمة بنعمتهم تفاخرا ساذجا ثقيلا ، الى ادعاء المدعين العلم أو الفن والبصر باللغات ، الى المتباهين برحلاتهم فى الأقطار ورؤيتهم الآثار ، الى تكلف الأناقة فى الحديث والذلاقة فى الخطاب ـ لن يخلو من ذاك وأشباهه أدب راق فى الشرق والغرب مكررا على أقلام كتاب كثيرين يمتون الى متتابع العصور ، وان عالجه كل منهم معالجة مخالفة لسواه باختــلاف مشربه واحوال عصره .

وكم من موضوع أو فكرة عولجت على شتى الأشكال فركزها شاعر متبلورة موجزة فى بيت شعر ، وجعلها كاتب موضوع مقالة ضافية ، وأنشأ منها مؤلف مسرحى رواية ذات فصول ، وحاك حولها قصصى قصة تجيش بالحركة والحياة ، كل حسب ما تنزع اليه عبقريته وتتجه اليه ميوله وتؤهله له ثقافته ، ومن العصور ما يحفل باحدى هذه الصور من الأدب ، ومنها ما يتجه الى شكل منها آخر يصوغ فيه أفكاره ونظراته ، والأفكار فى جواهرها واحدة وان اختلفت الأشكال والصور ، ومن الآداب ما تحفل بأحد هذه الأشــكال الأدبية دون غيره ، كان للشعر فى الأدب العربى الصدارة فخص بخير انتاج الفكر العربى فى عالم الأدب ، وكان للدراما فى الأدب الاغريقى مثل تلك المكانة ، وزادت الآداب الأوربيــة الحديثة على هذه وذاك القصة المقروءة ، ففيها يسجل الكتاب اليوم كثيرا من خواطرهم وبقواعدها يتقيدون عدا قواعد الشعر والدراما .

واذ كان الأمر على هذا النحو من التشابه بين منتجات الآداب فى شتى العصور والأمم ، لتشابه دواعيها وحوافزها من الطبائع الانسانية ، كانت مهمة أولئك النقاد الذين لا يحتفلون بشىء احتفالهم باتهام منقوديهم بالسرقة الأدبية وتتبع آثار جرائمهم الى مصادرها الأولى ٠

كانت مهمة أولئك النقاد أسهل المهمات ، فلن يعدموا تشابها بين آثار من ينقدون وبين آثار كثيرين جدا ممن تقدموه ، اذ كانت الطبيعة البشرية مستقى الجميع ومورد الأول والأخير ، وانما يحكم على الأديب بالاصالة أو التقليد بمجموع آثار ، فان كانت الآثار تنم عن شخصية قوية واضحة مستقلة فهى آثار عبقرية صادقة مهما كان هناك من تشابه بينها وبين آثار المتقدمين أو المتأخرين ٠

ومن أعجب ما يروى فى هذا الباب ما ذكره الشـاعر الانجليزى رديارد كيبلنج فى ترجمته بقلمه من أنه فى بعض أسفاره فى أمريكا لقى شابا انجليزيا راقيـا لا شك فى صـدقه ، فقص عليه هـذا الشاب قصة رائعة اتفقت له هو نفسه فى بعض تلك البقاع ، وتأثر كبلنج بتلك القصة الرائعة ، واتجه ذهنه توا كعادته الى صوغ قصة منها لقرائه ، ثم شغلته عن عزمه أمور ، حتى كان يوما يتصفح مجلة قديمة العهد جدا ، فاذا هو يقع فيها على قصة مماثلة لقصة الشاب فى جوهرها وتفصيلها ، يقول كبلنج متأملا : منذا الذى كان يحجم عن اتهامى بالسرقة الأدبية لو أننى كنت نفذت عزمى وحررت تلك القصة التى سمعتها من الشاب ؟

وما يصدق على الأدب من تكراره لنفسه من جيل الى جيل ، يصدق على غيره من الفنون كالتصوير والنحت ، اذ كان شأن تلك الفنون كشأن الأدب ، تستمد وحيها وموضوعها من الغرائز والطبائع الانسانية الثابتة على توالى العصـور ، فكم من صورة قد صورت أو تمثـال أقيم أو نقش نقش لبيان جمال الجسم الانسانى ، أو جمال الطبيعة من شروق وغروب وروض وزهر وغدير وبحيرة ، وللاعراب عن حالات النفس من أمل أو يأس وحبور ، أو شجن وحنق ، أو حدب واشفاق ، تكاد تكون كل صورة أو كل تمثال لاحق نسخة جديدة من أخرى قديمة ، لولا عبقرية الفنان الكامنة ، وشخصيته المتميزة ، التى تخلع على كل ما يمس جدة ولذة

ويكفى لكى تتبين جيـدا تكرار الفن نفسه على مدى العصور أن نوازنه فى هذا الشأن بالعلم ، فالعلم لا يكرر نفسـه أبدا الا أن تندثر حضارة بأكملها ، وتندك معالم علومها ، ويلزم البناء من جديد ٠ أما فيما

عدا هذه الحالة النادرة فالعلم فى تقدم مستمر ، ينظر دائما الى الأمام ، ويتنكر دائما لماضيه ، وبينما يعود الفنانون عمدا من حين الى آخر الى آثار السالفين يحاكونها ويستلهمونها ، نرى العلم كلما تقدم استغنى عن ماضيه ، وغدا أصغر المبتدئين فى دراسته ، يعلمون من شتى حقائقه وقوانينه ، ما كان يجهله أرسخ علماء القديم واعظمهم عبقرية ، أما الفن فلا يعدو أن يتبدل طرازا بعد طراز وزيا بعد زى كالثعبان ينفض ثوبا قديما ويستجد آخر ٠

انما يتكرر الفن لأنه يترجم عن مشاعر النفس الانسانية المتكررة ، وعن تأثر تلك النفس بظواهر الطبيعة المتكررة هى أيضا ٠ أليست الطبيعة ذاتها دائبة التكرار لنفسها كالعجوز التى كلت ذاكرتها ، فلم تعد تذكر الا أحاديث بعينها تبدىء فيها وتعيد ، فنهار يتلوه خريف ، وشروق بعده غروب ، وجيل من الأزهار والنبات يخرج كل عام ويتلوه جيل جديد فى العام التالى ، وجيل من الناس يولد ويهزم ويندثر ، ويتلوه جيل جديد يحاكيه فى جل أعماله ، وجيل من الحسان الفاتنات يملأ الأرض نضرة وبهاء ، ثم يذوى كما يذوى القضيب من الرند ويهرم ويرتد بشعا ثم يذهب ويأتى سواه ، وجيل من الأطيار الصادحة تفتح عيونهـا كل عام للنور وتخفق بالحياة وتهزج بالأناشيد ، ثم تذهب وتحل محلها على نفس الغصون أطيار أخرى تثرثر مثل ثرثرتها فى عبادتها للضوء والحياة ٠

ولست أرى جيلا من الأدب يذهب وجيلا يتلوه أمام المكاتب والأوراق والكتب والمحابر ، الا كذلك الجيل من الأطيار القصير الأعمار قائما على منابر غصونه ، كلاهما يثرثر بشعوره عن الحياة الجديدة التى أتى اليها وتفتحت عيناه فى نورها الساطع ، ثم يغفى اغفاءة أبدية ، وكأنه ما كان ، وكأنه ما ثرثر ، جيل الأطيار وجيل الأناسى شبيهان فى هذا ، وهما كذلك شبيهان فى أن الجيل المتأخر لايكاد يزيد عما قال السابق له ، وان خيل اليه فى طربه وحبوره بالحياة الجديدة أنه يبتـدع ما يقول ويرتجل ما ينشد ، وانما هو الفن الخالد يعيد نفسه على ألسنة جيل من الوحش والأناسى بعد جيل ٠

السياسة فى الأدب العربى

العرب من أشد الأمم استخداما للأدب فى شؤون السياسة ، وما سمى الشعر « ديوان العرب » الا لاحتوائه منذ الجاهلية على أيامهم ومفاخراتهم وخصوماتهم ، ومن روائع الشعر السياسى فى الجاهلية أبيات الأعشى فى يوم ذى قار ، وأبيات زهير فى حرب عبس وذبيان ، وأبيات الأفوه الأودى فى حكومة السادة ودولة الطغام · وقد كان أمثال الأفوه . وذى الأصبع العدوانى ، وهانىء بن قبيصة الشيبانى سادة فى عشائرهم يقودونها يوم الهيجاء ويخطبونهم فى الحادث الجلل ، ويفصحون عن مشاعرهم نظما ، ومن ذلك الشعر المعبر عن مشاعر القبيلة قصيدة السموأل التى يقول منها :

اذا سيد منا خلا قام سيد	قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخمدت نار لنا دون طارق	ولا ذمنا فى النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة فى عدونا	لها غرر معلومة وحجول

فلما كان الاسلام تطور الأدب السياسى لتأثر العرب بالدين والفتوح العظيمة وحياة الحضارة ، ورغم بقاء العصبية القبلية وعودتها الى الاشتداد بعد حين ، لم تعد وحدها محور الخصومات ، بل اختلط بها العنصر الدينى والنزاع على الخلافة ، وصحبها التنافر بين العرب من جهة وبين الشعوب المفتوحة من جهة أخرى ·

ومن ثم حفل الأدب العربى فى الاسلام بالضرب السياسى ، بعضه يتعلق بادارة الدولة وسياسة الرعية ، وبعضه يدعو الى الدولة القائمة والخليفة القائم ويناجز أعداءهما ، وبعضه يهاجم تلك الدولة ويؤلب عليها ، واتسع ديوان الرسائل فى الدولة الاسلامية ما لم يتسع فى غيرها ، واختار الخلفاء كتابهم ووزراءهم من بين الفصحاء المقاول(١) ، وكان هؤلاء يتأنقون فى صوغ رسائلهم الديوانية تأنقهم فى الكتابات الاخوانية ،

(١) جمع مقول وهو اللسان والمقصود بها البلغاء ·

على حين تكون الرسـائل الرسـمية فى الدول الأخرى ملأى بالرموز والتعقيـدات .

كان الجيل الأول من الخلفاء والولاة يتولون بأنفسهم انشاء كتبهم ، ويخطبون الناس فى مهمات الأحداث فى أيسر لفظ وأجزله ، فكان على ابن أبى طالب رضى الله عنه مثلا ينظر فى شئون الرعية ، ويقود بنفسه الجند ، ويخطب الناس مبينا حجته داعيا الى الجهاد ، ويملى الكتب الى ولاته أو الى معاوية أو غيره من مشاغبيه ، فأثر عنه من كل ذلك تراث أدبى سياسى رائع .

أما الأمويون فكانوا أقل خوضا لمعامع القتال والبيان ، وبذلك عيرهم عبد الله بن الزبير فى خطبة له عقب مقتل أخيه ، وكان أفصحهم عبد الملك الذى قال ان ارتقاء المنابر هو الذى شيب فوديه . على أن الخطابة ظلت قوية الى عهد أوائل العباسيين ، وكان المنصور من أخطب الناس وأقواهم حجة ، كما ظهر فى الخوارج خطباء مصاقع(١) وشعراء فحول ، وما اضمحل أمر الخطابة باستقرار الدولة ، الا وقد ارتفع أمر الكتابة وظهر أكابر الكتاب والوزراء .

ومن روائع الخطب السياسية قول أبى بكر :

« أيها الناس انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسـددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم . ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

ومن محاسن الكتب السـياسية كتاب على الى معـاوية يحاجه ويدعـوه :

« سلام عليك . أما بعد فان بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت فى الشام ، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد ، وانما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وسموه اماما ، كان ذلك لله رضى ، وان خرج عن أمرهم خارج ردوه الى ما خرج عنه ، فاذا أبى قتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وبئست مصـيرا » .

---

(١) البلغـاء .

ومن نماذج تلك الكتب قول أبى جعفر المنصور من رسالة فى الرد على محمد النفس الزكية الثائر بالحجاز :

« ولقد خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية ، وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل ، حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم اذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم » . وهى معان رددها فى خطبة له يقول منها : « وان أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب ، تركناهم والله الذى لا اله الا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل أو كثير ، فقام فيها على بن أبى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمان ، فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة » .

ونظم ابن المعتز نفس المعانى فى أبيات يقول منها :

أبى الله الا ما ترون فما لكم ... عتاب على الأقدار يا آل طالب
تركناكم حينا فهلا أخذتمو ... تراث النبى بالقنا والقواضب ؟
زمان بنو حرب ومروان ممسكو ... أعنة ملك جائر الحكم غاصب
الا رب يوم قد كسوكم عمائما ... من الضرب فى الهامات حمر الذوائب
فلما أراقوا بالسيوف دماءكم ... أبينا ولم نملك حنين الأقارب
فحين أخذنا ثأركم من عدوكم ... قعدتم لنا تورون نار الحباحب

وكانت للعباسيين حجج أخرى برع فى صياغتها والاستشهاد لها بآيات من القرآن الكريم مروان بن أبى حفصة ، قال من قصيدة يخاطب العلويين :

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم ؟ أو تحجبون هلالها ؟
أو تجحدون مقالة من ربكم ... جبريل بلغها النبى فقالها ؟
نزلت من الأنفال آخر آية ... بتراثهم فأردتمو ابطالها

وقال يخاطب المهدى :

يا ابن الذى ورث النبى محمدا ... دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم ... قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعام
أنى يكون — وليس ذاك بكائن — ... لبنى البنات وراثة الأعمام ؟
ألغى سهامهم الكتاب فحاولوا ... أن يشرعوا فيها بغير سهام
ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم ... وغررتم بتوهم الأحلام

وقد رد شعراء العلويين عليه دعواه قالوا :

لم لا يكون ـ وان ذاك لكائن ـ لبنى البنـــات وراثة الأعمـــام ؟
للبنت نصـــف كامل من ماله والعـــم متروك بغير ســـهام
يا للطـــليق وللتراث ! وانمـــا صـــلى الطليق مخافة الصمصام

فلم نر برع من هذا سجالا ، ولا أعجب حوارا . يحتج صـــاحب العباسيين بسقى العباس للحجيج ، فيرد عليه صاحب العلويين بتسميته بالطليق وتعييره بالتأخر عن الدخول فى الاسلام ، ويقول الأول ان بنى البنات لا يرثون شيئا دون الأعمام ، فيرد عليه الثانى محورا الكلام ببراعة من بنى البنات الى البنات ، ويقول ان البنت ترث النصف وتحجب العم .

وكان الأدب المناصر للعلويين أنفس الآداب الســـياسية وأصدقها شعورا وأغزرها مادة ، لأن قضية العلويين ظلت منشورة الصحائف فى عالم السياسة الاسلامية قرونا طويلة ، ولأن جمهور الأمة كان ميالا اليهم ، ولأنهم طول ذلك الكفاح لم يلقوا الا الاضطهاد الشـــديد ، ولم يظفروا كالأمويين والعباسيين بالحكم فترة من الزمن تتبين فيها للناس أخطاؤهم ، ومن أشهر الشعراء والكتاب لهم الفرزدق والكميت والسيد الحميرى ودعبل وابن الرومى والخوارزمى .

لقى الفرزدق الحسين بن على فى مسيره الى الكوفة خارجا على يزيد ، فسأله الحسين عن حال أهلها فقال : تركت قلوب الناس معك وسيوفهم عليك ، ونصحه بالرجوع ، فأبى وتابع سيره الى كربلاء ، وكان الفرزدق بعد ذلك بسنين طويلة يطوف بالبيت الحرام ، وكان فى الطائفين الخليفة هشام بن عبد الملك ، وعلى بن الحسين المعروف بزين العابدين الذى كان أسر فى كربلاء صبيا ، ونشأ سيد الناس جمالا وخصالا وعفة ، ورأى هشام الناس تفسح الطريق لزين العابدين وتلقاه بالاجلال ، فغار وتساءل متجاهلا : من هذا ؟ فنظم الفرزدق ميميته التى مطلعها :

هذا الذى تعرف البطحـــاء وطأته والبيت يعرفه والحـــل والحرم

ومنهـــا :

فليس قولـــك من هذا بضـــائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

أما الكميت فألف ديوانا كامـــلا فى آل البيت تعرف قصـــائده بالهاشميات ، نظم فيها ولاءه لهم وأيد حقهم فى الخلافة ، وندد بغاصبيها

الأمويين ، ومدح رجالهم وذكر أيامهم وتفجع لمآسيهم ، ومن محاسن أقواله فيهم بائيته الطويلة التي يقول منها :

بخاتمكم غصـــبا تجوز أمورهم ... فلم أر غصـــبا مثـــله يتغصب
بحقـــكم أمست قريش تقـــودنا ... وبالفـــذ منهـــا والرديفين تركب
اذا اتضـــعونا كارهين لبيعـــة ... أناخـــوا لأخرى والأزمـــة تجـذب
وقالـــوا ورثنـــاها أبانا وأمنـــا ... ومـــا ورثهـــم ذاك أم ولا أب
يرون لهم حقا على الناس واجبـــا ... سفاها وحق الهاشميين أوجب

وكان دعبل الخزاعي يمقت العباسيين ويهجوهم جهارا ، هجا الرشيد وعجب من أن قبره وهو قبر شر الناس يجاور بطوس قبر موسى الرضى العلوى وهو خيرهم ، وهجا المأمون وفخر عليه بأن قبيلته قتلت أخاه وشرفته بمقعد ، وذلك لأن طاهر بن الحسين قائد المأمون كان مولى لخزاعة ، وهجا المعتصم ثامن العباسيين وشبهه بكلب أهل الكهف ، كما سلط لواذع سخره على ابراهيم بن المهدى وعلى المتوكل ، وفي الوقت نفسه كان لا يألو العلويين مدحا وولاء ، ولا ينفك يتحسر على مصايرهم المفجعة ، فمن ذلك قوله :

وليس حى من الأحيـــاء نعـــلمه ... من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
الا وهـــم شركـــاء فى دمائهـــم ... كما تشـــارك أيســـار على جزر
قتل وأسر وتحريق ومنهبـــة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معـــذورين ان قتـــلوا ... ولا أرى لبنى العبـــاس من عـــذر

ومع أن ابن الرومى كان مولى لبعض بنى العباس كان هواه مع العلويين ، وأروع ما نظم فى الولاء لهم جيميته الفاخرة التى رثى بها فى شبيبته علويا خارجا يدعى الحسين أبا يحيى ظفر به العباسيون ونكلوا به ، فتجـــددت لنكبته أشجان المسلمين من أجل العلويين ، ومن هذه القصيدة يقول ابن الرومى :

بنى المصطفى اكم يأكل الناس شلوكم؟ ... لبلواكم عمـــا قليـــل مفرج
أمـــا فيهـــم راع لحق نبيـــه ... ولا خـــائف من ربه يتحرج ؟
لقـــد عمهوا ما أنزل الله فيـــكم ... كأن كتـــاب الله فيهـــم ممجج
الا خاب من أنســـاه منكم نصيبه ... متاع من الدنيا قليل وزبرج

ولأبى بكر الخوارزمى رسالة بليغة فى التفجع لآل على والنقمة على العباسيين يقول منها عن هؤلاء : « يقتلون بنى عمهم جوعا وسغبا ، ويملأون ديار الترك والديلم فضة وذهبا ، يستنصرون المغربى والفرغانى ، ويجفون المهاجرى والأنصارى ، ويولون أنباط السواد وزارتهم ، وقلف العجم والطماطم قيادتهم ، ويمنعـــون آل ابى طالب ميراث أمهم وفىء جـــدهم » ٠

وكان من العباسيين من يعنف على العلويين كأبى جعفر والمتوكل ، ومنهم من يحسن اليهم كالسفاح والمهدى ، ومال الخلفاء منذ تدهور الخلافة الى استصلاح الطالبيين ومنحوهم حقوقا ، وجعلوا لهم نقابة كان صاحبها الشريف الرضى على عهد الخليفة الطائع ، وكانت للشريف فيه مدائح يعتز فيها بنسبه فى الوقت عينه ، ومنها قوله :

مهـــلا امير المؤمنين فاننـــا	فى دوحة العليـــاء لا نتفرق
ما بيننـــا يوم الفخـار تفـــاوت	أبدا كـــلانا فى المعـــالى معرق
الا الخـــلافة ميزتـــك ، فاننى	أنا عاطل منهـــا وأنت مطـــوق

وترى للشريف أبياتا أخرى يحن فيها الى الخليفة العلوى الفاطمى بمصر ٠ والحق أن قيام الدولة الفاطمية بمصر تعين حدا فاصلا فى تطور الأدب السياسى الشيعى ، كان هذا الأدب الى هذا العهد حزينا باكيا لما طال على العلويين من اضطهاد وتنكيل ، ثم تغيرت هذه النغمة بظفر الفاطميين وتأسيسهم دولة تناهض دولة العباسيين ، فتغنى مادحوهم بالظفر والغلب ، يتجلى ذلك فى قول ابن هانىء الأندلسى :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر	فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذى مضى	فذلك عصر قد تـــولى وذا عصر

وكانت الدعوة العلوية لما عانته من كبت وقسوة قد اندفعت الى الغلو وامتزجت بالسرية ، واتسمت عقائد الشيعة بالجموح ، وبذلك اتسمت أشعار مداح الفاطميين وأولهم ابن هانىء الأندلسى وآخرهم عمارة اليمنى ، وفى أشعارهم نظم لكثير من عقائد الشيعة فى الامامة والرجعة وغيرها ٠

وقد لجأ الشعراء منذ صدر الاســـلام الى نظم عقائدهم الدينية والسياسية ، فنظم الشيعة والمرجئة والمعتزلة غير قليل من آرائهم فى

ديباجة رائقة معجبة ، قال كثير عزة يروى عقيدة الشيعة فى حصر الخلافة فى على وأبنائه الثلاثة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وقولهم ان محمدا هذا لم يمت ، وانما هو متغيب ، وسيرجع فيكون هو المهدى الذى يملأ الأرض عدلا :

الا ان الأئمـــة من قريش ولاة الحق اربعـــة ســـواء
على والثـــلاثة من بنيـــه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فســـبط ســـبط ايمان وبر وســـبط غيبتـــه كربـــلاء
وســـبط لا يذوق المـوت حتى يقود الخيل يقدمهـــا اللواء
تغيب لا يـــرى فيهـــم زمـــانا برضـــوى عنده عسل وماء

وقال ثابت قطنة فى مبادىء المرجئة :

نرجى الأمور اذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المســلمون على الاســلام كلهم والمشركون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبـــا بالغ احـــدا م الناس شركا اذا ما وحدوا الصمدا
لا نســـفك الدم الا أن يراد بنا سفك الدماء طريقا واحدا جـددا

وقال صفوان الأنصارى يصف أحوال المعتزلة ومســـاعيهم لنشر دعوتهم ويمدح زعيمهم واصل بن عطاء :

له خلف شعب الصين فى كل ثغرة الى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجـــال دعـــاة لا يفل عزيمهم تهـــكم جبـــار ولا كيـــد ماكر
اذا قال مروا فى الشتاء تطاوعوا وان كان صيفا لم يخف شهر ناجر
بهجرة أوطـــان وبـذل وكلـــفة وشدة أخطار وكد المســـافر

وبينا اتباع هذه المذاهب يهتمون بالمبادىء الدينية ويجدون فى تاييدها ، كان آخرون مشغولين بالمنافرات العصبية التى احتدمت على عهد الأمويين ، وكان فرسانها المجلون جريرا والفرزدق والاخطل ، وكان العرب من جانب والشـــعوب الأخرى ولا سيما الفرس يتفـــاخرون ويتخاصمون ، وكان شعراء الفرس أشد احتداما فى تلك المعركة لانتمائهم

الى الشعب المغلوب على أمره ، ومن أجمع ما قالوه فى هذا الباب قول المتوكلى الشاعر :

أنا ابن الأكارم من نسـل جم وحـائز ارث ملوك العجـم
ومخيين الذى باد من عزهـم وعفى عليه طـوال القـدم
وطـالب أوتارهـم جهـرة فمن نام عن حقهم لـم أنـم
معى علم الكابيـان الـذى به أرتجى أن أسـود الأمم
فقـل لبنى هاشـم أجمعين هلموا الى الخـلع قبـل الندم

وكان العرب من جانبهم يحسون بالخطر من تدخل الفرس أولا والترك ثانيا فى شؤون الدولة ، وكان منهم من يتهمون البرامكة بالكيد للدين والرغبة فى اعادة ملك الفرس ، وبذلك اتهم الفضل بن سهل ، ودبر قواد المعتصم العرب مؤامرة لاغتياله هو وقواده الترك ، ويتمثل تململ العرب من تغلغل النفوذ الأجنبى فى دولتهم فى قول يزيد المهلبى يخاطب العباسيين من مرثية للمتوكل :

لما اعتقدتم أناسـا لا حلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتـكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنسـاب تجمعهم والدين والمجد والأرحام والبلد
اذا قريش أرادوا شـد ملكهم بغير قحطـان لم يبرح بهـا أود

ان للدولة الاسلامية خصائص تميزها فى الحضارة والثقافة والتاريخ عن سائر الدول ، ومن تلك الخصائص اختلاط الدين بالسياسة فيها أشد اختلاط ، واختلاط الدين من جهة أخرى بالفلسفة واختلاطه بالدولة ، واختلاط الأدب بهذا جميعه ، فكان الأدب بعد الاسلام كما كان قبله ديوان العرب ٠

وهذا الاختلاط بين الدين والسياسة والأدب والفلسـفة يجعل الباحث فى أحد تلك المناحى يلم بباقيها ، وكثيرا ما يرى أن أعلام هذا المنحى من النشاط الفكرى هم أعلام بعض المناحى الأخرى ، فشخصية على بن أبى طالب رضى الله عنه مثلا تصادف الدارس للأدب العربى ، كما تصادف الدارس للتاريخ الاسلامى ، كما تصادف الناظر فى السياسة والفرق والمذاهب ٠

ولهذا كان الأدب العربى من أدل الآداب على تواريخ الشعوب ، وكانت الحقائق التى يمكن استخلاصها من كتبه عن سياسة العرب ومجتمعهم من أمتع الحقائق وأنفعها ، وقلما تجد ملكا فى أمة أخرى يوصى عامله بمثل ذلك الكتاب البليغ الذى أوصى به عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعرى ، أو تجد واليا يستنهض مليكه الى مسائل السياسة والحرب بمثل الشعر الرصين الذى استنهض به نصر بن سيار مروان ابن محمد الى قتال أهل خراسان ، ومن ثم كانت كتب الأدب العربى كتب تاريخ وأدب معا .

فن الحيـــــاة

فطن الناس من قديم الى ما فى الحياة من مظاهر الجمال وأولعوا به ، وتغنوا بحبه المركب فى نفوسهم ، وقصروا على ذلك التغنى بجمال الحياة فنونا عرفت بالفنون الجميلة ، هى الشعر والموسيقى والتصوير والرقص والنحت وما جاراها ، اليها يفزعون كلما نفضوا أيديهم من طلب الرزق ، والى مناجاتها يستريحون كلما أثقلتهم هموم الحياة ، فالفن عندهم جزء من الحياة ، وان كان أحب أجزائها الى نفوسهم ، والجمال جانب واحد من الحياة ، وقد شاهت لها جوانب أخرى عديدة ، والفن كمالى يستأثر من وقتهم بساعة ، وان كانت أحب الساعات ٠

تلك كانت فى أغلب الأحوال نظرة الناس الى الفن ، وتلك كانت نظرة أكثر كبار رجال الفن أنفسهم ، كانوا مهما سمت آثارهم فى عالم الفن وتعـددت ، تعج حياتهم العادية بمناحى البؤس وأسباب الشقاء ، ويحفل الوسط الذى يضطربون فيه بمظاهر القبح والسوء ، وتركت تلك الحياة الشقية القبيحة أثرها فى مخلفاتهم التى تحفل بالشكوى والتوجع والقنوط ، وانتهت أيام كثير منهم انتهاء فاجعا ، وما ذاك الا لأنهم عرفوا الفن وجهلوا الحياة ، لأنهم قصروا الفن على جانب واحد من شتى جوانب الحياة ، لأنهم حصروا جمال الحياة فى باب أو أبواب معدودة ، جعلوها موضوع فنهم ، ثم اهملوا بقية الجوانب ، فلم يروا فى الحياة بعد ذلك الا قبحا وشقاء ٠

أجل ، لقد اصطلح أرباب الفنون من قديم على مناح من الحياة ، عدوها مظـــاهر الجمال ، وتوفروا على تصـويرها وأهملوا أو كادوا ما عداها ٠ وكم حفلت أشعار الشعراء وصور المصورين بأوصاف الطبيعة والجسم الانسانى ، وبلواعج الحب والحنين والذكريات ! فهل حب المرأة والشغف بمحاسن الطبيعة هما كل ما يتحرك له وجدان الانسان ؟ وهل العيون والثغور والنجوم والأزهار قد استبدت بالجمال ، فلا تستريح النفوس الى سواها ، ولا يتغذى الشعور بغيرها ؟ ان الجمال الذى تهوى اليه الأفئدة ليتجسم فى هذه المجالى حقا ، ولكنه غير مقصور عليها ، وانما

هو منبث فى كل مظاهر الطبيعة ومناحى الحياة ، كائن حيث أراده الانسان وسعى اليه ٠

الجمال كائن فى كل مظاهر الحياة ، والحياة كلها جميلة فى عينى من أرادها ، وتهدى الى محاسنها بنفاذ البصيرة ، وعمل على تجميلها وتدارك هناتها بثاقب نظر ولطافة حس ، والفنان الحق من لم يقصر فنه على قصيد ينظمه ، أو لحن يردده ، أو لوحة يصورها ، بل شمل الحياة كلها بنظرته وشعوره ، ونشر رواق الجمال على أيامه كلها حيث أقبل فى الحياة وأدبر ، واتخذ الحياة كلها قصيدة يعالجها ، أو نغمة يؤلفها ، أو منظرا يتفنن فى ابداعه ٠ الفنان الحق هو من عرف فن الحياة ، أى من عاش عيشة فنية يشملها الجمال ، وان لم ينظم بيتا ولم يخرج للناس لحنا ولا صورة فى قرطاس ٠

وللفن أصول معروفة ، فهو يقصد الى الجمال دائما ، وهو عملية واعية مقصودة لذاتها ، يتصرف فيها الفنان بما يدور فى نفسه وتحت حسه من مشاهد ومشاعر ، فعلى من أراد الحياة الفنية أن يتبع هذه الأصول : ينزع الى الجمال فى كل ما يمارس من شؤون الحياة ، ويؤلف عناصر حياته تأليفا واعيا مقصودا ، يستبعد كل بغيض وناب ، ولا يستبقى الا كل متسق ملتئم ، وهذا التبصر الدائم فى تنسيق أجزاء حياة المرء والملاءمة بين عناصرها ، هو أول شروط النجاح فى الحياة ، وليس يرجع شقاء الكثيرين فى حياتهم أو ملالهم منها الا الى اغفالهم ذلك التبصر الدائم والتنسيق المتتالى لعناصر حياتهم المادية والفكرية وتركهم الأمور على غواربهـــا ٠

والجمال الذى يروعنا فى الطبيعة ويقوم الفن على أساس منه ، انما يتألف من عناصر الانســجام والائتلاف ، والتقابل والبســاطة ، والاستقامة والصحة ، والحيوية والقوة ، ومماشاة الطبيعة ، والسليقة القويمة ٠ فاذا نحن أشعنا هذه العناصر فى حياتنا أشربناها الجمال ، ونشرنا عليها سمة الفن ونهجنا بها سبيل السعادة ٠ ولن تكون سعادة صحيحة بغير جمال ، ولن ترى شقيا متعثرا الا لأنه أغفل بعض عناصر الجمال هاتيك ، فاقفرت منهــا حيــاته ، فأشقاه ما فيها من قبح ونبو وشذوذ ، وقاسى من جراء ما بها من منادح افراط أو تفريط ٠

لكى تكون حياتنا سعيدة يجب أن نجعلها فنا ، يجب أن نعالجها معالجة الفنان قطعة فنية ، يجب أن نقصد فيها الى الجمال دائما ، وأن ننشر عناصره فى نواحيها المادية والمعنوية ، يجب الا نفكر الا فيما هو

جميل وسام ونبيل ، يجب أن نترفع عن الهين والصغير ، ونعزف بأنفسنا عن كل ما هو مناقض لعناصر الجمال سالفة الذكر ، ونصد عما من شأنه أن يخرج بنا عن نهج البساطة والاستقامة والصحة والقوة ، أو يميل بنا الى التواكل والرخاوة والشذوذ والنبو •

واذا كان التناسب والتقابل والائتلاف من عناصر الجمال وأسس الفن ، كان علينا أن نتوخاها فى حياتنا ، ننال من كل غرض نبيل بقدر ونلزم سبيل القصد ، نوازن بين العمل والاستجمام ، ونناسب بين التفكير والعمل ، ونؤلف بين اللذة والألم ، ونقصد فى الإجتماع بالناس وطلب الوحدة والبعد عنهم ، ونقسط فى قسمة رعايتنا واهتمامنا بين العقل والجسم ، وبين الحاسة والذهن ، ونتوسط فى الميل بين العقل والعاطفة ، ونعتدل بين مشاركة الناس شعورهم والاستقلال عنهم بآرائنا ، ونلزم الحزم فى طلب المال الذى هو قوام الحياة ، وفى انفاقه فى وجوهه ، نؤلف بين هاتيك العناصر التى تتكون منها حياتنا ، فتجىء حيـاتنا كالقطعة الفنية المجودة المنسجمة ، وما نتيجة ذلك الا أن تكون سعيدة •

وكثير من الناس توفرت لهم عناصر الحياة وأسباب السعادة ، وهم مع ذلك أشقياء ، لأنهم جهلوا فن الحياة وعجزوا عن تأليف قطعة الحياة الفنية والمناسبة بين عناصرها ، فاذا فيها اقواء أو استطراد كالذى يعيب القصيدة ، واذا فيها نشاز ونبو كالذى يعيب اللحن ، فمنهم من شقى لأنه أسرف فى العمل وأهمل الاستجمام ، فكد ذهنه وأعل جسمه ولم يغن عنه جده ، ومنهم من شقى لأنه أهمل العمل واستنام الى الراحة ، فملكه الضجر وتولاه القنوط ، ومنهم أشقياء لأنهم انصرفوا سراة (معظم) حياتهم الى حياة الفكر وحدها ، حتى اكتظت أذهانهم ، وترهلت أبدانهم ، وحسدوا رجال العمل على نشاطهم واقتدارهم على الخلق والتنفيذ •

ومن الناس أشقياء ماتزال الأحزان تلاحقهم ، وكأنما تلح عليهم عن قصد وعمد ونكاية ، وما ذلك الا لأنهم استناموا اليها واستسلموا لها ، وكان أولى اذا نزل بهم خطب أن يتدرعوا العزم ويستخلصوا ما فيه من درس وعبرة ، فلا يخرجوا منه الا أبصر بالحياة وأقدر على كفاحها ، فلما استناموا الى الأحزان صارت الذلة لها والمسكنة طبيعة فيهم ، وصار الهم خدنا لهم ، يفتقدونه اذا غاب عنهم ويكادون يسعون اليه سعيا ، ويغتبطون بعودة أسبابه اغتباطا ، وأكثر من هؤلاء شقوة من أرادوا العيش كله لذة ومتاعا ، فسرعان ما بشموا (أتخموا) من اللذات وما يريدون عنها

اقلاعا ، انما يمنعون فيها تماديا ، ويتكلفونها تكلفا ممقوتا ، لا يرد عنهم الملال طويلا .

وأسرف كثيرون ـ منذ تحضر الانسان وسكن المدن ـ فى رعاية العقل ونبذ الجسم وتحقيره ، حتى تعاورته العلل والأسقام ، واحتاجوا الى الاستكثار من الثياب لا ليدفعوا بها حرا ولا بردا ، ولكن ليستروا جسوما ألوى بها الاهمال ، فارتد منظرها مشوها منفرا ، بعيدا كل البعد عن الجمال والفن ، ومن التناقض البين أن يزعم المرء أنه كلف بالجمال ، معنى به فى مظاهر الأرض والسماء ، وفى آثار الفنانين ، وقد حرم بدنه هو نفسه أبسط أسباب الجمال والصحة والاستقامة ، وما ذاك الا أثر من آثار الحياة غير الفنية التى يحياها أكثر الناس مهما نالوا من تثقيف وتهـذيب .

ومن أظهر أسباب الشقاء التنازع بين العقل والعاطفة ، فكثير من الناس ولا سيما البسـطاء ، ومن لم ينالوا حظا من التعليم ينقادون للعاطفة انقيادا يوردهم موارد العطب ، وآخرون ممن أصابوا غاية من التثقيف وطمحوا الى التسامى فى كل الأمور ، يحاولون تحكيم العقل فى كل أمر وكبت العاطفة ، وتسلك التقاليد فى هذا الصدد أحيانا سبيل التعسف ، تنقاد لعواطف بلهاء أحجى أن تقمع ويغلب عليها العقل ، وتضرب الحجب والأسداد على عواطف هى أجدر بالتعهد والرعاية ، وفنان الحياة الحق من أحسن التوفيق بين أوامر العقل ومطالب العاطفة ، فمال مع ذاك مرة ومع هذه أخرى وفق ما يقضى به الطبع السليم ويتطلبه فن الحياة ، فان حياة يتحكم فيها العقل وحده لجافة مقفرة ، كما أن حياة منساقة فى تيار من العواطف متدافع ، هيهات أن تكون سعيدة أو ناجحة مثمرة .

وما أكثر من يشقون لاستعباد المال نفوسهم حتى يلوى وجوههم عما عداه من مطالب الحياة ، فهم من أجله مضحون بالوقت والجهد ، مهملون حق أنفسهم وحق الناس عليهم ، وهم يجدون فى ذلك ولا شك بعض اللذة والسعادة ، ولكنها لذة منغصة ، وسعادة ولا شك ناقصة أفحش نقص ، واذا كانت عبادة المال تشقى هؤلاء فان الجهل بقدره يشقى قوما آخرين لا يقلون عددا ، فان المال قوام الحياة وأساس النجاح ودعامة الاستقلال الفردى وحصن الكرامة الشخصية ، ولا مجد فى الدنيا لمن قل ماله كما قال المتنبى ، والجاهل بقدر المال المبذر له فى غير وجوهه لن ينال السعادة ولا النجاح ، وسيقعد يوما ملوما محسورا ،

انما يقتضى فن الحياة التوسط فى الحرص على المال والزهد فيه ، والاعتدال فى طلب النفع المادى والغنم الأدبى ·

وتنظيم علاقة المرء بمجتمعه خير محك لمقدرة فنان الحياة · فالانسان حيوان اجتماعى ، والراهب أو المتشائم الذى يعتزل المجتمع أو لا يواصل الناس الا لماما هو رجل مخفق فى الحياة لم يحذق فنها ، كما ان الرجل المنغمر فى المجتمع الغائب فى ثناياه ناقص أسباب السعادة والنجاح ، اذ لابد من الخلوة ليرجع المرء الى دخيلة نفسه ويتدبر صفحة حياته ويجدد عزماته وينظم آراءه ويوجه خططه ، وبالجملة يتبصر فى هذه القطعة الفنية التى يقوم على تأليفها تأليفا منسجما : قطعة الحياة ·

ولكى تظل عناصر الجمال نصب أعيننا وملء نفوسنا لابد أن نحيط بها أنفسنا فى حلنا ورحيلنا ، فى عملنا ولهونا ، فى كل مظاهر المادة المحيطة بنا ، يجب أن تكون مظاهر الائتلاف والانسجام والبساطة والصحة والحيوية ماثلة فى المسكن والمكتب ودار الاجتماع والسمر والاستجمام ، وفى الملبس وفى المطعم وفى الأشخاص المحيطين بنا فى كل هؤلاء ، فان من نحيط به مظاهر الجمال المادية حيث يدور وينظر،لن يكون الا هادىء النفس رضى البال ·

وليس يكفى ان يكون المسكن والملبس والمطعم والندى جميلة متناسقة محببة اذا كان كل ذلك من صنع الآخرين ، ان الجمال والفن والسعادة واللذة فى أن نقوم نحن بتنسيقها وتحبيبها الى أنفسنا ، أو نشارك فى ذلك بعض المشاركة على الأقل ، فصاحب الدار المشعثة الأثاث القبيحة النظام الصاخبة المضطربة ، يكون بلا شك مشوش الفكر على ذلك النحو ناقص أسباب السعادة ، ولكن ليس خيرا منه بكثير من تبدو داره منظمة منظفة بفضل الخدم الأجراء ، فان مشاركته هو نفسه فى ذلك تزيد مظاهر المادة حوله بهاء وتزيد تمتعه بما يرى من مظاهر الجمال ·

ان الخبير بفن الحياة يشارك أتم المشاركة فى تنضيد داره وغرفته ، وفى انتقاء ثيابه وصنعها ، وفى اختيار مآكله واعدادها وتهيئة الخوان ، لا يرمى فى شىء من ذلك الى السرف والبذخ والتظاهر والتكثر والتخمة ، بل الى البساطة والانسجام والاستقامة والصحة والحيوية،وتتغذى نفسه متى جلس الى الخوان بشعوره بحسن اختياره واعداده ، وبما هناك من رونق وتناسق ، أضعاف ما يتغذى جسمه بما ثمة من مآكل ومشرب ·

والخبير بفن الحياة يعرف كيف يستخلص أعظم المتاع من قليل الحطام ، وكيف يحل الجمال والسعادة حيث يتوهم غيره القبح والشقاء ، وكيف يدخل الفن على أشد تفاصيل عمله اليومى الراتب املالا ، فاذا هو محبب غير ممل ، وكيف يدخل الجمال والبهجة على كل حديث يطارحه صاحبا حميما أو طارئا عابرا ، وكيف يوغل عنصر الجمال على شتى التجارب القاسية والأحداث المؤلمة ، بأن يتدبر ما فيها من منادح للعبرة ومعارض للدرس ومجال لنفوس البشر وطبائع الأشياء ، وكيف يستغنى تمام الاستغناء بما يكون عما لا يكون ، مع تملى الحياة ملء نفسه دون تزهد أو تقشف أو رفض لها ٠

ان الحياة فن جميل ، والسعادة فى اتقان ذلك الفن ، وخير للمرء أن يتقنه من أن يبرع فى أى فن من الفنون الجميلة المتعارفة ، خير له أن يبسط الجمال فى كل مناحى حياته من أن يحصر الجمال فى نواح خاصة ، يعبر عنها بصور وأســاليب خاصة ، ثم يترك بقية حياته نهبا للقبح والاضطراب والشــقاء ، وهل كانت الا كذلك حياة كثير من الفنانين المفلوكين (الفقراء) كأبى نواس وبشار وجولد سميث وبايرون وموباسان وفرلين ؟

خير للمرء أن تكون حياته ذاتها فنا يحياه فى صمت ، وجمــالا يستوعبه فى سكون ، من أن يملأ طباق الجو بدعوى فنه ، وحياته تجيش بأسباب القبح والشقاء كأولئك ، أو أن يستعبده فنه الجميل استعبادا ، ويسترقه حب الاشتهار به استرقاقا ، فيحرم نفســه لذات الرياضــة والحديث والاضطلاع والحركة والرحلة ، حرصا منه على التزود من أسباب فنه والاستمرار على الانتاج فيه انتاجا يديم ذكره فى أخلاد الناس وعلى شفاههم ، كما آلت اليه حياة الناقد سانت بيف والقصصى بروست اللذين غدوا بفضل التوفر على الأدب رهن محابس كثيرة لا محبسين اثنين ٠

واذ كانت السعادة فى أن تكون الحياة فنا يتوفر عليه صاحبها كان الخير فى أن ننشىء الجيل الصغير على عقيدة أن الحياة فن ، ونعلمهم منذ حداثتهم كيف يتملون حياتهم على هذا النحو الفنى ، وكيف يتوخون الجمال فى كل قصة وكل عمل ، فقد قال قوم ان غاية التربية هى تزويد الناشىء بالعلوم التى تعينه على اكتساب حياته ، ودرس ذلك المذهب وظهرت أهمية تهذيب الخلق بجانب ذلك ، ثم امتد الاهتمام الى الناحية الجسمية ، ولكن كل ذلك غير مغن حتى يسود التربية مذهب فنى ، حتى

تشمل النزعة الفنية كل غايات التعليم ووسائله ، وليس يغنى أن نلقن الحدث كثيرا من العلوم وبعض الفنون حتى نلقنه فن الحياة ٠

وانما أشرت الى وجوب تلقين هذا الفن للنشء ، لأن هذا الفن لخطره وشموله الحيــاة بأجمعها لا يتلقن على كبرة ولا يحذقه كل من آراد ، وأكثر من نشأ فى حياة متنافرة العناصر قبيحة المظاهر يصعب عليه متى كبر أن يفقه الحياة الفنية أو يمارسها مهما نال من العلم والثروة والجاه ، ويظل ــ وان أعجب بالحياة الفنية الجميلة التى يحياها غيره ــ عاجزا عن ضم شتات حياته وتقليد غيره فيما يصنع ، ذاك بأنه تلقن فى صغره علوما كثيرة وفنونا ، وحرم أهمها وأجلها : وهو فن الحياة ٠

الأجنـــاس والقوميـــات

بزغ فجر التاريخ وقد انشعب البشر قبائل وشعوبا ، تستوطن متنائى بقاع الأرض ، وتفصلها فى كثير من الأحوال تضاريس اليابس وفجوات الماء ، وقد تطبعت كل قبيلة أو أمة بطباع اقليمها التى تفرضها عليها ظروفها المناخية ووسطها الجغرافى ، وتوارثت تلك الطباع والعادات والميول والتقاليد ، حتى اتسعت شـقات الخلاف بين الأمم والشـعوب فى صفاتها الجسدية والعقلية ، وأصبحت اذا اتصل بعضها ببعض فى حرب أو تجارة أو رحلة ، راعتها تلك الفروق ، حتى كادت تنسيها ما بين البشر جميعا من اتفاق فى الأرومة واشتراك فى العنصر والمنشأ ، ولم يدر فى خلد كل أمة نالت نصيبا من الحضارة مهما قل الا أنها خير الأمم ، وأنها الشعب المختار · وكانت تلك العقيدة ، وتلك الفروق ، وما ساد بين الأمم من جهل بعضها ببعض ، أكبر أسباب اشتعال الحروب بينها فى قديم العصور ·

تختلف شعوب الأرض فى شتى الوجوه : فى ألوانها التى تتراوح بين البياض والسواد ، والسمرة والصفرة والاحمرار ، وفى قامتها التى تتراوح طولا ، وفى أشكال رؤوسها التى تميل تارة الى الاستعراض ، وطورا الى الاستطالة ، وأحيانا الى البيضـوية ، وفى ألوان شـعورها وعيونها وأشكال أنوفها ، وتختلف الشعوب فى لهجاتها ولغاتها ، وفى أديانها وعقائدها ، وفى عاداتها وتقاليدها ، وفى أخلاقها وأزيائها ، وطرقها فى الحديث والحركة والمشية · وقد عملت الحضارة الحديثة ، ذات الصبغة القريبة من العالمية ، على محو بعض الفروق القابلة للمحو ، وما يزال أكثرها باقيا واضحا ·

تنبهت الأمم المتحضرة الى تلك الفروق من قديم الزمن ، واهتمت بتسجيلها كتابة وتصويرا ، فخلف المصـــورون والنحاتون ، والكتاب والشعراء ، والمؤرخون والجغرافيون ، والرحالون والسفراء ، آثارا غزيرة فى التحدث عن شعوب الأرض المختلفة وعاداتها المتباينة ، فكان قدماء المصريين أنفسهم باللون الأحمر ، ويصورون بالأصفر أعداءهم الأسيويين ، وبالأسود زنوج افريقيا ، ولما عرفوا أهل الشـــمال صوروهم باللون

الأبيض . وأفاض الرحالة هيرودوت في وصف أحوال الأمم التي طاف ببلادها ، وكذلك فعل مؤرخو الرومان ، ومنهم تاسيتوس الذي ترك وصفا مسهبا لأحوال البرابرة القاطنين على حدود الامبراطورية ، وهو يمتدح أخلاق الجرمان القوية ، ويوازن بينها وبين أخلاق الرومان المترفين ، ويشير الى صلابة أجسادهم ، وامتداد قاماتهم ، وزرقة أعينهم ، وشراسة نظراتهـــا .

وفي العصور الوسطى أولع العرب بجوب الأقطار والممالك ، واجتياز المفاوز والمسالك ، وكتب كبار رحالتهم كتبا قيمة تجمع بين التاريخ والجغرافيا ، وبين وصف الأرض ووصف الجماعات التي تقطنها ، واشتهر منهم ابن جبير وابن بطوطة والمسعودي والادريسي وآخرون كثيرون ، كما ظهر رحالون أوربيون في أواخر تلك العصور ، أشهرهم ماركو بولو الذي ترك وصفا شائقا لأحوال الصين ، وبقيام النهضة الأوربية دخل الأوربيون عصرا من الرحلات والاستكشافات عديم النظير ، ومن أوائل من اهتموا بالرحلة وتدوين ملاحظاتهم عن الشـــعوب وعاداتهم الطبيب الانجليزي أندرو بورد من أهالي القرن السادس عشر ، فقد طاف في أوربا والشرق الأدنى ، وهو في كتاباته شديد الاعتداد بالانجليز والتنويه بصفاتهم ، شـــديد الحملة على من عداهم ، وان اعترف لهم أحيانا ببعض الحسنات .

ومنذ توشجت العلاقات بين الشعوب ولا سيما شعوب أوربا والشرق الأدنى من أواخر العصور الوسطى ، نشأت عادة ارسال السفراء والقناصل الى الخارج ، وكانت البندقية وغيرها من مدن ايطاليا التجارية أسبق الدول الى ذلك ، وكان السفراء في ذلك العهد يقومون بتعريف الشعوب التي يمثلونها بالشعوب التي يسفرون لديها ، فيكتبون التقريرات الضافية عن أمزجة تلك الشعوب وعاداتها وأزيائها ، وتقريرات سفراء البندقية الى حكومتهم ماتزال من أمتع الوثائق في هذا الصدد ، ومن أهم مراجع تاريخ تلك العصور .

كان أولئك الرحالة والجغرافيون والسياسيون يدونون ما يرون دون كبير تعليق أو تحليل . ثم كان العلماء من قديم الزمان يحاولون دراسة الانسان جسما وعقلا وجنسا ومنشأ ، وكان أسبقهم الى ذلك أبو الطب بقراط ، فقد أشار الى اختلاف أجسام الأجناس ، ولا سيما في أشكال رؤوسها ، وذكر أن رؤوس بعضها شديد الاستطالة ، ورجح أن مرجع ذلك أمر صناعي ، وتكلم عن تأثير المناخ على الجسم والخلق ، وتبعه

أرسطو الذى جعل الانسان فى زمرة الحيوان ، ولاحظ ما بينهما من وجوه الشبه ووجوه الاختلاف ، وأشار الى امتياز الانسان بكبر حجم مخه ، واختلاف شكله .

وجاء العالم الرومانى لوقريطس فكان أول من فطن الى فكرة تطور الانسان والأحياء عامة ، فسفه تفسير الخرافات الاغريقية والرومانية لخلق العالم ونشأة الانسان ، ورفض الفكرة الذائعة من أن الانسان عاش قديما فى عصر ذهبى انحدر منه ، ورأى بالعكس أن تاريخ البشر تاريخ رقى متصل ، فكان الانسان فى أول أمره وحشيا ضاريا عاريا يسكن الكهوف ، لا يعرف قانونا ولا خلقا ولا فنا ولا علما ، وليدفع الحيوان عن نفسه استعمل الحجارة ، ثم صنع أسلحة ساذجة من النحاس ثم عرف النار صدفة لاندلاع حريق من صاعقة أو ظاهرة جغرافية أخرى ، وتكونت على لسانه اللغة تدريجا بحكم الضرورة ، ومن العجيب أن هذه الصورة التى رسمها لوقريطس للانسان البدائى استنباطا دون كبير بحث علمى وتنقيب ، ما تزال صادقة فى جملتها لم يزدها البحث الا توطيدا .

وفطن علماء العرب فى العصور الوسطى الى تاثير الوسط الجغرافى فى بنية الانسان وطباعه وحضارته ، ولحظوا ما بينه وبين القردة العليا من تشابه ، ولمحوا آثار تطور الانسان والأحياء عامة . والمقدمة لابن خلدون حافلة بآثار هذه النظرة العلمية الى الانسان والمجتمعات الانسانية . قال يفند الفكرة الذائعة فى تلك العصور عن مرجع أجناس البشر : « وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه ، وفيما جعل الله من الرق فى عقبه ، وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصاص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة ، وليس فيه ذكر السواد ... وفى القول بنسبة السودان الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات » .

وكتب ابن طفيل قصة حى بن يقظان فزعم أن حيا هذا تولد فى جزيرة حارة من تفاعل العناصر ، ونشأ وحيدا جاهلا حاله كحال الانسان البدائى الذى وصفه لوقريطس ، فما زال يتعلم بالتجربة حتى تثقف : اتخذ من غصون الشجر عصيا يذب بها الوحوش . ثم مازال حتى تضلع

فى تشريح الحيوان ، واهتدى بذلك الى وحدة الأحياء رغم اختلافها الظاهرى ، والى وحدة الوجود جميعا ٠

وعبر القزوينى فى « عجائب المخلوقات » عن هذه الفكرة وذلك التطور قال : « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فان المعادن متصلة أولها بالتراب وآخرها بالنبات ، والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالانسان ، والنفس الانسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية » ٠

وكان المعرى شديد الشعور بتلك الوحدة بين المخلوقات ، يدل على ذلك أقوال له منها قوله :

ولا يرى حيوان لا يكون له فوق البسيطة أعداء وحساد

وقوله :

يغادر غابه الضرغام كيما ينازع ظبى رمل فى كناس
سجايا كلها غدر ولؤم توارثها أناس عن أناس

وكان ابن سينا كأستاذه أرسطو معنيا بأحوال البشر وأجناسهم ، وكان ينظم الشعر فى الفلسفة والطب ، قال من أرجوزة فى الأخير يشير الى اثر المناخ فى البشرة :

بالزنج حر غير الأجسادا حتى غدا كسا جلودها سوادا
واكتست الصقالب البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

ولما كانت النهضة الأوربية كان الاهتمام بالانسان ودراسته من أخص صفاتها ، ظهر ذلك فى عالم الفن ، اذ التفت المصورون والنحاتون الى درس الجسم الانسانى ، وتأديته تأدية دقيقة وتصوير محاسنه ، فحرص رافائيل وميكلانجلو وليوناردو دافنشى ودورر وغيرهم من الفنانين على دراسة تركيب الجسم الانسانى ، وترك دافنشى آثارا ما تزال لها قيمتها فى علمى التشريح والنبات ، كما أن دورر استدرك خطأ كان النحاتون قبله ماضين عليه ، اذ كانوا يمثلون رؤوس نبلاء الألمان الذين يطلبون اليهم صنع تماثيل لهم مستديرة ، على حين أصر دورر على تصوير الرأس الألمانى كما هو فى حقيقته مستعرضا مسطحا من الخلف بعض التسطح ٠

وفى القرن التالى وهو القرن السادس عشر ظهر أبو علم الأجناس الحديث العالم البلجيكى أندرياس فيسـاليـاس الأستاذ بجامعة بادوا بايطاليا ، وطبيب شرلكان بعد ذلك ، وقد قام بأبحاث وملاحظات خاصة فى الاختلافات الجسمية بين الشعوب المختلفه . ولا سيما فى شـكل الرأس ، ولاحظ أن كثيرا من أهل البحر المتوسـط ، ومنهم أهل جنوة واليونان والترك ، مستديرو الرؤوس ، وقال ان ذلك عندهم من أسباب الجمال ، وهو ملائم لعاداتهم من لف الرؤوس بالعمائم ، على حين رؤوس الألمان عريضة مسطحة المؤخرة كما تقدم القول ، بينما رؤوس مواطنيه البلجيكيين أميل الى الاستطالة · بيد أن فيساليـاس لا يرد ذلك الى عوامل طبيعية والى تطور الأجناس البشرية ، بل يرجعه الى عامل صناعى موضعى هو معاملة القوابل والأمهات للأطفال فى مهودهم ·

كانت الأراضى المنخفضة فى عصور النهضة وما وليها من أنشط بلدان أوربا وأرقاها ، وقد أنجبت لأوربا طائفة من خير علمائها ، منهم أرزمس عميد النهضة ، وجروتياس واضع القانون الدولى ، وفيساليـاس ، هذا الذى قيل انه أدى فى تلك العصـور من الخدمات لعلم الأجناس ما أداه جاليليو وكوبرنيق لعلم الفلك ، ثم جاء بعده العـالم الهولندى أندريان فون سبيجل ، فكان أول مبتدع لمقاييس تقاس بها اختلافات الأجناس والأفراد الجسمية ، اذ وضع طريقة « الخطوط الرأسية » فمد خطوطا أربعـة فى اتجاهات معينـة داخل الجمجمة ، فاذا كانت هـذه الخطوط متساوية كان الرأس المقيس بها منتظم التكوين ·

وفى القرن السابع عشر خطا علم الأجناس خطوة أخرى على أيدى الأطباء أيضا ، اذ بدأ الطبيب الانجليزى ادوارد تيسون تشريح القردة العليا ، وفى القرن التالى ظهر العالم الألمانى بلومنباخ ، الذى وضع التقسيمات الجنسية البشرية على أساس من القياس ، فكان من أوائل من جعلوا علم الأجناس مستقلا عن الطب ، ونادى بوحدة الأجناس البشرية قاطبة جسما وعقلا ، وان اختلفت درجة لا نوعا ، حتى قيل ان الجنس البشرى كان قد نسى وحدة أصله حتى أذكره بلومنباخ اياها ، وبلومنباخ أول من استعمل لفظة القوقازى للتعبير عن الجنس الأبيض الأوربى ·

وفى القرن التاسع عشر ترقت علوم الأحياء عامة رقيا بعيد المدى ، وغزر البحث فى علم الأجناس ، فاستنبط العالم السـويدى أندرس ردزياس « النسبة الجمجمية » أى نسبة النهاية القصوى لطول الجمجمة الى النهاية القصوى لعرضها ، للاستعانة بذلك فى التفريق بين شتى

الأجناس ، ولم يعد العلماء يقصرون ملاحظاتهم وتجاربهم على جماجم الموتى ، بل التفتوا الى دراسة جماجم الأحياء وأحوالهم الجسدية الأخرى ، وكان أسبقهم الى ذلك العالم الانجليزى جون بيدو الذى طاف طويلا فى أنحاء بريطانيا العظمى ، ثم نشر فى أواسط القرن الماضى كتابا حافلا عن سكان الجزر البريطانية مايزال مرجعا فى الجغرافيا البشرية لتلك البلاد .

وأدت تلك الدراسات للجنس البشرى الى النظر فى منشئه وتطوره ، وكان من أوائل من قال بأن الانسان تطور فى سالف العصور ، ولم يكن دائما على حالته الراهنة ، العالم الانجليزى لورد مونبودو ، من أهل القرن الثامن عشر ، واشتغل بتتبع العلاقات بين الانسان والقردة العليا ، ثم تابع تلك البحوث العالمان الفرنسيان لامارك وسنت هيلير ، فمهدا السبيل لداروين ، الذين وضع نظريته المفصلة فى كتابيه عن أصل الانسان ، وسلالة الانسان ، وزاد هكسلى تلك النظرية شرحا وتطبيقا على الانسان من بين الأحياء ، وتلاه سبنسر ، فطبق النظرية على المجتمع الانسانى قاطبة ، ومن ثم ذاعت نظرية التطور وطبقت فى شتى العلوم .

ترقى علم الأجناس فى القرنين الماضى والحاضر ، وتوفر عليه علماء كثيرون ، واستقل بنفسه ، وان كان من الصعب أن تنقطع العلاقات الوثيقة بينه وبين الطب والتشريح وعلم الأحياء والجيولوجيا وغيرها من العلوم ، وظهرت فيه نظريات كثيرة ، ودأب علماؤه على البحث والاستقراء واجراء التجارب على أجساد الموتى والأحياء ، وحفروا الحفائر ، وعثروا على بقايا الانسان فى شتى العصور القديمة .

على أن علم الأحياء مايزال غير وطيد الأسس ، ولا ثابت النظريات ، ماتزال حقائقه فى تبدل كل حين ، وماتزال نظرياته لكثرة ما يجرى من البحوث تتبدل وتبلى قبل أن تطبع ، ويحل محلها غيرها قبل أن تذيع ، ومايزال علماؤه فى حيرة من أمرهم فى كثير من فروع هذا العلم ومسائله ، لأن دراسة الانسان أصعب جدا من دراسة أشتات الحيوان ، لما يمتاز به دونها من أنه أكثر تطورا ، وأنه أشدها هجرة واختلاطا ، وأنه من دونها يورث أجياله المتعاقبة ثمار تجاربه ، فتتكون من تراكمها الحضارات والثقافات ، وتختلف العقليات والبيئات ، حتى عجز العلم عن تقسيم البشر الى أجناس مستقلة محددة ، الا أن تكون التقسيمات عامة مبهمة

تحتوى من دونها على تقسيمات أخرى واستثناءات ، بل ذهب بعضهم الى القول باستحالة تقسيم الناس الى أجناس بعد ما كان من اختلاط الأجيال والشـــعوب ٠

هذه كلمة العلم الذى يحرص على الحقيقة وينبذ التعصب والوهم ، بيد أن التعصب والوهم كانا سائدين فى العصور القديمة ، وما تزال لهما الى اليوم سيطرة فى عقول عامة الشعوب ، كان كل شعب كما تقدم القول فى صدر هذه الكلمة يعد نفسه أرقى الشعوب ، ويراه الشعب المختار ، اصطفته الآلهة ليسود ويحكم الشعوب الأخرى ، ويخلع على الأمم الأخرى صفات البربرية والأعجمية وما عداها ، وكانت ديانته ذاتها تشجعه على ذلك ، لاختصاص كل أمة أو قبيل بآلهة يعبدها دون غيره ، ولم يكن يخالجه شك فى اختلافه فى الجبلة والطبيعة عن سائر الشعوب ، وامتياز عنصره بفضائل حرم منها غيره ٠

كان قدماء المصريين يقولون لرواد الاغريق كما روى هيرودوت : انكم معشر الاغريق لستم الا أطفالا ، وما تعلمون من العلم شيئا ٠ وكان الاغريق يعتـــدون بهلينيتهم ، حتى أيام كانت تجتاحهم جحافل روما ، وكذلك كان شأن بنى اسرائيل ونكبات الأجنبى تتوالى عليهم ، وقل مثل ذلك فى شأن الرومان والعرب والترك وكل دولة شادت حضارة أو بنت سلطانا ، ولما ظهرت دول أوربا الحديثة كانت كل منها ــ وما يزال أكثرها ــ لا ترى الصدارة الا لنفسها دون الأمم ، وفى آداب لغات تلك الأمم شواهد تتمثل فى كتابات دانتى الايطالى ونيتشه الألمانى وهوجو الفرنسى وكبلنج الانجليزى وغيرهم ٠

وأحدث حركات التعصب الجنسى والكبرياء القومية فكرة تقسيم البشر الى آريين وساميين ، فأما الساميون فمنسوبون الى سام بن نوح ، اذ ورد فى الكتب المقدسة أن أبناء نوح ــ ساما هذا وحاما أبا السود ويافثا ــ انتشروا فى الأرض وتناسلوا ، وأما الآريون فهم فى نظر أصحاب تلك النظرية سكان أوراسيا القاطنون شمالى الساميين ، فهم يحلون فى هذه النظرية محل اليافثيين فى النظرية القديمة ، والى يافث ينسبون أحيانا فى النظرية الحديثة ، كما يسمون أحيانا بالشـــماليين ، وتارة بالهندوأوربيين ، وطورا بالجرمان ، وانما يسمون بالآريين لزعم أصحاب تلك النظرية أنهم انتشروا من آريا ، ومحلها أفغانستان الحالية ، فكان منهم الهنود والفرس ، ومن آريا اشتق اسم ايران ، وكان منهم الأوربيون المحدثون أيضا ٠

وكان أول مدخل لكلمة الآرية فى عالم الفكر الأوربى الحديث المستشرق الانجليزى سير ويليام جونز الذى درس اللغة السنسكريتية وغيرها من اللغات الهندية المقاربة لها ، أيام كان قاضيا فى الهند ، وترجم عنها الى الانجليزية ، وأشار الى التشابه بينها وبين كثير من اللغات الأوربية ، ووردت كلمة الآرية فى بعض تراجمه تلك ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى أوائل القرن التالى تابع العلماء أبحاثه ، وتبين لهم تقارب اللغات السنسكريتية والبهلوية والأرمنية واللاتينية والاغريقية والتيوتونية والسلافية وغيرها ، وسميت هذه اللغات بالآرية ، ثم سرى الاسم بالمجاز الى الأمم التى تتكلمها ٠

وكانت ألمانيا اذ ذاك تعج بحركة قومية شديدة متأثرة بالثورة الفرنسية ومبادئها وحروب نابليون ، وكانت تطمح الى الحرية والوحدة والاستقلال والسيادة ، وكان يمثل تلك المشاعر والأمانى أدباء الحركة الرومانسية بها ، وكان أولئك الأدباء مهتمين بالدراسات الشرقية ، فشغفوا بمباحث سير ويليام جونز وترجماته ودراسات العلماء من بعده ، ورأوا فى فكرة الآرية مركزا صالحا تتبلور حوله النهضة القومية، اذ كانت الأمم فى نهضاتها تلتفت الى مجد غابر تتشبث به ، ولم يكن لألمانيا مثل ذلك الماضى المجيد ، فعمل أدباؤها على خلقه ، فزيفوا كثيرا من حقائق العلم ، ومن أشهرهم فردريش فون شليجل وأخوه أوجست ولهلم فون شليجل الذى تولى تدريس السنسكريتية فى جامعة بون ، وكذلك ماكس مولر ٠

وانتشرت فكرة الآرية فى ممالك أوربا الأخرى ٠ ففى فرنسا كتب الكونت جوزيف دى جوبينو « رسالة عن عدم تساوى الأجناس البشرية »، ونادى بتفوق الجنس الآرى ، وكتب مواطنه لابوج كتاب « الآرى » فكان أشد ايغالا فى الوهم والتعصب ، وتأثر بالفكرة من أدباء انجلترا توماس كارلايل ، غير أن العلم رفض تلك النظرية ، ودحضها بما لم تبق بعده أثارة للشك ، اذ لم يقم دليل على أن « آريا » هى منشأ الشعوب التى تتكلم تلك اللغات المتشابهة ، ولا على أن تلك الشعوب ترجع الى أصل واحد ، ولا على أن تلك اللغات على تشابهها تفرعت عن لغة أصلية واحدة، وانما يشهد العلم بأن اللغات يكتسبها شعب عن شعب بالمخالطة ، وأن الشعب النقى تمام النقاء لم يعد له وجود بعد ما توالى على سطح البسيطة من مهاجرات وامتزاج فى الدماء ٠

كانت الأديان الوثنية القديمة كما تقدم القول من أسباب التعصب بين الشعوب ، لاختصاص كل قوم بآلهة ، حتى جاءت الأديان السماوية تدعو الناس جميعا بلا تفرقة الى السلام والاخاء ، فعبرت عما كان يشعر به عقلاء الناس ومتعلموهم فى شتى العصور ومختلف الشعوب ، من أخوة البشر ، وتماثلهم على ما بينهم من فروق عرضـــية · جاء فى التوراة : « فليكن الأجنبى الذى يحل بينكم بمنزلة من ولد بين ظهرانيكم ، ولتحبوه كما تحبون أنفسكم ، فقد كنتم أنتم غرباء فى أرض مصر وأنا الله ربكم أجمعين » ، وجاء عن السيد المسيح أنه قال : « ليس هنا يهودى ولا اغريقى ، ولا حر ولا عبد ، فانكم جميعا تتحدون فى ذاتى » ، وقال القديس بولس : « الله خلق الشعوب من دم واحد ليعمروا الأرض » ، وجاء الاسلام للناس كافة لا يفضل عربى فيه أعجميا الا بالتقوى ، وجاء فى الذكر الحكيم أن الله خلق الناس قبائل وشعوبا ليتعارفوا ·

بيد أن الجهل فى تلك الأزمنة القديمة كان ما يزال فاشيا ، والتعصب مايزال متمكنا من النفوس ، فلم تع تلك الحكم البالغة التى جاءتها بها الأديان المنزلة ، واذا الدين الذى انما جاء لمحو الفروق بين الناس ، اذا هو من أكبر وجوه الاختلاف بينها والصراع ، يصارع دين دينا وينشق أبناء الدين الواحد على أنفسهم مذاهب متناحرة · حتى انجلت عصور الظلمة وانتشر شعاع العلم الحديث ، ولم يعد العلم وقفا على طبقة من الناس محدودة ، وبدأ الناس يفرقون بين حقائق الحياة وبين جهالات التعصب ، فنبذوا كثيرا من عصبيتهم واعتدادهم بأنفسهم واحتقارهم لغيرهم ، فخطوا فى سبيل السلم خطوات واسعة ·

أثبت العلم الحديث وحدة الناس أصلا وتطورا وجسما وعقلا ، على اختلافهم أشكالا وعادات ، وأثبت أن اختلاف أمة عن أمة لا يرجع الى ارتقاء هذه وانحطاط تلك ، ولا يرجع الى الأصل الطبيعى والتركيب الفسيولوجى ، بمقدار ما يرجع الى الوسط الاجتماعى ، والعقلية السائدة فيه والتقاليد والثقافة والتربية ، وأن صفات الانسان العقلية والجسمية معا قابلة للتغير بمرور الزمن وتطور البيئة ، وأرى الناس جهرة أن الأمة ليست وحدة جنسية ، بل هى مزيج من الأجناس ، وانما أهم مشخصاتها اللغة والدين والثقافة واشتراك المصالح ، والتعاون على دفاع كل طارىء يهدد الجماعة ، والنظر الى الأمة من هذه الوجهة يقضى على الاعتقاد بأنها وحدة قائمة لا تلتئم مع غيرها ، ويقوى الأمل فى أن تتحد الأمم فى المســـتقبل مع احتفاظ كل منها بتلك المشخصات المحلية ، لتكون جميعا نواة الدولة العـــالمية ·

علم السياسة عند العرب

لم يكن لعرب الحجاز فى الجاهلية بصر بالعلوم المدونة ، ولكنهم كانوا فى حالة اجتماعية متقدمة ، وحالة فكرية راقية ، يشهد بها رقى اللغة العربية ، ويشهد بها تهيؤ العرب لفهم القرآن الكريم ، وكانوا ذوى نظام سياسى محكم يوافق حياتهم نصف المتبدية ، وكان أشرافهم يتغنون فى أشعارهم بحسن الرأى وتدبير الأمور وسيادة العشيرة ، ومن أحسن ما وصل الينا من ذلك قول الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة اذا جهالهم سادوا

تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحت ... فان تولت فبالأشرار تنقاد

فلما جاء الاسلام خطا العرب فى نضجهم السياسى خطوة فسيحة ، اذ كانت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته وخلفائه أمثلة عليا فى الحكم ، ووسع القرآن الكريم من روائع الأحكام وجوامع الكلم ما وسع افق العقلية العربية ، وحث على استصلاح أمور الرعية ، ثم اطلع العرب على نظم الروم والفرس ، ودرسوا التراث الفكرى لليونان والهنود وغيرهم من الأمم الخالية ، ولما نشطت الحركة الفكرية اشتغلوا باستنباط الأحكام من القرآن والسنة ، كما اشتغلوا بالفلسفة والمنطق ، وعالجوا السياسة فيما عالجوا من بحوث ، وقد اجتمع لهم من تراثهم الفكرى الحافل مادة غزيرة للبحث .

ففى القرآن الكريم آيات كثيرة تتعلق بسياسة الرعية كان يلجأ اليها الباحثون فى السياسة الاسلامية ، كقوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** » وقوله : « **وشاورهم فى الأمر** » وقوله : « **الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** » ومن الأحاديث التى جرت فى غضون الأبحاث السياسية قوله عليه الصلاة والسلام : « **الأئمة من قريش** » وقوله لعلى رضى الله عنه فيما روى : « **أنت منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبى بعدى** » ومن حكمه الاجتماعية البالغة قوله : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا** » وقوله : « **كلكم راع**

وكل راع مسئول عن رعيته » وقوله : « عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ستين سنة » .

وكانت خطب الخلفاء الراشدين ووصاياهم وكتبهم الى العمال والقواد والقضاة نماذج من حسن السـياسة ، ومنها كتاب أبى بكر الى عمرو ابن العاص اذ وجهه الى فلسطين وكتاب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، وكتاب على بن أبى طالب الى الأشتر النخعى اذ ولاه مصر . وتتابع الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس فكان لهم فى الحكم ابتداعات ومآثر ، فكان معاوية اذا اراد أن يولى رجلا عملا بدأ فولاه الطائف ، فان أجاد العمل ضم اليها المدينة . وقال الوزير ابن الفرات سمعت أبا العباس أخى يقول : من اسـتقل ببادوريا استقل بديوان الخراج ، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة .

وأنجبت الدولتان العباسية والأموية طائفة كبيرة من حذاق الولاة والقادة ، والوزراء والكتاب ، أثرت عنهم غرر من الحكم السياسية ، ومنهم زياد بن أبيه ، والحجاج ، وعبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، والبرامكة ، والفضل والحسن ابنا سهل ، وطاهر بن الحسين وابنه عبد الله ، ويفضل « موير » فى كتـابه عن الخلافة زيادا على الحجاج ويعده أعظم رجل سياسى فى عصره ، وقد رويت عنه آثار سياسية منها خطبته البتراء المشهورة ، ومنها قوله : « ملاك السلطان أربع خلال : العفاف عن المال ، والقرب من المحسن ، والشدة على المسىء ، وصدق اللسان » .

وكتب طاهر بن الحسين عهدا الى ابنه عبد الله تدارسه الناس وبلغ أمره المأمون ، فاشتد اعجابه به ، وأمر فارسل الى أنحاء البلاد ، وهو طويل ، ومنه يقول : « واعلم أن الأموال اذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر ، واذا كانت فى اصلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنفعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الاسلام وأهله » ، وهو مبدأ يقول به علم الاقتصاد الحديث ويؤيده .

ومما تدوول بين المسلمين من حكم الفرس السياسية ، كتاب ابرويز من السجن الى ابنه شيرويه : « اعلم أن كلمة منك تسفك دماء وأخرى تحقن دماء ، وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه ، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه ، وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك ، فاحترس فى غضبك من قولك أن يخطىء ، ومن لونك أن يتغير ، ومن

جسدك أن يجف ، فان الملوك تعاقب حذرا وتعفو حلما ، واعلم أنك تجل عن الغضب ، وأن ملكك يصغر عن رضاك ، فقدر لسخطك من العقاب كما تقدر لرضاك من الثواب » ٠

واطلع العرب كذلك على كتابات يونانية فى السياسة منها كتاب «الجمهورية» لأفلاطون الذى كان له عظيم الأثر فى فلاسفتهم ، وكتاب فى الحكم السياسية لأرسطو سموه « السياسة » نقله حنين بن اسحاق ، وجرت على أقلامهم حكم كثيرة لأرسطو وسقراط وزينون وغيرهم ، منها نصيحة أرسطو فيما قيل الى تلميذه الاسكندر حين خروجه لغزو الشرق : « املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها ، فان طلبك ذلك باحسانك أدوم بقاء منه باعتسافك ، واعلم أنك انما تملك الأبدان ، فاجمع لها القلوب بالمعروف ، واعلم أن الرعية اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم أن تفعل » ٠

وعلى هذا الكلام وأمثاله من مسحة الحكم الملكى الفردى ما يشكك فى نسبته الى أرسطو الاغريقى ، والحق أن المسلمين كما لم يتعمقوا فى درس الأدب اليونانى لم يتعمقوا فى درس النظم الحكومية اليونانية ، ولم يأخذوا عن اليونان فى هذا الباب بعض ما أخذوا عن الفرس ، لأسباب: منها بعد ما بين المشربين ، واستغناء العرب بما عندهم من الأحكام متمثلا فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وكون النظم الاغريقية القديمة قد بادت واندثرت ، وحلت محلها فى بلاد اليونان ذاتها دولة ملكية مستبدة هى الدولة البيزنطية الشرقية الصبغة من وجوه كثيرة ، على حين كانت نظم الفرس الحكومية ماتزال قائمة المعالم والرســـوم ، وقد استولى المسلمون على بلاد الفرس جميعا ، واستقروا فى حاضرتها واختلطوا بالفرس أعظم اختلاط ، وساهم الفرس فى انشاء الدواوين الاسلامية ، وشاركوا فى انشاء الدولة العباسية ٠

من ذلك التراث الفكرى المتشـــعب استمد الكتاب مادتهم حين انصرفوا الى التاليف النظرى فى السياسة ، فانشعبوا فرقا حسب نصيب كل منهم من ذلك التراث ، وحسب اتجاه حياتهم العملية ، فهناك المؤلفون الذين عالجوا الكتابة أو الوزارة أو الولاية قبل توفرهم على البحث العلمى ، فجاءت كتابتهم عملية المنحى ، ومنهم عبد الحميد الكاتب ، وعبد الله بن المقفع ، ونظام الملك ، وابن خلدون ، وعبد الحميد وان لم يتعمد الكتابة فى علم الســـياسة فان فى كتبه كثيرا من مبادىء هذا الموضوع ، ومنها كتابه الى ولى عهد مروان الثانى ٠

ثم كانت هناك طبقة ثانية هى طبقة الفقهاء الذين درسوا علوم الدين ، وبحثوا فى الخلافة عقب بحثهم فى علم الكلام ، ومن أشهرهم ابن حزم الأندلسى صاحب كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » والماوردى صاحب « الأحكام السلطانية » وفيه يستعرض تاريخ البيعة لأبى بكر وغيره من الراشدين • ثم يذكر شروط الخلافة التى يجب توفرها فيمن يترشح لها ، ثم يتكلم على واجبات الخليفة الدينية والدنيوية •

ثم كانت هناك طبقة الفلاسفة الذين تشربوا حكمة الاغريق وفتنوا بجمهورية أفلاطون ، فتداولوا فكرة الدولة المثالية ، ومنهم الكندى والفارابى وابن باجه وابن رشد واخوان الصفا ، ثم كان هناك أدباء ومفكرون متفرقون ، وكثير منهم يمت الى المعتزلة ، صنفوا فى هذا الموضوع ، وسارت بعض حججهم على ألسنة الفقهاء والباحثين من بعدهم ، وخير ممثل لهذا الفريق الجاحظ الذى كتب فصولا فى استحقاق الامامة ، وفى حجج النبوة ، وفى بنى أمية ، وفى فضل هاشم على عبد شمس وهلم جرا ، ويمتاز كلامه ككلام المعتزلة بحرية الرأى واستعمال القياس والبرهان •

وهناك كتاب وأدباء خلطوا الأبحاث السياسية بغيرها من الموضوعات فى كتبهم أدبية كانت أو تاريخية ، لأن كثيرا من العلوم كانت ماتزال سديما مختلطا لم يتميز كل منها بنفسه ، ويستقل بمباحثه ، فجاء كثير من الأبحاث السياسية مشتتا فى كتب ، كالأدب الكبير لابن المقفع ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والفخرى لابن الطقطقى •

وابن المقفع أول من عنى بالكتابة فى سياسة الملك مستقلة عن غيرها ، متميزة بذاتها ، اذ كان ينتمى الى دولة فارس ذات المجد التليد ، والمغلوبة على أمرها لعهده ، ونشأ فى بيت ذى صلة بالسلطان ، اذ كان أبوه عاملا للحاج ، والتحق هو نفسه بالأعمال ، وكان فى آخر حياته كاتبا لعيسى بن على العباسى ، وكان صديقا لعبد الحميد • وشهد زوال الدولة الأموية وحلول العباسية محلها ، ومن ذلك كله كان ابن المقفع شديد التفات الذهن الى أمور السياسة •

فنقل ابن المقفع كثيرا من قصص الفرس وتواريخهم ونظمهم ، وترجم خاصة كتابة «كليلة ودمنة» الذى يزخر بمسائل الحكمة والسياسة ، ويحتل

الأسد فيه مكان الملك ، اذ كان ابن المقفع على الأرجح يخشى التصريح بما يخامره من نظرات سياسية ، حتى خطا خطوة أخرى نحو الصراحة ، فنبذ ذلك الأسلوب « الحيوانى » وتكلم عن « السلطان » كلاما صريحا فى أول كتاب الأدب الكبير ، ويبدو من فقراته أن ابن المقفع كان ينتزع أحكامه من عصره الحاضر ، ويقصد بخطابه السفاح أو المنصور ، اذ يتكلم مثلا على الدولة الجديدة العهد ، والسلطان المعتمد على أقوام قد لا يثق فى اخلاصهم ، وكلامه هناك قسمان : أحدهما فى الصفات التى يجب أن يتحلى بها السلطان والآخر فى الصفات التى تجب لمصاحبه من وزير أو كاتب أو مناصح .

ثم خطا ابن المقفع الى الصراحة خطوة أخرى ، فخاطب المنصور فى كتابه « الصحابة » رأسا لم يكن بالأسد ، ولم يعبر بلفظ السلطان ، وهو يوصيه فى ذلك الكتاب بحسن اختيار صحابته ومشيريه . لما يترتب على أخلاقهم من اصلاح الأمور أو فسادها ، ويلفت نظره الى اضطراب أحوال الخراج . ويدعوه الى توحيد نظم الدولة المالية حسب الكتاب والسنة ، والى توحيد النظم القضائية أيضا ، والى تحسين حال الجند وتعليمهم ، والفصل بين الجندية والادارة ، وكان ابن المقفع فى كل ذلك معبرا عن شعور سائد فى عصره ، وبهذه الأمور اهتم المنصور فعلا واهتم خلفاؤه من أوائل العباسيين ، وكان من نتيجة ذلك ظهور كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف والموطأ للامام مالك .

وقد كانت الخلافة أول موضوع اختلف فيه المسلمون وتفرقوا فرقا بين شيعة وسنية ومعتزلة وخوارج ، وقد تناول الخلافة بالبحث فقهاء منهم ابن حزم الأندلسى ، والبيرونى ، ونظام عروضى ، وشهاب الدين سهراوردى ، فعالجوها على العموم من تسعة وجوه : بحثوا فى هل هى انتخابية أو وراثية ، وجمهورهم على أنها انتخابية ، وبحثوا فى الخلاف الذى وقع بين الصحابة عند انتخاب أبى بكر ، ثم فى أواخر عهد عثمان ، والسنيون يرون صحة انتخاب الراشدين والحسين بن على رضى الله عنهما ثم معاوية بعده .

ثم أفاضوا القول فى واجبات الخليفة ، وتحدثوا عن ولاية العهد ، وهل يجوز للخليفة أن يعهد الى من بعده ، واستعرضوا ما كان من ذلك فى عهد الراشدين ، وجوزوا للخليفة أن يعهد متى كان محمود السيرة ، وعلى أن يستشير أولى الرأى ، فان جار الخليفة وبدل وجب عزله .

أما الفلاسفة فكانوا لا يقصرون القول على البحث فى رئيس الدولة الأعلى ، بل يبحثون في الدولة جميعا على طراز مثالى أفلاطونى ، جاء فى كتاب « عيون الأنباء وأخبار الحكماء » أن الفارابى فى كتاباته « وصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة ، واحتياج المدينة الى السيرة الملكية والنواميس النبوية ، ثم انه أتى على العناصر المختلفة المكونة للطبيعة البشرية وخواص النفس ، وبين الفرق بين الوحى والحكمة ، ووصف الهيئات المنظمة والجماعات غير المنظمة » ٠

وألم ابن باجه بذلك الموضوع فى كتابه « تدبير المتوحد » وفيه يقول : « ومن علامات الحكومة الفاضلة ألا يكون بها أطباء وقضاة ، فان أهل المدينة الكاملة ليسوا فى حاجة الى المداواة ، لأنهم لا يتناولون من الغذاء الا ما يوافقهم ٠٠ أما الاستغناء عن القضاة فلأن العلاقات بين أبناء البلد يكون أساسها المحبة ، فلا يقع الخلاف بين الأصدقاء ، ثم ان الحكومة الفاضلة كفيلة بأن يبلغ الفرد فيها أرقى ما يمكن بلوغ الفرد اليه من مراتب الكمال » ٠

وافرغ ابن الطفيل فلسفته فى قالب قصصى ، فكتب قصة « حى ابن يقظان » وفيها يذكر أنه علم من السلف الصالح أن جزيرة من جزر الهند التى تحت خط الاستواء ، وهى الجزيرة التى يتولد فيها الانسان من غير أم ولا أب ، تكون بها الحرارة شديدة بسبب الحركة وملاقاة الأجسام الحارة والاضاءة ، ثم يصف كيف تولد بطله بها ، وكيف نشأ وحيدا ثم تعلم بالتجربة كيف يتغلب على الحيوان ، ويسود الطبيعة ، ويلتفت الى فهم الوجود ، والتفكير فى الخالق ، وهى طريقة فى البحث تلتفت من جهة الى التراث الفكرى الاغريقى ، وتسبق من جهة أخرى البحث الأوربى الحديث ٠

ولابن رشد كذلك آراء فى الحكومة الفاضلة ، وهو يرى أن الحكومة الاسلامية لعهد الراشدين كانت على نظام جمهورية أفلاطون ، ولكن معاوية هدم نظامها وأتلف جمالها بأن ردها ملكا عضودا ، وكان من وراء ذلك انتشار الفوضى فى بلاد الاسلام ، ويرى ابن رشد أن المرأة تستطيع القيام بكل ما يقوم به الرجل ، ويرثى لحالها فى المجتمع الاسلامى ، حيث تعيش عالة على الرجل فيتعطل ثلثا الجماعة

أما ابن خلدون فقد جمع بين مزايا كل من ذكرنا من الكتـــاب السياسيين ، كان كابن المقفع من رجال العمل اذ تقلب فى شتى الوزارات

فى أفريقيا والأندلس ، وكان فقيها فى الدين ، تولى القضاء بمصر أعواما ، وكان محيطا بالفلسفة اليونانية وان تنكر لها فى أواخر أيامه ، ووعى ابن خلدون تراث الدولة الاسلامية التى بلغت لعهده غاية رقيها وبدأت فى الانحلال ، فجاءت كتاباته فى السياسة والعمران فى مقدمته فريدة فى بابها .

عقد فى المقدمة فصولا فى الخلافة تناول فيها مسائلها المعهودة ، فكان أحيانا يكرر ما قال سابقوه وأحيانا يخالفهم ويزيد أو ينقص ، وينفرد عنهم بالبرهان المبتكر ، وهو يرى كما يرون أن القوانين السماوية خير القوانين ، يقول : ان صـــلاح البشر رهن بقيام قوانين تعين الحقوق والواجبات « فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياســة عقلية ، واذا كانت مفروضــة من الله بشــارع يقررها ويشرعها ، كانت سياســة دينيــة نافعة فى الحيـــاة الدنيـــا والآخرة » .

فالملك عنده ثلاثة ضروب : الملك الطبيعى ، والملك السياسى ، والملك الدينى . فالطبيعى هو ما يعبر عنه كتاب العصور الحديثة « بالحالة الطبيعية » حيث تسود الفوضى ويتحكم القوى . والسياسى هو الذى تدبره قوانين أرضية وضعها عقلاء الأمة كما كانت الحال عنـــد الفرس الأقدمين . والدينى هو الذى يقوم على أســـــاس من دعوة دينية أى نبوة ، ويتبع النبى من بعده خليفة ، وهذا الأخير أحســـــن الأنواع وأرقاها .

على أن ابن خلدون لم يقتصر على النظر فى المجتمع الاسلامى ، بل نظر الى الجماعة البشرية بأكملها ، فرأى أن البشر على اختلاف أجناسهم نوع واحد ، يخضعون النواميس طبيعية خاصة ، وهذه النواميس هى التى تؤثر فى أبدانهم وسحناتهم ومجتمعاتهم وصناعاتهم ، وأهم العوامل المؤثرة فى كل ذلك الاقليم والمناخ والدين ونظام الحكم ، وكان يرى كغيره من علماء المسلمين متابعة لأرسطو ، أن الانسان مدنى بالطبع وأن الغرض من المجتمع هو مصلحة الفرد ، واذا قام المجتمع مر بثلاثة أطوار : البدوى والغزوى والحضرى .

فيكون المجتمع فى أول أمره قبيلة متبدية تدفعها أخلاقها البدوية القوية الى غزو جيرانها ، والاستقرار فى بلادهم ، وترقى فى معارج الرقى ، وتزدهر بينها الحضارة والثقافة ، ثم يفسدها لين العيش ، وتستسلم

للذات ، وتأخذ فى الانحلال ، فيطمع فيها جيرانها المتبدون ، وتبدأ الدورة من جديد ٠

ليس ابن خلدون أعظم مفكر سياسى فى الاسلام فحسب ، بل هو فى مقدمة مفكرى العالم وأشدهم ابتكارا ، وهو اذا قوبل بكتاب السياسة المحـــدثين ، كمكيافيلى ومونتسكيو وهوبز ، لم يقصر عنهم ، بل فاقهم سعة مجال فى البحث وشمول نظرة ، وله عليهم فضل التقدم فى الزمن ، والتفرد بين أبناء جيله ، بل بين أمته جميعا ، على حين كان أولئك الكتاب يستمدون مادتهم من حركة فكرية عامة ، لم يكونوا الا بعض المعبرين عنهـــا ٠

وجملة القول أن العرب قد بلغوا شأوا بعيدا فى السياسة العملية ، وغاية عظيمة من البحث فى السياسة النظرية ، وكما شادوا فى الشرق والغرب دولا زهت فى أكنافها الحضارة ، وأنجبت عظماء الملوك والولاة والقواد والوزراء ، كذلك ناقشوا شتى مسائل السياسة فى كتاباتهم من واجبـــات السلطان وحقوقه ، وواجب الرعيـــة نحوه ، ووسائل سعادة المجتمع ، واستقرار الدولة ، كما بحثوا فى أطوار الأمم والدول عامة ، وخصـــوا بعنايتهم الخـــلافة ، وهى النظـــام الخاص بهم الممتزج بتـــاريخهم ٠

قصة المرأة فى المجتمع

أثبت العلم الحديث فى منتصف القــرن الماضى ، أن للمرأة من النصيب فى تكوين الجنين مثل ما للرجل ، وكان الاعتقاد قبل ذلك أن الرجل هو الذى يستقل وحده بذلك العمــل ، وأن المرأة ليست الا « ماعونا » يحافظ فيه على جراثيم اللقاح حتى تنمو وتتطور ، وكان لذلك الكشف أثره فى رفع منزلة المرأة الى قدم المساواة مع الرجل ، وبهذا وذاك أثبت العلم ما هناك من وجوه التماثل وما هناك من وجوه الاختلاف بين الرجل والمرأة ، وبين الوجوه التى يرجع الاختلاف فيها الى الطبيعة المفطورة ، وما يرجع الى تأثير المدنية والعادات والتقاليد الخاطئة ، فأبدى أن المرأة ليست منحطة عن الرجل كما اعتقد الانسان الى زمن قريب ، كما بين أنها ليست مماثلة للرجل فى كل شىء ، قادرة على محاكاته فى كل عمل اذا منحت مثل تعليمه كما ادعى بعض أنصار الحركة النسوية الحديثة ٠

لم يفهم الانسان الأول أن الاختلاف الجنسى ان هو الا تقسيم لعمل الطبيعــة فى المحافظة على النوع وترقيته ، بل حكم بالظواهر التى تبدو لعينيه ، فقد رأى الرجل المرأة أضعف منه بنية ، فكانت تلك أول خطوة فى سبيل اعتبارها أحط منه ، والانسان بطبعه نزاع الى اعتقاد التفوق فى نفسه على غيره ، فأرضى تعاليه على المرأة وغروره ، ثم رأى ما يعتام المرأة من طمث ومن حمل ووضع ، وما يخامرهــا من أطوار دورية جسـدية ونفسية، فاعتبر المرأة مخلوقا دنسا يتجنب وتضرب حوله أنواع التبو(١) أثناء زمن الطمث والوضع وبعده ، ثم رأى ما يجذبه نحوها رغم ذلك من ميل جنسى ، وأدرك ما يحل به بعد الافراط فى علاقته بها من خور وقنوط — وقد كان الانسان الأول بالطبع لا يعرف الاعتدال — فاعتبر المرأة كائنا مريبا خطرا ، يجب على الرجل الحذر منها وعزلها والابتعاد عنها بقـدر الامكان ٠

فالمرأة فى المجتمع البدائى تكدح كثيرا وتقيد حريتها كثيرا ، ولكنها

(١) المحرمات الدينية ٠

ليست من الشقاء بحيث يتصور الانسان المتمدين ، لأنها من جهة متعودة ذلك الوسط الذى تحيا فيه ، مؤمنة بأن منزلتها هي حيث يضعها الرجل ، بل حيث تضعها عقائدها الدينية التى تعتنقها ، ولأنها من جهة أخرى حائزة لشرطين كبيرين من شروط السعادة ، كثيرا ما تحرمهما المرأة المتمدينة التى قد تعد نفسها أسعد حالا من أختها المتوحشة ، فالمرأة المتوحشة تعمل دائما كما يعمل الرجل وان اختص كل منهما بعمله ، والعمل يكسبها صحة كثيرا ما تعوز أختها المتمدينة ، ويحميها السأم الذى كثيرا ما تشكوه المرأة المتمدينة وتعانى المرض بسببه ، وينيلها مكانة اجتماعية محدودة لم تكن لتطمع فيها لو أنها كانت عالة على المجتمع لا تعمل شيئا .

ثم ان المرأة الهمجية تؤدى وظيفتها الطبيعية التى هيئت لها ، والتى من أجلها كان الاختلاف كما تقدم القول بين الجنسين ، وظيفة التناسل ، فهى دائما زوج وأم ، فالمرأة الهمجية تتزوج حالما تراهق ، والرجل والمرأة معا يسعيان لاحراز الأطفال حالما يخرجان هما عن طور الطفولة ، والعزوبة والعقم عاران لاينالان عند المتوحشين الا الاحتقار والاذلال ، ولا ريب فى أن قيام المرأة بتلك الوظيفة المهمة فيه صحة لجسدها وراحة لنفسها ، على حين تقل نسبة الزواج فى المجتمعات المتحضرة لشتى الأسباب ، فهى فى انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وغيرها من الأمم المتحضرة اليوم تتراوح حول الخمسين فى المائة من الفتيات والنساء البالغات مبالغ الزواج .

واعتقاد الخصوبة فى المرأة ، هو مرجع قيامها وحدها فى بعض الجهات كبلاد أورينو فى أمريكا بكل أعمال الحقول ، لأن الغرس الذى تغرسه المرأة يتضاعف محصوله ، وهذا الاعتقاد أيضا سر ظهور المرأة فى بعض المجتمعات المتأخرة ونيلها جانبا عظيما من السلطة ، رغم الاعتقاد آنف الذكر بدنسها ، وهكذا لا نرى أن مكانة المرأة تتحسن فى مجتمع لدعوة خلقية أو مثالية تعمه ، بل بمقدار ما يعتقد المجتمع فيها النفع . ومن أمثلة رقى مكانة المرأة بين البدائيين ما تتمتع به بين قبائل « الخاسى » فى أنام من سلطة فى الأسرة وفى المجتمع ، فتلك قبائل تزرع الأرز وتحتفى كل الاحتفاء بانتشار الخصب وانعدام الجدب ، وهناك تعد الأم رئيسة الأسرة ، وهى التى تمتلك الأملاك وتورثها ، وهى التى تتولى أهم الشعائر الدينية ، والأرواح الخيرة والشريرة التى يعتقد بها اولئك القوم معظمها اناث ، وقد كانت الحضارات الكبيرة القديمة تقوم على أساس من الزراعة فى وديان النيل ودجلة والفرات والسند والكنج ، وفى آسيا الصغرى وبلاد اليونان والرومان ، فكانت للمرأة فى معظم هذه البلاد مكانة عالية اذا قيست بما كانت عليه فى غيرها ، كانت كبيرة الالهات كما تقدم القول

الهة الخصوبة ، وكان يحتفل بها كل عام احتفالا تشارك النساء فى الكثير من شعائره • وتبدى لنا قوانين حمورابى كما تبدى لنا نصائح الحكيمين المصريين « آى » و « بتاح حتب » أن مكانة المرأة فى بابل ومصر كانت أعلى وحريتها كانت أوفر مما كانت عليه فى كثير من العصور التالية •

فقد كانت المرأة فى مصر القديمة ــ كما يتجلى فى الآثار ــ سافرة تشارك فى الأعمال ، وكانت هى المالكة للأملاك فى الأسرة ، حتى كانت الملكة تعد صاحبة أرض مصر ، ولا يعد الملك الا الأمير المتزوج من الملكة ، ومن هنا نشأت عادة تزوج الأخ أخته محافظة على أملاك الأسرة • وفى كلتا مصر وبابل كان التزوج بواحدة هو القاعدة ، وكانت المرأة البابلية مساوية للرجل فى معظم الحقوق ، وكان لها أن تحترف المحاماة والقضاء ، وتكون فى المحلفين والكتبة ، فكانت منزلتها أعلى من بعض الوجوه من منزلة المرأة الانجليزية أو الأمريكية فى القرن الماضى ، مع أن حمورابى حكم فى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد •

بيد أن من عجائب التاريخ أن البلد الذى سطعت فيه الحضــارة القديمة أزهى ما سطعت ، وهو أثينا أو بلاد الاغريق عامة ، كانت مرتبة المرأة فيه شديدة الانحطاط ، تنحط فى بعض الوجوه عنها بين البدائيين فان الحضارة الاثينية كانت تقوم على استخدام العبيد ، فهؤلاء وفروا على المرأة العمل ، وقد رأينا أنه على قدر ما تعمل المرأة وتفيد المجتمع ترقى مكانتها ، ووفر العبيد العمل على الرجال أيضا ، فتوفر هؤلاء على أعمال الحرب من جهة ، وعلى البحث الفكرى الذى شغف به الأثينيون ، ومن هذين العملين حرمت المرأة ، فلا هى تجالد يوم القتال ولا تجادل يوم البحث والمناظرة •

انما كان المثل الأعلى للعقيلة التى يرضاها الاثينى العادى امرأة طيبة تقية غير متعلمة تحتجب فى دارها ترعى أبناءهما ولا تبرز فى المجتمعات، وكان الأثينى يمقت المرأة التى تحب أن تبدى لنفسها شخصية متميزة ، أو تشارك فى الأعمال العامة • وقد ذكر بركليس فى خطبته الرثائية أن خير امرأة من لا يدور ذكرها بين الرجال بخير ولا شر ، وكان أهل أثينا لنزعتهم تلك الجامدة يتهكمون بنساء اسبرطة ورجالها ، حيث كانت المرأة الاسبرطية تعد قرينة الرجل فى كل شىء ، تمارس من الألعاب الرياضية مثل ما يمارس ، وتشارك فى الأعمال العامة ، وتغشى المحافل والأسواق عارية أو نصف عارية ، تباهيا بكمال تكوينها ، وحثا لغيرها على احتذاء

مثالها ، اذ كانت اسبرطة أمة حربيين لا هم لهم الا انجاب نسل قوى صحيح الأبدان ٠

واذ كان الأثينى يكره أن تكون للمرأة شخصية يتحدث عنها . أحنقه من يوريبيدس توفره على دراسة الشخصيات النسوية فى دراماته ، قال يوريبيدس على لسان احدى النساء فى رواياته : « نحن النساء أتعس الكائنات ذوات الحياة والحس ، علينا أن نشترى بالذهب زوجا هو فى الوقت نفسه ــ وا أسفاه ــ مالك نفوسنا ، وعلى خلقه ساء أو حسن يتوقف مستقبلنا ، لأن الطلاق يعد عارا على المرأة ، ولا تستطيع المرأة التبرؤ من بعلها ، وحين تلقى نفسها وسط أخلاق وعادات جديدة غريبة عليها ، نعوزها ملكة التنبؤ ــ ان لم تكن قد لقنت فى دارها ــ لتعلم خير الطرق لمعاملة حليلها ، واذا أفلحنا فى استبقاء أمانة أزواجنا لنا فلم يفروا منا ، عددنا انفسنا فى زمرة السعداء ، والا فليس هناك الا الموت ، والرجل اذا مل المقام بداره أمكنه أن يخرج ليرفه عن نفسه بين أصدقائه ومعارفه. أما نحن فليس لنا من نتوجه اليه سواه ، وهم يقولون لنا اننا نحيا حياة وادعة فى بيوتنا ، بينا يذهبون الى الحروب ، ولكن هذا هراء ، فانى أوثر ان أخوض الوغى مرتين على أن أحمل طفلا مرة واحدة » ٠

وكانت منزلة المرأة الرومانية فى العصور الأولى منحطة جدا حيث كانت تعد فى نظر القانون قاصرا يتولى رعايتها أبوها ثم زوجها ، وتعد فى نظر القانون اذا ما تزوجت ابنة لزوجها ، ولا تشارك فى الأعمال ولا تقبل منها شهادة ، ولكن تلك المنزلة ارتقت بتوالى الأيام ، واما عدل نص القانون الجائر واما تحويل عليه ، حتى نالت المرأة الرومانية تمام حريتها وحتى شاركت فى الأعمال والسياسة ، وكان لها أثر عظيم فى انشاء كبار رجال روما ، ويقدم التاريخ الرومانى حفلا حافلا من أسماء الفضليات من النساء ، على حين يخلو التاريخ الاغريقى من مثيلاتهن ، ومن أولئك كورنيليا أم ثلاثة من زعماء العامة فى صراعهم ضد الأشراف ، يعرف كل منهم باسم جراكوس ، قامت كورنيليا على تربيتهم حتى ترشحوا لتلك الزعامة ، ثم كانت هى الدافع لنشاطهم ، فلما قتلوا واحدا بعد واحد فى الأحداث الهوجاء التى كانت تتوالى ، اذ ذاك فى روما ، انحازت أمهم الى الريف وقد أسنت ، حيث توفرت على الأدب ، وغدا منزلها الريفى صالونا يؤمه الأدباء ٠

لقد كان تاريخ المرأة فى مجتمعات الحضارات القديمة اطرادا لحياتها فى البيئات البدائية ، قد هذب من حالها رقى الثقافة وانبساط

العمران ، وأدى ارتقاء الثقافة والحضارة الى ارتقاء النظرة اليها بعض الارتقاء ، ولكن الحضارة ذاتها تجلب مشاكل في حياة المرأة لا تعرفها المجتمعات الهمجية ، فبينما الديمقراطية تكاد تسود في المجتمع البدائي حيث تكاد تتساوى جميع النساء في المنزلة والأعمال ، تظهـــر الطبقات المتفاوتة في المجتمع المتحضر ، وتختلف النساء بين مرهقة بالعمل وبين مترفة لا تعمل ، ويزداد الاغراق في التمييز بين عمل الرجل الخاص به وعمل المرأة الذى تتوفر عليه ، ويقل نصيب المرأة من العمل على العموم ، ويزداد نصيب الرجل ، اذ تنشط العلوم والفنون ويختص بها الرجل ، ويجد فيها شاغلا عن الحياة الزوجية ، وتظهر آفة لا تعرف على الاطلاق في كثير من المجتمعات البدائية ، هى آفة البغاء الذى تؤدى اليه الأحوال المعقدة في المجتمع المتحضر ٠

كان احتفاء الوثنيين القدماء ــ في كل من المجتمعات المتوحشـــة والمتحضرة ــ بخصب الأرض وازدهار النماء ، داعية ارتفاع لقدر المرأة كما تقدم القول ، اذا اتخذت رمزا لكل ما في الطبيعة من مظاهر الكثرة والوفرة ، فلما جاءت ديانات التوحيد المنزلة فقدت المرأة تلك الميزة وان كسبت غيرها :اذ أن ديانات الوحدانية قضت على كل ما كان قبلها من آلهة خرافيـــة ومن عبادة لمظـاهر الطبيعـــة ، كما أن الوحدانية خرجت من الصحراء فجاءت دياناتها داعية الى التقشف والاعتدال ، على حين كانت العبادات القديمة تتســم حفلاتها بالقصف والعربدة ، ولخروجهـــا من الصحراء جاءت من جانب قوم لا يألفون الزراعة ولا يرون في المرأة رمزا للخصب ، وانما يرونها عبئا في الحل والترحال ٠

لذلك كانت المرأة في بلاد اليهود ترسف في قيود شديدة الوطأة ، والتراث الأدبي اليهودى حافل بقصص كقصة شمشـــون تصف خديعة المرأة ووجـوب الحــذر منها ، وأثرت عن حكماء اليهود أقوال في ذلك كقول سليمان الحكيم : « المتعلق بحبال امرأة كالقابض على حيـة » ، وفي التوراة والانجيل تشديد للنكير على المرأة التى انخدعت للشيطان وجرعت زوجها غصص حوبتها ، وكان آباء الكنيسة الأولون شـــديدى التقييد لحركة المرأة ، وللقديس بولس كتابات كثيرة في هذا الصدد ، قال من بعض رسائله : « أريد اذن أن يتحلى النساء بمحتشم الثياب في حياء واعتـــدال ، فلا تطريز ولا ذهب ولا لآلىء ولا فاخر زينـات ، انما يتحلين بصالح الأعمال التى هى جديرة بالنساء الصالحات ، وللمرأة أن تتعلم في خشوع وخضوع ، ولكنى لا أسمح لامرأة أن تتولى التعليم أو تستبد بالأمر دون الرجل ، انما عليها أن تلزم السكينة ، لأن آدم خلق أولا ثم

خلقت حواء ، ولم يخدع آدم وانما خدعت المرأة فغوت ، على أنها ستكفر عن خطيئتها بقيامها بالنسل ، اذا هي تابعت سبيل الايمان والبر والصلاح والاعتدال » ·

ومن ثم نرى في أوربا في العصور الوسطى أن المرأة تزدرى ويرتاب في شأنها ويحجر عليها ، ونرى الكنيسة تثبط الزواج وتدعو الى ترهب النساء في الأديرة ، وعدل القانون الروماني فمحيت الفروض التي كانت مفروضة على العزوبة ، وقام القانون الكنسي بجانبه يقيد الزواج بقيود ترمي الى الحد منه ، فحرم الطلاق لسبب من الأسباب ، وحرم التزاوج بين كثير من الأقرباء ، وجعلت كل امرأة في حل من التخلي عن بعولتها وان كره زوجها ، لتلجأ الى الدير وتكون « زوجا للمسيح » ، وكانت الكثيرات يؤثرن اللجوء الى حياة الرهبنة تلك ، فرارا من عالم يعج بأسباب الشقاء للمرأة ، فقد كانت زوج الفارس أو الشريف المقيمة في القصر تقضي حياتها سئمة من فراغها المطلق من كل عمل ، ومن جهل زوجها وأقربائها الذين لا عمل لهم ولا حديث الا الحرب وسفك الدماء · أما المرأة العامية فكانت مملوءة المخيلة بأشباح الشياطين التي أوقع رجال الدين في نفسها أنها تعمل دائما على اغوائها ، كما كانت تتوجس دائما من خطيئتها الأبدية لكونها امرأة ·

وقد لقيت المرأة العربية في بعض القبائل بلاء كثيرا وعنتا في عصر الجاهلية ، فكانت تعد عبئا وتكابد الوأد والسبي والابتذال ، فأصلح الاسلام من حالها ورفع من قدرها وعلت في صدره مكانتها وظهرت المرأة في عالمي السياسة والأدب · بيد أن الامعان في الحروب والتمادي في الفتوح والانهماك في الترف كلها أعداء لمكانة المرأة ، والجهل والخرافة عدوان لدودان لها أيضا ، فلما فشت بين العرب نتائج الحرب من ترف ورخاوة ، وانتشر التسري والغزل بالذكور في العصر العباسي وما بعده ، وران الجهل وتغلبت الأوهام والخرافات في العهود المتأخرة ، اشتد النكير على المرأة وهبطت منزلتها هبوطا سحيقا ، وأنحى عليها الشعراء وفيهم أبو العلاء بقوارص الكلم ، ولم يرتفع بالدفاع عنها والتنبيه الى سامي وظيفتها في المجتمع الا صوت ابن رشد ، الذي قال ان ثلثي المجتمع الاسلامي معطل لكون المرأة تحيا عالة على الرجل ، وقال بجدارة المرأة بمعالجة شتى الأعمال التي يعدها الرجل وقفا عليه ، وما ذاك الا لاستيعاب ابن رشد لكتاب « الجمهورية » ، الذي يضع فيه أفلاطون المرأة على قدم المساواة التامة مع الرجل ، وقد كان أفلاطون في ذلك كما كان في وجوه أخرى سابقا لعصره ·

ولما بزغ فجر الحضارة الحديثة في القرن الخامس عشر ابتدأت المرأة الأوربية تتنسم بعض الحرية وتتمتع ببعض الرعاية ، فشاركت في النشاط الفني الذي غمر أوربا منذ ذلك العهد ، وظهرت في سماء السياسة أسماء نساء قديرات كاليزابث ملكة انجلترا وكاترين قيصرة روسيا وكاترين دي مديشي في فرنسا ، وظهر أدب يتوخى رضاء المرأة يتمثل في عصر النهضة في كتاب يوفيوس ، للكاتب الانجليزي الاليزابثي ليلي (بكسر اللامين) ، وكتابات ستيل وأديسون بعد ذلك ، وكان تحسن مركز المرأة الاجتماعي مقرونا بظهور القصة الاجتماعية الحديثة ، وبها أولعت وفي مجالها برزت كثيرات من القصصيات ، وما زالت المرأة حتى مزقت كل الحجب التي أسدلتها عليها جهالات القرون الوسطى ، وبرزت الى المجتمع وشاركت في أعماله وضربت في التعلم والتعليم بسهم وافر ٠

بيد أن ذلك التقدم كان بطيئا جدا ، لأن عقائد العصور الأولى وأوهامها كانت شديدة الوطأة على العقول ٠ وظلت المرأة في أرقى البلاد الاوربية الى القرن الماضي تعد أحط من الرجل منزلة وتقام من حولها القيود والأسداد ، وظل كبار الكتاب على اعجابهم بأفراد هنا وهناك من نوابغ النساء ، يسيئون الظن بالمرأة ويدعون الى الحد من نشاطها ٠ والآراء المأثورة عن جونسون وروسو مثلا في هذا الباب تردد صدى عقلية الانسان البدائي ، بل رددت ذلك الصدى كاتبات كبيرات من نوابغ النساء انفسهن ، كالكاتبة الانجليزية حنا جراي ، التي حملت على أنصار الحركة النسوية الناشئة ، ومدام ستايل التي قرظت كتابات روسو الجائرة عن المرأة ٠

قال روسو فيما قال : « لقد خلق الرجل والمرأة أحدهما للآخر،ولكن اعتماد أحدهما على الآخر ليس من نوع واحد ، فانما يعتمد الرجال على النساء لارضاء رغباتهم ، بينما يعتمد هؤلاء على الرجال بحكم رغباتهن وضروراتهن معا ، ففي امكاننا أن نحيا بدونهن فوق ما يمكنهن الحياة بدوننا ٠٠ ومن ثم يجب أن يظل تعليم النساء دائما نسبيا دون تعليم الرجل ، فواجبات المرأة في كل العصور هي أن تنال رضانا ، وتكون نافعة لنا وتجعلنا نحبها ونقدرها ، وأن تعلمنا ونحن صغار وتعنى بنا كبارا وتمدنا بالنصح والسلوى وترد حياتنا مأنوسة محببة ، وهذا كله ما يجب أن تتعلمه في الصغر » ٠

وكان أول صوت ارتفع لتنفيد أمثال هذه العقائد والمناداة بحقوق المرأة في الوقت الذي بدأت فيه المناداة بحقوق الانسان ، صوت الكاتبة

الانجليزية ماري ولستنكرافت في أواخر القرن الثامن عشر ، فقد كتبت في ذلك كتابا قالت منه معلقة على الصـورة التى رسمها روسـو للمرأة المثالية في رأيه : « مثل هذه المرأة يجب اما أن تكون ملاكا واما أن تكون أتانا ، فاني لا أرى أثرا للطبيعة الانسانية من عقل أو شعور ، في هـذه الأجيرة الكادحة في دارها ، المفقود وجودها في وجود طاغية متحكم » .

لقد قاست الانسانية بلاء كثيرا من جراء جهل الانسـان وقصور عقليته في أزمنته الماضية . فقاست الشعوب بغى الطغاة المستبدين ، وذاق الرقيق صنوف الهوان على أيدي مالكيه ، ولقيت المرأة الويل والثبور في المجتمعات المتأخرة والجاهلة ، وعانى الأطفال العنت والارهاق من آبائهم ومربيهم بحجة احسان تنشئتهم ، وشقى الفقير بالغنى والعامل بالمالك والضعيف بالقوى ، ولكن العـلم هو الذى أنار سبيل الانسان خلال تلك الظلمـات ، وهو الذى بصر بمكانه في الكون ووظيفتـه وغرضه ، وخلصه من تحكم الوهم والخرافة ، وأراحه مما كان يكبل به نفسه من قيود ودواعي شقاء بلا مبرر ، فما ارتقى العلم في العصر الحديث حتى كفت سطوة المستبدين من الحكام ، وحرر الرقيق واستعمل الرفق في معاملة الطفل والعامل والمسجون والمريض ، وازيح عن كاهل المرأة أعباء موقرة من الارهاق والهوان والجهل والانحطاط .

على أن الخطوة الأخيرة في كل هذه الأبواب لم تخط بعد ، وأسباب البؤس والشقاء ماتزال كثيرة مستفيضة ، ومنزلة المرأة ولاسـيما بين الطبقات الفقيرة ما تزال في حاجة الى اصـلاح كبير ، ومسائل كثـيرة مما يتعلق بالمرأة ما تزال قائمة لم تحل بعد ، ونظرة الكثيرين الى المرأة ما تزال مصطبغة بصبغة عصـور الخرافة والوهم ، ومسـائل الجنس ما تزال كما كانت عند الانسان الأول موضع تحريم أو تبو ، الخوض فيها جراة على الآداب ، ويحمد تجنب بحثها ، وان كان في ذلك الجهل بحقائقها ، وهذا النفاق في أدب الجنس يسبب شقاء كثيرا لكلا الجنسين وللأسرة ، ولن تتم السعادة الجنسية والانسجام الاجتماعي ، الا يوم يزاح عن الجنس كل أثر من آثار الألغاز والأسرار ، ويماط عن المرأة ما خلعت عليها عصور الجهالة من قيود ، ولا يكون بينها وبين الرجـل من فرق الا الفروق التى أقامتها بينهما الطبيعة لغاية من غاياتها من تقسيم للعمل ، وتحسين للنسل وترقية للحياة .

الجناة يحاكمون الأبرياء

لقى أحرار الفكر والمصلحون والمجددون والعلماء والفلاسفة والأنبياء صنوف المحن وضروب الاضطهاد ، على أيدى أعداء ثلاثة رئيسيين : الدولة. برجال الدين على تكفير من تخشى بأسهم أو تأثير أفكارهم ، واستنجد منها على البطش بذوى النفوس الكريمة والأفكار النيرة ، فاستعانت الدولة برجال الدين على تكفير من تخشى بأسهم أو تأثير أفكارهم ، واستنجد رجال الدين بالدولة على الفتك بمن يناهض عقائدهم أو يعمل على اصلاح المفاسد التى يدخلونها فى العقائد والشرائع ، وعبثت الدولة ورجال الدين معا بالعامة ، ينشرون بينهم الدعوة يستثيرون جهالتهم وتعصبهم وخبيث نزعاتهم ضد من يرمون الى الايقاع به ·

والتاريخ يعج عجيجا بحوادث الاضطهاد والتعذيب والمصادرة ، بالفتن والحروب التى مرجعها التعصب وشهوة الاضطهاد والبغى على الأبرياء ، ولكن ألأم ضروب ذلك الظلم الذى يحفل به التاريخ ، ذلك الضرب الذى كان يجرى على صورة محاكمة ، لا يكتفى المضطهد بمجرد القبض على فريسته والفتك بها ، مجاهرا بالشر ، مصرحا بقبيح طويته ، وانما يعمد الى ستر تلك الطوية ، وتبرير عمله ، واظهار ظلمه فى صورة العدل الناصع ، لظروف تحمله على ذلك ، من بقية احترام للرأى العام ، أو رغبة خبيثة فى الامعان فى النكاية واطالة زمن العبث بالفريسة ، كما يلعب القط بالفأر برهة قبل تمزيقه وازدراده ·

عرف الاغريق مثل ذلك العهد من الانتقال حوالى القرن الخامس قبل الميلاد ، حين اصطدمت الفلسفة الجديدة بالمعتقدات الوثنية القديمة ، وانجلى ذلك الصدام فيما انجلى عنه عن محاكمة سقراط ، وعرف ذلك العهد الانتقالى لدى العرب فى العصر العباسى ، حين اصطدمت العلوم الاغريقية المنقولة بالآراء الدينية المتغلغلة ، فكانت بين المسلمين أزمات فكرية واضطهادات حول مسائل القدرية وخلق القرآن ، والفلسفة عامة ، والتصوف ، وغير ذلك ·

ونسب الكثيرون الى التزندق ، وحوكم الفيلسوف ابن رشد في قرطبة ، وعرف الأوربيون المحدثون عصر الانتقال الفكرى هذا فى النهضة الكبرى حوالى القرن الخامس عشر ، ففى ذلك العصر والعصور التالية حوكم من رجال الفكر جون برونو وميخائيل سرفيتس وجاليليو ، وعشرات غيرهم ٠

فالاغريق على رقيهم السياسى لم تكن لديهم طبقة خاصة من القضاة المحترفين المتوفرين على مهنتهم ، بل كان كل مواطن حر بالغ صالحا للجلوس مجلس القضاء ، وكانت المحكمة لديهم أشبه بدار نيابة في كثرة عدد أعضائها ، فكانت أحكامها تتسم بما تتسم به أحكام الجماعة من اندفاع وراء العواطف وتقلب فى الأهواء ، وكانت التهم توجه فيها الى المتهمين في لفظ موجز مجمل هو أدنى الى قرارات المجالس النيابية منه الى قرارات الاتهام المفصلة ، وكان النظام القضائي الرومانى تخالطه بعض هذه المثالب ، رغم رقى القانون الرومانى رقيا عظيما ٠

أما القانون فى الدول الاسلامية فكان دينيا مأخوذا من الكتاب والسنة ، اللذين توفر جلة العلماء والفقهاء على استخراج الأحكام منهما ، وكان القضاء بين الناس من أول ما اهتم به الخلفاء ، وظل بعضهم يجلس لرد المظالم الى أزمنة متأخرة ، وعرف القضاة المسلمون لا سيما فى الصدر الأول بشدة الورع والعدل والتحرج ، حتى كان كثير من العلماء يتجنبون مناصب القضاء اتقاء الخطأ فى التأويل والحكم ، على أن الطغاة الظالمين من الحكام لم يعدموا — لا سيما فى العصور المتأخرة — من يمالئهم من القضاة على أهوائهم ومظالمهم ٠ ويروى لنا المقريزى أخبار بعض القضاة الذين لم يستنكفوا من تغيير حكمهم في مسألة واحدة عدة مرات ، نزولا على ارادة بعض سلاطين مصر ٠

كانت المحاكمة فى أوربا فى العصور الوسطى وما بعدها الى القرن الثامن عشر تقوم على ما يشبه الاعتقاد مقدما بأن المتهم مذنب ، ويرمى التحقيق فى السجن وفى المحكمة الى ارغامه بكل الطرق على الاعتراف ، وكانت تتبع فى التحقيق تقاليد مقررة اكتسبت بطويل المران : من الوعد والوعيد والمخادعة والتمليق ، وكان اعتقاد المحققين في غالب الأحيان أن للمتهم شركاء ، فهم يبذلون الجهد لاستدراجه الى ذكر أسمائهم ، بل كان يتهم بمشاركة المتهم فى جريرته من يتطوع للشهادة لمصلحته أو لمساعدته أو الدفاع عنه على أية صورة ، فكان الخوف من تلك العاقبة يحرم المتهم معونة من يستطيعون اثبات براءته ٠

تحت تلك النظم القضائية القاسية قدم أحـــرار الفكر للمحاكمـة متهمين تارة بالزندقة ، وطورا بالسحر ، وتارة بالاباحية ، وأمام المحاكمة الكنسية حوكم برونو ، وحاكم جاليليو ، وحوكمت جان دارك ، وأسلم الأول والأخيرة بعد المحاكمة الى السلطات المدنية لتفـرغ من شـــأنهما « بدون سفك دم » وهو التعبير المصطلح عليه اذ ذاك لاحراق المحكوم عليه علنا في بعض الميادين أو الأسواق ردعا له وزجرا لغيره ، فاذا كان المحكوم عليه مفكرا ساقته الى ذلك الموقف كتبه التي احتوت على زائـغ الآراء ، كالقول بالدورة الدموية في جسم الانسان ، أو بالدورة الأرضية في الفضاء ، أحرقت مع جسمه كتبه ، وحرم تداولها ٠

بقيت تلك الوسائل البربرية في القضاء الجنائي سائدة الى القرن الثـامن عشر حتى هب علماء ذلك العصر المسمون بالفلاسفة من أمثـال فولتير وروسو يندون بتلك الشناعات ، التي لا نظير لها بين كثير من الجماعات الهمجية ، فبدأ اصلاح المساوىء تدريجا ، بدأ من أواخر ذلك القرن وفي غضون القرن الماضي ، عملت على ذلك حقوق الانسان التي أعلنتها الثورة الفرنسية ، فقررت مثلا ألا يحاكم المرء على جريمة الا اذا كان هناك قانون قائم يعاقب عليها ، ثم ألغى التعذيب في التحقيق وأصلحت أحوال السجون ، وتغيرت النظرة الى المجرم والعقاب ٠

فلما انتشر الروح العلمي في القـرنين الأخيرين وذاعت مبـادىء الانسانية نظر الى المجرم نظرة رحمة واخاء ، فان كان جرمه راجعـــا الى جنون أو اختلال ما ، كان أحق بالعلاج منه بالعقاب ، وان كان امرأ صالحا كما تشهد القرائن قد سيق الى جرمه في ظروف تاعسة استعمل الرفق في أمره وأرجىء تنفيذ عقوبته رجاء استصلاحه ، ولم يدخر العقاب الصارم الا للمجرم المصر العائد الذي ثبت أنه لا يستصلح ولا يرعوى ، وتحول الغرض من العقاب من الرغبة في الانتقام الى الرغبة في التربية ٠

على أن هذه المبادىء النبيلة التي انتهى اليها العصر الحديث ووضع بها حدا لبربريات العصور الوسطى كانت سائدة بدهية لدى المسلمين في عصورهم الزاهرة يشهد بها كتاب عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه الى أبي موسى الأشعرى ، والتعذيب الذى كان عند أوربيي العصور الوسطى والنهضة وما بعدها قاعدة مقررة لا غبار عليها من قواعد التحقيق ، كان محرما ممقوتا لدى المسلمين لا يكاد يكون معروفا في القضاء ، فقد روى أن عمر بن عبد العزيز أتى برجل أقر بذنب بعد أن عزر وضرب ، فخلى سبيله وأبى مؤاخذته ، وجاء في كتاب الخراج لأبي يوسف : « ومن ظن به

أو توهم عليـه سرقة أو غير ذلك فـلا ينبغي ان يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من أقر بسرقة أو بحد أو بقتل وقد فعل به ذلك فليس اقراره ذلك بشيء ولا يحل قطعه ولا أخذه بما أقر به » ٠

قلنا ان المفكرين كانوا يتهمون أمام انصار القديم بالكفر أو الاباحية الخلقية أو السحر ، وبالأولين اتهم سقراط وهو أول مفكر عظيم ينهى الينا التاريخ استشهاده فى سبيل تعاليمه ٠

وممن حوكموا على آرائهم ابن رشد فى اواخر القرن الثانى عشر الميلادى فى زمن خلفاء الموحدين ، فانه لنبوغه فى الفلسفة تنكر له رجال الدين وكادوا له عند الخليفة ، حتى تحول من العطف عليه الى الغضـب منه ، ويقال ان من أسباب ذلك التغيير أن ابن رشد فى تعليقه على كتاب الحيوان لأرسطو ذكر أنه رأى الزرافة « عند ملك البربر » وفاته أن يذكر الخليفة بالتعظيم والتفخيم ، فلما بلغت موجدة الخليفة حدها أمر بابن رشد وتلاميـذه فاحضروا فى المسجد الجـامع بقرطبة ، وقام فقيهان فخطبا يتهمانهم بالمروق ويستوجبان لعنتهم ، ولم يدافع ابن رشد عن نفسه ، وأمر الخليفة به وبأصحابه فنفوا الى ناحية قاصية ، وأحرقت كتبـه ، وصدر منشور يشرح ذنوبهم ويحذر الناس منهم ويؤلبهم عليهم ٠

وقال ابن رشد : « أعظم ما طرأ على فى النكبة أنى دخلت أنا وولدى عبد الله مسجدا بقرطبة وقد حانت صلاة العصر فثار لنا بعض سـفلة العامة فأخرجونا منه » ٠

على أن النفى والاهانة لم يشفيا على ما يظهر نفوس أعـدائه الذين لم يكن يروى غليل تعصبهم الا قتله وقتل اتباعه شأنهم فى ذلك الدائم شأن رجال الدين الملتفين بالأمراء فى كل العصور ٠

وقد قاسى العالم الفلكى جاليليو طعم « مقام الخزى » هذا جزاء على أبحاثه فى علم الهيئة وان لم يكن مبتكرا لما قال به ، ولم يكن الا مرددا ــ بعد استعمال منظاره المعظم ــ لما قال به كوبرنيق قبله بزهاء نصف قرن ، فقد أبطل كوبرنيق مذهب بطليموس القائل بثبات الأرض ودوران الأجرام السـماوية حولها كمـا توهم به حركة تلك الأجرام اليومية ، واثبت أن الشـمس ثابتة وأن الأرض تدور حولهـا وتدور حـول نفسها ، ولكن كوبرنيق لم يعذب على هذه الزندقة لأنه آثر العافية فلم ينشر كتابه فى

حياته ولم ينشر الا عقب موته ، فلما أيد جاليليو نظريته في لفظ معمم متحفظ اقتيد الى المحكمة الكنسية في روما وهو شيخ سقيم وسجن واستجوب ولم ينجه من الاحراق الا اعترافه بجرمه وندمه على ما فرط منه واعلانه خطا كوبرنيق وصواب بطليموس وتقريره توبتـــه عن اذاعة النظـرية الجديدة ٠

وممن حوكم في الدولة الاسلامية متهما بالزندقة لغضب السلطان عليه القائد الأفشين : كان حديث عهد بالاسلام فلم يمنع ذلك المعتصـم ان يوليه القيادة على جند المسلمين ، فلمـــا دبت عقارب السعاية بينهما اتهمه بالزندقة والردة والميل الى المجوسية ، وألف لمحاكمته محكمة كان من أعضائها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات المعروف عنه تفننه في تعذيب خصومه واختراعه آلة لذلك ، وكيلت للأفشين بجانب الزندقة تهمـة التآمر على ســلامة الدولة أيضـا ، وقد رد على كل تهمة وجهت اليه أسد رأى وأشده اقناعا ، فلم يمنع ذلك أن يجوع في ســجنه حتى يموت ثم يحرق مصلوبا ٠

وفي أوائل القرن الرابع عشر تتابعت في شتى أنحاء أوربا محاكمات ظالمة ، كان قضاتها متشابهين وضحاياها متماثلين وتهمهم جميعا متقاربة ، أولئك الضحايا هم فرسان المعبد ، وهم جماعة دينية تألفت في عهـــد الحروب الصليبية لحماية الحجاج من قطاع الطريق ، وكان من مبادئها الصرامة والتقشف ، ولكن لم تنته الحروب الا وقد أثرت تلك الجماعة اثراء فاحشا ، وركن أعضاؤها الى الدعة وتثمير الأموال والضياع ، حتى طمع في أملاكهم فيليب الجميل ملك فرنسا ، ومهد له السبيل لاضطهادهم مشيره القدير المحامي ديبوا المشهور بمشروعه الرامي الى توحيد أوربا تحت زعامة فرنسا ، كما ساعده في محاربتهم جماعة دينية أخرى ، هي جماعة الدومينيكان ، وطالما كان بعض الجماعات الدينية في أوربا حربا على بعض ، كما مالأ اليسوعيون لويس الرابع عشر مثلا على القضـــاء على الجنسيين ٠

أصدر فيليب الجميل أمره فجأة بالقبض على فرسان المعبد ، وقدموا للمحـــاكمة في شتى بقـــاع فرنســا بتهم الزندقة والاباحية والاتصال بالشيطان وعبادة الأوثان ، وكتب الملك الى ملوك أوربا يستحثهم على حذو مثاله ، وبممالأة البابا اياه ــ وكان اذ ذاك تحت نفـوذ ملك فرنســا ــ استطاع فيليب أن يقيم المحاكم المدنيــة والكنسية على قدم وســاق سنين عددا تنكل بفرسان المعبد في أنحاء اوربا ، وكانت التهم الموجهة اليهم

فى بادىء الأمر مبهمة متخاذلة ، ولكنها بمضى الزمن والمران اتخذت اشكالا اشد تحديدا وتخصيصا ، وتم لفيليب ما أراد من استصفاء أموال الجماعة ، وأزاح من وجه الملكية التي كان يعمل على توطيدها فى فرنسا عدوا قويا دولى النظام دينى الصفة ٠

وكانت هناك تهمة خطيرة تفشى وباؤها فى أوربا خاصة فى العصور الوسطى وعصر النهضة وما بعده ، تلك تهمة السحر ، وكانت تلك التهمة تكال أول الأمر لأعداء الكنيسة المتهمين بالبقاء على دين الوثنية ، اذ كان قيامهم بمراسيم الأعياد الوثنية يعد اتصالا بالشيطان ٠ ثم صارت التهمة توجه الى كل زائغ مخالف ، وانتشرت عدوى تلك التهمة فى عهد الاصلاح الدينى ، وبعده فى شمالى أوربا ، أى فى الأقطار البروتستنتية خاصة ، ولعل ذلك كان أثرا من آثار انكبابها على دراسة الكتاب المقدس ، وهو كثير التوكيد لشرور الشيطان ووجوب الحذر منها ٠

انتشر الاعتقاد بالسحر فى أوربا ، وطمـــا فى عصر احياء العلوم ذاته ، فكان من أعاجيب التاريخ ، فالعصور التى أنجبت لوثر وارزمس وشكسبير ودورر وغيرهم من المفكرين والفنانين ، كانت تؤمن بالســحر وتعتقد بقــدرة ممارسيه وممارساته ــ وقد كانت المرأة خاصــة متهمة بممالأة الشيطان ــ على نفع بنى الانسان وضرهم وعلى الشفاء والامراض والقتل ، وعلى الاخبار بالغيب ، وفى روايات شكسبير كماكبث مثـــلا شواهد لذلك وفيرة ، وقد صور لنا مارلو ثم جوته صورا من اتصـــال الانسان بالشيطان فى روايتيهما عن فاوست ٠

وكانت جان دارك فتاة نقية لم تتجاوز السابعة عشرة ، عرفت فى قريتها بالصلاح ، واشتهر عنها ايمانها الدينى العميق ، ولم تعـــد أن دافعت عن بلادها ضد الغاصب ، فكان من الصعب اختراع التهم لها ، فلم يكن غير السحر تفســيرا لقواها الخارقة واقدامهـــا فى الحــرب وتأثيرها فى الجند وارتدائهـــا ثيـــاب الرجال وما تدعيه من رؤى تراها وأصوات تهتف بها ، وعذبت الفتاة فى سجنها شهورا طوالا ، وأجرى التحقيق معها على النحو الوحشى السالف وصفه ، ومع ذلك وقفت فى المحــكمة وقفــة اباء نادر ، وأبت التراجع وتلقت حكم الاحراق بثبــات وايمـــان ٠

ومن قضايا التعصب الدينى الحديثة التى كان لها أثر عميق فى الأذهان أدى الى اصلاح القضاء ونبذ التعصب واثبات حقوق الانسان ،

قضية « كالاس » فى فرنسا التى كان بطلها فولتير ، فقد اتهم كالاس هذا من أهالى تولوز بأنه قتل ابنه لمنعه من اعتناق الكاثوليكيــة ، اذ كان اعتناقها اذ ذاك ضروريا لاحتراف المحاماة ، ومع أن كل القرائن كانت تدل على أن الابن انتحر لضيق نفسه ، عذب الشيخ الثاكل تعذيبا بربريا ، فأصر على براءته ومع ذلك أعدم ، فلما علم فولتير بالقضية وكان يمقت التعصب والقسوة كل المقت ، استأنف القضية امام مجلس الملك وصرف عليها من جهده وماله الكثير ثلاث سنوات حتى صدر الحكم بتبرئة الشيخ وادانة برلمان تولوز ٠

اما المحاكمات التى يتجلى فيها ظلم الشعب وتحــكم العامة فأروع امثلتها فى حوادث الثورة الفرنســية ، ومنهــا محاكمة الملك لويس الحادى عشر والملكة مارى أنطوانيت والزعيم دانتون وأتباعه ، والعشرات أو المئات من الأشراف وغيرهم ، حيث كانت تكال التهم جزافا ولا يسمح للمتهم بالكلام طويلا أو الدفاع عن نفسه ، ويهدد أعضاء المحكمة ويؤثـر فيهم بمختلف الوسائل ، فكان داخل تلك المحاكم مدانا محكوما عليه قبل ان تفتتح الجلســة ، ومن ثم كان كثير من الأشراف يرفض الكلام ويلزم الصمت ويسير الى المقصلة فى ثبات ، ومن أمثال تلك الفتن والمحاكمات ينجلى ان رجل الشارع أشد بطشا واســتبدادا فى بعض الأحايين من الطاغى المتوج ٠

تلك أمثلة من تعصب الانسان لرأيه ومذهبه وضيق ذرعه بمخالفيه وفتكه بالواقفين فى طريقه ومحاولته الباس ظلمه لباس العدل واظهــار نوازعه الشريرة فى مظهر الفضل والنبل والغضب للحقيقة ، وأمثلة تلك المحاكمات المغرضة فياضة يجيش بها التاريخ ، تتجلى فيها ألوان الجور والتنكيل والقسوة والوحشية ، فلا غرو أن قال بعض الكتاب انه لو أقيم متحف يمثل تاريخ القضاء الجنائى ، يضم ما اســتعمل فى الماضى من آلات التعذيب ، وما تخلف من الوثائق والأسانيد ، وما كان هناك من طرق للعقاب والانتقام ، وما قاساه المسجونون فى غياهب السجون من بلاء ، لجاء ذلك المتحف حافلا بكل مفظع بشع ، ولتمثلت بين جوانبه صفحة من أظلم الصفحات فى تاريخ الانسان !!

أبو العلاء بين شعراء العربية

بم يمتاز المعرى عن شعراء العرب ؟ وما هى الخصائص الفكرية التى يتفرد بها والتى جعلته النضج ثمرة من ثمار الادب العربى ؟ هذا ما يبحثه كاتب المقال ٠

ليس أبو العلاء أحد فحول شعراء العربية فقط ، يحل منهم فى الطبقة الأولى بجانب المتنبى وأبى تمام وابن الرومى ، وليس هو فقط أحد أساطين كتابها ، يبارى ابن المقفع والجاحظ وبديع الزمان بصرا باللغة وتكمنا من أساليبها واحاطة بتراثها ٠ بل هو بين أدباء العربية شخصية فذة فريدة : يتشابه الآخرون فى أشياء كثيرة حتى كأنهم أبناء عصر واحد، ويختلف عنهم جميعا فى أشياء كثيرة كأنه ابن عصر وحده ، أو كأنه يمت الى أدب غير أدبهم وتراث ثقافى غير تراثهم ، وهذا التميز اهم سمات أبى العلاء ٠

فقد كانت نزعة المحافظة غالبة على الأدب العربى منذ عرف العرب الحضارة والثقافة ، قد احتفظ أهلوه بتقاليد ورثوها عن فحول الجاهلية وصدر الاسلام ، وحرصوا على اتباعها ولم يحبوا ان يدخلوا عليها كبير تبديل ، فقصروا الشعر والنثر على موضوعات خاصة لم تتجدد كثيرا . وأنما كان هم أكثرهم أن يجارى المتقدمين فى طرقها ٠ فالفخر والحماسة والمدح والهجاء والنسيب الاستهلالى فى الشعر ، والرسائل الديوانية والاخوانية فى النثر ، والأسلوب المحلى بالمحسنات البديعية فى هذا وذاك ٠ وقد طمع أكثر الشعراء فى جوائز الملوك فقصروا أكبر جانب من قصيدهم على المدح ، وطمح الكتاب الى الكتابة فى دواوين الأمراء فتوفروا على تحبير الرسائل الانشائية ، وعاش هؤلاء وأولئك فى حياة صاخبة بين مواكب الحاكمين ومحافلهم ، وبين مظاهر الترف المادى وأسباب اللذات الحسية ، ومن ثم كان الأدب العربى والاسلامى أكثره أرستقراطى ٠

أما أبو العلاء المعرى فسلك طريقا وحده امتاز بها عن أبى نواس والبحترى والطائى ، كما امتاز بها عن عبد الحميد وابن العميد والصاحب

وغيرهم من الكتاب الوزراء ، فجاء أدبه أكمل من أدبهم ، وشخصيته مفترقة ممتازة عن شخصياتهم ، وكان تراثه الأدبى من شعر ونثر أعظم قدرا وأخلد أثرا وأشد امتاعا للأديب العصرى من تراث من ذكروا ممن هم على شاكلتهم ٠

فأبو العلاء لم يتعلق بحبال الأمراء ولم يقل فى مدحهم الا القليل الذى أودعه ديوان «سقط الزند» ، على أنه لم ينظم ما نظم فى ذلك الباب طلبا لنوالهم ولا استظلالا بجاههم ، ولكن نظمه مجاملة أو مودة أو رياضة للقصيد وتلهيا بمعارضة المتقدمين ، ولم يستغرق ذلك الا جانبا ضئيلا من شعره ، ولم يستأثر بمعظم ما نظم كما استأثر المدح والهجاء بمعظم ما نظم البحترى والطائى ومهيار وغيرهم ٠

انما التفت أبو العلاء الى التأمل المجرد والتفكير الحر المنزه ، على أنه لم يطرق الأبواب المعهودة المتوارثه فى الأدب العربى ، والتى كان يطرقها الشعراء حين يتحررون من المدح والهجاء ، كالوعظ الذى شغل به أبو العتاهية وأمثاله ، والحكمة التى أولع بها الطائى والمتنبى وسواهما ، والتمدح بمكارم الأخلاق والتحدث عن الاخوانيات اللذين كلف بهما الشريف الرضى وغيره ٠ كل هاتيك كانت موضوعات مألوفة تقليدية فى الأدب العربى ، تداولها الشعراء فى مختلف العصور ، وتشبهوا فى كثير منها بالمتقدمين ٠ أما أبو العلاء فانفرد بالتأمل فى أحوال الانسانية جمعاء : ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فصرف ذهنه فى التاريخ وتدبر أحوال الغابرين ، وتساءل أين القبور من عهد عاد ، ورجح أن يكون قبل آدم أوادم آخرون ، وتصور سائلا فى المستقبل يسأل عن مكة كما يستخبر المستخبرون عن جديس وطسم ، الى غير ذلك من نظرات الفكر الذى يروعه تقلب العصور وتغير الأجيال والشعوب والبلدان ، ولا يقنع قناعة أكثر شعراء العربية بالنظر الى حاضره واغتنام عاجله ، عن التأمل فى الماضى والمستقبل وتقصى بعيد الآفاق ٠

ولم يقتصر أبو العلاء على النظر فى شئون الانسان ، بل وسع فكره وشمل اهتمامه عالم الحيوان واحتفى له احتفاءه ببنى جنسه ، بل عد الانسان والحيوان متماثلين فى الصفات والطباع ، متماثلين فى رضوخهم لصروف الأقدار والنواميس الطبيعية ، وخضوعهم لتنازع البقاء وما يستتبع من سجايا كلها غدر ولؤم كما يقول ، وهو ينعى على الأحياء بغيها بعضها على بعض ، ثم يرثى لها جميعا لأنها لا معدى لها عن ذلك الصراع الدائب ، وتراه يتحدث فى شعره عن الضرغام والظبى والصقر

والحمامة والذئب والشاة والنحلة ، حديثه عن أناس يعنيه أمرهم ويحرص على اسعادهم ويود لو يستطيع اصلاح ذات بينهم ٠

وما هكذا العهد بذكر أدباء العربية الحيوان والطير فى آثارهم : انما كانوا يذكرون الليث والذئب ليدعوا الفخر بالتغلب عليهما ، والظبى والكلب للتفكه بذكر الطرد والقنص ، والحمائم والبلابل تغنيا بجميل أصواتها ، ويستعيرون صفات هاتيك السباع والاطيار لما يتخيلون لانفسهم أو لممدوحيهم من القوة والهيبة ، ولمعشوقاتهم من حور العيون وتلع الأجياد وسحر اللفتات ، أما الاحتفاء للحيوان ذاته والحدب عليه وطول التأمل فى أحواله ، فميزة من الميزات العظيمة التى انفرد بها أبو العلاء ٠

ولم يقف فكره الجوال وتأمله الشامل عند الاحياء ، بل كان معنيا بشئون الجماد كذلك موكلا بالتفكير فى الأكوان والكواكب والآباد ، يعبر عن كل ذلك فى أساليب شعرية ممتعة : فيقول ان جبريل لو طـار بقية عمره ما استطاع الخروج من الدهر لأنه أزلى ، ويقول ان لنار المريخ من حدثان الدهر مطفىء وان علت فى اتقاد ، وان مولد الشمس يعيى المرء تحديده ، وأن النور محدث والأزلى هو الزمان المظلم ، الى غير ذلك من نظرات تجمع بين النزعة العلمية والحلاوة الشعرية ٠ وبدهى أن أحدا غيره من أدباء العربية لم يعن بالفلك بعض هـذه العناية ، أو يكلف ذهنه فى مجاهل الفكر بعض هذا العناء ٠

كان أبو العلاء فى تأمله هذا فى شئون الخلق متشائما ، يكربه ما يرى من تصارع الأحياء وتنازعهم البقاء ، ويحزنه ما يشاهد من ضعف الانسان وقصور باعه وذهنه ، ويملؤه غما ما يرى فى طباع الناس والأحياء كافة من لؤم وأثرة وخديعة وعدوان ٠ وهو تشاؤمه أيضا نسيج وحده فى العربية ، فالتفاؤل هو السمة الغالبة على الأدب العربى ، وان كثرت فيه شكوى الزمان والاخوان والوعظ والتذكير بالموت والبلى ، والمتنبى مثلا على طول ما خاصم معاصريه ولاقى منهم ، ورغم خيبـة مساعيه وضيعة أمانيه ، ظل عمره حريصا على الحياة كما قال مستهاما بها صبا ٠

وانما أفضى بأبى العلاء الى التشاؤم طول تفكيره فى شئون الخلق والحيـاة ، كما تقدم ، وتوقله فى قمم الفكر العالية الباردة ، بجانب ما رزىء به من فقد البصر الذى كان فاتحة رزايا أخرى ، وما امتاز به من رهافة الحس ، هـذا الى ما كان يعج به عصـره من فسـاد واضطراب ، أما شعراء العربية الآخرون فنأى بهم عن التشاؤم انصرافهم ـ كما تقدم

القول ــ الى حاضرهم ، واقبالهم على دواعى الحياة العملية ، واعراضـــهم عن طول التأمل فى مظاهر الحياة وألغازها ، فأبو العلاء هو ممثل التشاؤم فى العربية ، وهو فى هذا أيضا فذ متفرد ٠

ولأبى العلاء فلسفته الالهية ، وهى جانب كبير من فلسفته ، والدين من أهم المسائل التى شغلت لبه طول حياته ، وهو شاك رافض لمعظم ما كان يدين به معاصروه من عقائد ، متعجب لما يرى من خلاف بين أتباع اليهودية والمسيحية والاسلام ٠ وليس ينفرد أبو العلاء بالشك والزيغ بين أدباء العربية ، ولكنه يمتاز عن سواه فى هذا الأمر امتيازه عنه فى سواه : فان المتزندقين من أمثــال بشار وحماد وأبى نواس كانوا قوما مستهترين متهالكين على اللذات ، لا يكربهـــم أمر الدين الا ريثما يتهكمون بالمؤمنين ويتحدون عقائدهم ويغيظونهم بفتكهم ، وكأنهم فرحون اذ خلعوا عــذار الايمان وخلصوا من ربقة الدين ٠

أما أبو العلاء فكان زاهدا لا مستهترا ، محرما على نفسه متع الدنيا لا متهافتا عليها ، وما انتهى الى الشك اعتباطا ولا استهتارا ، ولا لسوء صحبة أو ضعة بيئة أفسدت خلقه ومعتقده ، وهو الناشىء فى بيت التقى والفضل ، وانما انتهى فكره الناصب الى الشك بعد طول التأمل والنظر وبعد شديد العناء والجهد ، وبعد أن حاول ما وسعه أن يصل الى اليقين ويقتنع بما يقتنع به غيره دون طويل بحث ولا تساؤل ، وكم طلب اليقين من جهينة كما قال فلم تخبره جهينة سوى الظن ، ولو ارتاحت نفسه الى الايمان عن اقتناع لكان أول المؤمنين وأحسنهم عقيدة ٠

وعلى سبحات فكره فى آفــاق الزمان والمكان ، وعنايتـــه بالماضى والمستقبل ، لم يهمل أبو العلاء حاضره القريب ، ولم يعش بنجوة عن مجتمعه ، بل كان معنيا بأمره ، يأسى لسوء حال الرعية وجور الأمراء على مصالحها ، ويعد أولئك الأمراء أجراء لهـــا عينتهم لينعهدوا مرافقهـــا ويسوسوا أمرها ، وهى نظرية العقد الاجتماعى التى ناقشها فلاســفة أوربا المحدثون ٠ وكان أبو العلاء يأسف لعدم تساوى الناس فى الثروة وتقاربهم فى الحظوظ ، فمنهم أمير متوج بالذهب وفقير معرى فى الشتاء ، ومجدود يرزق أقوات أمة ومنكود يحرم قوت يومه ٠

وهنا أيضا يمتاز أبو العلاء على غيره من أدباء العربية ميزة عظيمة : فقد كان أكثرهم صنائع للملوك يترجمون عن رغباتهم ويتمدحون بأعمالهم ويؤيدون دولتهم وان عتوا وان ظلموا ، قد انحازوا الى صف الحاكمين

وكل همهم أن يغنموا مما يفيئون عليهم ، واعتزلوا المحكومين لا يأبهون بحالهم سعدت أو شقيت ، ولا يترجمون لهم عن شكاة ولا يحاولون لهم اصـــلاحا .

وقد كان شعراء العربية وكتابها لاتصالهم بالأمراء وتوفرهم على مرحهم وانشاء رسائلهم ومشاركتهم فى حياتهم الرسمية والخاصــة ، مشـغولين عن التوفر على الادب الخــالص والفن لذاته . ومن ثم نرى الشعراء العظام منهم كانوا شعراء فحسب ، لم يؤثر عنهم غير القصائد ، كالمتنبى والبحترى وغيرهما ، والكتاب كانوا كتاب رسـائل فحسب . فلم يؤثر عنهم فيما عدا ذلك شيء يعتد به . كالصاحب وابن العميد ، ومن أجاد الشعر من الكتاب كالصابيء وحميد بن سعيد كان مقلا فيه ، ومن توفر على الشعر قلما تظفر له بنثر أو رأى يعتد به فى النقد .

أما أبو العلاء فلاعتزاله حياة الأمراء الصاخبة ، وتوفره على الأدب والدرس توفر الكاهن على كهانته ، كان أديبا مكتملا متعدد نواحى الانتاج، ضرب فى الشعر بقدح معلى وفى النثر بسهم وافر ، فصاحب اللزوميات هو أيضا صاحب رسالة الغفران ، وناظم ذلك الشعر الفائق هو كاتب هذا النثر الممتع ، وهو فى هذا وذاك لا يقتصر على باب من القول دون باب ، بل يجيل ذهنه فى شتى شئون الحيـاة والموت والماضى والحاضر والدنيا والآخرة ، والأدب والنقد واللغة والفقه ، وهو الشـاعر العربى الكبير الوحيد الذى اثر عنه نقد وآراء معرفة مفصلة عن سابقيه من الشعراء كالمتنبى والبحترى وحبيب الطائى .

وقد كان الأدب العربى فى جملته عملى المقاصد قريب الأغراض ، تقل فيه آثار سبحات الخيال ، وتقل فيه الآثار الفنية المطولة ، فغاية ما بلغ فيه الخيال انشاء المقامة ، أو اختراع موقف الغزل ، أو تلفيق الأقصوصة القصيرة تنسب الى الجاهلية ويفسر بها خبر من الأخبار او مثل من الأمثال السائرة ، أما القصة والملحمة والرواية وما اليها من آثار الخيال الواسع ، فان خلو الأدب العربى منها معروف واضح . ولكن أبا العلاء أبى الا أن يمتاز على سائر فحول العربية فى هذا الفن أيضا ، فرسالة الغفران هى العمل الأدبى الكبير الوحيد فى العربية ، الذى يقوم على الخيال المتصل ، ويحوى اروع الصور والأوصاف والقصص والفكاهات ، وتدور حوادثه فى العالم الآخر ، مستمدة حقائقه مما جاء فى القرآن الكريم ، كما استمد دانتى وملتون حقائق ملحمتيهما من أنباء الانجيل ، ورسالة المعرى وان طابقت كل أنباء القرآن الكريم وأظهر صاحبها الاعتقاد بصحتها ، على

جرىء لم يقدم عليه غير أبى العلاء من قبل ، هو عمل جرىء من وجهة الفن والخيال ، وهكذا يمتاز أبو العلاء على غيره من أدباء العربية فى ارساله عنان الخيال وكبحهم اياه ، وانه للكفيف المحجوب وانهم للمبصرون الطلقاء ٠

ذلك أدب أبى العلاء المعرى ، هو فيه نسيج وحده بين أدباء العربية ، وما كان أدبه الا صورة من حياته ، حياة الزهد والاعتزال والدرس والأدب، فهو لم يصدف عن حياة الأبهة فى حاشية الأمراء فقط ، ولم يأب على نفسه ما كان يصبو اليه الشعراء والكتاب فحسب ، بل حرم على نفسه ما يتمتع به الفرد العادى : فأقام رهين محبسيه أو فى ظلام الثلاثة من سجونه كما قال : وترهب فلم يتخذ حليلة ، ورغب عن شهى المطاعم وحرم على نفسه لحم الحيوان ، وكان على اعتداده بقدره شأن كل عظيم متواضعا بعيدا عن الادعاء ، يعلم أنه هو وغيره من طالبى العلم والدرس جهال لا يقاس ما علموه من شئون الكون بما جهلوه ، هذا على حين كان هم الكثيرين من شعراء العربية وكتابها التفاخر والتطاول على معاصريهم ٠

فأبو العلاء المعرى فى اعتزاله حياة البلاطات ، وتوفره على العلم والأدب وادمانه النظر فى شئون الكون ، ودراسته للحياة دراسة تتجلى فيها النزعة العلمية ، وارساله عنان الخيال فى رسالة غفرانه ، واحتفائه فى نظراته الاجتماعية بشئون الرعية دون الحاكمين ، هو فى كل ذلك مخالف لغيره من فحول العربية ممتاز عليهم ، وهو لكل ذلك أقرب الى أدباء الغرب الذين عاشوا فى ظل الديمقراطية أحرار الفكر والنزعة ، معنيين بشئون الحياة والمجتمع لا بأمور الملوك والحكام ٠

وأبو العلاء لكل ذلك يمثل أنضج ثمرات الأدب العربى ، ولا غرو فقد عاش بين القرنين الرابع والخامس الهجريين فى العصر الذى بلغت فيه الحضارة والثقافة العربيتان أوجهما وأشرفتا على الاضمحلال ٠ ولولا فساد الأحوال السياسية والاجتماعية الذى أسرع بالحضارة والأدب الى التدهور ، لكانت هذه السنن الحميدة التى سنها أبو العلاء للأدباء ، مبدأ عصر جديد فى الأدب العربى يكون فيه أقرب الى الفن الرفيع ، ويكون الأدباء فيه أكثر توفرا على أدبهم ومغالاة بقدره ، وأشد كلفا بالتبصر فى بعيد آفاق الحياة ٠ ولكن عوامل الانحلال كانت تتعاور المجتمع الاسلامى من داخله ومن خارجه ، فلم يقدر للأدب العربى طور احياء جديد ، بل سرعان ما دخل فى طور تدهوره الطويل ، الذى لم يفق منه الا فى العصر الحديث ، وكان أبو العلاء المعرى آخر نجم لمع قبل هبوط ذلك الليل الحالك ٠

تطور فكرة السـلام العالمى

نشبت الحرب ، وتغلب شـيطان الشر على مـلاك الخـير والسلام ، وفشل دعاة هذه الفكرة الانسانية العليا فى تنفيذها بين الامم • فمتى نشأت هذه الفكرة ، ولماذا نشأت ، وكيف تطورت الى أن وصلت الى حالتها الراهنة ـ ذلك ما يعالجه كاتب هذا المقـال •

لحاجة الانسان الى التعاون ورغبته فى حسم الفوضى والدفاع عن نفسه ، كون منذ أقدم عصوره مجتمعات ظلت تنمو حتى انتهت فى فجر التاريخ الى مرحلة الدولة التى تتراوح صغرا وكبرا ، ثم وقف عند هذه المرحلة لم يستطع أن يخطو الى المرحلة التاليـــة لها والنهاية الطبيعية لترقيـة السـياسى والاجتمـاعى ، وهى الدولة العالمية التى تجمع البشر جميعا وتقطع دابر الحروب وتوطد السلام الدائم ، وظلت فكرة السلام العالمى أمنية تجيش بها الصدور لم تخرج الى حيز التنفيذ بعد •

وانما تعذر تنفيذ الفكرة على جمالها ونفعها الواضـــح ونزوع أكثر النـاس اليها لما يعترضها من صـعاب ترجع تارة الى النفـوس البشرية وما ركب فيها من حب الغلب والاستئثار بكل الخيرات ، وما طبعت عليه من الطمع والخوف والغيرة ، وترجع تارة الى الفوارق الجغرافية والجنسية واللغوية والدينية وبعد المسافات ، لذلك تلاشت أحلام المفكرين الذين طمحوا الى تشييد طوبى عالمية (١) ، وفشلت مجهودات الساسة والغزاة الفاتحين الذين هموا بتحقيق تلك الأحلام ، وتبين جليا أن تحقيق فكرة السلام العالمى تحتاج الى تربية طويلة للشعوب واعداد للأذهان •

---

(١) دولة فاضلة •

كانت الدول الشرقية الكبيرة التى قامت فى العصر القديم كمصر وآشور وفارس شديدة الاعتداد بقوميتها ، شـــديدة الاحتقـار لغيرها والبطش بجيرانها ، لم يفكر حاكموها قط فى انشاء دولة عالمية على أساس من المساواة بين الناس وان عملوا دائمـا على تأسيس امبراطورية ذات حدود مترامية ، يكون لهم ولأممهم فيها السيادة والغنم ، وللمغلوبين الذل والغرم ، فكانت الحروب مستعرة والرق فاشيا والعلاقات الدبلوماسية السلمية بين الدول تكاد تكون منعدمة ٠

وكان للدين فى تلك الدول المنزلة الأولى ، وعلى ألسن أنبيائهـــا ومصلحيها الدينيين وفى تعاليمهم ظهرت أول دعوات السلام العالمى بغض النظر عن الجنسية والاخاء الانسانى بلا تفـرقة ٠ ففى مصر نادى الملك اخناتون باله واحد لا شريك له يدين له المصريون وغير المصريين جميعا ، لاعتبـاره الجميع أناسا متماثلين واخوانا متساوين ، وان كانت نزعته العالمية هذه قد أغضبت قومه حتى عفوا آثار مذهبـــه بعد مماته ٠ وفى التوراة ترد فقرات تتحدث عن يوم منشود لا تشهر فيه أمة فى وجه أمة سيفا ، وتغدو مصر وآشور واسرائيل أخوات ثلاثا متحابات وان عجت التوارة فى مواطن أخرى بتمجيد اسرائيل والتنبؤ باليوم الذى تدين فيه الأمم لأورشليم وهى صاغرة كما امتلأت ديانات كونفوشيوس وزرادشت وبوذا بمبادىء الاخاء والسلام والمحبة وان لم يحل ذلك دون اشـــتعال الحروب بين أتباعهم وأممهم أجيالا ٠

أما اليونان فكانوا أشد فى العصبية القومية ايغالا ، وفى الاستعلاء على الأمم امعانا ، كانوا يعدون غير الاغريق برابرة ٠ ثم كانت كل مدينة اغريقية تستعلى على المدن الأخرى وتطمح كبراها الى اخضاع الأخريات ، وحبذ أرسطو فى كتاباته ذلك الشقاق ، ورضى عن الرق الذى كان أساس المجتمع الاغريقى ، ولم يناد بوقف الحروب بل عدها سنة طبيعية ، ومجد الموت فى سبيل الوطن ، وكذلك فعل أفلاطون الذى أنشـــأ فى مدينته الفاضلة طبقة من المقاتلة ، ولم يخطر بباله أن السلم العالمى شىء يمكن توطيـــده ٠

وما زالت هذه العصبية المحتدمة والنزعة العسكرية المغرقة حتى دفعتا ببلاد الاغريق الى حرب البلوبونيز المدمرة التى دامت ثلاثين عاما ، خرجت منها البلاد منهوكة القوى ، فوقعت فى يد الاسكندر المقدونى الذى رأى الهلينيين جميعا فى حاجة الى يد حازمة تنشر بينهم النظام والسلام ، بل طمح الى ضم الفرع الآسيوى من الجنس الآرى ، وتوحيـــد الفرس

والاغريق معا فى دولة عالمية تضـــم ما بينهما وما حولهما من الشعوب المتمدينة ، فعمل على نشر الثقافة اليونانية ، وانشأ المدن والطرق فى أنحاء امبراطوريته ، وشجع التزاوج بين الفرس والاغريق ، واتخذ هو نفسه الملابس الفارسية ، بيد أن دولته ما لبثت أن تفككت بمـــوته الباكر ، ولو عاش طويلا لكان لها شأن آخر ٠

ولم تزل الحروب الطاحنة منذ القدم تزهد الناس فى القتال لما تعقب من الوبال ، فتنشط على أثرها الحركات السلمية ، فنشطت هذه الحركات فى بلاد اليونان عقب حرب البلوبونيز وغيرها ، وكان أرفـــع المنادين بالسلم صوتا « زينون » القبرصى المولد معاصر الاسكندر ومؤسس المذهب الرواقى ، وقد انتشر هذا المذهب فى روما الناهضـــة ، واعتنقه بعض أباطرة الدولة الرومانيـــة ، ومنهم مارك أوريل ، فكان لتعاليـم الرواقيين السلمية أثر فى خطة روما تجاه الأمم الأخرى ٠

لم ينزع الرومانيـون الى انشـاء دولة عالميـــة كالتى تصـــورها الرواقيون ، بل كانوا يرون الحرب عـــلاقة طبيعيـــة بين الشعوب ، فاذا تم لهم الغلب على أمة ربطوها بروما برباط من الســـيادة يختلف توثقا من اقليم الى آخر ، ومنحوا أبناءها حقوقا بجانب واجباتهم ، وقد نشرت الدولة الرومانية السلام فى ربوعها المترامية أحقابا ، وان لم تكف عن القتال دفاعا عن حدودها وذودا للبرابرة عن أطرافها ، وكثيرا ما أدخلت هؤلاء فى نطاقها وكسبتهم الى جانب السلم والمدنية ٠

بيد أن الحروب الداخلية والثورات وظلم الطبقات لم تمح من ربوع الدولة ، وكان من جراء هذه المفاسد أن تهيـــأت الأذهان لقبول الديانة المسيحية التى اقترن ظهورها بقيـــام الامبراطورية ، واقترن انتشارهـــا باضمحلال الامبراطورية تدريجا ٠ وقد نادت المسيحية بالســـلام العالمى والاخاء التام بين الناس بلا فارق والمحبة المساواة ، ثم اقترن انتصارها وصيرورتها الدين الرسمى بانقسام الامبراطورية الى شرقية وغربيـــة ، وباتحـــاد الديانة والدولة ، فقدت المسيحية كثـــيرا من نقائها الأول ، اذ صارت لها سلطة كسلطة الأباطرة ، وارتدت تضطهد مخالفيها ، وصار أتباعها لا يأنفون من امتشاق الحسام من أجل الدولة ، ومن ثم لم توفق الكنيسة الى نشر السلام العالمى الذى كان أول تعاليم السيد المسيح ٠

وبسقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدى البرابرة الشماليين ، بدأت العصور الوسطى ، وعاشت فكرة الدولة الرومانية فى غرب أوربا

بعد سقوط روما ، وظلت الأذهان متشبثة بفكرة الدولة العالمية ، وأدى ذلك أولا الى ارتفاع كنيسة روما الى مقام عال وظهور البابوية ، ثم أدى ثانيا الى احياء الدولة العالمية على صورة جديدة هى الدولة الرومانيــة المقدسة التى كانت حاضرتها فى فرنسا تارة ثم فى ألمانيا ثم فى النمسا ، ولكن لا البابوية ولا الدولة الرومانية المقدسة تمكنت من نشر الســلام والاخاء ، بل ظلت أوربا طوال العصور الوسطى تعج عجيجا بالحروب بين الأشراف والأمراء والملوك ، بل احتدم الصراع بين البابوية والامبراطورية نفسيهما ٠

وفى الوقت نفسه استقلت الدولة الرومانية الشرقية فى عاصمتها القسطنطينية استقلالا سياسيا ودينيا ، وسادت بين أوربا الشرقية وأوربا الغربية طوال العصور الوسطى قطيعة سحيقة الهوة ، وظهر الاسلام فى تلك العصــور واقتنص العرب أملاك الامبراطورية الشرقيــة فى آسيا وأفريقيا ، لأن الاسلام على دعوته الى السلام والتآخى كان يحض على الجهاد فى سبيله ونشر دعوته ، وساد العداء طوال العصور الوسطى بين هذه القوى الثلاث المتميزة كل منها بديانتها : أوربا الغربية التابعة للكنيسة الرومانية ، وأوربا الشرقية التى تدين لكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية والشرق الأدنى الذى يسوده الاسلام ، وتجلى ذلك العداء فى أجلى صوره فى الحروب الصليبية التى ختمت تلك العصور ٠

كان الدين متحدا والدولة فى العصور الوسطى : فالخليفة فى بلاد المسلمين يتقلد السلطتين الدينية والزمنية ، والبابا فى أوربا الغربيــة ينتحل لنفسه سلطة فوق سلطة الأباطرة والملوك ، وكذلك الشــأن فى الدولة البيزنطية ، وكان أتبــاع كل دين أو مذهب يكفرون الآخــرين أو يستحلون قتالهم حتى يدينــوا لهم ، فكما كان المسلمون يجاهدون فى سبيل دينهم بقتال الروم غربا والترك والصفد شرقا ، كان أتبــاع البابوية ملوكا واشرافا يخدمونها بقتال العرب أو الســاراسن كمــا يسمونهم ، أو محاربة برابرة السلاف الوثنيين ٠

الدين والدعوة للسلام

لم يكن الناس فى العصور الوسطى يرون فى الدين داعية ســلام كما هو فى حقيقته ، وجل ما يظهرون به تمسكهم بأهداب الدين مقاتلة غير معتنقيه ٠ وفى نفس الوقت كانت ربوع كل دولة من تلك الدول الثلاث

تجيش بالانشقاقات الدينية والحروب الأهلية . فكان الأمراء الاقطاعيون في فرنسا وانجلترا والمانيا وغيرها لا ينقطعون عن التفاني ، ولا يكادون يصيخون الى دعوات البابا . وكانت الدولة الاسلامية نهب المنافسات بين العلويين والأمويين والعباسيين . ونهب المذاهب المشتجرة والفتن المستعمرة كفتن الزنج والقرامطة ، وجملة القول أن الدين الذى انما غايته الأولى نشر السلام ، كان من أكبر دواعي الشحناء والخصام .

بلغ الصراع الديني غايته كما تقدم القول فى الحروب الصليبيه . وبعدها تغيرت رقعة العالم المتمدين وحالته ، فتلاشى العنصر العربي نهائيا من عالم الحكم والسياسة ، وتلاشت الدولة الرومانية الشرقية . وورث الترك ملك الاثنين ، وافاقت اوربا الغربية من دياجير العصور الوسطى ومن عمايات التعصب الدينى ، فنشطت الآداب والعلوم وقام الاصلاح الدينى وهجرت الفكرة الصليبية ، وتقلص سلطان البابا وتوطدت الملكيات فى فرنسا واسبانيا وانجلترا وغيرها . وبالجملة كان عصر النهضة العظيمة ، وعندها نظر الناس الى مسالة السلام نظرة جديدة .

شعر الأوربيون الغربيون بما بينهم من صلات وثيقة فى الجنس والدين والفكر والعلم والأدب : فهم جميعا وارثو حضارة الاغريق والرومان ، وهم جميعا مسيحيون ، والحركات العلمية والأدبية والفنية التى كانت تنتشر فى أمة كانت سرعان ما تعم سواها ، كالطرازين القوطى والرومانتيكى فى عالم العمارة مثلا ، واللغة اللاتينية كانت لغة عالمية بينها . فرأى المفكرون منهم وجوب توثيق الصلات بين أمم غرب أوربا جميعا حتى يسود بينها السلام ، وتنتفي الحروب التى كانت مستعرة . تمزق أنحاءها وتعرقل مساعيها فى سبيل التقدم .

وأشهر من طرقوا هذا الموضوع فى أعجاز العصور الوسطى ومستهل النهضة ثلاثة : أحدهم أديب عظيم هو « دانتى » الايطالى ، والآخر سياسى هو الفرنسى « بيير دوبوا » مشير فيليب الجميل ، والثالث مصلح دينى انجليزى هو « ويكليف » ، وكان هؤلاء وغيرهم يحسون ان عهد الدولة العالمية ممثلة فى البابوية أو الدولة الرومانية المقدسة قد غبر . وان بين الشعوب من الفوارق فى المشخصات ما تستحيل معه الدولة العالمية الموحدة السلطة والقوانين ، فدعوا الى اتحاد الدول والامارات فى اتحاد عام مع احتفاظ كل منها باستقلالها ، ونادوا بمنع الحرب الا فى النهاية القصوى .

بيد أن أولئك المفكرين حتى حين معالجتهم هذه الغاية الانسانية العليا ، لم يكونوا يستطيعون التخلص من عصبيتهم الدينية ونعرتهم القومية ، فدانتي ودوبوا في المشروع الذى رسمه كل منهما للاتحاد الاوربى المنشود قصرا الأمر على مسيحيي غرب أوربا ، أما الترك في شرقها وغيرهم من الأمم غير المسيحية فكان حلالا بل واجبا قتالها ، ومن جهة أخرى يجعل دانتي للايطاليين في اتحاده الدولى المكانة العليا ، ويجعل عاصمته روما المدينة الخالدة ، على حين يجعل دوبوا النفوذ الأكبر في اتحاده للفرنسيين ، لأنهم في نظره أصلح الشعوب للحكم لانقيادهم لداعي العقل ، وتنكبهم سبل الشهوات والعواطف الجامحة ، وكذلك فعل « توماس مور » الانجليزى من رجال النهضة في يوتوبياه ، فبينا يسخر من مطامع ملوك فرنسا في ايطاليا ، يبيح لابناء جزيرته الخيالية التى ليست الا صورة لانجلترا استعمار بقاع أمريكا واخضاع أهلها .

وانما امتاز بالتسامح وسعة الفكر من رجال النهضة كبيرهم ارزمس الهولندى ، فانه وان دعا الى اتحاد مسيحى ، حمل على الحرب حملة شعواء ، ولم يستبح مقاتلة الترك الا دفاعا في النهاية القصوى بعد أن تفشل كل المساعي السلمية ، فاذا وقعت الحرب لزم تجنب سفك الدماء ما أمكن ، ومن أقواله في هذا الصدد : « اذا كان غرضنا الحقيقى أن نوسع أطراف دولتنا ، وكانت ثروة تركيا هي مطمعنا ، فلم نكسو جشعنا الدنيء باسم المسيح ؟ » وهو يرى أن الحرب لاتثمر خيرا لأحد ، وان التحكيم بين كل متنازعين واجب ، والوصول الى حل مرض ممكن لتوافر الرجال ذوى الحكمة والكفاءة ، والمجالس والبرلمانات ذوات المقدرة والنفع، ويقول ان الحرب ليست جميلة الا في عين من لم يرها .

مشروع سولى للسلام

ظلت الفروق الدينية سببا للجفوة لا بين مسيحيى أوربا وبين الترك والشرقيين عامة فقط ، بل بين الأوربيين أنفسهم وبين ابناء الوطن الواحد حتى بعد عهد النهضة ، فقد أدى الاصلاح الدينى الى حروب أهلية ودولية عنيفة في ألمانيا وفرنسا وغيرهما ، ولم تخمد نار الحروب الأهلية الدينية في فرنسا الا على يد هنرى الرابع في أواخر القرن السادس عشر ، وقد اتعظ وزيره العظيم « سولى » بما شاهد من آثار الحروب في فرنسا والخارج ، فاتجه ذهنه الى توطيد السلم بنشر العدل والمساواة والتسامح بين شعوب أوربا ، فوضع لذلك « مشروعه العظيم » .

يرى سولى أن تتحد دول أوربا فى جماعة تفض المنازعات وتحفظ السلام ، ويرى أن تكون الدول متناسبة القوة ليتوطد بينها التوازن ، وهو لذلك يقترح على هنرى أن يساعد الامارات العديدة الخاضعة لآل هابسبرج على التحرر الذى تطمح اليه ، لينقص سلطان الامبراطور الهـــائل الذى ينبسط على أكثر بقاع أوربا ، ولكنه يشترط على ملك فرنسا ألا يحتفظ لنفسه بشبر من الأرض التى يحررها ، ويقترح عليه أن يعطى المثل للأمم الأخرى فيعلن أن ليس لفرنسا مطامع فى الخـــارج ، وانه مستعد لقبول التحكيم فى كل مطالبه ومشاكله الدولية ، وهو يحذر ملوك فرنسا عامة من الاندفاع الى الحروب ، لأن فرنســا لم تكسب من الحروب الخارجية والأهلية فيما مضى نفعا ، ولن تكسب من ورائهـــا فى المستقبل الا عداء الأمم وضغينتها فى الخارج ، وارهاق الأهلين بالضرائب فى الداخل .

وبينما سولى يبذل الجهد فى اقناع الملك بمشروعه العظيم لسلام أوربا الغربية الدائم ، اغتيل الملك وقبر المشروع ، واندلعت نيران الحرب فى أوربا وأشدها هولا حرب الثلاثين سنة فى ألمانيا ، واندفع ملوك فرنسا من بعد ولا سيما لويس الرابع عشر الى الحروب التى كسبت فرنسا من ورائها عداء الأمم وفداحة الضرائب ، وانما خلف سولى على تعهد فكرة السلام الدولى مفكر هولندى عظيم هو « جروتيـــاس » مؤسس القانون الدولى الذى قام بسفارات كثيرة فى فرنسا وانجترا ، وهالته فظائع حرب الثلاثين ودفعته الى الكتابة فى العلاقات الدولية قال : « لقد لاحظت فى سائر بقاع المسيحية اباحية يخجل منها المتوحشون ، اذ يستل الناس السلاح لأتفه الأعذار ، وحالما تعلن الحرب لا ترعى حرمة لقانون الهى أو بشرى ، ولا يكون هناك الا غضب أعمى جائح ، كأنما قد أطلقت أيدى الجميع فى ارتكاب كل أنواع الجريمة » ويرى جروتياس انه كمـــا أن استتباب القوانين فى دولة من الدول لا يكون حتى ينظر الناس الى أبعد من مصالحهم الشخصية ، فكذلك الحال فى العلاقات بين الدول ، ويقترح عقد مؤتمرات دولية من حين الى آخر لحسم النزاع .

كتب جروتياس مؤلفاته فى أوائل القرن الســـابع عشر والحرب الثلاثينية فى عنفوانها ، وفى أواخر ذلك القرن ، وقد انتهت تلك الحروب بصلح وستفاليا الدولى وتأهب لويس الرابـــع عشر لحروبه الطويلة ، تناول موضـــوع السلام الدولى الكاتب السياسى الانجليزى « ويليام بن » الذى أسس مقاطعة بنسلفانيا بأمريكا وعرفت باسمه ومارس فيها مبادئه السلمية ، وقد اقترح فى كتاباته انشاء مجمع أو برلمان أو اتحاد بين الدول يقوم بالحكم فى منازعاتها ، ويكون ذا سلطة تمكنه من تنفيذ قراراته .

روسو واتحاد الدول الأوربية

وفى القرن الثامن عشر كان أكبر المنادين بالسلام العالمى « روسو » الذى كان مربيا عظيما يرى أن الغرض من التربية اعداد الفرد للعيش فى المجتمع ، ويرى ذلك الاعداد أول واجبات الدولة . كان روسو وطنيا يمجد الوطن ، ولكنه يطمح الى ما وراء ذلك ، يطمح الى الدولة العالميـــة التى تنفى الحروب وتبسط السلام ، لان خروج الأفراد من الحال الطبيعية الى تاسيس المجتمعـــات هو تطور نهايته المنطقيـــة تاسيس المجتمع العالمى ، والوقوف عند مرحلة الدولة شر من الحال الطبيعية الأولى ، لأن اجتماعنا فى الدولة بعدد محدود من البشر يجعلنا أعداء لسائر البشر ، ولأن التطاحن بين الدول اشد هولا من الفوضى بين الأفراد ٠

لذلك كان روسو ينادى بانشاء اتحاد للدول الأوربية أشد توثقا من التحالف واقل توثقا من الاتحاد الفيدرالى ، وكان يرى أن اتحادات كثيرة قد نجحت فى أوربا كالاتحاد الألماني والاتحاد الهولنـــدى والاتحـــاد السويسرى ، بل كان يرى الامم الأوربية جميعا مجتمعا متحدا من شـتى وجوه فكرية لموقعها الجغرافى المتقارب ، وماضيها المشترك ، وتوشـــج علاقاتها التجـــارية ، وتعاون أدبائها وعلمائها وفنانيها فى ترقية الثقافة والمعرفة الانسانية ٠ فكان مما يؤسى له أن تظل تلك الأمم الشقيقة فى تفان مستمر لجشع ملوكها الذين لايربحون مع ذلك شـيئا لأن الحرب لا تفيد أحدا ٠

ظهر معظم دعاة السلم فى أوربا من أواخر العصور الوسطى الى النهضة الى القرن الثامن عشر فى فرنسا وهولندا وانجلترا ، لأنها كانت أسبق من غيرها الى التوحد السياسى والرفاهية المادية ٠ فكان فى فرنسا دوبوا وسولى وروسو وغيرهم ، وظهر فى هولندا ارزمس كبير النهضة ، وجروتياس مؤسس القانون الدولى ، وابراهام ويكفورت أول مؤلف فى الدبلوماسية ، وفى انجلترا نادى ويكليف ووليام بن وبيرك بالسلام ، اما اسبانيا فان قتالها ضد المسلمين أحقابا وامتداد سلطانها فى الأمريكتين فى مستهل النهضة ، وامتداد ملكها فى أوربا تحت ملوك الهابسبرج ، كل ذلك بث الروح الحربية فى أبنائها وجعلها تتوجس من كل حركة سلمية قد تؤدى الى انتقاص أملاكها كما كان يرمى مشروع ســـولى العظيم ٠ وأما ايطاليا فكانت متطاحنة منشقة نهب الغارات الأجنبية ، فظهر فيها ميكيافيلى داعية حرب لا سلام ، مجد الحرب وعدها أكبر وسائل الأمير ،

وأعطاه من الوسائل ما هو أشد هولا ، كل ذلك لشدة شعور ميكيافيلي بحاجة ايطاليا الى أمير قادر ينهضها ويوحدها بأى ثمن ٠

وكذلك كانت ألمانيا منشقة على نفسها متفككة تطحنهـــا الحروب الدينية ومنازعات الأمراء ، فظلت فى مؤخرة الأمم الى القرن الثامن عشر ، وحتى مصلحها الدينى الكبير لوثر وافق على الحروب وعدها وسائل طبيعية لعقاب الظالمين والمخطئين ، وكذلك كانت روسيا لتعرضها لغارات البرابرة الآسيويين متأخرة حتى كان أكثر المفكرين السياسيين ينفونها من حظيرة المجتمع الأوربى الذى يشيدونه فى مشروعاتهم السلمية ٠

دعاة السلم فى العصور الأخيرة

فلما كان القرن الثامن عشر ، ضمت ألمانيا صوتها الى أصوات دعاة السلم ، ونادى به من فلاسفتها « كانت » ، ومن أدبائها « جوته » ، وكان «كانت» يرى أن نفس الرغبة فى منع الفوضى التى دفعت الأفراد الى تكوين الدولة ، ستدفع الدول الى تكوين مجتمع دولى ، وأن شرور الحرب هى التى ستعلم الناس بالتجارب المرة ما كانوا جديرين أن يعرفوه بغير ثمن فادح ، وكان لا ينادى بالمجتمع العالمى والسلام فرارا من أهوال الحرب فحسب ، ولكن لعلمه بأن ملكات الانسان العالية لن تزدهر حتى يتوطد السلم ، وأما جوته فقد عرف بحبه للأمم جميعا وهيامه بالآداب الشرقية ومحبته للفرنسيين حتى ابان الصراع بينهم وبين بلاده حتى اتهم بنقص عاطفة الوطنية ٠

وفى القرن التاسع عشر بعد حروب نابليون أصبحت دعوة السلام عامة ، وسمع فيها صوت روسيا من جانب ، وأمريكا من جانب آخـر ، فكان تولستوى من أكبر مبشرى السلام ، بل من جانب روسيا جاء اول مشروع رسمى للســلام يعــده ملك كبير ، فقد كانت مشاريع الســلام الى ذلك العهد أحلاما فى رؤوس الكتاب وبعض السواس ، والملوك لا يصغون الى شىء من ذلك ولا يتبعون الا داعى الجشع ، وان كان الكثير منهم قد ندم بعد فوات الوقت على تهوره فى الحروب ، منهم لويس الرابع عشر الذى أوصى ولى عهده باجتناب الحروب ، وبمثل ذلك أوصى نابليون ابنه فيما كتب فى منفاه ، وقد وصف فردريك الأكبـــر بلاده بعــد حـــرب تسع السنوات وصفا مؤسيا ٠

كان قيصر روسيا أول ملك دعا الدول الى الاتحاد لنشر السلام وفض المنازعات ، وسمى مشروعه بالحلف المقدس ، ولم ينجح تمام النجاح لعدم تهيؤ ساسة الدول الأخرى للفكرة • وفى خلال القرن التاسع عشر عقدت مؤتمرات دولية كثيرة ساعدت على حل مشاكل كثيرة وان لم تقطع دابر الحروب ، وعقدت مؤتمرات أخرى لتقييد التسلح ، وأنشئت محكمه لاهاى الدولية ، وما زال ساسة الولايات المتحدة من القرن الماضى الى الحاضر يقودون خطى الدول الأوربية الى السلام والتعاون ، ويضربون لها فى ذلك المثل بعقد المؤتمرات وابرام المواثيق ، وبنزعهم التحصينات على طول الحدود بينهم وبين كندا ، وبفضل ساستها أنشئت جمعية الأمم الحالية على ما بها من مواطن الضعف ، وقد صار حلم الأوربيين اليوم أن يفوزوا عما قريب بولايات أوربية متحدة ، كالولايات الأمريكية المتحدة •

المثل الأعلى للدولة الحديثة

بدهي ان الدولة انما وجدت لتوفير السعادة للفرد ، اذ مال الانسان بطبعه الى التعاون مع بني جنسه لتحقيق مطالبه ودفع الغوائل عن نفسه • وخير الدول هي تلك التي تحقق للفرد ذلك الغرض • وفي المقال التالي يعرض الكاتب شروط الدولة الصالحة ويبسط جوهر الديمقراطية الحديثة •

قاسى الانسان بلاء كثيرا في العصور الماضية من جراء نقص النظم السياسية التي اختارها لنفسه أو التي قادته اليها المصادفات والظروف الجغرافية ، وما اختلط بها من جهل الحاكمين والمحكومين ومن طمع أرباب السلطة وجشع الأقوياء • فشهدت العصور السالفة ملكيات مستبدة قامت لتوفير سعادة الأفراد فارتدت حربا على الأفراد ، وشهدت طبقات استأثرت بالسلطة والثروة دون غيرها واذاقتها النكال ، وشهدت ألوانا تقشعر لها الأبدان من اهراق الدماء واهدار الحقوق ومصادرة الحريات وخنق الأفكار واضطهاد الآراء والعقائد •

في أرض يونان

عرف اليونان نظم المدن الحكومية المستقلة بعضهـا عن بعض • وكانت الديمقراطية تسود في كثير منها ، ولكنها كانت ديمقراطية يداخلها فساد كثير ويصحبها الرق وتشتعل في ظلها الحروب بين هاتيك المدن المتنافسة ، حتى جاء نظام الملكية المستبدة على يد الاسكندر المقدوني يقضي على تلك الفوضى المختلطة وينشر النظام • ولكن نظام الملكية المطلقة في بلاد الاغريق وغيرها من بلاد الشرق والغرب قد عرف له مثالبه ، عرف

بالتجربة أن السلطة المطلقة التى لا يؤاخذها مؤاخذ سرعان ما تعتقد فى أحكامها العصمة والتنزه عن الخطأ ، وسرعان ما تعد بقاء الأمر فى يدها ضروريا لسلامة الدولة ، وترى مصالحها فوق مصالح المحكومين ، ويدب الترف والفساد فى قصورها ، وتندفع تدريجيا الى توسيع نفوذها ومصادرة كل حرية للرأى واخماد كل نقد أو اعتراض ٠

وعرف اليونان فى بعض أطوار تاريخهم وعرف الرومان وغيرهم نظام الأرستقراطية حيث تنفرد طبقة دون طبقة بالثروة والعلم والسلطة ٠ وذاك نظام له ميزاته ولكن مثالبه كثيرة والفساد سريع اليه ، اذ يندفع أبناء تلك الطبقة الممتازة مثل اندفاع الملكية المطلقة الى الاستبداد بعامة الشعب وتقديم مصالحهم على غيرها وتوسيع مدى امتيازهم وتحكمهم يوما بعد يوم ٠ ويكون امتيازهم بامتلاك الثروة مساعدا لهم على استرقاق من لا يملكونها ٠ ثم عرف الرومان نظام الامبراطورية المترامية الأطراف فلم يكن تاريخها الا صراعا مؤلما مستمرا للاحتفاظ بكيانها دون عاديات الفناء التى تتعاورها من الداخل والخارج ، ناسية فى أثناء ذلك كل النسيان الغرض الأول لقيام الدول ، وهو سعادة الفرد ٠

وفى ظل هاتيك النظم جميعا قاست المجتمعات صنوفا من المساوىء والبلايا من تحكم القوى فى الضعيف والغنى فى الفقير والسيد فى العبد ، ومن سطوة الدولة على آراء الناس ومعتقداتهم ولا سيما الدينى منها ٠ وأروع أمثلة ذلك اضطهاد أباطرة الرومان للمسيحيين فى أول انتشار تلك الديانة ، ثم اضطهاد أخلافهم للوثنيين بعد ذلك حتى هاجر من هاجر من علماء الوثنية الى فارس وغيرها من بلاد المشرق ، ثم الحروب الدينية الأهلية التى استعرت فى فرنسا واسبانيا وألمانيا على عهد النهضة الحديثة ٠

دروس وعبر للانسان الحديث

ما زالت تلك الدروس الغالية الثمن تعظ الانسان حتى انتهى الى النظام الحديث للدولة الذى يمتاز على سالف الأنظمة بما استفاده الانسان من تلك التجارب ٠ وما زالت مع ذلك تخالطه نقائص وعيوب هى من أثر الماضى وتراثه الوخيم ، لم يتلقن الانسان بعد دروسها ولم يع مواعظها ، ولم يبلغ تململه من مغباتها حد الثورة عليها والاقلاع عن عقائده

وتقاليده الخاطئة التى تفرض عليه تلك النظم فرضا ، ولم يتنبه الا خيرة المفكرين والباحثين فى السياسة الى تلك المثالب ، فهم ينادون باصلاحها فتلقى دعوتهم من الاعراض أو الاستنكار ما تقابل به كل دعوة جديدة ، والزمن كفيل بتحقيق كل الدعوات واطراد ذلك الرقى ·

عرف الانسان حديثا أن خير الدول تلك التى تقوم على أساس من وحدة جغرافية تصحبها وحدات فى القومية والشعور والمصالح ، ويتولى الحكم فيها لا فرد مستبد ولا طبقة ممتازة بل الشعب بأكمله ، ويتساوى الناس فيها أمام القانون فى حقوقهم وواجباتهم ، وتسود فيها الحركة بشتى ضروبها – من حرية الفكر والاجتماع والمهنة والمسكن والحرية الشخصية وحرية العقيدة الدينية والسياسية – وتتقيد فيها الحكومة بشتى القيود التى تكف غائلتها عن حقوق الأفراد وتصرف وجهتها دائما الى استصلاح أحوالهم · وبالجملة غدا الناس اليوم أشد شعورا بالغرض من الدولة وأشد مطالبة للدولة القائمة بتحقيق الغرض من قيامها وأسرع الى مؤاخذتها وردها ان حادت عن أداء مهمتها · ولم يعد الحكم حقا مكتسبا ولا موروثا لفرد أو فئة كما كان فى سالف الدهر ·

غدا الشعب فى العصور الحديثة لا يؤله حاكميه كما فعل القدماء ، ولا ينصاع فى صمت لما يأمرون ، ولا يرى السلطة حقا لفريق منه دون فريق · انما صارت الحكومة لدى الشعوب الراقية هيئة من الهيئات العامة الكثيرة التى تقوم على التعاون وترمى الى مصلحة المجموع كالشركات والجمعيات الاقتصادية والصناعية وغيرها ، يراقب الشعب أعمالها ويشارك فيها وينقدها ويقومها ويحد سلطتها ما استطاع ، لا يسمح لها بالتدخل فى شؤونه الا فى الضرورة القصوى ·

فالدولة وسيلة لا غاية فى نفسها ، وسيلة لتحقيق السعادة للفرد وتهيئة التعاون بين الأفراد · وسعادة الفرد فى تمتعه بكل حرياته التى تهبه اياها الطبيعة وحقوقه التى تولد معه · ولكن اجتماعه بغيره وتعاونه معه يدعو الى تنظيم علاقاته بالآخرين حتى لا تصطدم حريات فرد بحريات غيره ، ولا تطغى حقوق هذا على حقوق ذاك · وهذا التنظيم يستدعى حدا من حريات الفرد وحقوقه ، ويستدعى تحميله بعض الواجبات فى نظير ما يتمتع به فى المجتمع من مزايا · وواجب الدولة تنظيم هذه العلاقات وتنسيق هذه الحقوق والواجبات دون أن تحد من الحريات حدا لا توجبه الضرورة القصوى ودون أن يستفيد القائمون بالحكم فائدة خاصة ·

شروط الدولة الصالحة

فاول شروط الدولة الصالحة أن تدع للأفراد أوفر قسط ممكن من الحرية ، لأن الانسان بطبعه يعشق الحرية ، ولأن الحرية لازمة لنشاطه الفكرى ونجاحه المادى · ثم ان حرية الفكر والاجتماع لازمة لاطراد رقى المجتمع وتوثق العلاقة بين الشعب والحكومة وتوفر الحكومة على أداء واجبها نحو الشعب ، لأن الحكومة التى تريد مخلصة خدمة مصالح الشعب وتحقيق رغباته لابد لها أن تعرف ما تلك المصالح والرغبات · ولا سبيل الى معرفتها الا بالاصغاء الى صوت الشعب ممثلا فى كلامه وخطابته وكتبه وصحافته واجتماعاته · ويمكن تقدير مدى اخلاص الحكومة فى خدمة شعبها بمقدار الحرية التى تتركها له فى نقدها · ولن تقيد حرية الفكر فى دولة الا أن تكون هناك مساوىء يراد حمايتها ، وامتيازات جائرة يخشى عليها صوت العدل ·

ولن تتوطد الحرية فى دولة حتى تتوطد معها المساواة : لأنه اذا كانت هناك طبقة ممتازة على غيرها بامتلاك الثروة والحق فى الحكم فانها ستتوفر على مصالحها الخاصة ونعمل جهدها لغبن الطبقة المحرومة ، ومن ثم تجب المساواة بين جميع الطبقات والأفراد فى حق الملكية والعمل والاشتراك فى الحكم · والمساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية تسير عادة جنبا الى جنب ، فان الطبقة الفقيرة المعدمة لن يقام لرأيها وزن فى الحكم ، كما أن الطبقة المزوية عن الاشتراك فى التشريع والتنفيذ ستهمل مصالحها الاقتصادية والاجتماعية عند وضع القوانين وتنفيذها ·

ان المساواة بين الناس فى الحقوق أمر بدهى تقضى به طبيعة الاشياء ، اذ كان الناس جميعا منذ يولدون متشابهين طباعا وغرائز ورغبة فى التمتع بالحياة · فواجب أن تمنح لهم جميعا الفرص اللازمة لذلك التمتع كل قدر استطاعته على ألا يجور على غيره · على أنهم مختلفون ذكاء واقتدارا · وهذا الاختلاف الطبيعى وحده هو الذى يجب أن يعين الفرق بينهم لا القوانين التعسفية التى تضعها الدولة تحابى بها طبقة أو طائفة أو عنصرا أو جنسا أو اتباع مذهب خاص · وقد كان عدم المساواة فى شتى عصور التاريخ من أكبر أسباب الثورات ·

فاذا تحققت هذه المساواة بين الأفراد فى الحقوق السياسية والاجتماعية كانت الديمقراطية · فالديمقراطية قرينة الحرية والمساواة ، وكلها من ميزات الدولة الحديثة ومن شروط تادية الدولة الغرض الذى

قامت من أجله منذ أقدم العصور وهو اسعاد الفرد • والحكم الديمقراطى هو الحكم الطبيعى الذى أفسدته على الانسان شتى العوامل التاريخية فى قديم العصور ، حتى هدته اليه تجارب القرون ودروس الماضى — أى بعد أن بلا ما بلا من تحكم الفرد وتعسف الطبقات •

تعريف الديمقراطية

الديمقراطية هى أن يشترك الشعب كله فى تدبير شؤونه • وبهذا وحده يضمن أن تدار تلك الشؤون على ما يريد • وهذا يتأتى فى العصور الحديثة بوسائل تزداد توطدا : منها أن للشعب كله الحق فى انتخاب حاكميه واعادة انتخابهم فى فترات متقاربة حتى لا تطغيهم السلطة ولا تأخذهم العزة ولا يعودوا فى نظر أنفسهم غاية فى أنفسهم ولا يبعد بهم غرور السلطة عن مشاعر المحكومين ورغباتهم ، ومن تلك الوسائل ابداء الآراء فى المجتمعات وعلى صفحات الكتب والصحف • ومنها اللامركزية فى الحكومة — وهى سنة تزداد توطدا فى الأمم الراقية •

فانه لما كان الغرض من الحكومة تدبير شؤون الأفراد ، وكان الأفراد فى جهة من جهات الدولة أدرى الناس بشؤونهم ورغباتهم ، كان بدهيا أن يترك لهم تدبير كل ما يخصهم ولا يتعداهم الى غيرهم ، فان قيامهم هم بأنفسهم بذلك ضمان لتحقيق رغباتهم على الوجه الأكمل ، ومشاركتهم فى وضع النظم والقوانين يجعلهم أحرص على تنفيذها واطاعتها ، واضطلاعهم بأعباء الحكم يكسبهم خبرة سياسية تجعل منهم مواطنين صالحين • والقوانين المفروضة من سلطة مركزية بعيدة هيهات أن تتوخى من حاجات الاقليم ما تتوخى القوانين المحلية ، ومهما قصد منها النفع فان القوانين التى يضعها أبناء المقاطعة بأنفسهم أنفع •

ومبدأ اللامركزية هذا لا يتبع فى الدول الراقية فى شأن المقاطعات المختلفة فحسب بل فى شأن الهيئات والفئات المختلفة أيضا ، كالمؤسسات الدينية والعلمية والنقابات الصناعية والتجارية واتحادات أرباب المهن المختلفة • كل هذه تترك لها الحكومة استقلالا داخليا كبيرا ، تنظم شؤونها وتتحرى مصالح أفرادها ، ولا تتدخل الحكومة الا بقدر ما يلزم لرعاية المصلحة العامة ، ولا تحتفظ الحكومة المركزية بعد هذا الاستقلال الكبير الذى تحظى به الحكومات المحلية والهيئات الا بالعام من السلطات والتشريعات التى تمس البلاد بأجمعها •

والدولة الحديثة على هذا النحو تجمع بين محاسن النظام الملكى الذى عرف في الشرق القديم حيث تتجمع السلطة في يد مركزية تنشر النظام والوحدة ، وبين نظام المدن الحكومية الاغريقيه حيث ينظر أبناء المدينة او الاقليم فى شئونهم بانفسهم • تجمع الدولة الحديثة القائمة من جهة على اساس القومية ، ومن جهة على أســاس اللامركزية الحكومية ، بين محاسن ذينك النظامين وتتجنب مساوئهما •

الشعب فى الدولة الحديثة

والشعب فى الدولة الحديثة رغم مشاركته الى ذلك المدى البعيد فى ادارة الحكومة لا يمنحها ثقته المطلقة ولا يستنيم الى ترك حرياته فى يدها ، انما يقيم عليها الأرصاد والعيون ، ويحف سلطتها بشتى القيود • ومن وســائله فى ذلك الفصـــل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، فقد أثبتت تجارب الماضى أن الحكومة التنفيذية لا تحسن القيام على التشريع ولم تتناول وضع القوانين وتطبيقها يوما الا نتجت عن ذلك مساوىء ومضى موظفوها فى سبل التعسف والتحيف للشعب والتزيد من السلطة • ثم من وسائل الحد من سلطة الحكومة فصل القضاء عنها وضمان استقلاله • والقضاء فى الأمم السكسونية مفزع الشعب من الهيئة التنفيذية ، ان بغت على حقوقه كانت الهيئة القضائية حكما بينهما •

فالمثل الأعلى للدولة الحديثة هو أن يتولى الشعب نفسه حكم نفسه بمشاركته فى الحكومة الى أقصى مدى ممكن ، وبرقابته عليها ، وتمام حريته فى انتقادها ، وبتعاونه واياها على اصلاح المساوىء وإستنباط خير أساليب الحكم والاجتماع • والدولة التى هذه حالها لابد أن تكون ديمقراطية تســـود فيها الحرية والمســـاواة وتنعدم فيها الفوارق فى الامتيازات والحقوق • وآية الدول المتقدمة التى اقتربت كثيرا من ذلك المثل الأعلى تصاغر تلك الفروق بين الأفراد والطبقات ، على حين تبدو تلك الفروق بين علية القوم وسفلتهم ضخمة هائلة فى الدول التى ما تزال أقرب الى طراز العصور القديمة منها الى المثل الأعلى الحديث •

العلم دعامة الحرية

وليشارك الشعب فى حكم نفسه على هذا النحو لابد من شرط أساسى هو حسن تعليمه • فالجاهل لا يقدر قيمة الحرية ان أعطيت له ، ولا يعرف كيف يجاهد من أجلها ان هو سلبهـــا ، ومهما كانت حرياته وحقوقه

السياسية فانه ما بقى على جهله سيفقدها شيئا فشيئا حتى يرتد عبدا لمن هم أعلم منه واقدر . ومن ثم كان نشر التعليم من أول واجبات الدولة الحديثة ، وكان التعليم الالزامى من خصائص هذه الدولة . ولا ريب فى أن الزام الفرد بالتعلم حد من حريته يضاف الى الحدود الأخرى ، ولكنه حد له ما يبرره .

ولكى يثمر التعليم ويؤدى الى اخراج مواطنين صالحين يجب أن تكون حرية الفكر والتسامح لا ضيق الذهن والتعصب رائد القائمين به . يجب ألا يثبت فى ذهن الناشىء أن أمته خير الأمم ، وأن تاريخها لا يحتوى الا على مفاخر ، وانها لم تخطىء يوما ، وان أنظمتها كاملة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فان أمثال هذه التعاليم تخرج ذهنا مغلقا لا يطمح الى اصلاح ولا يوافق على تغيير .

ان التسامح قرين الحرية ، واتساع الذهن شرط أساسى للترقى . فالمرء لن يستحق الحرية ولن يعرف قيمتها حتى يسمح لغيره بها . ولن يتلافى عيوبه وأخطاءه حتى يدركها ويعترف بها . ومن ثم وجب أن ينشأ النشء على سعة الذهن والتسامح . وكلما توطدت الحرية واتسع نطاق التعليم فى الدولة بطل الحجر على حرية الفكر والثورة على آثار بعض الكتاب أو الشعراء أو المصورين أو العلماء بحجة منافاة آثارهم للتقاليد أو الديانات . ولم يعد الشعب يفرق من كل ما يخالف عقائده ، أو يندفع الى محاربة من يخالفها ، بل يتقبل جديد الأفكار بصدر رحب ، فان كانت حقا قبلها واستفاد منها ، أو باطلا أعرض عنها فى غير جلبة ، فقد أثبتت تجارب الماضى أن ما يعد اليوم هرطقة أو اباحة يصبح فى الغد أحيانا عقيدة راسخة أو حقيقة عادية .

وليس ما يتعلمه الفرد فى صغره هو كل ما يوجه فكره فى مقبل حيـــاته ، بل قد جدت فى الدولة الحديثة عوامل شديدة الأثر ، منها الصحافة ، ومنها الراديو . هذان يوجهان الرأى العام بما ينشران من الحقائق التى يمليها الاخـلاص أو الأكاذيب التى توحى بها الدعاية . وكلما تنورت حكومة دولة وانتشرت الحرية فى الشعب وتشرب الديمقراطية الصحيحة تغلبت الحقائق على الأباطيل فى تكوين الرأى العام فيه . وكل جهد فى حسن توجيه الرأى العام وتغذيته بالحقائق وتحذيره من الأباطيل جهد غير ضائع ، لأن الرأى العام كما يتضح مما تقدم هو الذى يحكم فى الدولة الحديثة ، وأيا كانت النظم السائدة فى دولة فان الرأى العام مرجع الحكم فيها . ولن تدوم الحرية والمساواة والديمقراطية فى

الدولة الا اذا واصل الرأى العام سهره عليها وأبدى استعداده للدفاع عنهـا ٠

هذه الدولة المثالية ـ التى تقرب منها الدول الحديثة وتبعد كل على حسب حظها من الرقى السياسى والاجتماعى ـ التى تسود فيها الحرية والديمقراطية والمساواة ، ويقوم فيها الشعب على شئون نفسه ، وتعمرها حرية الفكر والتسامح ٠٠ هذه الدولة خطوة أكيدة شعر أهلهـــا أو لم يشعروا نحو الدولة العالمية المرجوة ٠ ففى هذه الدولة يثور الرأى العام على الحرب وينفر من فكرة استعبـــاد الشعوب الأخرى ويميل برغبة انسانية أكيدة الى مصافاة تلك الشعوب والتفاهم معها والتعاون واياها ٠ فكل خطوة تخطوها الدولة نحو الحرية والمساواة والديمقراطية يخطوها العالم نحو الدولة العالمية ٠ وفى تلك الدولة العالمية تحتفظ كل دولة بمشخصاتها الحالية احتفاظ كل مقاطعة فيها بحكومتها اللامركزية ٠٠

الديمقراطية : ضمان الرقى الانسانى

بعث الينا بهذا المقال المرحوم فخرى ابو السعود قبل وفاته بقليل . وهو مقارنة قيمة بين الديمقراطية والديكتاتورية .

لم يظهر الحكم الديمقراطى فى الدول القديمة الا نادرا ، فعرفته مدن الاغريق وروما فى بعض عهودها ، ولم يظهر فى العصور الحديثة الا أخيرا ، اذ تتابعت الحركات الوطنية فى بلاد أوربا والعالم المتمدين جميعا مطالبة بالدستور مصرة على حكم نفسها بنفسها مقتبسة النظام البرلمانى الانجليزى . وهذه الندرة وهذا التأخر فى ظهور النظم الديمقراطية دليلان على أنها نبت عزيز لا يزكو فى كل البقاع والظروف ولابد لنموه من توفر صفات خاصة فى الشعب ووصوله الى حد معلوم من الرقى والتنوير والنضج . فالشعب الحائز لهذه الصفات هو الذى يصر على حكم نفسه بنفسه ويستطيع القيام بذلك . أما الشعب الذى لم يسر التنور والنضج السياسى بين أفراده فيستسلم للحكم المطلق .

الديمقراطية وخصومها

على أن الديمقراطية لم تعدم خصوما منذ القديم ، لا من الطغاة المستبدين الراغبين فى استعباد الشعوب وحدهم ، بل من كبار المفكرين أحرار الفكر الذين يسوؤهم ما يرون فى الديمقراطية من مكانة للعامة وحفاوة بالدهماء لا يستحقونها ، فيدفعهم حبهم للتسامى عن كل ما هو سوقى ومبتذل وطموحهم الى المثل الأعلى الى النقمة على الديمقراطية والمناداة بالأرستقراطية الذهنية أو الى تفضيل المستبد العادل ظالمين الديمقراطية فى ذلك وآخذيها بغير جريرتها ، وحاكمين عليها بشرارها ، وانما يجب أن يحكم على الديمقراطية بالمبدأ الجليل الذى تقوم عليه ، وهو أن يحكم الشعب نفسه . وليس الشعب كله سوقة جهالا . والديمقراطية هى نظام الحكم الوحيد الذى ينتهى الى تحسين حال أولئك العامة وتنويرها ورفع مستواهم حتى يعودوا مواطنين صالحين كغيرهم .

فقد صـــور أفلاطون الديمقراطية صـــورة زرية : فلا نظام هناك ولا مسئولية ، وكل فرد يهمل عمله ويتدخل فى شئون غيره ، والمهرجون يستثيرون العامة فيكثر اللغط ولا ينفذ عمل · وفى العصر الحديث سدد سهام النقــد الى الديمقراطية مفكران عظيمان مجددان ينتميان الى مهد الديمقراطية الحديثة ويعدان فيها من رواد الحرية وطلائع الاشتراكية ، وهما برنارد شو ، وولز ، فالأول يرى أن البرلمانات تتكلم بدل أن تعمل ، والوزراء يضـــيعون وقتهم فى الرد على الســفسطة بدل أن يحكموا ولا يتساءلون حين يقدمون على عمل : « هل هذا ما يتطلبه الموقف ؟ هل هذا صواب ؟ » وانما يسألون أنفسهم : « هل هذا يحوز الرضى ؟ هل هذا يثير معارضة ؟ » ، وتغدو صفات البراعة الجدلية والمقدرة الخطابية أهم لديهم من صفات الحكمة والحزم والنظر البعيد ، وتحرم البلاد خدمات الساسة الذين يترفعون عن تمليق العامة فيزهدون فى الحكم ·

ويرى شو كذلك أن الفرد العادى لا رغبة له فى الاشتراك فى الحكم ، ولا يحب أن يفكر فى وسائله · وانما يؤثر أن يتولى ذلك عنه آمر يأمره فيأتمر ويلقنه فيعتقد، وأن نزعة الانقياد هذه الكائنة فى نفس الفرد العادى هى التى جعلت الكنيسة والجيش فى مختلف العصور أحب الأنظمة الى نفســه وأعلاهـــا مكانة لديه · ويرى شـــو أن الفرق بين الديمقراطية والدكتاتورية أن الدكتـــاتور يحكم بأمره دون تردد ، بينما الحـــاكم الديمقراطى يتملق الشعب ويخادعه ليفهمه أنه انما ينفذ مشيئته ويحكم على هواه ، وفى كتابه « يوتوبيا حديثة » دعا شو الى حكومة من المفكرين الخبراء ·

أجل من المفكرين الخبراء : فمن الآراء الشائعة اليوم أن الخبراء فى الاقتصاد خاصة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يحكموا الدولة الحديثة بعد ما عظم حجم هذه الدولة وتشعبت شئونها وتعقدت مصالحها ، وبعد أن ارتدت العوامل الاقتصادية التى تسود العالم الآن هائلة معقدة مترامية التأثير من جراء التقدم العلمى والصناعى الحديث ، ومن جراء رقى وسائل المواصلات الذى رد العالم أجمع وحدة اقتصادية يتأثر قاصيه بدانيه ، فى مثل هذا العالم لم تعد الديمقراطية فى نظر أولئك المفكرين نظاما للحكم صالحا ، لم يعد رجل الشارع مرجعا يهتدى برأيه فى تسيير أمور الدولة ، وانما مرجع ذلك الخبير العالم ·

فهذا عيب من عيوب النظام الديمقراطى فى نظر خصومه . وهو جهل الفرد العادى الذى هو مرجع قيام الحكومات وتعيين سياستها بشئون العالم الحديث المعقدة .

والعيب الثانى بطء النظام الديمقراطى وتعثر خطواته فى عصر السرعة المندفعة ، ولا سيما فى أوقات الأزمات والحروب . ثم هناك عيوب أخرى فى نظر ناقدى الديمقراطية ، منها أن النظام الحزبى بطبيعته مفسد للسياسة معرقل لأعمال الحكومة ، فالمعارضة تعارض لمجرد الرغبة فى النقد والتجريح . واذا ما تولت الحكم بعد خصومها نكثت فتلهم وعفت على أعمالهم وبدلت سياسة بسياسة . وبذلك تحرم البلاد الاستقرار والاطراد اللازمين لكل رقى ونجاح .

يرى نقاد الديمقراطية أن هذه العيوب تجعل الديمقراطية شكلا للحكم غير صالح للعصر الحديث ويرون أن هذا سبب تقلصها من كثير من الدول حيث حل الحكم المطلق محلها فجارى عصر السرعة والتقدم العلمى والتوسع الاقتصادى وقام بجلائل الأعمال .

ان التطور العلمى الآلى الحديث ، هو الذى أدخل الاضطراب فى حياة الناس الاقتصادية والاجتماعية ، حتى تبرم منهم من تبرم بالنظم السياسية القائمة لتخلفها عن مسايرة هذا التطور وقصورها عن حل مشكلات القوم وتوفير مطالبهم . وهذا جعلهم يقبلون فى بعض الدول النظام المطلق المستبد ، اذ استغل الدكتاتوريون هذه الظروف المقلقلة واستغلوا أتم استغلال وسائل الدعاية التى وفرها العلم الحديث كالراديو وغيره ، وساعدهم ذلك الاستغلال على الوصول الى الحكم ثم ساعدهم على الاحتفاظ به والبطش بمعارضيهم ، ولكن الاستعاضة عن الديمقراطية بالدكتاتورية ليس هو الحل المعقول لمشكلات الدولة الحديثة ، انما الحل المعقول تعديل بعض نظم الديمقراطية ووسائلها لكى تساير التطور وتعالج الأحوال الجديدة .

الديكتاتورية نظام شاذ

ان الدكتاتورية أو الحكم المطلق بطبيعته نظام شاذ ، اذ يستبد فرد بالسيطرة على مصائر أمة فلا يقوم هذا النظام الا فى شعب لم يبلغ بعد حد النضج السياسى والثقة بنفسه ، أو شعب فقد تلك الثقة بعد آن

كان حائزا لها وأسلم مقاليـــده الى فرد ارتقى الى قمة الحكم فى أعقاب انقلاب • ولشذوذ الدكتاتورية فى منشئها تظل دائما أبدا شاذة فى وسائلها : يرتقى الدكتاتور الى الحكم للتغلب على أزمة أو حالة طارئة ، ولكنه بعد انحسار تلك الأزمة يأبى التخلى عن الحكم ، اما استمراء له أو مخافة انتقام معارضيه • ولشعوره بوجود أولئك المعـارضين يلجأ الى وسائل الارهاق والمصادرة وخنق الحريات • وقد عرف من قديم أن ليس شيء يفسد الخلق الانسانى مثل حيـازة السلطة المطلقة ، ومن ثم فان الدكتاتور الذى يستولى على الحكم وملء نفسه رغبة الاصلاح كثيرا ما يرتد شريرا ويمعن فى الفساد •

وحتى حين يظل الحاكم المطلق خيرا طيب النوايا تجاه شعبه ، كثيرا ما يشقى به وبحكمه الشعب ، لأن الحاكم يشرع للشعب ولا يخضـع لتشريعاته تلك ولا يستطيع أن يضع نفسه موضع شعبه ، وواجب ألا يسن القانون الا من يخضع له ويحس بأثره ، وقد رأينا أن الدكتاتورية لا تنجح فوق نجاح الديمقراطية فى معالجة شؤون الاقتصاد وعوامله الهائلة التى يخبط فيها العالم ، وانما الدكتاتورية لتخفى حبوطها وتخمد المعارضـة وتبرر وجودها وتدعو الشعب الى معاضدتها والوقوف بجانبها ، ما تزال تعنى بالمظاهرات والاستعراضات واقامة الحفلات والأعياد القومية ، وتغالى فى تمجيد القوة الحربية والاشادة بالأمانى القومية والدعوة الى الثأر والتغلب والاعـــلان انهـا تحـكم لتدفع خطرا أو تحمى الدولة أو تفتح امبراطورية أو تحمى المدنية ، وما تزال فى خطبهـــا الرنانة وحماستها المفتعلة حتى تنساق الى الحرب راغبة أو مكرهة •

فالحكم الدكتاتورى لا ينجح كما يتبجح به فى السيطرة على العوامل الاقتصادية العالمية التى تتأبى على السيطرة ، وهى تشغل الشعب عن سوء حالته بسفساف الأمور وتهيج فيه غرائز وعواطف ليست هى بخير ما فى البشرية من غرائز وعواطف وقد تسوقه هذه الانفعالات الى الحرب ثم ان الدكتاتورية فوق هذا وذاك تخمد النشاط الفكرى فى بلادها أيما اخماد ، فهى لا تطيق النقد ولا تقوى على احتمال المعارضة وهى لذلك تشرد كل ذى رأى وتسجن أو تعدم كل معارض ، وهى تحل الجماعات والنقـابات الحرة وتستغنى عنها بالجمـاعات الرسمية التى تشرف عليها الحكومة وهى تحجر على الصحافة والأدب والفن والعلم لا تنطق هذه كلها الا بما تشاء الدكتاتورية وان جانف الحقيقة ، وهى تستأثر بوسائل الدعاية من كتابة وخطابة وصحافة وراديو وسينما وتقيم للدعاية وزارة خاصة تحاول السيطرة على عقول الناس وهى بعد ذلك تسيطر على التعليم وتوجهه •

تتحكم الدكتاتورية فى مناهج التعليم وكتبه وأغراضه ، فلا يلقن النشء الا ما تريد أن يلقنوه ، وينشأون على تمجيدها والايمان بها . لا تحاول تنمية عقولهم بل تنمية استعدادهم لقبول ما يلقنون من آراء الآخرين . ولا تعمل على ابراز شخصياتهم مختلفة متباينة ، بل تسعى لصبهم فى قالب واحد معلوم ، واخراجهم متماثلين فكرة واتجاها وعقيدة ، ليكونوا لها جندا منصاعين . فالدكتاتورية تضيق ذرعا بالفردية والشخصية المتميزة ، والعلاقة بين الدولة والشعب فى هذا الصدد متبادلة : كلما تماثل أفراد الشعب واتحدت عقلياتهم ، ساعدوا على قيام الدكتاتورية وتوطدها ، وكلما بقيت الدكتاتورية وتوطدت عملت على توحيد العليات ومحو التميز والاختلاف .

ان الحكم الدكتاتورى يقف تقدم الانسانية ويرجع بها الى الوراء لأنه مضاد للحرية والحرية أساس كل نشاط انسانى ، محارب للحقيقة وبغيرها لا يكون تقدم ولا هداية ، مخمد للنقد وهو سبيل كل اصلاح ، مقيد للعقل وهو أساس الحضارة . فالفرق بين مجتمع متحضر ومجتمع متوحش أن الأول يسود فيه العقل والثانى تتحكم فيه الغريزة والعاطفة والخرافة والوهم ، ومن ثم تنتكس القيم فى الأمة المبتلاة بحكم الفرد المستبد ، ومن ثم تضمحل العلوم والفنون فى ظل الحكم المطلق على حين تزدهر فى كنف الديمقراطية . فقد ازدهرت العلوم والفنون فى بلاد اليونان الديمقراطية ولم ينبغ فرد واحد فى علم ولا فن فى بلاد مقدونيا الملكية المطلقة ، وظهر الشعراء والخطباء فى روما الجمهورية وانحدرت الخطابة والشعر والفنون عامة فى ظل الامبراطورية .

وازن حالة الارهاب وخنق الحريات واضطهاد الآراء فى ظل الحكم المطلق ، بما يسود فى ظل الديمقراطية من تسامح وحرية ورحابة صدر بالنقد وترحيب بالجديد من الأفكار وحرص على توخى الحقيقة : قال الفايكاونت مورلى : « ان من يعبث بالحقيقة لأى غرض كان يعبث بالقوة الحيوية الدافعة للرقى الانسانى » ، وقال جون ستيورات مل : « لا يجوز للبشر أن يحدوا من حرية فرد منهم فى العمل الا لغرض واحد هو حماية أنفسهم » ، وقال أيضا : « لو كان البشر أجمعون الا واحدا على رأى ورجل واحد على نقيضه لما جاز للبشر مجتمعين أن يسكتوا ذلك الفرد ، أكثر مما يجوز له هو لو أوتى القوة أن يسكت البشر » ، وما ذلك الا لايقان أولئك المفكرين أن توخى الحقيقة هو سبيل الهداية والرقى وأن التسامح الفكرى والتعاون العقلى لازمان للاهتداء الى الحقيقة .

ليس الحكم المطلق اذن هو وسيلة علاج ما يعانيه المجتمع من متاعب ، وليس نجاح ذلك الحكم فى توطيد أقدامه فى بعض الدول دليلا على صلاحيته وأفضليته على النظام الديمقراطى ، بل هو ثمرة حالة قلاقل اجتماعية واقتصادية أدى اليها التطور الصناعى وزادتها الحرب الماضية تفاقما ، واستغلها الدكتاتوريون الذين لا تخلو منهم حقبة • وليس النزوع عن الديمقراطية الى حكم الفرد الاستبدادى تقدما للمجتمع البشرى بل هو نكسة الى عهود الجهل والخمول ، ولن ينجح الحكم المطلق فى معالجة متاعب المجتمع بل سيزيدها بلاء بشذوذ أساليبه وافتعال وسائله ومجانبته للحق والحرية •

انما وسيلة خلاص العالم من متاعبه الاقتصادية وسبيل رقيه المطرد فى حاضره ومستقبله أن يتشبث بالديمقراطية لا يبغى عنها حولا ويدافع عن الحرية التى نالها بجهاد طويل فى متتالى العصور فان الحرية لا تكسب مرة واحدة ينام بعدها صاحبها ملء جفنيه ، بل يجب أن يظل حياته يدافع عنها • قال جون ستيورات مل : « ان ثمن استبقاء الحرية هو اليقظة الدائمة » ، وقال دانييل وبستر : « ان الله لا يمنح الحرية الا أولئك الذين يحبونها والذين هم على استعداد دائم للدفاع عنها » ، ولن تأمن الحرية يوما ما سطوات المغيرين عليها ، وأكبر أعدائها دوام تطور المجتمع البشرى الذى يستدعى تعديل نظم الحكم من آن الى آن ، فاذا قصرت الديمقراطية فى مماشاة العصر على هذا النحو كانت النتيجة اضطرابات اجتماعية واقتصادية يستغلها المتطلعون الى الاستبداد•

وواجب أبناء الديمقراطيات لذلك تعديل بعض النظم القديمة التى ثبت بطؤها وتخلفها عن حركة العصر ، ومن الآراء القيمة فى هذا الباب أن يرجع البرلمان الى وظيفته الأولى التى كان مقتصرا عليها فى أول أمره : وهى وظيفة الاشراف على شؤون الحكومة وأمور الشعب اشرافا عاما متخليا عن وظيفة التشريع لهيئة خاصة تنهض بذلك ، ثم ان على الديمقراطية أن تنشط فى تنظيم الحالة الاقتصادية أكثر مما نشطت الى الآن ، وفى موازنتها وتخفيف آثار مضاعفتها عن الشعب العاجز عن السيطرة على عواملها المترامية ، فانه ما دامت الحالة الاقتصادية مضطربة فستظل الحالة السياسية كذلك وسيظل الباب مفتوحا للمذاهب المتطرفة وللمغامرين من ذوى المطامع •

ان الديمقراطية هى شكل الحكم الطبيعى المعقول المحالف للعلم والرقى بينما الحكم المطلق يتعسف ويتحدى العلم والتاريخ ويساير

الغريزة والعاطفة العمياء فتغتدى الدولة فى ظل الدكتاتورية غاية فى ذاتها ويعتقد الطغاة أن الفرد خلق لخدمة الدولة ولم تخلق الدولة كما يدل المنطق ويشهد التاريخ لخدمة الفرد ، ومتى كانت الدولة غاية فى نفسها فى نظرهم كان بدهيا أنها خالدة ، وان كان التاريخ يشهد بأنها حلقة فى سلسلة رقى تنقل فيها المجتمع الانسـانى من الأسرة الى القبيلة الى الدولة ، وكان المعقول أن يطرد ذلك الرقى فتأتلف الدول جميعا مكونة الدولة العالمية وقد صار تحقق الدولة العالمية بعد أن تقاربت الأمم وتوثقت علاقاتها وغدت وحدة اقتصـادية أمرا ضروريا لا محيص عنه اذا قدر للمدنية البقاء ٠

والديمقراطية هى التى تمهد السبيل لتحقق الدولة العـالمية ، بما تنشره بين الناس من مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، وبازدهار العلم فى ظلها ازدهارا ينشر النزعة العالمية بين المثقفين شيئا فشيئا ، ويشعرهم بوحدتهم فى الانسانية وبغرور أسباب التعصب والتنابذ ٠ فاذا قدر للدولة العالمية التحقق يوما فلن يكون تحققها على أيدى الغزاة الفاتحين أمثال الاسكندر وقيصر ونابليون وأضرابهم من المحدثين ، انما ستحقق بالوسائل السلمية ، بانتشار النظرة الانسانية الشاملة وتضاؤل التعصب القومى كما تضاءل التعصب الدينى الذى لقيت منه الانسانية صنوف البلاء فى سالف العصور ٠ وفى سبيل هذه النزعة السلمية العالمية قد خطت الديمقراطية الى اليوم خطوات واسعة ٠

ثالثـا : مقـــالات

من فخرى أبو السعود

هتفت فى نفسى حين رأيت هذه الارادة العاقلة ثابتة كأنها الطود الراسخ : والله انه لرجل والرجال فينا قليل ! ... ولم يكن عجيبا أن أقرأ بعد ذلك بأعوام لهذه النفس الجادة الحازمة صرخة توجهها الى « بنى مصر » :

الام تغيب الشمس عنـــا وتطلع ونلعب فى ظل الحياة ونرتع
نهيـــم بهزل لا نهيم بغـــيره ونهرب من جد الحيـــاة ونفزع
ونحجم عن أخطارها وصعابها وتنهبنـــا لذاتهـــا والتمتـــع
وان نبتغ العليـــا ترانا كأنمـــا نســـاق اليها كارهين وندفع
نسير على رسل وللعصر حولنـــا مواكب فى طرق العلا تتدفع

ذلكم هو المرحوم فخرى أبو السعود كما أبصرته أول مرة .

ولكن حبل الصداقة لم يكن قد الف بعد بين قلبينا ، والصداقة الصحيحة تدنو من القلوب خطوة خطوة ، ويساقط نداها فى الأفئدة قطرة قطرة ، فلما انقضى على ذلك الحادث أعوام ثلاثة ، وقفت فى احدى المكتبات أقلب ما أخرجته المطابع من كتب ، فرأيت كتابا عن عرابى زعيم الثورة المصرية قد أخرجه للناس فخرى أبو السعود . أخرجه ذلك الطالب الذى ثار يوما على زملائه الطلاب ، وانه لمصيب وانهم لمخطئون ، وتقرأ الكتاب ، فاذا بالشاب الثائر ينفث على صفحات كتابه شواظا من نار ، فأدناه ذلك من نفسى لما أدركت بين نفسينا من أواصر القربى ، ووالله كم طربت حين قرأت له بعدئذ هذه القصيدة الشماء ، التى أنشدها لقومه يذكرهم بموقعة التل الكبير ، ومنها :

ولم أر يوم التل عابا وسبـــة ولم أره الا أغـــر وأمجـــدا
أنخجل ان قمنـــا نذود عن الحمى ويسحب أذيال الفخار من اعتدى ؟
ســـلام على قيل تولى زمامهـــا أعف الورى قصـــدا وأنقاهم يدا
ستذكره مصر الفتيـــة ما ابتغت لدى الحق عهدا أو لدى المجد موعدا
عسى ذكرنا ــ رغم الهزيمة ــ أحمدا سيبعث فينـــا للغنيمة أحمدا

وانطوت أعوام دراسته ، وكان من الناجحين فى طليعتهم ، ولكنه لم يجد له فى وزارة المعارف مرتزقا ، فاشتغل فى احدى المدارس الحرة عاما ، ثم أراد الله فى ختام العام أن يلمع جوهره من جديد ، فأجريت مسابقة فى اللغة الانجليزية ليبعث بالمتفوقين الى انجلترا ، فكان فخرى من هؤلاء المبعوثين الى جامعة اكستر ، حيث استزاد من اللغة الانجليزية ليقوم بعد عودته بتدريسها .

وهل نتوقع لهذه النفس الشـــاعرة أن تقيم فى أرض الســحر والجمال ، فلا تثور فيها الشاعرية آنا بعد آن ؟ لقد بعث الينا أثناء مقامه هنالك غر القصائد ، يتلو بعضها بعضا .

قال يصف الجو فى انجلترا ، من قصيدة طويلة :

يارب يوم شرود جــاء مزدهيــا	بشمســه ، ونســيم لين عطر
تــلاه آخر رواها وأترعهــا	بوابل مسـتمر الوكف منهمر
فجاء صبح حديد البرد قارسه	يكوى الوجوه بوخز منه كالابر
فجـــاء من بعد صبح أبيض يقق	كاس بثــلج كزغب الطير منتشر
فجاء صبح يلف الأرض فى سدف	من الضــباب كثيف اللون معتكر
يكاد يفتقد الانســـان راحته	اذا تعرض بين الراح والبصر

وقال يصف السحاب فى كمبردج :

مزجى الشـــتاء بخيله وبرجله	والمنذر الدنيا بوشــك ايابه
تســعى جنود البرد تحت جناحه	والريح والاعصار حول ركابه
فاذا سرى برد القلال مخالطا	أجزاءه وانسل فى أعصـــابه
أوهى عراه وفت فى أوصــاله	فانصب ملء السهل فى تسـكابه

وقال يصف الأرض وقد أخذت زخرفها فى الربيع فى اكستر :

من غازل الروض حتى افتر جذلانا	وكان منقبضا بالأمس غضــبانا ؟
وأخرج الزهر من أقصى منــابته	فرصع العشب أشكالا وألوانا
وصــاح بالريح حتى قر ثائرها	الا نســيما بعرف الزهر مــلآنا
وكفكف الغيث فانجابت عوارضــه	وكان لا يأتى هطــلا وتهتــانا
وقشع السحب عن أفق السما فبدا	طلقا وأطلع وجه الشمس ضحيانا

ولم يلبث الشاعر الفرح بما حوله من مباهج الطبيعة أن فجع فى أمه ، فبعث فى رثائها صرخات باكيات ، فقال :

ياليتنى قد كنت حاضر يومهــا	وســعدت قبل رحيلها بتزود
وشــهدت انتهــا بلين مهدها	ورأيت ســكتتها بجافى المرقد

فخـرى أبو السـعود

للأستاذ احمد فتحى مرسى

قضى الأستاذ الشاعر فخرى أبو السـعود ـ طيب الله ثراه وخلد ذكراه ـ فانطوى بموته صديق يعز على الأصدقاء فقده ، وأديب يشق على الأدب رزؤه فيه ، وعالم لن ينساه العلم وان نسى الكثير غيره ، فمن حقه على أن أكتب ، ومن حقه على الرسالة أن يتسع صدرها لما أكتبه عن أديب طالما طلعت علينا بالكثير من آياته وغرره ٠

قال البعض انه مات منتحرا برصاص مسدسه فى لحظة ضيق بعد أن خط هذا البيت على رقعة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثلاثين حولا ـ لا أبالك ـ يسـأم

وقيل انه فقد ولده فى باخرة ترحيل الأطفال الانجليزية التى اغرقها الألمان ، وقيل انه انقطع اتصاله بأسرته فى انجلترا ، وقيل ان فى الأمر جريمة قتل ٠٠٠ الى غير ذلك مما يذيعه الناس فى مثل هذه المناسبات ، اذا عمى عليهم الأمر ووقعوا فى الحيرة ، فذهبوا يتقصصـون الآثار ، وينتحلون العلل ، ويضربون فى الأوهام ٠٠٠ ثم انبرت أسرته تكذب كل ذلك وتقول انه مات برصاصة طائشة من رصـاص مسدسه أثنـاء اصلاحه ٠٠٠ كل ذلك لا شأن لنا به فلقد مات الرجل ـ يرحمه الله ـ وانقضى الأمر ، الا أن ما عرفته فى فخرى طول صحبتى له من صموده للحياة ، وثقته بالله وعدم تطيره من الحادثات ، يجعلنى كثير الشك فيما قيل عن الانتحار ٠٠٠ فقد كنت معه مرة فى معرض الحديث عن مقال فى الانتحار لأديب كبير ، ثم تطرق بنا الحديث الى ذكر فلان من أدباء الشباب ـ وكان فخرى يعجب بأدبه ولا يعرفه ـ وأنه قد حاول الانتحار فى ذلك الحين ، فسخر فخرى منه ، فلما عرضت على فخرى أن أعرفه به أبتسم قائلا : « اننى لا أود أن أعرفه » ٠

* * *

عرفت فخرى أول ما عرفته فى أول عهده بالتدريس فى المدرسـة العباسية الثانوية ، وكان ناظرها فى ذلك العهد الأستاذ عبد الرحمن

شكرى · قدمنى اليه صديق ، فخلت بادىء ذى بدء ، أنه أحد الطلبة ، فقد كان ــ رحمه الله ــ ضئيل الجسم ، قصير القامة ، قليل الكلام ، شديد الخجل ، لا تبدو عليه سنه ، فلما قدمه الصديق الى ، خلت أنه هازل لا جاد ، أو أنه ربما اشـــتبه عليه الاسم ــ فكثيرا ما تتشـــابه الأسماء ــ ، وساعد على ذلك أن الصورة التى كنت رسمتها لفخرى فى ذهنى ــ من المطالعة ــ تتباين مع ما أراه جد التباين ، فسلمت عليه فى فتور ووناء ، ثم انه كان قليل الكلام ــ كما قدمت ــ فتوهمت أن ذلك قلة مبالاة ، فقابلته بالمثل ، فكانت مقابلة جافية أسرها لى فخرى ، وعتب على بعد ذلك بزمن ·

ثم مضت الأيام فذهبت اليه فى بعض الشأن ، وكنت قد نشرت قصيدة بجريدة الأهرام بعنوان « الصباح » فقابلنى مقابلة طيبـــة ، وجلسنا نتحدث عن القصيدة ، ثم عن الشعر فى مصر ، ثم قرأ لى قصيدة عنوانها « نجوم السينما » كان يعدها للرسالة ، وأهدى الى كتابه عن الثورة العرابية ، ··· ثم تكررت المقابلات بعد ذلك ، واتصلت بيننا أسباب المودة ، فكنا نلتقى فى أكثر الأيام ·

نقل فخرى بعد ذلك الى الرمل الثانوية ، وتركت أنا الاسكندرية ، ثم عدنا فالتقينا فى الاسكندرية بعد ذلك بعام ، وكنت قد اتصـــلت بالرسالة ، وكان قد بدأ يكتب فيها سلسلة مقالاته عن المقارنة بين الأدبين العربى والانجليزى ، فأثارت اهتمام كثير من الأدباء ، وقد أبدى لى الأستاذ الزيات اعجابه بها أكثر من مرة ، وكتب الى فخرى يقول فى ختام خطاب له ــ أطلعنى عليه فخرى ــ : « فأستزيدك ، ثم أستزيدك ، ثم أستزيدك » · وكان فى نية الأستاذ الزيات طبع هذه المقالات بعد اتمامها ، ولكن فخرى لم يتمها ·

ظهرت بعد ذلك مجلة الرواية ، وبعد ظهورها بنحو عام وقعت جفوة بين فخرى وبين الزيات أدت الى قطع هذه المقالات ، وانقطاع فخرى عن الرسالة ··· قابلته بعد ذلك بحين فشكا لى شيئا من ركود الذهن بعد انقطاعه عن الرسالة ، وقال لى انه شديد الخجل لأن الأستاذ الزيات ما زال يرسل اليه مجلتى « الرسالة » و « الرواية » فى حين أنه لا يؤدى له أية خدمة نظير ذلك ···

وظهرت فى ذلك الحين مسابقة وزارة المعارف فى التأليف ، فعرض على بعض ما كتبه · وكان ــ رحمة الله عليه ــ كثير الشك فى الفوز ،

فطمأنته ورجوته أن يتم ما بدأ ، فأتمه — وأظنه فاز بجائزتين — ، ثم انقطع حينا عن الكتابة وانصرف الى القراءة ، وكنت ألقاه في ذلك الوقت كل يوم تقريبا ، فنمضى سيرا على الأقدام في طريق « الكورنيش » ، ويمتد بنا الحديث في الأدب والجدل أحيانا حتى نجد أنفسنا في جهة لم نكن نقصدها ، وكثيرا ما كان يشغلنا الحديث حتى نقطع فى السير مسافات بعيدة دون أن ننتبه ، فقد كان رحمه الله يؤثر السير على الجلوس ، وكان شديد النفور من المجتمعات ولا أذكر أننى رأيته مرة فى مقهى أو منتدى ، ولعل ذلك هو السبب ، فى سعة اطلاعه ، ووفرة انتاجه ، فكان يقسم فراغه بين التريض والقراءة ، والكتابة · والظاهر أن ذلك يرجع الى طبيعته الهادئة ، فقد كان يكره الضجة ، ويتجنب الناس · وكان منزله فى بقعة هادئة من رمل الاسكندرية ، وحتى طفله يبدو لى أنه ورث عنه هذه الميزة ، فكان ينفر من الغريب ، ويبتعد عن الناس ، أذكر أنه تركه معى مرة وذهب لبعض شأنه ، فجعل الطفل يصرخ ويبكى ويتملص منى ليجرى ، وعبثا حاولت تهدئته ولكنه لم يهدأ حتى عاد والده فسار الى جانبه مبتعدا عنى ·

* * *

ولا أود أن أختم هذه الالمامة قبل أن أشير الى دراسة فخرى واتجاهه فى الأدب ، فقد تخرج فى المعلمين العليا واشتغل بعض عام بالصحافة ، ثم اختارته وزارة المعارف فى بعثة لها فتخرج فى جامعة اكسترا فى انجلترا — وهناك تزوج من زميلة انجليزية له فى الدراسة — فلما عاد اشتغل بالتدريس فى المدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية . وكان فخرى — رحمه الله — كما علمت منه مكبا على القراءة من صغره ، ولا سيما قراءة القديم ، حتى أوشك أن يستظهر كتبا بأكملها ، ويظهر ذلك جليا فى أسلوبه ، فتمتاز كتابته بقوة الأسلوب وجزالة الألفاظ · كذلك تبدو فى شعره محاولة تقليد القدماء ، وقد تأثر فى هذا بالبارودى ، وكان يحفظ جل ديوانه ومختاراته · وكان يؤثر من الشعراء القدماء أبا تمام وبعض شعراء الجاهلية لا سيما طرفة بن العبد · كل هذه الدراسات القديمة كان لها أثر واضح فى شعره لا يخفى على قارئه ، وكان يختار منها أكثر شواهده فى مقارنته بين الأدبين العربى ، والانجليزى · وكان يؤثر العقاد على شوقى وحافظ ، وكثيرا ما قام بيننا جدال طويل فى ذلك · وكان رحمه الله ينظم الشعر فى سيره فتراه يغمغم فى سيره بكلام لا تستبينه لانخفاض صوته ، حتى اذا جلس كتب ما قال ، ولا يزال كذلك حتى يتم القصيدة ·

وهناك ناحية تجب الاشارة اليها هنا وهى ضيق صدره بالنقد ، وان كان سلم منه فى الصحف ، وكثيرا ما كنت آخذ عليه ذلك · حدث مرة أن عثرت له على بعض أخطاء فى نسبة الشواهد ، وعلى هنة لغوية فى قصيدة له ، وكان فى ذلك العهد يقضى الصيف بانجلترا ، فانتظرته حتى عـاد فنبهته لذلك فغضـب منى ، ودعانى فى اليوم التـالى وقد جمع لى بعض ما كتبت فى الرسالة وجعل ينتقد لى بعض المعانى حتى يرد على بالمثل ·

وقد نشر فخرى القسط الأكبر من كتابته بمجلة الرسالة ، واتصل فى أواخر أيامه بمجلة الثقافة وجعل يكتب بها حتى توفاه الله وفيما عدا ذلك له متفرقات بجريدة الأهرام والهلال وغيرهما من الصحف : هذا غير كتابيه (الثورة العرابية) وقصة (تيس) ·

***

رحمك الله يا فخرى ، وأجمل عزاء الأدب فيك ، ولطف بأصدقائك وعارفيك · فقد كنت نعم الأديب ونعم الصديق ···

هذا بعض حقك على ، أرجو أن تجد لى العذر ان كنت قد قصرت فيه أو اخطأت ، فان الحزن يغالب خاطرى وذاكرتى كلما أمسكت القلم لأكتب عنك ، أو أنا كما يقول شوقى :

رثيتـــك لا مالكـــا خاطـرى   من الحزن الا قليـــلا خطـــر
ســـقتك الدمـــوع فان لـم يدمن   كعـــادتهن ســـقاك المطر

شعر التصوير والعاطفة

عند فخرى أبو السعود

بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

كان للمرحوم فخرى أبو السعود شعر لا شك أن قراء الهلال والمقتطف والرسالة والثقافة قرءوه ، واستمتعوا بما فيه من لذة وجمال . فهو شعر سائغ المعنى ، سائغ العبارة . وكل سائغ من المعانى والألفاظ يختلب اليه الألباب ، ويجذب اليه القراء .

ولا شك أن (فخرى) قال الشعر وهو طالب بمدرسة المعلمين العالية . ولا شك أن هذا الشعر كان ككل محاولة يتصدى لها من كشف فى قرارة نفسه عن موهبة شاعرية أودعها الله فيه .

فلم يكن شعره أول الأمر قويا ، ولا أخاذا ، ولم يكن حافلا بالمعانى التى تتكاثر بالقراءة ، وتتزاحم بالمطالعة ، وتزيدها التجارب فى الحياة والاختلاط بالناس ، والاندماج فى البيئات المختلفة والأوساط المتباينة .

ولكن الشاعر يولد ومعه مغزفه .. فهو يعالجه بالنغم ، ويراوحه ويغاديه من حين الى حين بالمحاولة حتى تتم له الأداة ، وتستوفى له العدة ، فيدهش الناس بالمطرب من الأنغام والعلوى من الالهام ، والقدسى من الترجيع ، والمبدع من التوقيع .

وهكذا كان فخرى أبو السعود ـ رحمه الله ـ فقد رزق المعزف ، ووهب الناى ، وأعطى القيثارة الخالدة لينقر عليها الفعال نفسه ، ورقة حسه ، وينقل على أوتارها تموجات مما يجيش فى صدره ويعتلج فى نفسه ، ويطبع عليها مرائى لحظه ، ومشاهد بصره ، فينقلها فى أمانة ودقة ، واحكام وضبط ، حتى لا تكاد تفلت من مرائيه شاردة ولا واردة .

وسبيل الشاعر الى اجادة الشعر ، واتقان التصوير هو احساسه وعينه ، ولقد كان حظ فخرى منهما عظيما ، ونصيبه وافيا ، وقد شاهدت ذلك منه رأى العين ونحن فى واد ضيق من وديان انجلترا الجنوبية الغربية ، تنبسط على جانبيه سهول فيها النجد وفيها الغور ، وفيها

السهل وفيها الحزن(*) ، وتلونها شيات شتى من ألوان أبدع الله تصويرها، وأجمل تقديرها .

وفى هـذه البقـاع الجميلة كل الجمال ، الفاتنة كل الفتون كان يستريح فخرى من عنـاء الدرس ليسـلم نفسه الى الطبيعة المرحة حينا ، العابسة أحيانا ، لينتزع منها سرها ، ويستوحيها خبيئة نفسها ، ومستكن فؤادها ..

وهو لا يكتفى الى ما يراه بالنظرة العاجلة ، أو الرؤية الخاطفة ، ولو كان كذلك ما رأينا فى شعره النظر العميق ، والفكرة البعيدة ، والمعانى الذاهبة الى أعماق بعيدة الغور .

وهو حين يصور الطبيعة أو يصف منظرا من مناظرها يوفى الوصف حقه ، ويعطى الصورة ثوبها الحقيقى ، فيخيل اليك وأنت تقرأ شعره أنك تنظر الى لوحة من صنع رسام ماهر ، ويخيل اليك ـ فى غير مبالغة ـ أنك تسمع الشجر اذا حف ، والأقحوان اذا رف ... والندى اذا تقاطر ، والطير اذا تهامس ، والبحر اذا تلاطم ، والركام اذا تصادم ... ويخيل اليك أنك تشم العطر اذا تأرج ، والياسمين اذا تنفس .

وهل هناك صورة للياسمين أصدق من الصورة التى حلاه فيها فخرى بقلمه الجميل :

ندى المحيـا اذا الصبح لاح … وقـد طل ليـلا وقد نضـرا
كـأن أزاهـره بسـمات … يلاقى بهـا العـين مستبشرا
ونعم السـمير اذا الليـل جن … ولاحت بعيـدا نجـوم السرى
اذا بث فى الليـل أنفاسـه … وعطـر فى الجـو مـا عطـرا
دعانى أن أقضى الليـل طـرا … ثـواء لديـه وأن أسـهرا

★★★

(*) الحزن (بفتحتين) : ما غلظ من الأرض والجمع : الحزون .

ثم يصف رقة الياسمين ، ووشك ذهابه ، وسرعة انفراطه ، فيقول :

وشـــيك الذهـــاب اذا نظمـــه تكـــامل أوشـــك أن ينثـــرا
أعـــد ضـــحاياه فى كـــل يـــوم وتـــوعا هـــوامد فـــوق الثرى

فأى صورة أرق من صورة الياسمين وهو متناثر على الارض ، مبعثر العقد ، بعد أن كان يزين الجدار فى عقد منتظم وشمل ملتئم ؟

***

وله فى الجبال أبيات ستظل خالدة فى الشعر التصويرى العربى ، لأن قليلا هم الذين صوروا الجبال ، واحتفوا بأن يقفوا أمامها لحظات ـ طالت أم قصرت ـ ليستشعروا ضآلتهم بالنسبة الى عظمتها ، ويحسوا أنهم أقزام بالنسبة الى جسمها المارد ، وعلوها الباسق ، ويلتمسوا فى قننها المرتفعة ، وقممها المتقلدة من وشاح النجوم ، ارتفاع النفس عن صغائر الدنيا وسفاسف الحياة ... ويحاولوا أن يستلبوا منها سر الوجود ، واكتناه المصير الذى أعيا عليها ، فمضت السنون وهى بكم لا تبين ، وصم لا تسمع .

اسمعه يقول فى الجبال الشواهق :

قامت سوامق فى الفضـــاء وفوقها من يانع الأدواح ســـام ســـامق
وتفردت فى وحـــــدة فكأنهـــــا لما تلاقت فى الخـــلاء أصـــادق
وكأنهـــن مـــن الأنيس نوافـــر أو من ضجيج الحـاضرات أوابق

ويصف الروابى المتســـامية ، وقد حجبت الأفق ، وأشرفت على الكواكب :

قلل تســـامت فى الجواء وحجبت أفـق الســماء الى الكواكب تومى
أنى رفعت الطـــرف قصر شـــأوه اشراف مرفوع الســـموت جسيم
وكأن خطوى فى دروب وعورهـــا نمـــل يـــدب على سراة أديـــم

ثم يصف وحدته فى تلك الروابى واستيحاشها منه ، وانكارها هيئته :

وكأنمـــا أنـــكرت ظـاهر هيئتى وكأنمـــا قـــد راعهـــن قـــدومى
وأنا أغمغم بينهـــا بقصـــيدة عربيـــة الألفـــاظ والتنغيـم

ويخلص من ذلك الى حنينه الى حرارة وطنه ، ووهج شمسه فى أبيات رقيقة ·

***

ولقد زار الشاعر مرة حديقة الحيوان ، فأوحت اليه بقصيدة رائعة، أحسن فيها التصوير ، وأحسن الفلسفة ، وكشف فيها عن معانى الرحمة والحب التى كانت تفيض وتضرب بين أحناء نفسه · أما حسن تصويره فلأنه أخرج لنا فى القصيدة لوحة جامعة لحديقة الحيوان ، لا يستطيع أى رسام أن يأتى لنا بها مجموعة فى لوحة واحدة ، فهنا عرين الأسد ، وأسراب الطير الملونة ، وأوكار الثعابين الرقش ، وجماعات الظباء ، قد تجاورت فى غير عداوة ، وألفت بينها مرارة السجن ووحشة الغربة :

تجاورت الأعـــداء لا حرب بينهـــا وكف أذى نـــاب وشرة مخـــلب
وفل شـــبا ثاراتهـــا وحقودها على رغم طبع فى النفوس مركب
حوتهـــا جميعا غـربة لا ترى لها ايابا اذا ما آب كـــل مغـــرب

ثم يتفلسف بعد هذا وينتهى الى قوله :

وكم من ضعيف آمن السرب وادع دهتـــه دواهى الراصـــد المترقب
وكم من رضيع ليس بالدافع الأذى يفـــرق من أم حنـــون ومن أب
شرائع سنتها الحيـــاة لأهلهـــا ومن عف عن تلك المآكل يسـغب

***

وله قصيدة عنوانها السفينة ، أجاد فيها الوصف ، وأحكم الصورة · وكان رقيقا جدا حين صور وقفة الوداع والرحيل فى قوله :

يودعهـــا بالشـــط حرى جوانح ويرقبهـــا فى البعد أفئدة جـذلى
فمن راحل بالشـــط غادر أهـله الى راكب قد يمم الصحب والأهلا
ولما قضـــوا حق العناق وكفكفوا غـــوارب دمع أو أذالوه فانهـــلا
وأرسل بالقبلات فى الجو مرسل ولوح بالمنـــديل آخر مخضـــلا
تهـــادت بأهليهـــا تشـــق طريقهـــا من اليم لم تنكل ولا استثقلت ثقلا

ثم يصف النار التى تدفعها وعقل الربان الذى يدبرها بقوله :

يخوض بهـا فى بارد المـاء جاحم — من النار تصلى منه أحشاؤها مهلا
يدبرها فى رأس جؤجؤهـا امرؤ — خبير بأوضـاع الطريق فما ضلا

★★★

ومن صوره الفكهة الصادقة صورة فتى أعمى ينغم فى القرآن ، ويرجع الأنفـاس به ، وهو يدير يديه على عارضـيه ، وكلما زاده السامعون استحسانا زادهم من حركاته ونغماته ، ورفع صوته · يقول فيهـا :

ففى حلقومه نـاى رخيـم — تخف النفس من طـرب اليـه
اذا ما رجـع الأنفـاس فيـه — وقـد دارت يـداه بعارضـيه
سـما بك صوته صـعدا وألقى — اليـه الحفل طرا مسـمعيه !
اذا زادوه مدحـا زاد زهـوا — وهـز من التخـايل منكبيـه
ومـال ترنحـا يمنى ويسرى — وصـعر فى التنغم أخدعيـه ··

★★★

لقد كان فخرى أبو السـعود شـاعرا حسن التصـوير ، زاهى الالوان · وصف الطبيعة ووقف قلمه عليها ، فأبدع الأداء وأحسن الوصف · ومن الغريب أنك لا تعثر فى شعره المبعثر هنا وهناك الا على القليل جدا من الشعر الغزلى ، أما المدايح فقد حاوله مرة أو مرتين فى جريدة الأهرام ، ولكنه سكت عنه سكوتا تاما ، كما يسكت اليوم سكتته الأبدية ···

ملحق بأسماء وتواريخ وأمكان نشر المقالات

مقالات فى الأدب المقارن لمجلة الرسالة

فى العدد (٤١) ١٩٣٤

الأدب العربى والأدب الغربى

فى العدد (٤٤) ١٩٣٤

التصور فى الشعر العربى

فى العدد (٤٩) ١٩٣٤

الأثر اليونانى فى الأدب العربى

فى العدد (٥٢) ١٩٣٤

القصة فى الأدب العربى

فى العدد (٨٠) ١٩٣٥

ظواهر متماثلة فى تاريخ الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (٨٣) ١٩٣٥

النزعة العملية فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٦٨) ١٩٣٦

الأثر الأجنبى فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٦٩) ١٩٣٦

طور الثقافة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٠) ١٩٣٦

الفكاهة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧١) ١٩٣٦

أسباب النباهة والخمول فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٢) ١٩٣٦

الطبيعة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٣) ١٩٣٦

أثر الدين فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٣) ١٩٣٦

أثر الدين فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٤) ١٩٣٦

الخرافة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٥) ١٩٣٦

أثر الفنون فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٦) ١٩٣٦

شخصيات الأدباء فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٧) ١٩٣٦

أثر البيئة فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٨) ١٩٣٦

النقد فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٧٩) ١٩٣٦

أثر نظام الحكم فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٨١) ١٩٣٦

عرض الأدب فى الأدبين العربى والانجليزى

فى العدد (١٨٢) ١٩٣٦

أثر الترف فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٨) ١٩٣٧

القصص فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٩) ١٩٣٧

أثر المجتمع فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٠) ١٩٣٧

الوصف فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠١) ١٩٣٧

الخيال فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٢) ١٩٣٧

التاريخ فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٣) ١٩٣٧

بيئات الأدباء فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٤) ١٩٣٧

المعنى والأسلوب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٥) ١٩٣٧

أثر الأخلاق فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٦) ١٩٣٧

أثر المرأة فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٧) ١٩٣٧

الحكمة فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (٢٠٨) ١٩٣٧

التشابه والاختلاف فى الأدبين العربى والانجليزى

مقالة فى يناير ١٩٣٧

أشكال الأدب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٦) ١٩٣٧

الأدب العامى فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٧) ١٩٣٧

الانسان فى الأدبين العربى والانجيزى

العدد (١٨٨) ١٩٣٧

التفاؤل والتشاؤم فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٨٩) ١٩٣٧

البطولة فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩١) ١٩٣٧

موضوعات الأدب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٢) ١٩٣٧

الرومانسية والكلاسيكية فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٣) ١٩٣٧

الحرب فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٤) ١٩٣٧

الطير والحيوان فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٥) ١٩٣٧

الذاتى والموضوعى فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٦) ١٩٣٧

الشعر والنثر فى الأدبين العربى والانجليزى

العدد (١٩٧) ١٩٣٧

الطور الفنى فى الأدبين العربى والانجليزى

مقالات مجلة الثقافة

العدد (٣٠) ١٩٣٩

تشسترتون زعيم الرجعية فى عصر التطور

العدد (٦٢) ١٩٣٩

الفن يعيد نفسه

العدد (٦٨) ١٩٣٩

السياسة فى الأدب العربى

العدد (٧٨) ١٩٤٠

فن الحياة

العدد (٨١) ١٩٤٠

الأجناس والقوميات بين العواطف الوطنية والحقائق العلمية

العدد (٩١) ١٩٤٠

علم السياسة عند العرب

العدد (٩٥) ١٩٤٠

المرأة فى المجتمع

العدد (٩٩) ١٩٤٠

الجناة يحاكمون الأبرياء

مقالات مجلة الهلال

العدد لشهر يونية ١٩٣٨

أبو العلاء بين شعراء العربية

العدد لشهر ابريل ١٩٤٠

تطور فكرة السلام العالمى

العدد لشهر يونية ١٩٤٠

المثل الأعلى للدولة الحديثة

العدد لشهر ابريل ١٩٤١

الديمقراطية ضمان الرقى الانسانى

مقالات عن فخرى أبو السعود

عدد ٢٩ أكتوبر ١٩٤٠

مقالة زكي نجيب محمود — مجلة الثقافة

(أديب مات)

عدد نوفمبر ١٩٤٠

مقالة أحمد فتحى مرسى — مجلة الرسالة

(فخرى أبو السعود)

عدد نوفمبر ١٩٤٠

مقالة عبد الغنى حسن — مجلة الثقافة

(شعر التصوير والعاطفة عند فخرى أبو السعود)

اقـرا فى هـذه السلسـلة

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

انطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكي ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوي
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية

رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. انور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

والت وتيمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي

الان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامي عبد المعطي
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

د. موريل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمي المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون
٢ جـ

روى روبرتسون
الهيروين والايدز واثرهما في المجتمع

دور كاس ماكليمونت
صور افريقية : نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د. محمود سري طه
الكومبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لوري
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
وظائف الأعضاء في الألف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني

جون ر. بورر وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الاغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م. هـ. كنج واخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد ابو سديرة
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان هـ
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الأساطير الاغريقية والرومانية

د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسي - تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة ،
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل البيبليوجرافي
روائع الآداب العالمية ج ١

روى آرمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

ناجاي متشيو
الثورة الاصلاحية في اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل ابي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

ادامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الأوركسترالي

ابو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور وشين ين .نج وآخرون
مختارات من الآداب الأسيوية

ناصر خسرو علوي
سفرنامة

نادين جورديمر وجبريس اوجو. وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني
٧ ج

جان لويس بوري وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

العثمانيون في اوربا
بول كولز

موريس بير برلير
صناع الخلود

زيجمونت هبز
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلي سميث
الحملة الصليبية الاولى وفكرة
الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة
مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكوللز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
النقد السينمائي الامريكي

نقالى لويس
مصر الرومانية

سيفن رونسيمان
التاريخ من شتى جوانبه ٣ج

نوري سراج الواحدي
السينما العربيه من الخليج الى
المحيط

فانس بكارد
لهم يصنعون البشر

سابر محمد الجزيري
ماستريخت

ابرار كريم الله
من هم التتار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه
٢ جـ

موريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهنديه

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى الف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية
٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل واخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بادى اونيمود
افريقيا ـ الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برونسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

ادم متز
الحضارة الاسلاميه

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايمرى شامونس
كوننا المتمدد

سوندارو
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجيرن
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على
للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ويليام هـ. ماثيور
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى
٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيلم الأمريكى

هارى ب. ناش
الحمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الافلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف نيدهام
موجز تاريخ العلم والحضارة
فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ج. هـ. جيمس
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحله ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

سعيد شلبى
نظرية الادب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وافاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم افضل

نورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم
والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتي

ممدوح عطية
البرنامج النووي الإسرائيلي والأمن القومي العربي

أ. بوبوف . ألما
الحب

إيفور إيفانس
مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بيير
معجم التكنولوجيا الحيوية

ألفين توفلر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء في خدمة الإنسان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جورج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
أنطون بروكنر

ازرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولمز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنري برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهاري فيلدمان
ديناميكية الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
في المعرفة التاريخية

ك. أ. كتشن
رمسيس الثاني

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمي

روزالند م. وجاك ج. جانسن
الطفل المصري القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميجيل دي ليبس
الفئران

جوسيبي دي لونا
موسوليني

ألفرد أينشتين
موتسارت

علي عبد الرؤوف البمبي
مختارات من الشعر الإسباني

روبرت سكولز وآخرون
آفاق أدب الخيال العلمي

ب. س. ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

[illegible]
أشهر الرحلات إلى غرب إفريقيا

و. بارتولد
تاريخ الترك في آسيا الوسطى

[illegible]
تاريخ أوروبا الشرقية

[illegible]
الجغرافيا في مائة عام

هنري برجسون
الضحك

مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م. و. ثرنج
ضمير المهندس

أ. ر. جرني
الحيثيون

سبتينو موسكاتي
الحضارات السامية

د. ألبرت حوراني
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الأدب العربي المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٩٦٦٧

ISBN — 977 — 01 — 5409 — 1